محمد متولي الشعراوي



هذا ديننا

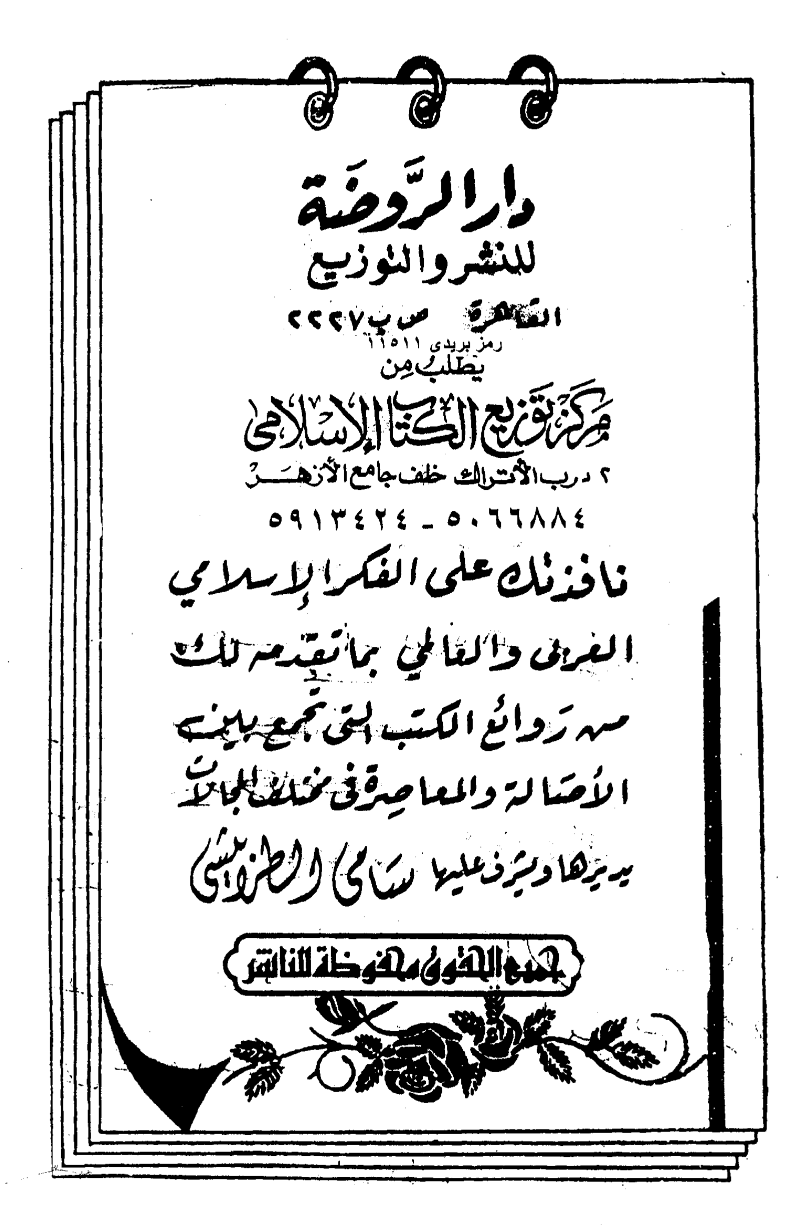
ما يجب أن يعرفه المسلم

عن

الإسلام الإيمان

الإعتقاد اليوم الآخر

دار الروضة
للنشر والتوزيع



رقم الإيداع ٢٠٦٨٣ / ٢٠٠٤

كلمة الناشر

إن الحياة الأمم والشعوب تُقاس بمدى إسهام أفرادهـا فى إحياء مجتمعاتها وإنقاذها من براثن الجهل والتخلف والتنطع فى الدين والتطرف .

لذلك كان العلماء الهادون هـم مصابيح الهـدى ومنارات النور التـى تهدى الحائرين فى ظلمات الليل وسط تلاطم أمواج الشبهات والشهوات .

فالعلماء الهادون المرشدون هم ربابنـة سفينتنا وسط موكب الحضارة الذى يعج بقيم وأخلاق شـتى ، قد سيطرت المادة والنفعية والمصلـحة الشخصية ، دون النظر إلى أخلاقيات أو قيم معنوية روحية .

والشيـخ « محمد متولى الشعراوى » هو واحد مـن هؤلاء العلمـاء الأئمة المهتديـن ، الذين فاض عطاؤهـم ، فانار سبيل الهـدى بكتاب الله النور المـبين وسنة المصطفى الهادى ﷺ ، وفهْم الصحابة رضوان الله عليهم .

و « دار الروضة » تنشر تـراث الشـيخ « محمد متولى الشعراوى » رحمه الله ، انطـلاقًا من نـشر تراث هذا الـداعية الإسـلامى الذى نـهل من علـمه القـاصى والدانى ، فى مصر وخارج مصر ، فكان علامة مضيئة فى عالم الدعوة إلى الله .

وقـد سـبق لـ « **دار الروضـة** » أن نشـرت لفـضـيلة الشـيـخ سلسلة «**الأحاديث القدسية** » ، وهى سلسلة غير مسبوقة لاقتْ نجاحاً كـبيرًا ، من إعداد وتحقيق الأستاذ « **عادل أبو المعاطى** » ، وكان ذلك فى حيـاة الشيخ رحمه الله .

ونحن إذ نواصل نشر عطاءات الشيخ وفيوضـاته نقدم لقرائنا وأحباء الشيخ الجليل سلسلة « **هذا ديننا** » .

جزى الله الشيخ الجليل عَـنَّا خير الجـزاء ، ونفعنا الله بعلمه وإشاراته ولمحاته النورانية .

دار الروضة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

إن تراث الشيخ « محمد متولى الشعراوى » تراث زاخر بشتى فنون العلم ، مما يُعَدُّ موسوعة فى حَدِّ ذاته ، فأنت تجد فيه تفسير كتاب الله ، وشرح أحاديث نبوية ، وأخرى قدسية ، وتجد فيه السيرة والفقه والبلاغة والنحو والشعر ، وتجد فيه أصول الفقه ، وعلوم القرآن .

لذلك كان لا بد من تدوين هذا التراث ، وتصنيفه واستنباط موضوعات منه تضع القارئ أمام مواقع ومواضع موضوع بعينه يهمه ويهم كل المسلمين ، قد لا يستطيع تحصيله إذا استمع إلى تراث الشيخ المسموع من الشرائط .

وتدوين هذا التراث وإعداده وتحقيقه بصورة علمية منهجية ، مع المحافظة على روح الشيخ والإطار الدَّعَوى الذى حاط به كلامه ، فجاء عِقْدًا منظوماً ، وكذلك الحفاظ على آرائه التى نذر نفسه لها ، أو قُلْ لم يتخل عنها ، مثل : حرمة زرع الأعضاء البشرية ، سواء بالتبرع أو بالبيع ، وكذلك رأيه فى أن آزر المذكور فى القرآن هو عم إبراهيم وليس أباه .

فالأمانة العلمية تقتضينا أن نحافظ على هذه الآراء .

ونقطة أخرى تؤكد أهمية تدوين تراث الشيخ رحمه الله ، هى ملاحظة كانت دائمًا تثير تساؤلات الباحثين .

فالملاحظ أننا فى مصر قد احتفلنا كل الاحتفال بالمذاهب الفقهية التى جاءتنا من أقطار إسلامية أخرى مثل المدينة وبغداد ، فاهتممنا بالمذهب الشافعى والحنبلى والمالكى والحنفى كل الاهتمام .

مع أن « الليث بن سعد » ذلك الفقيه المصرى كان صاحب مذهب ، وصاحب فضل كبير على أصحاب المذاهب الأخرى ، ولكن تراثه ـ وهذه هى النقطة المهمة ـ لم يجد تلاميذ يتبنون هذا الفقه وهذا المذهب وهذا المنهج ، ولذلك لم نجده بين المذاهب الأربعة الرئيسية .

فتلاميذ الأئمة الأربعة توافروا على تراث أئمتهم دراسة وشرحًا وتفصيلاً وتفريعًا للمسائل وتلخيصًا وتدقيقًا .

فكانت النتيجة أن قويت هذه المذاهب ، وانتشر علمها فى الآفاق ، حتى أن الشافعى « رحمه الله » كان له مذهبه القديم فى العراق ، ولكنه عندما جاء إلى مصر وجد أن عند المصريين علماً وحديثًا لم يصل إلى علمه ، فأنشأ مذهبه الجديد فى مصر ، وهو الذى استقر عليه ، وجمعه تلميذ من تلامذته فى كتاب « الأم » .

إن تراث فضيلة الشيخ « محمد متولى الشعراوى » بحاجة إلى نفس هذا المنهج من توافر التلاميذ على كلامه وأحاديثه لتدوينها وإعدادها وتحقيقها تحقيقًا علميًا .

وهذه السـلسة « **هذا ديننا** » تاتى فى هذا الإطار ، وتسيـر على هذا النهج العلمى ، مع الوعى التام بالنظرة الشاملة التى علَّمنا إياها فضيلة الشيخ « **محمد متولى الشعراوى** » ، وهى نظرة الـقرآن الكـريم لمعطـيات الكون ، ومـتـطلبات العـبوديـة ، ومرتـكزات الأخـلاق القويمـة ، ومبـادئ الديـن الحنـيف ، مـع الأخذ بمعطيات العلوم المعاصرة .

والله من وراء القصد ..

وربُّ العزة سـبحانه قال عن المـطعمين الطعـامَ على حبه مـسكينًا ويتـيمًا وأسيرًا ، دون إنتظار لجزاء أو شكر من العباد :

﴿ إنما نطعمـكم لوجه الله لا نريد منكم جـزاء ولا شكورًا [٩] ﴾ (الإنسان)

فما بـالك بَمنْ يـطعم القلـوب والأرواح والعقول والأسـماع ،الأبصار زادًا نـورانيًا جرى على لسان داعية ،نحسبه أخلص لله دعوته .

إنما نحن أسباب فقط هيّاها الله لخدمـة هذا التراث ، عسى أن يجعله الله فى ميزان حسناتنا ...

إعداد وتحقيق
لجنة التراث بـ « دار الروضة »

(١) ... عَطَاءُ الرُّبُوبِيَّة

الحق سبحانه لا يحرم خَلْقاً من خَلْقه من عطاء ربوبيته (١)، فالشمس تشرق على المؤمن والكافر، والمطر ينزل على من قال لا إله إلا الله ومَنْ ستر وجوده تعالى. والهواء يتنفسه ذلك الذى يُقيم الصلاة، والذى لم يركع ركعة فى حياته، والطعام يأكله الذى يحب الله والذى يكفر بنعم الله.

ذلك أن هذه عطاءات ربوبية، يعطيها الله تعالى لكل خلقه فى الدنيا، أما عطاءات الألوهية (٢) فهى للمؤمنين فى الدنيا والآخرة.

فالله سبحانه وتعالى يلفت انتباه خلقه إلى أن عطاء الربوبية من الله سبحانه وتعالى لهم يكفى ليؤمنوا بالله ويعبدوه.

والحق سبحانه وتعالى حينما يخاطب الناس فى القرآن الكريم، ذلك

---

(١) رب كل شىء: مالكه. والرب يُطلق فى اللغة على: المالك والسيد والمدبِّر والقيِّم والمنعم. والعباد مربوبون لله عز وجل أى مملوكون له. [لسان العرب ـ مادة: ربب]

(٢) الإلاهة والألوهة والألوهية: العبادة. وقيل فى اسم البارى سبحانه: إنه مأخوذ من أله يأله إذا تحيَّر، فإن العقول تأله فى عظمته، وأله يأله أى تحيَّر، والتأله: التنسك والتعبد. والتأليه: التعبيد [لسان العرب – مادة: أله]

الكتاب الذى لا يأتيه [1] الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، فلا بُدَّ أن يكون الخطاب للناس فى كل زمان ومكان ، منذ نزول القرآن الكريم إلى يوم القيامة.

وخطاب الله سبحانه وتعالى خاصٌ بقضية الإيمان فى القمة ، وهى الخضوع لإله واحد لا شريك له ، فالعبادة خضوع لله سبحانه بمنهجه «افعل» و «لاتفعل» يقول الحق سبحانه :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٢١) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٢) ﴾ (البقرة)

وقد قرن الحق سبحانه هنا بين العبادة والخلق ، فالحق سبحانه خلقنا فى الحياة لنعبده ، مصداقاً لقوله تبارك وتعالى:

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ [2] وَالإِنسَ [3] إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ (٥٦) ﴾ (الذاريات)

---

(١) قال تعالى عن القرآن أنه : ﴿ لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ (٤٢) ﴾ (فصلت) والإتيان : المجيء. أتيته : جئته. قال القرطبى فى تفسيره (٩/ ٦٠٣٣): «أى: لا يكذبه شيء مما أنزل الله من قبل ، ولا ينزل من بعده كتاب يبطله وينسخه . قاله الكلبى ».

(٢) جَنَّ الشيء يجنُّه جَناً : ستره . وكل شئ سُتر عنك فقد جُنَّ عنك . وبه سمى الجن لاستتارهم واختفائهم عن الأبصار . ومنه سمى الجنين لاستتاره فى بطن أمه . قال ابن سيده : الجن نوع من العالم سمّوا بذلك لاجتنانهم عن الأبصار ، ولأنهم استجنُّوا من الناس فلا يُرَوْن . قال رب العزة عن الشيطان ﴿ إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ .. (٢٧) ﴾ (الأعراف) .

(٣) الإنس : جماعة الناس ، والجمع أُناس . والإنس : البشر . وآنس الشيء واستأنسه : رآه وأبصره ونظر إليه . قال الأزهرى : أصل الإنس والإنسى والإنسان من الإيناس ، وهو الإبصار . وقيل للإنس إنس لأنهم يؤنسون أى يُبصرون . [لسان العرب ـ مادة : أنس بتصرف]

إذن : فَعلّة الخَلْق هى العبادة ، ولقد تَمَّ الخَلْق لتتحقق العبادة وتصبح واقعاً، ولكن «العلة والمعلول » لا تنطبق على أفعال الله سبحانه وتعالى .

نقول : ليس هناك علة تعود على الله جَلَّ جلاله بالفائدة ، لأن الله تبارك وتعالى غنى عن العالمين ... ولكن العلة تعود على الخلق بالفائدة .

فالحق سبحانه خلقنا لنعبده ، ولكن علة الخلق ليس لأن هذه العبادة ستزيد شيئاً فى مُلْكه [1] ، وإنما عبادتنا تعود علينا نحن بالخير فى الدنيا والآخرة.

إن أفعال الله لا تُعلّل ، والمأمور بالعبادة هو الذى سينتفع بها .

ومعنى العبادة طاعة الأمر ، والكَفُّ عن المنهىّ عنه ، والمأمور صالح أنْ يفعل وألاّ يفعل ، فالعبادة ـ إذن ـ تستدعى وجود طائع ووجود عَاصٍ.

والحق سبحانه لم يخلق البشر من أجل الجنة أو النار ، لكنه عز وجل خلقهم ليعبدوه ، فمنهم مَنْ آمن فدخل الجنة ، ومنهم مَنْ عصى فدخل النار .

ولكن ، هل العبادة هى الجلوس فى المساجد والتسبيح ، أو أنها منهج يشمل الحياة كلها .. فى بيتك ، وفى عملك ، وفى السعى فى الأرض ؟

---

(١) يقول رب العزة فى الحديث القدسى : « يا عبادى إنكم تخطئون بالليل والنهار ، وأنا أغفر الذنوب جميعًا ، فاستغفرونى أغفر لكم . يا عبادى إنكم لن تبلغوا ضرى فتضرونى ، ولن تبلغوا نفعى فتنفعونى . يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك فى ملكى شيئًا ، يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد ما نقص ذلك من ملكى شيئًا » أخرجه مسلم فى صحيحه (٤/ ١٩٩٤) عن أبى ذر .

ولو أراد الله سبحانه وتعالى من عباده الصلاة والتسبيح فقط ، لما خلقهم مُخْتارين بل خلقهم مقهورين لعبادته ككل ما خلق ، ما عدا الإنس والجن .

والله تبارك وتعالى له صفة القهر .. من هنا فإنه يستطيع أن يجعل مَنْ يشاء مقهوراً على عبادته ، مصداقاً لقوله جل جلاله :

﴿ إن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً (١) فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ (٢) ﴿٤﴾ ﴾ (الشعراء)

فلو أراد الله أن يُخضعنا لمنهجه قهراً لا يستطيع أحد أن يشذ عن طاعته ، وقد أعطانا الله الدليل على ذلك بأن فى أجسادنا وفى أحداث الدنيا ما نحن مقهورون عليه .

فالجسد مقهور لله فى أشياء كثيرة :

---

(١) الآية : العلامة الواضحة والمعجزة لأنها علامة على صدق الرسول . والآية : العبرة الدالة على الخير والرشد الصارفة عن الضلال والغى . والآية من القرآن سُمِّيت آية لأنها معجزة أو جزء من المعجزة وهى دالة على صدق الرسول . قال ابن كثير فى تفسيره (٣ / ٣٣١) : « أى: لو نشاء لأنزلنا آية تضطرهم إلى الإيمان قهراً ولكن لا نفعل ذلك لأنا لا نريد من أحد إلا الإيمان الاختيارى » .

(٢) معنى خضوع الأعناق هو خضوع أصحابِ الأعناق . وخضع الإنسان خضعاً : أمال رأسه إلى الأرض أو دنا منها . قال أبو عمرو : خاضعين ليست مِّن صفة الأعناق إنما هى من صفة الكناية عن القوم الذى فى آخر الأعناق ، فكأنه فى التمثيل : فظلت أعناق القوم لها خاضعين ، والقوم فى موضع هم . [لسان العرب ـ مادة : خضع] .

- القلب ينبض [1] ويتوقف بأمر الله دون إرادة منا .

- والمعدة تهضم الطعام ونحن لا ندرى عنها شيئاً .

- والدورة الدموية فى أجسادنا لا إرادة لنا فيها .

وأشياء كثيرة فى الجسد البشرى كلها مقهورة لله سبحانه وتعالى ، وليس لإرادتنا دخل فى عملها ، وما يقع علىَّ فى الحياة الدنيا من أحداث أنا مقهور فيه ، لا أستطيع أن أمنعه من الحدوث ، فلا أستطيع أن أمنع سيارة أن تصدمنى ، ولا طائرة أن تحترق بى ، ولا كل ما يقع علىَّ من أقدار الله فى الدنيا.

إذن : فمنطقة الاختيار فى حياتى محدودة ، لا أستطيع أن أتحكم فى يوم مولدى ، ولا فيمن هو أبى ، ومَنْ هى أمى ، ولا فى شكلى : هل أنا طويل أو قصير ؟ جميل أو قبيح ؟ أو غير ذلك .

إذن : فمنطقة الاختيار فى الحياة هى المنهج أن أفعل ، أو لا أفعل.

الحق سبحانه له من كل خلقه عبادة القهر، ولكنه يريد من الإنس والجن عبادة المحبوبية ، ولذلك خلقنا ، ولنا اختيار فى أن نأتيه أو لا نأتيه .. فى أن نطيعه أو نعصيه .. فى أن نؤمن به أو لا نؤمن .

فإذا كنت تحب الله فأنت تأتيه عن اختيار ، تتنازل عمَّا يُغضبه حُبّاً فيه ،

---

(١) نبض العرْق ينبض نبضاً ونبضاناً : تحرّك وضرب . والنبض : الحركة . وما به نَبَضٌ أى حركة ، ونبضت الأمعاء تنبض : اضطربت . والمنابض : مضارب القلب . [لسان العرب - مادة : نبض] .

وتفعل ما يطلبه حباً فيه وليس قهراً ، فإذا تخليتَ عن اختيارك إلى مُرادات الله فى منهجه تكون قد حققتَ عبادة المحبوبية لله تبارك وتعالى ، وتكون قد أصبحتَ من عباد الله ، وليس من عبيد الله .

فكلنا عبيد لله سبحانه وتعالى ، والعبيد متساوون فيما يُقهرون عليه ، ولكن العباد الذين يتنازلون عن منطقة الاختيار لمراد الله فى التكليف .

ولذلك فإن الحق جَلَّ جلاله يُفَرِّق فى القرآن الكريم بين العباد والعبيد .

يقول تعالى :

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ[1] (١٨٦) ﴾ (البقرة)

ويقول سبحانه وتعالى :

﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا[2] وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا (٦٣) وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا (٦٤) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا

(١) رَشَد يرشُد : أصاب وجه الصواب والخير والحق . والرشد : ضد الغيّ والضلال . والرشد : ضد السَّفَه وسوء التدبير . بلغ رشده : بلغ كمال عقله وحسن تصريفه للأمور . قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ ﴾ (الأنبياء: ٥١).

(٢) الهَوْن والهُوَيْنا : التؤدة والرفق والسكينة والوقار. قال ابن برى : الهوْن الرفق، قال الشاعر :

هَوْنَكمُا لا يَرُدُّ الدَّهْرُ مَا فَاتَا ... لاَ تَهْلكاَ أَسَفاً فى إِثْرِ مَنْ مَاتَا

[لسان العرب ـ مادة : هون] قال ابن كثير فى تفسيره (٣ / ٣٢٤) : « وليس المراد أنهم يمشون كالمرضى تصنعاً ورياء ، فقد كان سيد ولد آدم ﷺ إذا مشى كأنما ينحطُّ من صبب وكأنما الأرض تطوى له . وقد كره بعض السلف المشى بتضعُّف وتصنُّع . وإنما المراد بالهون هنا السكينة والوقار » .

اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ [1] غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا [2] وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ [3] قَوَامًا ﴿٦٧﴾ وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ وَالَّذِينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ [4] مَرُّوا كِرَامًا ﴿٧٢﴾ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا [5] عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ .... ﴿٧٤﴾ ﴾ (الفرقان)

(١) الغرام : العذاب الدائم والهلاك الملازم . والغرام : اللازم من العذاب والشر الدائم والبلاء والحب والعشق وما لا يُستطاع أن يُتفصّى منه . قال الزجاج : هو أشد العذاب . [لسان العرب ـ مادة : غرم] .

(٢) قال الفراء : لم يقتروا عما يجب عليهم من النفقة . وقتر على عياله : ضيّق عليهم فى النفقة . والإقتار : التضييق على الإنسان فى الرزق . [اللسان ـ مادة : قتر] .

(٣) القوام : العَدْل . قال ابن كثير فى تفسيره (٣ / ٣٢٥) : « أى : ليسوا بمبذرين فى إنفاقهم فيصرفون فوق الحاجة ، ولا بُخلاء على أهليهم فيقصرون فى حقهم فلا يكفونهم ، بل عدلاً خياراً وخير الأمور أوسطها لا هذا ولا هذا » .

(٤) اللغو : السَّقط وما لا يُعتد به من كلام وغيره ، ولا يُحصل منه على فائدة ولا نفع . واللغو فى الأيمان : ما لا يعقد عليه القلب مثل قولك : لا والله ، وبلى والله . وجماع اللغو هو : الخطأ إذا كان اللجاج والغضب والعجلة . [لسان العرب ـ مادة : لغا] .

(٥) خَرَّ يخر خروراً : سقط من علوّ إلى سفل بصوت . وخَرَّ ساجداً : أسرع إلى السجود ، والتعبير كناية عن سرعة الاستجابة لله . ويُقال :خَرَّ فلان : مَرَّ مسرعاً. وقوله تعالى : ﴿ **وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾** ﴾ (الفرقان) يحتمل :

– لم يهجموا عليها متعجِّلين ليبطلوها وليصدوا الناس عن اتباعها كفعل الكافرين .

– أنهم لم يمرُّوا معرضين عنها ، كأنهم صُمٌّ وعمى كما يفعل الكافرون ، ولكن المؤمنين يُقبلون عليها بفهم وبصيرة وإيمان وحُبٍّ وإعزاز .

وهكذا نرى أن الله سبحانه وتعالى أعطى أوصاف المؤمنين وسمَّاهم عباداً .

ولكن عندما يتحدث عن البشر جميعاً يقول عبيد ، مصداقاً لقوله تعالى :

﴿ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ (١٨٢) ﴾ (آل عمران)

ولكن قد يقول قائل : إن الله تبارك وتعالى يقول فى كتابه العزيز :

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ (١٧) ﴾ (الفرقان)

الحديث هنا عن العاصين والضالين ، ولكن الله سبحانه وتعالى قال عنهم « عباد » .

نقول : إن هذا فى الآخرة ، وفى الآخرة كلنا عباد ، لأننا مقهورون لطاعة الله الواحد المعبود تبارك وتعالى ، لأن الاختيار البشرى ينتهى ساعة الاحتضار [١] ، ونصبح جميعاً عباداً لله ، مقهورين على طاعته ، لا اختيار لنا فى شىء .

والله سبحانه وتعالى قد أعطى الإنسان اختياره فى الحياة الدنيا فى العبودية فلم يقهره فى شىء ، ولا يلزم غير المؤمن به بأىِّ تكليف.

بل إن المؤمن هو الذى يُلزم نفسه بالتكليف وبمنهج الله فيدخل فى عقد إيمانى

(١) حُضِرَ المريض واحتُضر إذا نزل به الموت ، وحضرنى الهمُّ واحتضرنى . وحضره الموت : جاءه . قال تعالى : ﴿ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ ﴾ (البقرة : ١٣٣).

مع الله تبارك وتعالى ، ولذلك نجد أن الله جل جلاله لا يخاطب الناس جميعاً فى التكاليف .

وإنما يخاطب الذين آمنوا فقط ، فيقول :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ(١) عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٨٣) ﴾ (البقرة)

ويقول سبحانه :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (١٥٣) ﴾

(البقرة)

أى : أن الله جَلَّ جلاله لا يكلف إلا المؤمن الذى يدخل فى عقد إيمانى مع الله .

ويجب أن نفطن إلى أن العبادة لا تقتصر على إقامة الأركان التعبدية فى الدين من : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وإقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً .

(١) الكتاب : الفرض والحكم والقدر . كُتب : فُرض . وكتب يكتب : خطَّ ودوَّن الكلام ، ويُستعار ذلك للمعانى كقوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ ﴾ (المجادلة: ٢٢) أى : سَجَّله وأثبته فيها كما يُدوَّن الكلام فى الصحف أو يُنقَشُ على الأحجار فيبقى ولا يُمحى . وقوله تعالى : ﴿ ادْخُلُوا الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ (المائدة: ٢١) أى : قدّر لكم أن تملكوها ووعدكم بذلك فى صحف موسى .

إن هذه هى أركان الإسلام ، ولا يستقيم أن ينفصل الإنسان المسلم عن ربه بين أوقات الأركان التعبدية .

إن الأركان التعبدية لازمة ؛ لأنها تشحن الطاقة الإيمانية للنفس حتى تُقبل على العمل الخاص بعمارة الدنيا ، فالعبادة فى الدنيا هى كل حركة تؤدى إلى إسعاد الناس وعمارة الكون .

فالعبادة منها ما يصل العبدَ بالمعبود ليأخذ الشحنة الإيمانية من خالقه خالق الكون ، ومنها ما يتصل بعمارة الكون .

إن الإسلام هو كل حركة فى الحياة تناسب خلافة الإنسان فى الأرض ؛ لأن الله يقول فى كتابه الكريم :

﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ(1) أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم(2) مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ (61) ﴾ (هود)

فكلُّ حركة فى الحياة تؤدى إلى عمارة الأرض فهى من العبادة ، فلا تأخذ

(1) ثمود : قبيلة من العرب الأُوَل . ويُقال : إنهم من بقية عاد وهم قوم صالح ، بعثه الله إليهم . والثَّمْد فى اللغة : الماء القليل الذى لا مادَّ له . والثِّماد : الحُفَر يكون فيها الماء القليل . وماء مثمود : كثر عليه الناس حتى فنى ونفدَ إلا أقله . [لسان العرب ـ مادة : ثمد] قال ابن كثير فى تفسيره (٢/ ٤٥٠) : «كانوا يسكنون مدائن الحجر بين تبوك والمدينة».

(2) أنشأه الله : خلقه . وأنشأ الله الخلق : ابتدأ خَلْقهم. وفى التنزيل العزيز **﴿ وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَىٰ (47) ﴾** (النجم) أى : البعثة . [لسان العرب ـ مادة : نشأ] .

العبادة على أنها صوم وصلاة فقط ؛ لأن الصوم والصلاة وغيرهما هى الأركان التى ستقوم عليها حركة الحياة التى سيُبنى عليها الإسلام.

فلو جعلتَ الإسلام هو هذه الأركان فقط لجَعلْتَ الإسلام أساساً بدون مَبْنى ، فهذه هى الأركان التى يُبنى عليها الإسلام.

إذن : فالإسلام هو كل ما يناسب خلافة الإنسان فى الأرض .

فالخلافة فى الأرض تقتضى أن يَعْمُر الإنسان الأرض ، وحين يريد الله منا أن نتحرك ونعْمُرَ الأرض فلا بُدَّ من أعمال تنظم هذه الحركة .

إذن : فكُلُّ ما يؤدى إلى عمارة الكون والارتقاء به هو أمر عبادى .

ويخرج إلينا أناس يقولون : نحن ليس لنا إلا أن نعبد ولا نعمل .

ونقول لأى منهم : كم تأخذ الصلاة منك فى اليوم ؟ ساعة مثلاً . والزكاة كم تأخذ منك فى العام ؟ يوماً واحداً [(١)] فى العام ؟ والصوم كم يأخذ منك من وقت ؟ نهار أيام شهر واحد . وفريضة الحج أتأخذ منك أكثر من رحلة واحدة فى عمرك ؟

فبالله عليك ماذا تفعل فى الباقى من عمرك من بعد ذلك وهو كثير ؟

(١) هذا باعتبار أن زكاة الأموال مثلاً تُخرَجُ عندما يحول الحول، أى يمر عام وتكون قد بلغت النصاب وهو ٨٥ جراماً من الذهب فيُخرج رُبْع العُشر وهو ٢,٥ ٪.
وكذلك زكاة الزروع تُخرج يوم الحصاد، مصداقاً لقوله سبحانه : ﴿ **وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ** ﴾ (الأنعام: ١٤١) وفى هذا تفصيل.

إنك لا تأخذ أكثر من ساعة فى اليوم للصلاة ، ولا تأخذ أكثر من يوم فى السنة لإخراج الزكاة ، وتقضى شهراً فى السنة تصوم نهاره ، وتحج مرة واحدة فى عمرك .

فماذا تفعل فى بقية الزمان ، ستأكل وتلبس ، ستطلب رغيف الخبز للطعام ، فمن الذى سيصنعه لك ؟

إن هذا الرغيف يمرُّ بمراحل حتى يصير لقمة تأكلها ، ويحتاج إلى أكثر من علم ، وأكثر من حركة ، وأكثر من طاقة .

فرغيف الخبز الذى تأكله يأخذ جَهْداً كبيراً ، فانظر كم من الطاقات احتاجها ، وكم من الرجال احتاجه العمل .

فكيف تستسيغ لنفسك أن يصنعوه لك ، وأنت فقط جالس لتصلى وتصوم ؟

لا ، إياك أن تأخذ عمل غيرك دون جَهْد منك.

مثال آخر : أنت تلبس جلباباً ، كم أخذ هذا الجلباب من غَزْل ونَسْج وخَيْط ؟

إذن : فلا تقعد ، وتنتفع بحركة المتحرك فى الحياة ، وتقول : أنا مخلوق للعبادة فقط ، فليست هذه هى العبادة ، ولكن العبادة هى أن تطيع الله فى كل ما أمر ، وأن تنتهى عن كل ما نهى فى إطار قوله تعالى :

﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ... (٦١) ﴾ (هود)

إن كل عمل يُعتبر عبادة ، وإلا ستكون « تنبلاً » فى الوجود ، والإيمان الحق يقتضى منك أن تنتفع بعملك ، ولا تعتمد على عمل غيرك .

إن الحق سبحانه وتعالى قد استخلفنا فى الأرض من أجل أن نَعْمُرها ، ومن حُسْن العبادة أن نتقن كل عمل ، وبذلك لا نقيم أركان الإسلام فقط ، ولكن نقيم الأركان والبنيان معاً ، ونكون قد أدَّيْنَا مسئولية الإيمان ، وطَابَقَ كل فعل من أفعالنا قولنا « لا إله إلا الله » .

والحق سبحانه وتعالى حين قال ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ .. (٥) ﴾ (الفاتحة) قصَر العبادة على ذاته الكريمة ، لأنه لو قال : نعبدك وحدك فهى لا تؤدى المعنى نفسه ، لأنك قد تقول نعبدك وحدك ومعك كذا وكذا .

ولكن إذا قلتَ ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ .. تكون قد حسمتَ الأمرَ بأن العبادة لله وحده فلا يجوز العطف عليها ، فالعبادة خضوع لله سبحانه وتعالى بمنهجه « افعل » و « لا تفعل » .

لذلك جعل الحقُّ سبحانه الصلاة أساسَ العبادةِ ، والسجود هو مُنتَهى الخضوع لله [1] ، لأنك تأتى بوجهك الذى هو أكرم شىء فيك وتضعه على

(١) يقول تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ (فصلت: ٣٧) فالسجود لله هو أساس =

الأرض عند موضع القدم [١] ، فيكون هذا هو منتهى الخضوع لله ، ويتم هذا أمام الناس جميعاً فى الصلاة ؛ لإعلان خضوعك لله أمام البشر جميعاً [٢].

ويستوى فى العبودية الغنىّ والفقير ، والكبير والصغير ، حتى يطرد كُلٌّ منَّا الكِبْر والاستعلاء من قلبه أمام الناس جميعاً ، فيساوى الحق جل جلاله بين عباده فى الخضوع له ، وفى إعلان هذا الخضوع .

وقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ .. ⑤ ﴾ (الفاتحة)

= العبادة والخضوع لله، وهو اعتراف بالربوبية والألوهية لله، وهذا يتضح من دعاء رسول الله ﷺ فى السجود : «اللهم لك سجدت، وبك آمنت ، ولك أسلمت ، سجد وجهى للذى خلقه وصَوَّره ، وشقَّ سمعه وبصره ، تبارك الله أحسن الخالقين » أخرجه مسلم فى صحيحه (٧٧١) كتاب صلاة المسافرين من حديث على بن أبى طالب .

(١) أخرج الدارقطنى فى سننه (١/ ٣٤٨) عن ابن عباس عن النبى ﷺ قال : « لا صلاة لمن لم يضع أنفه على الأرض » وكذا الحاكم فى مستدركه (١/ ٢٧٠) وأخرجه الطبرانى فى الكبير (١١/ ٣٣٣) من طريق آخر بلفظ « من لم يلزق أنفه مع جبهته بالأرض إذا سجد لم تَجُزْ صلاته ».

(٢) يقول الإمام أبو حامد الغزالى فى الإحياء (٢/ ٣٠٣) طبعة دار الشعب : « السجود هو أعلى درجات الاستكانة ، فلتمكن أعز أعضائك وهو الوجه ، من أذل الأشياء وهو التراب ، وإن أمكنك أن لا تجعل بينهما حائلاً فتسجد على الأرض فافعل ، فإنه أجلب للخشوع ، وأدل على الذل ، وإذا وضعت نفسك موضع الذل فاعلم أنك وضعتها موضعها ، ورددت الفرع إلى أصله ، فإنك من التراب خلقت ، وإليه تعود ، فعند هذا جدد على قلبك عظمة الله ، وقل: سبحان ربى الأعلى . وأكده بالتكرار فإن الكَرَّة الواحدة ضعيفة الأثر ، فإذا رق قلبك وظهر ذلك فلتصدق رجاءك فى رحمة الله فإن رحمته تتسارع إلى الضعف والذل ، لا إلى التكبر والبطر » .

ينفى العبودية لغير الله ، أى : لا نعبد غير الله .

إذن : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ .. (٥) ﴾ (الفاتحة) أعطتْ تخصيص العبادة لله وحده ، لا إله غيره ، ولا معبود سواه .

والحقُّ سبحانه يقول فى سورة هود :

﴿ الَر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ (١) أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ (٢) ﴾ (هود)

إذن : فقد أُحكِمت آيات الكتاب وفُصِّلَتْ لغاية هى : ألا نعبد إلا الله .

والعبادة هى طاعة العابد للمعبود فيما أمر ، وفيما نهى .

وهكذا نجد أن العبادة تقتضى وجود معبود له أمر وله نهى ، والمعبود الذى لا أمر له ولا نهى لا يستحق العبادة .

فهل مَنْ عبد الصنم تلقَّى منه أمراً أو نهياً ؟

وهل مَنْ عبد الشمس تلقَّى منها أمراً أو نهياً ؟

إذن : فكلمة العبادة لكل ما هو غير الله هى عبادة باطلة ؛ لأن مثل تلك المعبودات لا أمر لها ولا نهى ، وفوق ذلك لا جزاء عندها على العمل الموافق لها أو المخالف لها .

والعبادة بدون منهج « افعل » و « لا تفعل » لا وجود لها ، وعبادة لا جزاء عليها ليست عبادة .

وهنا يجب أن نلحظ أن قول الحق سبحانه :

﴿ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ ... (٢) ﴾ (هود)

غير قوله سبحانه :

﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ ... (٧٢) ﴾ (المائدة)

ولو أن الرسل تأتي الناس وهم غير ملتفتين إلى قوة يعبدونها ويُقدِّسونها لَكَانَ على الرسل أن يقولوا للناس : اعبدوا الله.

ولكن هنا يقول الحق سبحانه :

﴿ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ ... (٢) ﴾ (هود)

فكأنه سبحانه يواجه قوماً لهم عبادة متوجِّهة إلى غير مَنْ يستحق العبادة ، فيريد سبحانه أولاً أن يُنهي هذه المسألة ، ثم يثبت العبادة لله .

إذن : فهنا نَفْي وإثبات ، مثل قولنا « أشهد ألا إله إلا الله » هنا ننفي أولاً أن هناك إلهًا غير الله ، ونثبت الألوهية لله سبحانه وحده .

وأنت لا تشهد هذه الشهادة إلا إذا وُجد قوم يشهدون أن هناك إلهاً غير الله تعالى ، ولو كانوا يشهدون بألوهية الإله الواحد الأحد سبحانه ؛ لَكَان الذهن خالياً من ضرورة أن نقول هذه الشهادة .

ولكن قول الحق سبحانه : ﴿ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ ... (٢) ﴾ (هود)

معناه النفى أولاً للباطل ، وإذا نُفِى الباطل لا بد أن يأتى إثبات الحق ، حتى يكون كل شىء قائماً على أساس سليم .

فالبداية : ألا تعبد الأصنام والشركاء ، ثم وَجِّه العبادة إلى الله سبحانه .

وما دامت العبادة هى طاعة الأمر وطاعة النهى فهى - إذن - تشمل كل ما ورد فيه أمر ، وكل ما ورد فيه نهى.

وإنْ نظرت إلى الأوامر والنواهى لوجدتها تستوعب كل أقضية الحياة من : قمة الشهادة بأن لا إله إلا الله ، إلى إماطة [1] الأذى عن الطريق [2] .

وكل حركة تتطلبها الحياة لإبقاء الصالح على صلاحه ، أو زيادة الصالح ليكون أصلح ، فهذه عبادة .

فكلمة العبادة تستوعب كل أقضية الحياة ؛ لأن هناك أمراً بما يجب أن يكون ، وهناك نهياً عما يجب ألا يكون ، وما لم يَرِد فيه نهى لك الخيار فى أن تفعله أو لا تفعله .

فإذا نظرت إلى نسبة ما تُؤمَر به ، ونظرت إلى ما تُنهى عنه بالنسبة لأعمال

---

(١) إماطة الأذى عن الطريق : تنحيته وإبعاده عن طريق الناس حتى لا يؤذيهم. والأذى قد يكون أحجاراً أو أى شىء قد يؤذى الناس ويعوق سيرهم فى الطريق .

(٢) عن أبى هريرة ﷺ قال قال رسول الله ﷺ : « الإيمان بضع وسبعون - أو بضع وستون شعبة - فأفضلها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان» أخرجه مسلم فى صحيحه (٣٥) كتاب الإيمان ، وكذا أخرجه البخارى فى صحيحه (٩) دون : أفضلها ، وأدناها .

الحياة ، لوجدتَ أنها نسبة لا تتجاوز خمسة فى المائة من كل أعمال الحياة ولكنها الأساس الذى تقوم عليه كل أَوْجُه الحياة.

فالأمر لواحد ، والنهى لواحد ، والعبادة والخضوع لواحد ، وهذا ما جعل الطُّغَاة والجبابرة والسادة والأعيان ووجوه القوم يرفضون الانصياع لهذه الدعوة ، واعتبروها شيئاً عُجَاباً ، فقالوا :

﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ [1] ﴿٥﴾﴾ (ص)

ونحن نعلم أن العَجب هو إظهار الدهشة ، وانفعال النفس من حصول شىء على غير ما تقتضيه مواقع الأمور ومُقدِّماتها .

إذن : تظهر الدهشة ، ونتساءل : كيف حدث هذا ؟ ولو كان الأمر طبيعياً ورتيباً لما حدثتْ تلك الدهشة وذلك العجب ؟

ولكن لماذا العجب ؟

كان المنطق يقتضى أنه إذا رأَوْا شيئاً هندستُه بديعة وحكيمة ، وطرأ عليها هذا المخلوق وهو الإنسان ليجد الكون مُنسَّقاً موجوداً من قبله .

كان المنطق يقتضى أن يبحث هذا الإنسان عمَّنْ خلق هذا الكون ، وأن يُلحّ فى أن يعرف مَنْ صنع الكون ، وحين يأتى الرسول ليقول لكم مَنْ صنع هذا الكون ، تتعجبون ؟

---

(١) أمر عُجاب وعجيب وعُجَّاب ، على المبالغة ، يُؤكَّد به . وأعجبه الأمر : سرَّه ، وأعجب به كذلك . [لسان العرب - مادة : عجب] .

كان القياس أن تتلهفوا على مَنْ يخبركم بهذه الحقيقة ؛ لأن الكون وأجناسه من النبات والجماد والحيوان فى خدمتك أيها الإنسان.

لا بقُوتك خلقتَ هذا الكون ، ولا تلك الأجناس ، بل أنت طارىء على الكون والأجناس ، ألم يَدُرْ بخَلَدِك [1] أن تتساءل : مَنْ صنع لك ذلك ؟

إذن : فالكلام عن الإيمان كان يجب أن يكون عمل العقل.

إذن : أنتم تتعجبون من شىء تقتضى الفطرة أن نبحث عنه ، وأن نؤمن به ، وهو الإله الذى لا ينتفع بطاعتنا أو بعبادتنا ، ولا تعود عليه العبادة بشىء ، بل تعود علينا .

فهذه العبادة لا تعود عليه سبحانه بأىِّ فائدة ، فسبحانه مُنزَّه عن فائدة تعود عليه ، لأنكم إنْ عبدتموه فلن تزيدوا فى مُلْكه شيئاً ، وإنْ لم تعبدوه فلن تنقصوا من مُلْكه شيئاً .

ولكن هذه العبادة يعود نفعها عليكم ؛ لأنكم ستأخذون بها منهجاً يُخرج كل الخَلْق عن أهوائهم ، ويصير هوى الموجِّه واحداً ، فلا تصطدم إرادة بإرادة ، بل تتساند الإرادات ، فيتكامل العالم .

إذن : فالعبادة توحِّد أهواء الخلق إلى مراد واحد ، لا يأنف الإنسان منا أن

---

(١) الخَلَد : البال والقلب والنفس . وجمعه أخلاد . يُقال : وقع ذلك فى خَلَدى أى فى رَوْعى وقلبى . [لسان العرب - مادة : خلد] .

يخضع لـه ؛ لأن هذا ليس خضوعاً من بشر لبشر ، بل خضوعاً من مخلوق لخالق ، وبذلك تستقيم أموركم الاختيارية ، كما استقامتْ أموركم غير الاختيارية .

فكان المنطق أن يعبدوا الله وحده ، لا أن يعبدوا الشركاء الذين لاينفعونهم ، ولا يضرونهم ، ولا يسمعونهم .

بل إن الواحد منهم كان يرى الهواء يهُبُّ على الصنم ، فيميل الصنم ويقع على الأرض وتنكسر رقبته ، فيذهب إلى الحداد ليعيد تركيب رأس جديد للصنم ، فكيف يُعبَدُ مثل هذا الصنم ؟

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ أَنَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُنَا وَلا يَضُرُّنَا .. (٧١) ﴾ (الأنعام)

فهذه الآية تبدأ بسؤال عن عبادة الأصنام أو غيرها .

فما الذى صنعته تلك الأصنام أو غيرها لمن عبدها ؟

وماذا صنعت لمن لم يعبدها ؟

وهذا أول منطق فى بطلان ألوهية غير الله ، فمَنْ عبد الشمس مثلاً ، ماذا أعطتْه الشمس ؟ ومَنْ كفر بها كيف عاقبته الشمس ؟

إنها تشرق لمن عبدها ، ولمن لم يعبدها . والصنم الذى عبده العابدون ، ماذا صنع لهم ؟ لا شىء .

وهذا الصنم لم يُنزل عقاباً بمَنْ لم يعبـده ، بل إن الذى انتفع هو مَنْ لم يعبد الأصنام ؛ لأنه أعملَ فكره ليبحث عن خالقٍ لهذا الكون.

وهكذا نجد النفع والضر إنما يأتيان من الإله الحق .

فـالعقل يسـتنكر أن نعـبد أحـداً غـير الله ، فـغيـره لا يملك أن يصنع الضُّـرَّ للخصوم ، ولا النفع لنفسه ، أو لأشياعه وأنصاره .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (٧٤) ﴾ (الأنعام)

فالضـلال أن تريد غايةً فـتضل الطريق إليـها ، وكان الناس عنـدهم غايةٌ فى ذلك الزمـان أن يُقـدِّسوا ، ويُقـدِّروا مَنْ ينعم عـليهم بالـنعم ؛ إلا أنهم أخطأوا الطريق ووقفوا عند السبب ، ولم يذكروا ولم يدركوا ما وراء السبب ، ومن هنا جاء الضلال المبين .

فكان من طبيعة الإنسان أنه يتقدم بالولاء وبالخضوع وبالشكر لمن يرى نعمة منه عليه ، لكنهم ضَلُّوا الطريق ؛ لأنهم ساروا فى النعمة فى حلقات الأسباب ، ولم يصلوا بالأسباب إلى المسبِّب .

وهذا ضـلال مـبين ؛ لأنه فـتنة خَلْق فى خَلْق ، فـالإنسـان الأول الذى جـاء وأقبل على عـالم مخلوق له ، وأقـبل على أرض ، وأقبل على شـمس ، وأقبل

على قمر ، وأقبل على نجوم ، وأقبل على سحاب يمطر له الماء ، وأقبل على جبال تمدُّه بالأقوات [1] .

كان من الواجب عليه أن يلتفت لهذه المسألة ؛ لأنه لم يصنعها ، ولا ادّعى أحد أنه صنعها ، أمَا كان من الواجب أن يُفكِّر تفكيراً يسيراً فيمن خلق [2] له هذه الأشياء ؟

وما دام الله هو خالق كل شيء ، فهو الأحق بالعبادة ؛ لأن العبادة ـ كما قلنا ـ معناها طاعة الأمر وطاعة النهى .

وما دام سبحانه الذى خلق فهو الذى يضع قانون الصيانة للإنسان والكون ، وإنْ خالفتَ المنهج يفسد الكون والإنسان ، وإذا فسد الكون أو الإنسان فأنت تلجأ إلى منهج الخالق ؛ لتعيد لكل منها صلاحيته ؛ لذلك فهو سبحانه الأَوْلَى بالعبادة.

والحق سبحانه يقول :

﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (١٩١) ﴾ (الأعراف)

---

(١) يقول تعالى : ﴿ مَا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ ﴾ (الكهف: ٥١) .

(٢) والحق سبحانه يلفت أنظارنا إلى هذا ، فيقول تعالى : ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ (٦٠) أَمَّن جَعَلَ الأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٦١) ﴾ (النمل)

أيشركون فى عبادة الله مَنْ لا يخلقون شيئاً ، وهم أنفسهم مخلوقون لله ، إن مَنْ أشركوا بالله الأصنام فعلوا ذلك بالوهم ، وتنازلوا عن العقل :

وكان الواجب أن يكونوا عقلاء ، فلا يتخذوا من الأصنام آلهة .

وهناك آية أخرى تفضح زعمهم :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لاَّ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ (٧٣) ﴾ (الحج)

ونعلم أن البشر فى المعامل قد عرفوا العجز عن خَلْق خلية واحدة ، وهى التى لا تُرى بالعين المجردة .

ولذلك أوضح الحق سبحانه أن المسألة ليست أمر خلق ؛ بل إن الذباب لو وقع على طعام إنسان وأخذ على جناحه أو فى خرطومه شيئاً ، لن يستطيع أحد أن يستردَّ المأخوذ منه ، فقد ضَعُفَ الطالب والمطلوب .

والخَلْق ـ كما نعلم ـ أول مرتبة من مراتب القدرة ، فإذا كانت الأصنام التى اتخذها هؤلاء شركاء لا تخلق شيئاً بإقرارهم هم ، فكيف يعبدونها ؟

إنها لا تَخلق شيئاً بدليل أنها لا تتناسل ، بل إذا أراد العابدون أن يزيدوا صنماً صنعه العابدون بأنفسهم .

والحق سبحانه يضرب لنا المثل لدقَّة الخَلْق بالبعوضة ، فيقول تعالى :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا

فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ (٢٦)﴾ (البقرة)

وعندما ضرب الله هذا المثل استقبله الكفار بالمعنى الدنيوى دون أن يفطنوا للمعنى الحقيقى .

قالوا : كيف يضرب الله مثلاً بالبعوضة ، ذلك المخلوق الضعيف ، الذى يكفى أن تضرب بأىِّ شىء أو بكفِّك فيموت ؟

لماذا لم يضرب الله تبارك وتعالى مَثَلاً بالفيل الذى هو ضخم الجثة شديدة القوة ، أو بالأسد الذى هو أقوى من الإنسان ، وضرب لنا مثلاً بالبعوضة ، فقالوا :

﴿ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً ... (٢٦)﴾ (البقرة)

ولم يفطنوا إلى أن هذه البعوضة الدقيقة الحجم خَلْقها معجزة ؛ لأن فى هذا الحجم الدقيق وضع الله سبحانه وتعالى كل الأجهزة اللازمة لها فى حياتها .. فلها عينان ، ولها خرطوم دقيق جداً ، ولكنه يستطيع أن يخرق جلد الإنسان ، ويخرق الأوعية الدموية التى تحت الجلد ليمتص دم الإنسان .

والبعوضة لها أرجل ولها أجنحة ، ولها دورة تناسلية ، ولها كل ما يلزم لحياتها .

كل هذا فى هذا الحجم الدقيق.. كلما دَقَّ الشىء احتاج إلى دِقَّة خَلْق أكبر .

ونحن نشاهد فى حياتنا البشرية أنه مثلاً عندما اخترع الإنسان الساعة كان حجمها ضخماً جداً ، لدرجة أنها تحتاج إلى مكان كبير .

وكلما تقدَّمتْ الحضارة وارتقى الإنسان فى صناعته وحضارته وتقدُّمه أصبح الحجم دقيقاً وصغيراً ، وهكذا أخذت صناعة الساعات تَدِقُّ ، حتى أصبح من الممكن صنع ساعة فى حجم الخاتم أو أقل .

وعندما بدأ اختراع المذياع أو الراديو كان حجمه كبيراً ، والآن أصبح فى غاية الدقة ، لدرجة أنك تستطيع أن تضعه فى جيبك أو أقل من ذلك .

وفى كل الصناعات عندما ترتقى يصغر حجمها ؛ لأن ذلك يحتاج إلى صانع ماهر ، وإلى تقدُّم علمى .

وهكذا حين ضرب الله مثلاً بالبعوضة وما فوقها ... أى بما هو أقل منها حجماً ، فإنه تبارك وتعالى أراد أن يلفتنا إلى دِقَّة الخَلْق ، فكلما لَطُفَ الشىء وصَغُرَ حجمه احتاج إلى دقَّة الخَلْق .

والقرآن الكريم ينافس هؤلاء المشركين مع الله غيره ، فيقول الحق سبحانه :

﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ (١٧) ﴾ (النحل)

فخلق السماء والأرض والجبال والأنهار والشمس والقمر والنجوم لا أحد يستطيع أن يدَّعِى أنه خلقها . وحتى لو سألت الكفار أنفسهم من خلقهم سيقولون : الله

لأن عملية الخلق والإيجاد يدعيها مَنْ لم يعملها ، ومع ذلك لم يَدَّعها أحد من البشر ؛ لأنها عملية أكبر من أن يدعيها أحد ؛ لأنها فوق قدرات البشر .

ولذلك قال تعالى :

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ... (٢٥) ﴾ (لقمان)

فالحق سبحانه أراد أن يخاطب عقول المشركين فى مسألة الخلق ، فقال تعالى :

﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ (١٧) ﴾ (النحل)

هنا كان يمكن أن يقول : أتجعلون مَن لا يخلق مثل مَنْ يخلق ؟

ولكن الحكمة هنا أن هؤلاء يعبدون الأصنام ، وبذلك يكونون قد جعلوا هذه الأصنام نِداً [1] لله تعالى ، فالله سبحانه وتعالى يريد أن يهدم هذا التصوُّر فى عقولهم من أساسه .

كيف تُسوُّون مَنْ يخلق بمَنْ لا يخلق ، أنتم تعبدون الأصنام ، وهى مصنوعة من الحجارة ، فلها مادة ، ولها صورة تكون عليها ، والمادة التى صنعتم منها هذه الآلهة مخلوقة لله .

والصورة أيضاً مخلوقة ، وأنتم الذين صنعتموها بأيديكم ، فهل المعبود يصنعه العابد ؟

(١) الند : المِثْل والنظير . والجمع : أنداد . وقال الأخفش : الند الضِّد والشِّبْه . [لسان العرب ـ مادة : ندد] .

المفروض أن يكون المعبـود أدْنى من العابد ؛ لأنه ليس مثله ، لا فى المادة ولا فى الصورة ، فالمادة مخلوقة لله ، والصورة من صُنْع البشر .

وفوق ذلـك ، فإن هذه الأصنام لا تملك لكم ضَـراً ولا نفعـاً ، والدليل على ذلك أنه حين يمسكم الضر تلجأون إلى الله ، وتَنسَوْن هذه الأصنام.

قال تعالى :

﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِى الْبَحْرِ ضَلَّ[1] مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الإِنسَانُ كَفُورًا (٦٧) ﴾ (الإسراء)

فالحقُّ سبحـانه يُذكِّر المشركين ومَنْ كان على شاكلتهم أنهم عندمـا يصيبهم الضر فى البحر يغيب عنهم كل مَنْ كانوا يدعونه ، سواء من الأصنام أو غيرها، ولا يلجأون إلا لله حتى يُنجيهم من الغرق ويُخرجهم إلى البَرِّ .

إذن : فمَنْ يعـبد غير الله ـ سـبحانه وتعـالى ـ يضل عنه معبـوده ، ولا يعرف كيف ينقذ مَنْ يعبده ؛ لذلك يعود المشرك إلى الله ، ولا يجد سواه سبحانه.

فهو سـبحانه الذى ينقذ الإنسـان لحظة الخطر ؛ لأنه الرب الخالق ، هو أرحم بصنعته ، وهذه الرحمة تنقذ الإنسان حتى لو كان كافراً .

---

(١) ضل الشىء يضل ضـلالة : ضـاع . وأصل الضلال الغـيبـوبة . يقـال : ضل الماء فى اللبن إذا غاب . وضل الشىء : خفى وغاب . [لسان العرب ـ مادة : ضلل].

وهذا كلام منطقى ؛ لأننا شهدنا بوحدانية الله تعالى فى عالم الذر[١] ، حينما أخذ الله سبحانه علينا العهد الأول[٢] .

وقال لنا : ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ... ﴾ (الأعراف)

قلنا : ﴿ بَلَىٰ ... (١٧٢) ﴾ (الأعراف)

وهذا إيمان الفطرة قبل أن توجد الغفلة أو التقليد ؛ لذلك حين تتفرق الآلهة الباطلة من حول الكافر فهو يرجع إلى نفسه ويدعو الله ، بل ويُوسِّط مَنْ يسأله أن يدعو له الله سبحانه فهؤلاء المشركون .. كيف يلجأون إلى الله حينما يقعون فى الشدائد ، مع أنهم كافرون ؟

قالوا : لأن الإنسان فى المواقف الصعبة لايستطيع أن يكذب على نفسه ؛ لأنه يعلم أن هذه الأصنام لا تنفع ولا تضر.

قال تعالى :

﴿ إِن تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ (١٤) ﴾ (فاطر)

---

(١) عالم الذر : هو يوم نشر الله ذرية آدم من ظهره ونشرها . قال سبحانه وتعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ ﴾ (١٧٢الأعراف)

(٢) العهد الأول هو إشهاد ذرية بنى آدم وأخذ الميثاق عليهم بأن الله رب الخلائق كلها، أما العهد الثانى : فهو التكليف على يد الرسل فى افعل ولا تفعل ، وهو امتداد للعهد الأول .

والحق سبحانه بعد أن بيَّن لنا أن عطاء ربوبيته الذى يعطيه لخلقه جميعاً ، المؤمن والكافر، كان يكفى لكى يؤمن الناس، كل الناس .. أخذ سبحانه يبين لنا آيات من عطاء الربوبية.

يَلفت الحق سبحانه الناس إلى خَلْق الأرض فى قوله تعالى :

﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا[1] ... (٢٢) ﴾ (البقرة)

والأرض هى المكان الذى يعيش عليه الناس، ولا يستطيع أحد أن يدَّعِى أنه خلق الأرض أو أوجدها ، أو حتى شهد خَلقها ؛ ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا[2] (٥١) ﴾ (الكهف)

فالحق سبحانه أوجد السماوات والأرض من عدم ، فالسماء والأرض ظَرْف للكون ، وتَمَّ خلقهما قبل الإنسان وقبل سائر الخَلْق ، ولم يشهد خَلْقهم أحد من الخلق ، فلا يصحّ أنْ يسأل أحد عن كيفية الخلق ، بل عليه أن يأخذ خبر الخلق من خالقهما ، وهو الله .

وقد أتى بعض الناس وقالوا : إن الأرض انفصلتْ عن الشمس ثم بردتْ.

---

(١) فراشًا : أى وطاء لم يجعلها حَزْنة غليظة لا يمكن الاستقرار عليها . والفرش : الفضاء الواسع من الأرض [لسان العرب ـ مادة : فرش].

(٢) عضد الرجل : أنصاره وأعوانه . والاعتضاد : التقوِّى والاستعانة . وفلان يعضد فلاناً أى : يعينه . واعتضدت بفلان : استعنت . والمعاضدة : المعاونة . [لسان العرب ـ مادة : عضد].

وهذه مجرد ظنون لا تثبُت ؛ لأن أحداً منهم لم يرَ خَلْق السموات والأرض، وهؤلاء هم أهل الظنون الذين يدخلون فى قوله تعالى :

﴿ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ ﴾ (الكهف)

لقد قال القرآن ذلك من قبل أن يأتى هؤلاء ، وكأنه سبحانه يعطينا التنبؤ بمجىء هؤلاء المضلين قبل أن يُوجَدوا ، فهم لم يشهدوا أمر الخَلْق ، بل طرأوا - مثلنا جميعاً - على السماوات والأرض .

وكان من الواجب ألاّ يخوضوا فى أمر لم يعرفوه ولم يشاهدوه ، وكذلك قولهم عن خَلْق الإنسان كقرد ، وهم لم يكونوا مع الله لحظة خَلْق الكون والإنسان ، ولا كانوا شركاء له .

لا يمكن - إذن - أن نستمع إلى هؤلاء الذين افترضوا أن أصل الإنسان قرد أو غير ذلك ؛ لأن الذى يتكلم عن الخلق بغير علم من عند الله ، فهو يتكلم فى أمر لم يشهده .

والخَلْق الأول أمر لا يمكن أن يدخل المعمل التجريبى ؛ لأن المعمل التجريبى إنما يُحلل مواد موجودة بالفعل .

إذن : فالحكم على أمور بغير ما أخبرنا بها الله أمر باطل ، ولم يكن هناك أحد مع الله ساعةَ خلق الخَلْق ليقول لنا : كيف تمَّ ذلك ؟

ولأن الحق لم يُشْهِد أحدًا على كيفية خَلْق السماء والأرض وخَلْق الإنسان ،

فنحن لا نأخذ معلومات عن كيفية الخلق بعيداً عن القرآن ؛ لذلك لا نصدق الافتراضات القائلة بأن الأرض كانت قطعة من الشمس وانفصلت عنها ، ثم انخفضت درجة حرارتها ، فكل هذه افتراضات لم تثبت صحتها .

وقول الحق سبحانه :

﴿مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ .(٥١)﴾ (الكهف)

يدل على أن العقل البشرى لا يمكن أن يصل إلى معرفة كيفية خَلْق السماوات والأرض ، وخلق الإنسان ، وهو معزول عن منهج السماء .

فإن حُدِّثتم : كيف خُلِقتم بصورة تختلف عَمَّا جاء فى القرآن ؟ فقولوا : كذبتم .

وإن حُدِّثتم : كيف خُلِقت السموات والأرض بغير ما جاء فى كتاب الله ؟ فقولوا : كذبتم .

لأن الله هو الذى خلق السماوات والأرض والإنسان ، وحده سبحانه ، ولا أحد معه ، وما شهد أحد من هؤلاء مشهداً ليخبركم به .

والحق سبحانه يقول :

﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا .. (٢٢)﴾ (البقرة)

فقول الحق (جعل) يجعلنا ننتبه إلى الفارق بين « الخَلْق » و « الجَعْل» .

فالخلق قد عرفنا أمره ، وهو إيجاد الشيء من العدم ، أما الجَعْل فهو توجيه ما خُلِق إلى مهمته .

فأنت تجعل الطين إبريقاً ، والقماش جلباباً ، هذا بالنسبة للبشر ، أما الحق سبحانه فقد خلق المادة أولاً ، ثم هيّأ وأعدَّ ما خلق ليؤدى مهمته فى الكون .

فقوله تعالى (فراشاً) تُوحى بأنه أعدَّ الأرض إعداداً مريحاً للبشر ، كما نفرش على الأرض شيئاً ، تجلس عليه أو تنام عليه ، فيكون فراشاً يُريحك .

ونحن نتوارث الأرض جيلاً بعد جيل ، وهى تصلح لحياتنا جميعاً ، ومنذ أن خُلِقت الأرض إلى يوم القيامة ستظل فِراشاً للإنسان .

ورغم أن الحضارة تقدَّمتْ وزادت الرفاهية ، إلا أن الأرض ظلَّتْ فراشاً رغم ما وُجِد عليها من أشياء ليِّنة ، فكأن الله تعالى قد أعدَّها لنا إعداداً يتناسب مع كل جيل .

فكل جيل رُفِّه فى العيش بسبب تقدُّم الحضارة ، وكشف الله سبحانه لنا من العلم ما نُطوِّع به الأرض و نجعلها فراشاً .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ وَالأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ[1] (٤٨) ﴾ (الذاريات)

---

(١) المهاد : الفراش ، وقد مهدت الفراش مَهْدًا : بسطته ووطّأته . وأصل المهد : التوثير . يقال : مهدت لنفسى ، ومهَّدت . أى : جعلت لها مكانًا وطيئاً سهلاً . [لسان العرب - مادة : مهد].

ويقول : ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْداً وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ⑩ ﴾ (الزخرف)

المَهْد هو فراش الطفل ، ولا بد أن يكون مريحاً لأن الطفل إذا وَجد فى الفراش أيَّ شىء يتعبه فإنه لا يملك الإمكانات التى تجعله يُريحه ، ولذلك تمهد الأم لطفلها مكان نومه ، حتى ينام نَوْماً مريحاً .

ولكن الذى يُمهِّد الأرض لكل خلقه هو الله سبحانه وتعالى ، يجعلها فراشاً لعباده ، فالحق سبحانه جعل الأرض مطيعة للإنسان ، ذلولاً (1) ، تعطيه كل ما يحتاج إليه .

فالأرض مُسخَّرة من الحق سبحانه للإنسان ، يسعى فيها ، ويضرب فيها ، ويأكل من رزق الله الناتج منها .

ويأتى الحق سبحانه وتعالى إلى السماء ، فيقول :

﴿ وَالسَّمَاءَ بِنَاءً ... ㉒ ﴾ (البقرة)

والبناء يفيد المتانة والتماسك ، فالسماء سقف متماسك متين ، رغم أننا لا نرى شيئاً يحملها حتى لا تسقط علينا .

والحق سبحانه يقول :

---

(1) الذّل والذُّل : اللين ، وهو ضد الصعوبة . فهو ذلول ، يكون فى الإنسان والدابة . وذَلَّ الطريق : ما وُطِّىء منه وسُهِّل . [لسان العرب - مادة : ذلل] .

﴿ اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ[1] تَرَوْنَهَا .. ﴿٢﴾ ﴾ (الرعد)

ويقول : ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا .. ﴿١٠﴾ ﴾ (لقمان)

فالله خلق السماوات مرتفعةً قائمة بقدرته ، لا تستند على شيء ، وأنتم تنظرون إليها ، وتشاهدونها بغير دعائم ، أو بعمد غير العمد التى نعرفها ، ولكن الحق سبحانه رفعها بقوانين الجاذبية.

ويُؤكِّد الحق سبحانه هذا المعنى بقوله :

﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلاَّ بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾ ﴾ (الحج)

فالحق سبحانه خلق السماء وأبدعها ، ويحفظها من أن تقع على الأرض ، فهو الذى خلقها ويصونها ويحفظها .

والسماء هى هذا السقف المحفوظ الذى نراه ، والذى إذا نظرتَ فيه لا تجد فطوراً[2] ولا شرخاً ولا اعوجاجاً ، وهى قائمة بلا عمد ، فالسماء ممسوكة بقدرة الله تعالى .

---

(١) عمد الحائط يعمده عَمْدًا : دعمه . والعمود : الذى تحامل الثقل عليه من فوق كالسقف يُعمد بالأساطين المنصوبة . وعمد الشيء : أقامه . والعماد : ما أقيم به . وعمدت الشيء فانعمد أي: أقمته بعماد يعتمد عليه . [لسان العرب ـ مادة : عمد] .

(٢) تفطّر الشيء : تشقّق . والفَطْر : الشق . وجمعه فطور . ومنه قوله تعالى : ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ ﴿١﴾ ﴾ (الانفطار) ، أى : انشقت . ويقول تعالى : ﴿ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ﴾ (الملك) .

والحق سبحانه يقول :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا (٤١) ﴾ (فاطر)

فالله تعالى يطمئننا أنه وحده الذى يحفظ السماوات والأرض فى توازن عجيب ومذهل ، ولئن قُدِّر لهما أن تزولا فلن يحفظهما أحد بعد الله .

أى : لا يستطيع أحد إمساكهما ، فهما قائمتان بقدرة الواحد القهار ، وإذا أراد الله أن تزولا فلا يستطيع أحد أن يُمسكهما ويمنعهما من الزوال .

وقد جعل الحق سبحانه من الجاذبية نظاماً بديعاً يحفظ الكون من الاختلال ، فقد أوجد سبحانه قوانين الجاذبية ؛ لتمارس السماوات والأرض أعمالهما ، ويحفظهما بقدرته من الزوال .

والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ(١) وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ(٢) (٤٧) ﴾ (الذاريات)

---

(١) قال ابن كثير فى تفسيره (٤/ ٢٣٧) : « بأيد : أى : بقوة . قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة والثورى وغير واحد » . قال ابن منظور فى [لسان العرب ـ مادة : يدى] : « اليد : القوة ، وأيده الله ، أى : قوّاه ».

(٢) « أوسعه ووسَّعه : صيَّره واسعًا . وقوله تعالى : ﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ (٤٧) ﴾ (الذاريات) أراد : جعلنا بينها وبين الأرض سعة ، جعل أوسع بمعنى وسَّع » [لسان العرب ـ مادة : وسع]، وقال ابن كثير فى تفسيره (٤/ ٢٣٧) : « أى : قد وسعنا أرجاءها ورفعناها بغير عمد حتى استقلت كما هى » .

إن كمال قدرة الله تعالى أحكمت خَلْق السماء ؛ ولذلك كان خَلْق السماوات و الأرض أكبر من خلق الناس ، فقال تعالى :

﴿ لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٥٧) ﴾ (غافر)

لماذا ؟

لأن الناس من الأرض قد خُلقوا ، وبما في الأرض عاشوا ، فالأصل هو أن خَلْق السماوات والأرض أكبر من خَلْق الناس ، فالناس أبناء الأرض ، واقتياتهم منها ، وبقاء حياتهم عليها .

فالحق سبحانه خلق السماوات والأرض على غير مثال ، فسبحانه قد أبدع هذا الكون دون نموذج سابق ، وأنت أيها الإنسان قد لا تلتفت إلى مسألة خَلْق السماوات والأرض ، لأنك تراهما كل لحظة بصورة رتيبة .

وقد تظن أنها مسألة سهلة ، ولكن الحق سبحانه يُقسم أن خلق السماوات والأرض مسألة أكبر وأدقُّ من خَلْق الناس ، لكن أكثر الناس لا يعلمون ذلك .

فسبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ (٤٧) ﴾ (الذاريات)

ففي قوله **﴿ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾** إشارة إلى خَلْق هذا الكون المرئي وغير المرئي ؛

لأن هناك الكثير من الأجرام والمجموعات الشمسية ، وما وراء ذلك من اتساع ذلك الكون مَا لا يُدركه العقل ، ولا يمكنه تحديده ، وهذه السعة المذهلة هى من قدرة الله سبحانه وتعالى .

فالخالق سبحانه خلق السماوات بإتقانٍ بعضُها فوق بعض ، فلا يرى الناظر أىَّ خَلَل فى هذا الخَلْق ، فيقول تعالى :

﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا(1) مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ(2) فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ③﴾ (الملك)

و (فطور) هنا معناها شقوق .

إذن : فالحق سبحانه ـ بتمام قدرته - يعطى الشىء من الصفات ما يجعله صالحاً لأداء ما خُلِق له ، فلا يَظُن ظَانٌّ أنه خرج عن قدرة خالقه سبحانه ، وخلق السماوات و الأرض بتمام إبداع وإحكام .

وهو القادر سبحانه على أن يفطرهما ، ويجعلهما غير صالحتين فى أىِّ وقت شاء ، ومثلهما الشمس تُكوَّر(3) ، والنجوم تُطْمس ، والجبال تُنسف .

---

(1) السماوات الطباق : سميت بذلك لمطابقة بعضها بعضًا . أى: بعضها فوق بعض ، وقيل : لأن بعضها مطبق على بعض . { لسان العرب ـ مادة : طبق } .

(2) قال ابن كثير فى تفسيره (4/ 396) : « أى : بل هو مصطحب مستو ليس فيه اختلاف ولا تنافر ولا مخافة ولا نقص ولا عيب ولا خلل » . قال ابن منظور فى اللسان : « المعنى : ما ترى فى خلقه تعالى السماء اختلافًا ولا اضطرابًا » .

(3) كورت الشمس : جُمع ضوءها ولُفَّ كما تُلَفُّ العمامة . وقال قتادة : كوِّرت : ذهب ضوؤها . وقال عكرمة : نُزِع ضوؤها . { لسان العرب ـ مادة : كور } .

ولكن الله حفظ السماء من أن تسقط على الأرض ، فلنطمئن ونحن نعيش على الأرض ، فالحق سبحانه جعل الأرض فِراشاً ، أى : ممهدة ومريحة لحياة الإنسان .

وحفظ الحق سبحانه السماء بقدرته جَلَّ جلاله ، فهى ثابتة فى مكانها ، لا تهدد سكان الأرض وتفزعهم ، بأنها قد تسقط عليهم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ .. (٢٢) ﴾ (البقرة)

فكأن الحق سبحانه وتعالى وضع فى الأرض وسائل استبقاء الحياة ، فلم يترك الإنسان على الأرض دون أن يُوفِّر له وسائل استمرار حياته ، فالمطر ينزل من السماء ، والسماء هى كل ما علاك فأظلَّك ، فينبت به الزرع والثمر .

وهذا رزق لنا ، والناس تختلف فى مسألة الرزق ، والرزق هو ما يُنتفع به ، وليس هو ما تحصلُ عليه ، فقد تربح مالاً وافراً ، ولكنك لا تنفقه ولا تستفيد منه ، فلا يكون هذا رزقك ، ولكنه رزق غيرك ، وأنت تظل حارساً عليه ، لا تنفق منه قرشاً واحداً ، حتى توصله إلى صاحبه .

والرزق فى نظر معظم الناس هو المال .

قال ﷺ : « **يقول ابن آدم : مالي مالي .. وهل لك يا بن آدم من مالك إلا ما أكلت فأفنيت ، أو لبست فأبليت ، أو تصدقت فأمضيت** »[1] .

هذا هو رزق المال ، وهو جزء من الرزق ، ولكن هناك رزق الصحة ، ورزق الولد ، ورزق في الطعام ، ورزق في البركة .

وكل نعمة من الله سبحانه وتعالى هي رزق ، وليس المال وحده .

فالحق سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا بهذه الآية إلى أن نفكر قليلاً ، فيمَنْ خلق هذا الكون ؛ لنعرف أنه قبل أن يخلق الإنسان خلق له عناصر بقائه .

ومن عناصر بقاء الإنسان على الأرض الماء ، فالحق سبحانه وتعالى يُنزل الماء فتقوم به الحياة ، مِصْداقاً لقوله جَلَّ جلاله :

﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ... (٣٠)﴾ (الأنبياء)

فإنزال المطر هو من قدرة الله سبحانه وتعالى وحده ، ذلك أن عملية المطر فيها خَلْق بحساب ، وفيها عمليات تتم كل يوم بحساب أيضاً ، وفيها عوامل لا يقدر عليها إلا الله سبحانه وتعالى .

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤/ ٢٤ ، ٢٦) ، والترمذي في سننه (٢٣٤٢) ، والحاكم في مستدركه (٢/ ٥٣٤) من حديث عبد الله بن الشخير ، وقال الحاكم : « صحيح الإسناد وليس من شرط الشيخين ».

والحق حين خلق الأرض وضع فى الخلق حكمة المطر فى أن تكون مساحة الماء واسعة لتتمَّ عملية البَخْر بسهولة ، وجعل أشعة الشمس هى التى تقوم بعملية البخر من سطح الماء .

وتتم هذه العملية بحساب دقيق ، حتى لا تُغرق الأمطار الأرض ، أو يحدث فيها جفاف ، ثم سَخَّر الريح لتدفع السحاب إلى حيث يريد الله أن يُنزِل المطر ، وإلى قِمم الجبال الباردة ؛ ليصطدم بها السحاب فينزل المطر .

كُلُّ هذا بحساب دقيق فى الخلق ، وفى كل مراحل المطر ، والماء الذى ينزل من السماء هو الماء الصالح للرَّى وللسَّقى ؛ لأن المياه الموجودة فى الوجود هى مخازن للحياة ، وغالباً ما تكون مالحة ، كمياه البحار والمحيطات .

وشاء الحق سبحانه ذلك لحمايتها من العفن والفساد ، ثم تتم عملية تقطير المياه بأشعة الشمس التى تُحوِّل الماء إلى بخار ، ويتجمع البخار كسحاب ، ثم يسقط ماء عَذْباً مُقطَّراً صالحاً للشرب والرى .

ولكن قوله تعالى :

﴿ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ... (٢٢) ﴾ (البقرة)

هل هذا القول يعنى أن الماء فى السماء ؟

لا ، إن الماء أصلُه فى الأرض ، لكن ماء الأرض الثابت لا ينفع لرِيِّنا ، ولا

لرِيِّ زَرْعنا ، إنه مِلْح أُجَاج[1] مُرٌّ ، والذى يُوجَد علـى الأرض منه هو مخزون فـقط ؛ ولذلك وضع الله له المواد الكيـماوية التى تجعلـه لا يفسـد ، ولا تتـغيـر صفاته وطبيعته .

ثم تتـسع رقعـة الماء على قَـدْر اليابس ثلاث مـرات ، لماذا ؟ لأن الله يريد أن تتسع صـفحة الماء اتساعـاً يجعل للبخـر مصادر كبـيرة واسعة ، هذا البَـخْر هو عملية التقطير الإلهى .

إن إنزال الماء من السـماء هو الـذى نراه على هيئـة المطر ، لكن تسبق نزوله مراحلُ متعددة هى بَخْرٌ وتكثيف وتلقيح الرياح للسحاب وغيرها .

تلك المراحل المتـعددة اهتـدينا إليـها مُـؤخَّراً ، بدليل أنـنا حاولنا تقليـد هذه الدورة ؛ بأن نُبخِّر الماء المالح ونُكثِّفه لنستخرج ماء مُقطَّراً ، لكن ذلك له تكاليفه الماليـة العاليـة ، فكوب واحـد من الماء المقطَّر يسـتغـرق وقتًـا ويسـتلزم جُهْـداً وتكاليف ، بينما المعمل الإلهى يُدرُّ لنا ماء غدقاً[2] لا حصر لِكمِّياته .

إن هذا المعمل يعـمل ونحن لا ندرى ، إن الدورة المائية تبدأ بصعـود البخار من الماء، وبعد ذلك يصادف منطقة باردة ، فينزل ماء عَذْباً .

ومن دقَّة الخالق الحكيم سبحانه أن جعل منسوب الماء العَذْب دائماً أعلى من

(١) الملح الأجاج : هو الشديد الملوحة والمرارة . مثل : ماء البحر . [لسان العرب ـ مادة : أجج].

(٢) الغدق : المطر الكثـير العامّ . يقـول تعالى : ﴿ **وَأَن لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا** (١٦) ﴾ (الجن) . [لسان العرب ـ مادة : غدق] .

منسوب الماء المالح ، فلو كان منسوب المالح أعلى من العَذْب ، فَسيطغى عليه ويُفسده ، ولا نجد ما نشربه .

لكن الخالق الحكيم سبحانه جعل منسوب المياه العَذْبة فى الأنهار أعلى من ماء البحار والمحيطات حتى ينساب الماء من النهر إلى البحر ، وذلك لا يسبب ضرراً .

ويُوضِّح لنا الحق سبحانه دَوْر الرياح فى إنزال الماء ، فيقول :

﴿ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا[1] سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٥٧) ﴾ (الأعراف)

فالرياح هى التى تساعد فى تكوين الأمطار التى تنزل على الأرض ، فتروى التربة التى نحرثها .

وهكذا تكون الرياح بُشْرى فى أشياء :

الشئ الأول : تحريك طبقات الهواء ، وإلا لفسد الجوُّ فى كل جماعة تستقر فى مكان ، ولاستنشقوا الهواء الفاسد .

(١) قال ابن كثير فى تفسيره (٢/ ٢٢٢) : « أى : حملت الرياح سحابًا ثقالاً . أى : من كثرة ما فيها من الماء تكون ثقيلة قريبة من الأرض مدلهمة كما قال زيد بن عمرو بن نفيل :

وأسْلمتُ وَجْهِى لمن أسْلَمَتْ لَهُ المزْنُ تَحملُ عَذْبًا زُلالاً
وأسْلمتُ وَجْهِى لمن أسْلَمتْ لَهُ الأرْضُ تَحمِلُ صَخْرًا ثِقالاً

والعنصر الثانى لمقومات الحياة هو الماء ؛ لأن الرياح هى التى تحمل السحاب وتُحرِّكه وتنزل به مطراً على الأرض ، ونحرث نحن الأرض ونزرعها .

وهو سبحانه قال : (بُشْراً) ، لأن هناك فرقاً بين : بُشْرى ، وبُشْراً . فالبشرى مفرد ، وقد وردت فى قوله الحق :

﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ .. ﴿٦٩﴾﴾ (هود)

أى : التبشير .

لكن بشراً جمع بشير ، وهى كلمة مخففة ، والأصل فيها بُشُر .

وهى بين يدى رحمته ، لأنها ستأتى لنا بالماء ، وهو الرحمة فى ذاته .

﴿حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالاً ... ﴿٥٧﴾﴾ (الأعراف)

فأقلّتْ سحاباً ، أى : حملتْ سحاباً . ونحن نعرف أن السحاب هو الأبخرة الطالعة والصاعدة من الأرض ، ثم تتجمع وتصعد إلى طبقات الجوِّ العُلْيا ، وتضربها الرياح إلى أن تصادف منطقة باردة ، فيحدث تكثيف للسحاب فينزل المطر .

وترى هذا فى الماء المقطّر الذى يُحضِّرونه فى الصيدلية ، فيأتى الصيدلى بموقد وفوقه إناء فيه ماء ، ويغلى الماء ، فيخرج البخار ليسير فى الأنابيب التى تمر فى تيار بارد ، فيتكثف البخار ليصير ماء .

﴿حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ ... ﴿٥٧﴾﴾ (الأعراف)

فالحق سبحانه يسوق السحاب بالرياح إلى حيث يريد سبحانه ، فأنت قد تنتفع بمطر ينزل من سحابة فى غير مكانك ، ونحن ننتفع - فى مصر - بماء النيل ، برغم أن المطر ينزل فى جنوب السودان ، وفى هضاب الحبشة ، ولو اقتصرنا على الماء الذى ينزل من سماء مصر لكُنَّا قد هلكنا عطشاً .

فالحقُّ سبحانه يريد أن يلفتنا إلى أن نفكر قليلاً ، فيمن خلق هذا الكون ، لنعرف أنه قبل أن يخلق الإنسان خلق له عناصر بقائه.

ولكن هذا الإعداد لم يتوقف عند الحياة المادية ، بل إن الله كما أعدَّ لنا مُقوِّمات حياتنا المادية أعدَّ لنا مقومات حياتنا الروحية.

وإذا قرأت فى سورة الرحمن قوله تعالى :

﴿الرَّحْمَنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ الإِنسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (٤)﴾

(الرحمن)

لوجدتَ القرآن يُعطينا قيم الحياة ، التى بدونها تصبح الدنيا كلها لا قيمة لها ؛ لأن الدنيا امتحان أو اختبار لحياة قادمة فى الآخرة ، فإذا لم نأخذها بمهمتها فى أنها الطريق الذى يوصلك إلى الجنة ، أهدرت قيمتها تماماً .

وقد ربط الحق سبحانه وتعالى الرزق فى هذه الآية بالسماء ، فقال سبحانه :

﴿ فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ ... (٢٢)﴾ (البقرة)

ليلفتنا إلى أن الرزق لا يأتى إلا من أعلى .

وضرب الله سبحانه وتعالى المثل بالماء ؛ لأنه رزق مباشر محسوس منَّا ، والماء ينزل من السماء فى أنْقَى صوره مُقطَّراً ، فكل ما يأتينا من السماء فيه عُلُو ، ينزل ليزيد حياة القيم ارتقاء .

فقد أنزل الحق سبحانه من السماء ماء فى أنقى صوره ، لينبت به الثمرات ، التى تضمن استمرار الحياة فى هذا الكون .

وبعد أن نفهم هذه النعم كلها ، والإعجاز الذى فيها ونستوعبها يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٢) ﴾ (البقرة)

أنداداً : جمع نِدّ ، والند هو النظير أو الشبيه .

وأىّ عقل فيه ذرة من فكر ينأى [١] عن مثل هذا ، فلا يجعل لله تعالى شبيهاً ولا نظيراً ، ولا يُشبه بالله تعالى أحداً ، فالله واحد فى قدرته ، واحد فى قوته ، واحد فى خَلْقه ، واحد فى ذاته ، واحد فى صفاته .

ولا توجد مقارنة بين صفات الحق سبحانه وتعالى وصفات الخلق . والله خلق لكلٍّ منَّا عقلاً يفكر به ، لو عُرِضت هذه المسألة على العقل لرفضها تماماً ؛ لأنها لا تتفق مع عقل أو منطق .

(١) النأيُ : البعد . نأى ينأى : بَعُـد . والنأيُ : المفارقة . ونأى بجانبه : تباعد عن القبول . ويقول تعالى : ﴿ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ ﴾ (الإسراء : ٨٣) أى : أنأى جانبه عن خالقه متغانيًا مُعرضًا عن عبادته ودعائه . [لسان العرب ـ مادة : نأى] .

ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٢) ﴾ (البقرة)

أى : تعرفون هذا جيداً بعقولكم ؛ لأن طبيعة العقل ترفض هذا تماماً .

فمَنْ ذَا الذى يستطيع أن يدَّعى أنه خلقكم والذين من قبلكم ؟

ومَنْ ذا الذى يستطيع أن يدَّعى - ولو كذباً - أنه هو الذى جعل الأرض فِراشاً ، وجعل السماء سَقْفاً محفوظاً ، أو أنزل المطر ، وأنبت الزرع ؟

لا أحد ..

إذن : فأنتم تعلمون أن حكم العقل كله لله وحده ، وما دام لا يوجد معارض ولا يمكن أن يوجد ، فالقضية محسومة للحق تبارك وتعالى .

والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ .. (١٦٥) ﴾ (البقرة)

لماذا اتخذ هؤلاء الناس لله تعالى أنداداً ؟

لأنهم يريدون ديناً بلا منهج ، يريدون أن يُرْضوا فطرة الإيمان التى خلقها الله فيهم ، وفى الوقت نفسه يتبعون شهواتهم .

عندما فكروا فى هذا وجدوا أن أحسن طريقة هى أن يختاروا إلهاً بلا منهج ، لا يطلب منهم شيئاً .

ولذلك فكل دعوة منحرفة تجد أنها تبيح ما حرم الله ، وتُحِل الإنسان من كل التكاليف الإيمانية كالصلاة والزكاة والجهاد وغيرها .

أما الذين آمنوا فإنهم يعرفون أن الله سبحانه وتعالى إنما وضع منهجه لصالح الإنسان .

فالله لا يستفيد من صلاتنا ولا من زكاتنا ، ولا من منهج الإيمان شيئاً ، ولكننا نحن الذين نستفيد من رحمة الله ، ومن نِعَم الله ، ومن جنَّته في الآخرة .

ولأن الذين آمنوا يعرفون هذا فإنهم يُحبون الله حُباً شديداً ، والذين كفروا رغم كل ما يدَّعُون فإنهم ساعةَ العُسْرة يلجأون إلى الله سبحانه وتعالى باعتباره وحده الملجأ والملاذ .

واقرأ قوله تبارك وتعالى :

﴿ وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَائِماً فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ .. (١٢) ﴾ (يونس)

لماذا لم يستدع الأنداد ؟

لأن الإنسان لا يغُش نفسه أبداً في ساعة الخطر ، لأن هؤلاء يعرفون بعقولهم أنه لا يمكن أن يوجد لله أنداد ، ولكن الإنسان يتخذهم لأغراض دنيوية ، فإذا جاء الخطر يلجأ إلى الله سبحانه وتعالى ؛ لأنه يعلم يقيناً أنه وحده الذى يكشف الضُّرَّ .

وهذا مثل حلاق الصحة الذى يعالج الناس دجلاً ، حتى إذا مرض ابنه أسرع به إلى الطبيب لأنه يغش الناس ، ولكنه لا يمكن أن يَغُشَّ نفسه .

ولقد كان الأصمعى[(1)] واقفاً عند الكعبة ، فسمع أعرابياً يدعو فيقول :

« يا ربِّ ، أنت تعلم أنِّى عاصيك ، وكان من حَقِّك علىَّ ألاَّ أدعوك وأنا عاصٍ ، ولكنى أعلم أنه لا إله إلا أنت فلمَنْ أذهب ؟ » .

فقال الأصمعى : « يا هذا ، إن الله يغفر لك لحُسْن مسألتك »

والحق سبحانه يضرب مثلاً لهؤلاء الذين يدعون الله مخلصين له الدين ساعة الشدة ، فإذا انفرجت الشدة إذا هم يشركون ، فيقول تعالى :

﴿ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى البَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ (٦٥) لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٦٦) ﴾

(العنكبوت)

هم إذن قد آمنوا وهم فى الفُلْك ، وأخذوا يدعون الله حين واجهتهم أزمة فى البحر ، لكنهم ما إن وصلوا إلى الشاطئ حتى ظهر بينهم الشرك .

حين يسألهم السائل : ماذا حدث ؟

(١) هو عبد الملك بن قريب ، أبو سعيد الأصمعى ، راوية العرب وأحد أئمة العلم باللغة والشعر والبلدان . ولد بالبصرة عام (١٢٢هـ) كان كثير التطواف بالبلدان ، يقتبس علومها ويتلقى أخبارها ، توفى عام (٢١٦هـ) عن ٩٥ عاماً . (الأعلام للزركلى ٤/ ١٦٢) .

فيُجيبون : أنهم كانوا قد أخذوا حذرهم ، واستعدوا بقوارب النجاة ، ونَسُوا أن الله هو الذى أنقذهم فانطبق عليهم قول الحق سبحانه :

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا[1] لِّيُضِلُّوا عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ (٣٠)﴾ (إبراهيم)

فالناس إذا ركبوا الفلك دعوا الله مخلصين ، ولكنهم لم يدعوا الله دعوة الحمد ، ويقولوا :

﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ[2] (١٣)﴾ (الزخرف)

لم يقولوا ذلك ، ولكنهم دَعَوُا الله من خوفهم من مخاطر البحر ؛ لأن الدعاء عادة يأتى للإنسان فى وقت الشدة .

كما أن قول الله تعالى :

﴿ فلما نجاهم إلى البر ... (٦٥)﴾ (العنكبوت)

يدلُّ على أنهم ركبوا فى الفُلْك ، وتعرضوا لعطب لا تُنجِى منه الأسباب ؛ لذلك دَعَوُا الله .

---

(١) الند : المثل والنظير . وجمعه أنداد . قال تعالى : ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا ﴾ (إبراهيم: ٣٠) ، أى : أمثالاً شركاء .

(٢) أقرن له وعليه : أطاق وقوى عليه واعتلى . وقوله : ﴿ وما كنا له مقرنين (١٣) ﴾ (الزخرف) أى : مطيقين قادرين عليه [لسان العرب ـ مادة : قرن]، يقول ابن كثير فى تفسيره (٤/ ١٣٣) فى معنى الآية : « لولا تسخير الله لنا هذا ما قدرنا عليه » .

وفى آية أخرى يقول تعالى :

﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٢٢)﴾ (يونس)

كلمة ﴿ أُحِيطَ بِهِمْ ﴾ (يونس: ٢٢) معناها لا يوجد مَنْجَى ، ولا مَخْرج لهم ، ولا مَهْرَب ، ولا أسباب الدنيا تنفع فى هذا الموقف ، فهنا لا ملجأ لهم إلا الله ، فَدَعُوا الله مخلصين .

وكلمة ﴿مُخْلِصِينَ﴾ (يونس: ٢٢) معناها يقين اليقين فى الإيمان ، مع أنهم كانوا فرحين حينما كانوا فى أمان واطمئنان ، لماذا ؟

لأن الإنسان لا يخدع نفسه حينما يداهمه الخطر ، فحينما يحيط به الخطر وتعجز أسبابه عن دفعه يلجأ إلى الله ، ويترك الشركاء ، فتجده بفطرته يقول : يا رب .

فمعنى ﴿دعوا الله مخلصين له الدين(٦٥)﴾ (العنكبوت)

أى : لم يَعُدْ فى بالهم إلا الله ، فالآلهة التى كانوا يعبدونها والأصنام وغيرها لا تأتى على بالهم ؛ لأنهم يعلمون أنها كاذبة ، فليس أمامهم إلا الإله الحق ، وهو الله .

إذن : دعوا الله مخلصين ، أى دعوة دين خالص لله ، لا تشوبه شائبة شرك ظاهر ، أو شرك خفى ؛ لأن الإنسان لا يخدع نفسه ، فيلجأ إلى الله مباشرة .

إذن : ساعةَ تتعلق الأمور بمصالح خاصة يتنبه الإنسان فيها للحق ، فالإنسان فيه فطرة إيمانية ، فإذا طَهُرَتْ الفطرة الإيمانية فى الذات البشرية لا توجد إلا قوة واحدة هى قوة الله .

ولذلك ، حتى الملاحدة حين يقع الواحد منهم فى مأزق يقول : يارب .

وأى إنسان يقع فى مأزق تجده يصيح دون أن يشعر قائلاً : يارب .

معنى هذا أنه توجد فطرة إيمانية عند كل إنسـان ، ولكن الأغيار البشرية هى التى طمستْـها ، فإذا نامت الأغيـار البشرية بسبب حـدث من الأحداث ، تطفو الفطرة الإيمانية ، ويلجأ الإنسان إلى الله وحده .

★★★★

(٢) ... الحلال الطيب ..

وخطوات الشيطان

من رحمة الله عز وجل على عباده أنه لم يقصر الخطاب على الذين آمنوا ، وإنما وَسَّع الدائرة لتشمل المؤمنين وغيرهم ، فقال ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ﴾ ، فكأنه خلق ما في الأرض جميعًا للناس جميعًا .

يقول تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلالاً طَيِّبًا وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (١٦٨) إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ (١٦٩) ﴾ (البقرة)

وهذا ما قلنا عنه : إنه عطاء الربوبية لكل البشر ، مَنْ آمن منهم ومَنْ لم يؤمن ، فهو سبحانه خلق كل الخلق ، مؤمنهم وكافرهم .

وما دام قد خلقهم واستدعاهم إلى الوجود ، فهو يُوجِّه الخطاب لهم جميعاً ، مؤمنهم وكافرهم .

وكأن الخطاب يقول للكافرين : حتى ولو لم تؤمنوا بالله ، فخذوا من المؤمنين

الأشيـاء الحلال واستعـملوها ؛ لأنها تفيدكـم فى دنياكم - وإن لم تؤمنوا بالله - لأن من مصلحتكم أن تأكلوا الحـلال الطيب ، فالله لم يُحرِّم إلا كل ضَارٍّ ، ولم يُحلِّل إلا كل طيِّب .

هنا موقف يَـقِفُه كـثير من الذين أسـرفوا على أنفـسهم ، ويحـبون أن تكون قضيـة الدين وقضية التـحريم وقضية التـحليل قضايا كاذبة ، لأنهم لا يـنجيهم أمام أنفـسهم إلا أن يجدوا أشـياء يُكذِّبون بهـا الدين ؛ لأنهم لم يستطيـعوا أن يحملوا أنفـسهم على مطلوبات الله ، فلـما لم يستطيـعوا ذلك لم يجـدوا مَنْفَذاً لهم إلا أَنْ يقولوا : إن قضايا الدين كاذبة ، بما فيها التحليل و التحريم .

إنهم يقولون : ما دام الله قد حرَّم شيئاً ، فلماذا خلقه فى الكون ؟

كأنهم يعتـقدون أن كل مخلوق فى الأرض قد خُلِق ليـؤكل ، وما علموا أن لكل مـخلوق فى الأرض مـهـمـة ، فـهم الآن يُمـسِكون الحـيَّـات والثـعـابين ليستخلصوا منها السموم ، حتى يقتلوا بها الميكروبات التى تقتل الإنسان.

وقد كانوا قبل اكتشاف فائدة السُّمِّ فى الثعابين يتساءلون :

وما فائدة خلق مثْل هذه الثعابين ؟

فلمـا أحوجـهم الله ، وألجـأهم إلى أن يستـفـيدوا بما فى الـثعـابين من سُمٍّ ، ليـجـعلـوه علاجـاً أدركوا حكمـة الله من خلق هـذه الأنواع ، لقد خلـقهـا لا لنأكلها ، وإنما لنعالج بها .

فأنت إذا رأيتَ شيئاً مُحَرَّماً لا تَقُلْ : لماذا خلقه الله ؟ لأنك لا تعرف ما هى مهمته ، فليست مهمة كل مخلوق أنْ يأكله الإنسان ، إنما لكلٍّ مخلوق مهمة ، قد لا تشعر بأدائها فى الكون .

وهذه مسألة نستعملها نحن فى ذوات أنفسنا ـ على سبيل المثال ـ عندما يأتى الصيف ، ونخشى على ملابسنا الصوفية من الحشرات ، فنأتى لها بما يقتل الحشرات ، وهو « النفتالين » ، ونُحذِّر أبناءنا من الاقتراب منه وأَكْله .

إن « النفتالين » لا يُؤْكَل ، ولكنه مُفيد فى قتل الحشرات الضَّارة .

كذلك « الفنيك » نشتريه ، ونضعه فى زجاجة فى المنزل لِنُطهِّر به أى مكان مُلوَّث ، ونحذر الأطفال منه لأنه ضار لهم ، ولكنه نافع فى تطهير المنزل من الحشرات.

وكذلك المخلوقات التى لا نعرف حكمة خَلْقها ، لقد خلقها الله لمهمة خاصة بها ، فلا تنقل شيئًا من مهمته إلى مهمة أخرى.

وإذا كان الإنسان لم يدرك حتى الآن فائدة بعض المخلوقات ، فما أكثر ما يجهل ، وهو يكتشف كل يوم سِراً من أسرار مخلوقات الله.

وعلى سبيل المثال:

كانوا ينظرون إلى نوع من السمك لا يتجاوز حجمه عُقْلة الإصبع ، ولا يكبر أبدًا ، واحتاروا فى فائدته ، وعندما ذهبنا للسعودية ، ورأينا الأماكن التى

نأخذ منها الماء الذى قد يفسد ، ووجدنا هذا النوع من السمك بكثرة ، فسألناهم عن حقيقة هذا السمك ، فقالوا:

إنه لا يكبر ويظل على هذا الحجم ، ومهمته تنقية المياه فى الأماكن التى لا يقوم الإنسان بتنقيتها.

وجرَّبنا حقيقة ما قالوا ، فألقينا بعضًا من مُخلَّفات الطعام ، فوجدنا هذه الأسماك تخرج من حيث لا ندرى ، وتلقف هذه البقايا ، ولا تتركها حتى تُنهيها.

هكذا يخلق الحيُّ القيُّوم مخلوقات لتحفظ مخلوقات أخرى . هو سبحانه يقول للإنسان : لا تأكل هذا وكُلْ ذاك ، لحكمة قَدْ لا نعرفها.

مثال آخر: الطائر المعروف بـ « أبى قردان » صديق الفلاح . كانت وظيفته فى الحياة أن يأكل الحشرات والديدان عند رَىِّ الأرض ، ومنذ أن اختفى هذا الطائر بتأثير المبيدات استفحل خطر الديدان على الزرع وبخاصة دودة القطن ، إنها معادلة إلهية مركبة تركيبًا دقيقًا .

وكذلك الذباب ، يتساءل بعض الناس: ما حكمة وجوده فى الحياة؟

وهم لا يعرفون أن الذباب يؤدى للإنسان دورًا هامًا ، هو أكْل القاذورات وما بها من أمراض ، ولو تحصَّن الناس بالنظافة لما جاءهم الذباب.

إذن: فكُلُّ شىء فى الوجود مُرتَّب ترتيبًا دقيقًا ، إنه ترتيبُ خالقٍ عليمٍ

حكيم ، وما دام الحكيم هو الذى خـلق ، فلا يعترض أحـد ، ويقول : لماذا خلق كذا وكذا ؟ لأن لكل مخلوق دورًا يؤديه فى الكون.

ولذلك يُنبه الخالق الناس- مؤمنهم وكافرهم- بأن يأكلوا الحلال الطيب من الأرض ، وهو يقول للكَافر: إنك إنْ تعقلتَ الأمـور لوجدتَ أن كُلَّ ما أمرتك به هو لصـالحك ، وحـتى لو لـم تؤمن ، فـأنا أدلُّك على مـا ينفع ، فـلا تأكل إلا الحلال الطيّب ، وانظر إلى المؤمنين بماذا سُمِح لهم ، وكُلْ مثلهم .

وقـد أثبت الواقع والتـاريخ أن الكافـرين يلجـأون إلى منهـج الله فى بعض الأقـضيـة ؛ ليـحلُّوا مشـاكل حـياتهم ، لا بدين اللـه كدين ، ولكن بأوامـر الله كنظام ، فلو كان عنـد الكافرين بالله حكمة حـتى فيمـا يتعلق بشئـون دنياهم ، لأخذوا ما أمر الله به المؤمنين واتبعوه.

والمثال على ذلك: عندما يُحرِّم الحق سبحانه وتعالى لحم الميتة (١). أى : التى ماتت ولم تُذبح ، إن لحمها ضَارٌ بالصحة ؛ لأن أوعية الدم فى الحيوان وفى كل كائن حَيٍّ هى وعاءان:

إما أوردة ، وإما شرايين . والـدم قبل أن يذهب إلى الكُلَى أو الرئة يكون دمًا

---

(١) يقـول تعـالى : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ ... (٣) ﴾ (المائدة). ويقـول :﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ .. (١٧٣) ﴾ (البقرة) ويقول : ﴿ قُل لاَّ أَجِدُ فِيمَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٤٥) ﴾ [الأنعام] ويقول: ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ .. (١١٥) ﴾ (النحل) ، فكلها بدأت ذكر المحرمات بذكر حرمة أكل الميتة.

فـاسدًا ، ونحـن عندمـا نذبـح الحـيوان يسـيل منه الدم الفـاسـد وغيـر الفاسـد ويخرج ، ويصير اللحم خالصًـا ، لكن الحيوان الذى لم يذبح أى لم يُذَكَّ [1] ، يعنى لم يَطْهُر من فساد الدم ، وهو ضَارٌّ للإنسان.

والحق سبحانه وتعالى عندما يقول ﴿يا أيها الناس﴾ فكأنه يدعو غير المؤمنين: لو عقلتم ، لَوجَب أن تحتاطوا لحياتكم بألاّ تأكلوا إلا حلالاً أحلَّه الله للمؤمنين.

وقد قال الحق سبحانه :

﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ... (٤) ﴾ (المائدة)

أى: أن كل طيِّب قد حَلَّـله الله ، وكل خبيث حـرمه الله ، فـلا تقولن : هذا طيب فيجب أن يكون حلالاً ، وهذا خبيث فيجب أن يكون حرامًا.

ولكن قُلْ: هذا حـلال فيجـب أن يكون طيبًـا ، وهذا حرام فيـجب أن يكون خبيثًا.

وإياك أن تحكم أولاً بأن هذا طيِّب وهذا خبيـث ، ثم تبنى على ذلك التحريم والتحـليل، فأنت لا تعـرف مثلمـا يعرف خـالقك عن كيـفية وجـدوى ترتيب الأشيـاء بالنسبة لك ، حتى لا تقعَ في دائـرة الذين يستطيبون المسـائل الضارة ، كهؤلاء الذين يتناولون المخدرات والسموم.

(١) الذكاة والتذكـية: الذبح والنحر. ومعنى التذكـية: أن تدركها وفيـها بقية تشخب مـعها (أى: تسـيل دمًا) الأوداج (هى العـروق التى تحـيط بالعنـق). وأصل الذكـاة فى اللغـة كلهـا: إتمام الشىء. [لسان العرب- مادة: ذكا].

بل يجب أن تحرص على فَهْم مـا أحل الله فستراه طيبًـا وترفض ما حرَّم الله لأنه خـبيــث ، فلا تظن أبدًا أن كـل طيب ظاهريًا مُـحلَّل لك ؛ لأن هذا الشىء الطيب فى ظاهره قد يكون خبيثًا.

وعليك أن تترك تحديد الطيِّب والخبـيث لخالقك ، فهو أدْرَى بك وبالمناسب لك.

أما أنت فتعرف الشىء الطيب من تحلـيل الله له ، وتعرف الخبيث من تحريم الله له ، والحـكم هنا يكون للـتكليف ، فــالله هو الذى خلق ، والـله هو الذى يعلم الصالح للإنسان.

فالمسألة إذن ليست العناصر، ولكنهـا إرادة الخالق لتلك العناصر ، فهو الذى قدَّر فهدى.

الخلاصة إذن فى هذا الموضوع هى:

أن الحق سبحانه أحلَّ للمؤمنين الطيبات ، وكلُّ شىء أحله الله يكون طيبًا ، وكلُّ شىء حرَّمه الله يكون خبيثًا.

فلا تنظر إلى الآراء البـشرية التى يقول بعضهـا على شىء : إنه طيب فيكون حـلالاً ، وإن ذلك الشىء خبـيث فيكون حـرامًا ، فـأنت وغيـرك من البشـر لا يعرفون ترتيب الأشياء ، ولا فائدتها ، ولا مَضرَّتها بالنسبة لك .

والدليل : أن البـشر يتـدخلون فى بعض الأحـيان فى تحـريم أشيـاء بالنسبـة لبعـضهم البـعض ، فنجد الطبـيب يقول للمـريض: أنت مريض بالسـكر ، فلا يصح أن تتناول النشويات والسكريات.

فإذا كنـا نسمع كلام الـطبيب ، وهو من البـشر ، أفلا يـجدر بنا أن نسـتحى ونستمع لأمر الخالق؟

بل إننا نتجاسر ونسأل: لماذا حرَّمْتَ علينا يا رب الشىء الفُلانى؟

وقد يُخطئ الطبـيب ، لكن الله لا يمكن أن يخطئ ، فهـو ربنا المأمون علينا ، فما أحلَّه الله يكون الطيِّب ، وما حرمه يكون الخبيث.

وهذه قـضية يتـعرض لهـا أُنَاس كثـيرون . فـعلى سبـيل المثال: نسـمع مَنْ يستشهد الاستشهاد الخاطئ وفى غـير مَوْضعه ، بقول الحقِّ سبحانه: ﴿ **لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا**[1] ... (٢٨٦) ﴾ (البقرة) ويقول: إن عملى يأخذ كل وقتى ، ولا فُسْحة عندى لإقامة الصلاة ، والله لم يُكلِّفنا إلا ما فى الوُسْع.

ونقول: وهل أنت تَقْدُر الوُسْع وتبنى التكليف عليه؟

لا. عليك أن تسـأل نفـسك: أكلَّفـك الله بالصـلاة أم لا؟ فـإذا كـان الحق سبـحانه قد كلفك بالـصلاة وغيرهـا من أركان الإسلام ، فـهو الذى علم وُسْع الإنسان فى العمل ، ويجب أن تقدم التكليف أولاً لتـعرف طاقة الوُسْع من بعد ذلك.

وكذلك اسأل نفسك عَمَّا حَلَّله الله ، واعـرف أنه طيِّب ، وما حرمه الله فهو خبيث.

---

(١) الوُسْع: طاقة المرء وجـهده. قال ابن كثيـر فى تفسيره (١/ ٣٤٢): «أى: لا يكـلف أحدًا فوق طاقته، وهذا من لطفه تعالى بخلقه ورأفته بهم وإحسانه إليهم».

وإذا سألنا : ما تلك الطيبات؟

عرفنا أنها غير ما حرَّم الله ، فكل غير مُحرَّم طيب.

والحق سبحانه يقول:

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلالاً قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ (٥٩) ﴾ (يونس)

فالحق سبحانه حدَّد لك من الطعام ما يستبقى حياتك ، ويعطيك وَقُودًا لحركة الحياة ، فعامل نفسك كما تُعامل الآلة التى تصنعها ، فأنت تُعطى كل آلة الوقود المناسب لها لتؤدى مهمتها.

كذلك جعل الله سبحانه تلك المواصفات التى تنفعك وتستفيد منها ، وتؤدى حركات الحياة بالطاقة التى يمدّك بها ما حلله الله لك، وكذلك حرّم الله عليك مَا يضرك .

إياك أن تقول : ما دامت هذه الأشياء تضرُّنى فلماذا خلقها الله ؛ لأن عليك أن تعرف أن هناك فارقًا بين رزق مباشر ، ورزق غير مباشر ، وكل ما فى الكون هو رزق.

ومثال ذلك: النار ، فأنت لا تأكل النار ، لكنها تُنضِج لك الطعام.

إذن: فهناك شىء مخلوق لمهمة تساعد فى إنتاج ما يفيدك.

والحق سبحانه قد حلّل لك- على سبيل المثال- لحم الضأن والماعز، والإبل والبقر وغيرها ، وحرّم عليك لحم الخنزير، فلا تسأل: لماذا خلق الله الخنزير؛ لأنه خلقه لمهمة أخرى ، فهو يُلَمْلِم قاذورات الوجود ويأكلها ، فهذا رزق غير مباشر ، فاتركه للمهمة التى أراده الله لها.

وبعض الناس قـد حرَّم عـلى نفسـه أشـياء حللهـا الله تعـالى ، وهـم بذلك يُضيّقون على أنفسهم ، ويظن البعض أنه حين يُحلِّل ما حرّم الله أنه يُوسِّع على نفسه ، فيأمر الحق سبحانه رسوله ﷺ أن يقول:

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ... ﴿٥٩﴾ ﴾ (يونس)

أي: أخبـرونى ما أنزل الـله لكم من رزق ، وهو كل مـا تنتـفعـون به ، إمـا مباشـرة ، وإما بالوسائط ، فكيف تتدخلون بالتـحليل والتحريم ، رغم أن الذى أنزل الرزق قد بيَّن لكم الحلال والحرام؟!

وما دام الحق سـبحـانه هو الذى أنزل الرزق ، وبيَّن الحلال والحـرام ، فلماذا تُدخِلون أنوفكم فى الحـلال والحرام ، وتجـعلون بعض الحلال حـرامًا ، وبعض الحرام أو كُلَّ الحرام ـ حلالاً؟

لماذا لا تتركون الجَعْل لمن خلق ، وهو سبحانه أَدْرَى بمصلحتكم؟

﴿ قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ (يونس)

أى: هل أعطاكم الله سـبحـانه تفـويضًا فى جَـعْل الحلال حـرامًا ، والحـرام حلالاً؟

وهذا تعدٍّ مـا كان يجب أن يقتـرفوه ؛ لأن الحق سـبحانه هو خـالقهم ، وهو خالق أرزاقهم ، وفى هذا كذب مُتعمَّد على الله سبحانه.

إن كل فساد ينشأ فى الكون حينما نجعل مخلوقًا لله فى مهمة غير تلك التى جعلها الله له ، والحق سبحـانه وتعالى يبلغنا أنه الذى خلق الإنسان ، وخلق له ما يُـقيتــه ، وما يحفـظ نوعـه ، فعلينا أن نتـبع ما يأمـر به الحقُّ من اتِّباع مـا هو حلال ، والابتعاد عما هو حرام.

وإنْ قال قائل: ولماذا حرّم الله بعض الأشياء التى خلقها ؟

نقول: إن الذى خلقها جعلها لمهمة غـير المهمة التى يريد الإنسان أن يُوجِّهها له. ومثال ذلك تحريم أكل لحم الخنزير.

والإنسان منَّا إذا مـا رأى صورة من معـيشة الحـيوانات فى الغابة يتـعجب ، ففضلات حيوان هى غذاء لحيوان آخر، وسُمُّ الثعبان هو حماية وعلاج.

ونعرف أن الإنسـان يستـخلص سُمَّ الثعـبان ليسـتخـرج منه علاجًـا لبعض الأمراض ، ولقتْل بعض الجراثيم.

ولذلك يقول سبحانه:

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلالاً قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ (59) ﴾ (يونس)

كيف إذن نجعل من أنفسنا مُشرّعين ، نحلل الحرام ونحرم الحلال؟

إن الله الذى خلق كل شىء لم يمنحنا الإذن بذلك ، وعلينا أن نُسلِّم بأن كل شىء مخلوق لمهمة ، فلا يصحُّ أن نوجه شيئًا إلى غير مهمته.

وتوجيه أشياء إلى غير ما جُعِلتْ له أنتج آثارًا ضارة.

ومثال ذلك: استخدامنا لمبيـدات الحشرات فى الحقول، تلك المبيدات أبادتْ الضارّ فى نظرنا ، وأبادتْ النافع أيضًا.

وعلى الإنسان ـ إذن ـ أن ينتبه جيدًا ، فلا يساوى بين الحرام والحلال ، وأن ينتبه تمامًا فلا يتعدَّى الجَعْل المخلوق لله.

والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالاً طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ (٨٨) ﴾

(المائدة)

حين يقول سبحانه ذلك ، فالمقصود به أن يأكل الإنسان من الرزق الحلال الطيب.

إذن: فهناك رزق حرام . مثال ذلك : اللص الذى يسرق شيئًا ينتفع به ، هذا رزق جاء عن طريق حرام ، ولو صبر لجاءته اللُّقْمة تسعى إلى فمه ؛ لأنها رزقه.

أو : الرزق هو ما أحلَّه الله.

وهنا اختلف العلماء ، وتساءل البعض : هل الرزق هو الحلال فقط ، والباقى ليس رزقًا ؟

وتساءل البعض الآخر : هل الرزق هو ما ينتفع به ، ومنه ما يكون حلالاً ، ومنه ما يكون حرامًا ؟

فأمر التحليل والتحريم موكـول إلى خالق الآلة الإنسانية ، إياك أيها الإنسان أن تُحرِّم ما أحلَّ الله لك ، وإياك أن تُحلِّل ما حرَّم الله عليك.

إذن: فلا اعتـقاد فى شيء حلال أنه حرام ، ولا قَـوْل بمثل ذلك ، ولا امتناع عنه ، ولا يُفتى إنسان بمثل ذلك.

ولذلك يقول الحق تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (٨٧) ﴾ (المائدة)

ونحن نعرف أن الاعتـداء إنما هو أن نتجاوز الحدَّ فـيما حرَّم أو فـيما حَلَّل ، والحق سـبحـانه يحب مَنْ يقف عند حـدود الله ، فلا يـقربهـا الإنسان حـتى لا تحدِّثه نفسه بمعصية ، وعندما يبتعد المسلم عنها فهو يتقى الشبهات.

والحق سبحانه يبين لنا أنه قد أحل لـنا كذا ، وحرم علينا كذا ، وهو الخالق ، فيجب أن نأخذ من الخالق مواصفات ما يُبقى لنا الحياة.

هذا الإبقـاء هو مـا نصنعه نـحن ، حينمـا نختـرع آلة تُوفِّر علينـا الحركـة ، وتعطينا الثمرة بأقـل مجهود . فحين يصنع الصـانع آلة من الآلات يصنع لها ما يُوجِد لها الطاقـة لتقوم بعملها ، ولا يستطيع المستعمل لهذه الآلة أن يُغيِّر وقود هذه الطاقـة ، فإن غيَّـر نوع الطاقة ، فـالآلة لا تؤدى مهـمتـها ، فمـا بالنا بالذى خلق؟

إنه حين يُوضِّح أن هـذه الآلة لا تصلح إلا بما أحللـت ، ولا يصح أن تدخل عليها ما حرَّمت عليك.

هنا يجب أن نطيع الخالق ؛ لأنه هو الذى يعلم مـا يصلح لنا وما لا يصلح ، ولم يَدَّعِ أحد فـى الكون أنه خلق نفسـه ، فَلْنَرُدّ اقتـياتنا (١) وحفظ حـياتنا إلى خالقنا ، ولنأخذ ما حلله ونبعد عَمَّا حرمه.

فالآلة ـ الإنسان ـ تصلح بأن تفعل الحلال ، وأن تترك فِعْل الحرام.

إذن: هناك أشياء تُفـعل ، وهناك أشياء لا تُفعل ، وهناك أشياء لم يـأت فيها الحِلُّ أو الحرمـة ، فإن أقبل عليهـا الإنسان تصلح ، وإن لم يقبل عليهـا الإنسان فهى تصلح أيضًا . وهو سبحانه يقول مرة :

﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَقْرَبُوهَا .. (١٨٧) ﴾ (البقرة)

﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَعْتَدُوهَا ... (٢٢٩) ﴾ (البقرة)

ففى المنهيات : لا تقترب . وفيما أحله الله : لا تتعدَّ .

لذلك جاء القول على لسان الرسول الكريم ﷺ :

« الحلال بيِّن ، والحرام بيِّن ، وبينهما مشتبهات ، لا يعلمها كثير من الناس ، فمن اتقى المشتبهات فقد استبرأ(٢) لدينه وعِرْضه ، ومن وقع فى المشتبهات وقع فى الحرام ، كراعٍ يرعى

(١) القوت: ما يمسك الرمق من الرزق. والاقتيات والقوت، واحد. وهو فى قائت من العيش أى فى كفاية. والمقصود به ما دون الكماليات ، أى : ما يحفظ الحياة على الإنسان.

(٢) الاستبراء : الاستنـقاء والبراءة . قال النـووى فى شرح مسلم (١١/ ٣١) : « أى : حصل له البراءة لدينه من الذم الشرعى ، وصان عرضه عن كلام الناس فيه » .

حول الحمَى(١) يُوشك أنْ يُواقعه، ألا وإن لكل ملك حمىً ألا وإن حمى الله تعالى فى أرضه محارمه، ألاَ وإن فى الجسد مُضْغة(٢) إذا صلُحَتْ صلُحَ الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كلُّه ، ألاَ وَهى القلب »(٣) .

والحق سبحانه وتعالى يعلم أن النفس البشرية إذا حُرم عليها شىء ولم تَحُمْ حـوله كان ذلك أَدْعى ألاَّ تفـعله ، فاللـه تعالى حين حَـرَّم الخمـر مثـلاً لم يَقُل حرمتُ عليكم الخمر ، وإلا كنا جلسنا فى مجـالس الخمر مع الذين يشربونها ، أو نتاجر فيها .

وهذا كله إغراء بشرب الخمر ، ولكن الحق سبحانه قال فى شأن الخمر :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ(٤) وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٩٠) ﴾ (المائدة)

(١) الحمَى : موضع فيه كـلأ يُحمـى مـن النـاس أن يُـرْعى . [لسـان العـرب ـ مادة : حـمـى] .قال النووى : « معناه أن الملوك من العرب وغيرهم يكون لكل ملك منهم حمى يحـميه عن الناس ، ويمنعهم دخوله ، فمن دخله أوقع به العقوبة، ومن احتاط لنفسه لا يقارب ذلك الحمى خوفًا من الوقوع فيه ، ولله تعالى أيضًا حمى ، وهى محارمه، أى : المعاصى التى حرمها الله ، كالقتل والزنا والسرقـة والقذف والخمر والكذب والغيبة والنميمـة وأكل المال بالباطل وأشباه ذلك ، فكل هذا حمى الله تعالى ، من دخله بارتكابه شيئًا من المعاصى استحق العقوبة ، ومن قاربه يوشك أن يقع فيه ، فـمن احتاط لنفسه لم يقاربه ، ولا يتعلق بشىء يقـربه من المعصية ، فلا يدخل فى شىء من الشبهات» [شرح النووى على صحيح مسلم ١١ / ٣٢].

(٢) المضغة : القطعة من اللحم . وقلب الإنسان مضغة من جسده [لسان العرب ـ مادة : مضغ].

(٣) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٥٩٩) ، والبخـارى فى صحيحه (٢٠٥١) من حديث النعمان ابن بشير رضى الله عنه .

(٤) الأنصاب : جـمع نُصُب ، وهو ما يُنصب ليعـبد من دون الله ، أو ليذبح عـنده الذبائح تقربًا إليه ، أو إلى الأصنام ، وكان حول الكعبة «أنصاب» يعبدونها ويذبحون عندها الذبائح . والأزلام : جمع زَلَم ، وهو قطعـة من الخشب تشبه السهم يقـترعون بها . وقـد كانت لقريش فى الجاهليـة مكتوب عليهـا أمر ونَهْى ، وافعـل ولا تفعل ، قد زُلِّمتْ وسُـوِّيتْ ووضعت فى الكعبـة للاقتراع بهـا، فإن خرجت بالفـعل فعل ، وإن خرجـت بعدم الفعل لم يفـعل ، وكان يتولاها سدنة البيت .

هذا النصُّ الكريم قد جعلنا نبتعد عن الأمـاكن التى فيها الخمور ، فلا نجلس مع مَنْ يشربونها ، ولا نتاجر فيها حتى لا نقع فى المعصية .

فإذا رأيتَ مكانًا فيه خمر فابتـعد عنه فى الحال ، حتى لا يُغريك منظر الخمر وشاربها بأن تفعل مثله .

والحق جل جلاله يقول فى المحرمات : لا تقربوا ، واجتنبوا .

أى : لا تحومـوا حولها ؛ لأنهـا إذا كانت غائبة عنـك فلا تخطر على بالك ، فلا تقع فيها .

ومثال هذا أيضًا قول الحق سبحانه :

﴿ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ (١) فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (١٨٧) ﴾ (البقرة)

فلا تجـعل امرأتك تأتيك وأنت فى مُـعْتَكَفِك ، فقـد تكون جميلة ، صـحيح أنك لا تنوى أنْ تفعل أىَّ شىء ، لكن عليك ألاَّ تقربَ أسباب النواهى .

إذن : فَلِكَىْ تمنع نفسك من تلك المحرَّمـات فعليك ألاَّ تقربَ النواهى ، وفى الأوامر عليك ألاَّ تتعداها .

---

(١) العكوف : الإقـامة فى المسـجـد . ويقال لمن لازم المسـجد وأقـام على العـبادة فـيه : عـاكف ومعتكف . والاعتكاف والعكوف : الإقامة علـى الشىء وبالمكان ولزومهما . [لسان العرب ـ مادة : عكف] .

فالحق سبحانه يريد أنْ يمنع تأثيـر المحرمات على النفس ، التى تُلحّ عليها أن تفعل ، فإنْ كنتَ بعيدًا عنها ، فالأفضل أنْ تظل بعيدًا .

والله تعالى يقول :

﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُم مِّنْ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١) ﴾

(الأنعام)

وهذا نَهْى عن القُـرْب ، أى نَهْىٌ عن الملابسات التى قد تـؤدى إلى الفعل ، لا نَهْى عن الفعل فقط ، فحينما أراد الله أنْ يُحرِّم على آدم وعلى زَوْجه الشجرة قال :

﴿ وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (١٩) ﴾ (الأعراف)

لأن القُرْب قد يُغرى بالأكل ، وكـذلك (لا تقربوا الفواحش) . أى : لا تأتى إلى مُقَدِّمات الفواحش بأن تلقى نظرة أو تحدّق النظر إلى مُحرَّمات غيرك .

وكذلك المرأة التى تتبرج [١] ، إنها تقوم بالإقبال عـلى مقدمات الفواحش ، فإذا امتنعت عن المقدِّمات أمنت الفتنة والزَّلَل .

وحين ينهـانا الحق سبحـانه عن الاقـتراب من شىء ، فـهذه هـى استـقامـة الاحتياط .

---

(١) التبرج : إظهار الزينة ، وما يُسْتدعى به شهوة الرجل . [لسان العرب ـ مادة : برج] .

وهى قد تسمح لك بأن تُدخِل فى التحريم ما ليس داخلاً فيه ، فمثلاً عند تحريم الخمر ، جاء الأمر باجتنابها ، أى : الابتعاد عن كل ما يتعلق بالخمر ، حتى لا يجتمع المسلم مع الخمر فى مكان .

ولذلك يأمرنا الحق سبحانه بالاستقامة وعدم الطغيان ، استقامة فى تحديد المأمور به والمنهى عنه ؛ ولذلك كان الاحتياط فى أمر العبادات أوسع لمن يطلب الاستقامة .

ولذلك يطلب الشارع الحكيم سبحانه منّا فى الاحتياط أن نحتاط مرة بالزيادة ، وأنْ نحتاط مرة بالنقص ، فحين تصلى خارج المسجد الحرام ، يكفيك أنْ تكون جهتُك الكعبة .

أما حين تصلى فى المسجد الحرام ، فأنت تعلم أن الكعبة قسمان : قسم بنايته عالية ، وقسم اسمه «الحطيم» (١) ، وهو جزء من الكعبة لكن نفقتهم أيام رسول الله ﷺ قد قصرت ، فلم يبنوه (٢) .

---

(١) الحطيم : الجدار . وهو هنا جدار الكعبة . قال الأزهرى : الذى فيه المزراب ، وإنما سمى حطيمًا لأن البيت رُفع ، وترك ذلك محطومًا . [لسان العرب ـ مادة : حطم] .

(٢) عن عائشة رضى الله عنها قالت : سألت رسول الله ﷺ عن الجدر (هو حجر الكعبة) : أمن البيت هو ؟ قال : نعم . قلت : فلم لم يدخلوه فى البيت ؟ قال : إن قومك قصرت بهم النفقة . قلت : فما شأن بابه مرتفعًا ؟ قال : فعل ذلك قومك ليدخلوا من شاؤوا ، ويمنعوا من شاءوا ، ولولا أن تنكر قلوبهم لنظرت أن أدخل الجدر فى البيت وأن ألزق بابه بالأرض » متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (١٥٨٤) وكذا مسلم فى صحيحه (١٣٣٣ ـ رواية رقم ١٠) .

لذلك فـأنت تتجـه ببـصرك إلى البناء العالى المقطوع بكـعبـيتـه . وهذا هو الاحتياط بالنقص .

أما الاحتيـاط بالزيادة ، فمثال ذلك : هو الطواف ، وقد يزدحم البـشر حول الكعبة ، ولا تسمح ظروفك إلا بالطواف حول المسجد .

وهكذا يطول عـليك الطواف ، لكنه طـوافٌ بالزيادة ، فـعند الـصـلاة يكون الاحتياط بالنقص ، أما عند الطواف فيكون الاحتياط بالزيادة .

وهكذا نجد الاحتياط هو الذى يحدد معنى الاستقامة .

والحديث الشريف يوضح المسألة ، فيقول النبى ﷺ :

«مَنْ حَامَ حول الحمَى أوشك أنْ يُواقِعه»

فالمحرَّم ابتعِدْ عنه نهائيًا .

والحلال لا تتعدَّه ، وتوقَّف عند آخره .

وقد تكون هناك مـسائل يختلف فيـها الفقهاء ، ولذلك سنـفترض أن الذين يقولون بالحِلِّ مساوون للذين يقولون بالحرمة .

ماذا قال المشرِّع فيما إذا كان هناك أناس يُحِلون ، وأناس يُحرِّمون ؟

الحديث قال : «فمن ترك الشبهات» ، ولم يَقُلْ : «فمَن فعل الشبهات» .

فالأصل هو تَرْك ما فـيه شبهة حـرام ، ومَنْ ترك ما شُبِّه له اسـتبرأ لدينه ـ إن كان متدينًا ـ ولعِرْضه (١) إن لم يكن متدينًا .

(١) قال ابن الأثير : العرض موضع المدح والذم من الإنسان ، سواء كان فى نفسه أو سلفه أو مَنْ يلزمه أمره . [نقله ابن منظور فى اللسان ـ مادة : عرض] .

قد يكون الإنسان مُلْحدًا وغير مؤمن ، نقول له : استبرئ لعِرْضك .

فكُلُّ مَنْ لا يترك ما تشـابه عليه من الحلال والحرام فهو لم يسـتبرئ لا لدينه ولا لعِرْضه (١) .

إن التشريع يسمح لك ـ على سبيل امثال ـ أن تأكل مما تملك ، أو تأكل مما لا مـالكَ له ، كنبات الأرض غـير المملـوك لأحد ، إلا أنك قـبل أن تأكلَ لا بُدَّ أنْ تنظر فى الطعام ، لتعرف : هل هو ممّا أحلَّ الله أم لا ؟

والتشريـع لا يسمح لك أنْ تأكلَ من نبات الأرض المملوك لغيـرك ، ويُحرِّم عليك أنْ تصطاد حيوانات مملوكةً لغيرك ، فالتشريع يحترم الجهد الذى تحرك به مالك الأرض ليزرع النباتَ أو ليُربى الحيوان .

فَـلاَ تَقُلْ : إن ذلـك النبـات فى الأرض وأنا آكُل منـه ، أو أن ذلك حـيـوانٌ موجودٌ أمامى وأنا اصْطدته.

والحق سبحانه يقول:

﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (١٦٨) ﴾ (البقرة)

لماذا لا نتبع خطوات الشيطان ؟

لأن عداوته للإنسـان عداوة مُسْبقـة ، وقف من آدم هذا الموقف ، وبعد ذلك أقسم بعزة الله أن يُغويكم جميعًا.

وإذا كان الحق سبحانه وتعالى قد حكى لنا القصة فكأنه أعطانا المناعة ، أى : أن الشيطان لم يفاجئنا .

(١) يرجع لكشف الشبهات عن المشتبهات للشوكـانى ، ففيه تفصيل مهم لشرح حديث « الحلال بين والحرام بين وبينهما أمور مشتبهات ».

وإنما وضع الحق أمامنا قصة الشيطان مع آدم واضحة جلية ليعطينا المناعة، بدليل أننا حين نريد أن نصون أجسامنا نجعل لأنفسنا مناعة قبل أن يأتي المرض ، فنُطعِّم أنفسنا ضد شلل الأطفال ، وضد الكوليرا ، وضد كذا ، وكذا.

فكأن الله سبحانه وتعالى يذكر قصة الشيطان مع أبينا آدم ليقول لنا ؛ لاحظوا أن عداوته مُسْبَقة .

وما دام له معكم عداوة مُسْبقة فلن يأخذكم على غِرّة ، لأن الله نبهكم لتلك المسألة مع الخلق الأول .

والشيطان عندما يُذكر في القرآن يُراد به مرّة عاصي الجن ؛ لأن طائع الجن مثل طائع البشر تمامًا ، ومرّة يريد به شياطين الإنس .

إذن : من الجن شياطين ، ومن الإنس شياطين .(١)

وحتى تستطيع أن تُفرِّق بين ما يُزيِّنه الشيطان، وبين ما تُزيِّنه لك نفسك ، فإن رأيتَ نفسك مُصراً على معصية من لون واحد فاعلم أن السبب هو نفسك ؛ لأن النفس تريدك عاصيًا من لون يُشبع نقصًا فيها ، فهي تُصرّ عليه .

ـ إنسان يحب المال ، فتتسلط عليه نفسه من جهة المال .

---

(١) يقول تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا .... ﴿١١٢﴾ ﴾ [الأنعام]
قال ابن كثير في تفسيره (٢ / ١٦٧) : «شيطان كل شيء مارده »
وقد أخرج الإمام أحمد في مسنده (٥/ ١٧٨ ، ٢٦٥) عن أبي ذر قال : أتيت النبي ﷺ وهو في المسجد فجلست فقال : يا أبا ذر هل صليت ؟ قلت : لا . قال : قم فصل . قال : فقمت فصليت ، ثم جلست فقال : «يا أبا ذر تعوذ بالله من شر شياطين الإنس والجن . قال : قلت: يا رسول الله ، وللإنس شياطين ؟قال : نعم ».

ـ وإنسان آخر يحب الجنس ، فتتسلط عليه نفسه من جهة النساء .

ـ وثالث يحب الفخر والمديح ، فتتسلط عليه نفسُه من جهة مَنْ ينافقه .

لكن الشيطان لا يُصرّ على معصية بعينها ، فإن رآك قد امتنعتَ عن معصية ، فهو يُزيِّن لك معصية أخرى ؛ لأنه يريدك عاصيًا على أية جهة .

فالشـيطان هو الذى يُوسوس [1] للإنسان بالمـخالفة لـمنهج الله ، وعداوة الشيطان ظاهرة ، فـإذا ما كانـت العداوة سابقـة ، فقد أنزل آدم وحـواء من رتبة الطاعة إلى رتبة المعصية وجرّأهما على المخالفة ، فخرجا من الجنة . كان من الواجب أن نحتاط فى قبول هذه الوسوسة .

فالـحق سبـحانه يُحـذِّر الناس جمـيعًـا من اتباع خطوات الشـيطان ، بل إنه سبحانه يُحذِّر الذين آمنوا فيقول :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ[2] مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢١) ﴾ [النور]

كأن الشيطان له خُطُوات متعددة ، وليس خُطْوة واحدة ؛ لأن الشيطان ـ كما علَّمنا ـ أثبت الله عداوته لبنى آدم ، وهى عداوة مُسبَّبة ، وليستْ كلامًا نظريًا .

---

(١) الوسوسـة والوَسْواس : الصوت الـخفىّ ، وهو أيضًا صـوت الحَلْى . ويُقال لِهَـمْس الصائد والكلاب : وسواس . والوسواس : الشيطان ، وقد وسوس فى صدره ووسوس إليه . [لسان العرب ـ مادة : وسوس] .

(٢) زكا: طَـهُر وصلح، فـهو زكىٌّ، وهى زكـية. قال تعـالى: **﴿ لأَهَبَ لَكِ غُلامًا زَكِيًّا (١٩) ﴾** **[مريم]** طاهرًا صالحًا. والزكاة: الطهارة وصفوة الشىء.

فلم يَقُل لنا الحق سبحانه : إن الشيطان عدو لكم ، دون أنْ يذكر لنا السبب أو الواقعة ، ولكنه سبـحانه أكَّد عداوة الشيطان لنا بواقعة ثابتـة ، فقد امتنع عن السجود لأبينا آدم ، وأبدَى ما فى نفسه من حقد عليه حين قال :

﴿ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ... (١٢) ﴾ [الأعراف]

وقال أيضًا:

﴿ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا (٦١) ﴾ [الإسراء]

فلم يَكْتَفِ إبليس بالامـتناع عن السجـود فقط ، ولكنه امتنع وعـلَّل الامتناع بأنه أفضل من آدم ، فهذه عداوة حَسَد لمركز آدم عليه السلام.

الله سبحانـه كان يُمكنه أن يكتفى بإخبارنا أن هناك شيطانًـا سَيُوسْوِس لكم وهو عـدو لكم ، ولكنه سبـحانه أكـد ذلك بحـادثة، وبيَّن أنها عـداوة واضحـة ومُسَبَّبة.

وما دام الـشيطان عَـدُو لك ، فلا بُدَّ أيهـا الإنسان أن تتنبـه ، فالله عـمل لك حادثة الامتنـاع عن السجود لآدم حتى يُربِّى فـيك مناعة من الشيطان ، فتـتذكر عداوته ، ولا تتبع خُطواته أبدًا ، بدليل أنه تربَّصَ[1] ببنى آدم.

قال تعالى:

﴿ قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ[2] ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا (٦٢) ﴾ [الإسراء]

---

(١) ربص بالشيء: انتـظر به شـرًا أو خيـرًا يحلّ بـه ، والتربُّـص:الانتظار. قـال الليث: التـربص بالشيء أن تنتظر به يومًا ما. [لسان العرب ـ مادة : ربص] .

(٢) أحتنكن: مـأخوذ من احتنك الجراد الأرض إذا أتى على نبـتها. قال الأخفش: لأسـتأصلنهم ولأستميلنهم. واحتنك فلان ما عند فلان أى أخذه كله. [لسان العرب ـ مادة :حنك] .

وقال:

﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٨٣)﴾ [ص]

إذن: المسألة عداوة مُركَّزة ومرْسُومة، وضع الشيطان لها منهجًا، ولم يتركها هكذا، فعرف كيف يُقسِم.

فالشيطان يدخل على الإنسان من باب عزة الله عن خلقه؛ لأن الله لو أرادنا جميعًا مؤمنين ما استطاع الشيطان أن يقربَ واحدًا منَّا.

لكن الله خلقنا مختارين، فدخل لنا الشيطان من هذا الجانب، ولكن الشيطان تدارك قوله، وعرف أنه لا يستطيع أن يفعل شيئًا لم يُرِدْهُ الله، فهو قال:

﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢)﴾ [ص]

ثم تراجع وقال:

﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٨٣)﴾ [ص]

أي: أن الذى تختاره يارب لا أستطيع أن أقرب منه.

إذن: المسألة ليست بين الله وبين إبليس، ولكنها بين إبليس وبنى آدم، لذلك يحذرنا الحق سبحانه من اتخاذه وذريته أولياء من دون الله؛ لأنهم أعداء لنا جميعًا.

فيا مَنْ آمنوا تنبَّهوا إلى شرف إيمانكم بالله، وابتعدوا عن الذى يُضعِف هذا الإيمان أو يَفُتُّ[1] فى عضد المؤمنين بأىِّ وسيلة.

(١) كلَّمه بشىء ففتَّ فى ساعده. أى: أضعفه وأوهنه. ويُقال: فتَّ فلان فى عَضُدى، وهَدَّ ركنى. [لسان العرب ـ مادة: فتت].

ولتتأكدوا أن الشيطان له خطوات يستدرجكم بهـا إلى المعصية ، فالشيطان يحب أن يكون ابنُ آدم عاصـيًا ، فإذا جـاءه من جـهة ووسوس له ليـعصى الله فيـها ، ووجد عنده صلابة فى هـذه الناحية لا يتركـه ، ولكن ينقله إلى معصـية أخرى، فهـو ليس له خطوة واحدة كأنْ يوسوس لك بفعل كـذا ، فإنْ لم تفعل يتركك.

لا ، ولكن إن وجـدك ممـتنعًا عنه فى مـعـصيـة ، ولم يقدر عليك فـيهـا لا يتركك ، وإنما ينتقل بك إلى معصية أخرى ، وكأن لكل إنسان نقطةَ ضعف فى تكوينه ، فيظل الشيطان يحاول معه حتى يصل إلى نقطة ضعفه.

والحق سبحانه يخبرنا عن مراد الشيطان من الإنسان ، فيقول :

﴿ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ (١٦٩) ﴾ [البقرة]

والسوء هو كل عـمل أضرَّ فـاعله بالآخرين ، وهو غيـر الذى يرتكب شيـئًا يضرُّ به نفسـه فقط ، فالذى سرق أو قـتل أو اعتدى على آخر قَـذْفًا أو ضَربًا أو إهانة ، فهذا فاعل للسوء.

فـمثـل هذه الأعمـال هى ارتكابٌ للسـوء ، فـالسـوء عـمل يكرهه الناس ، ويُقال: فلان رَجُلُ سوءٍ ، أى : يَلْقى الناس بما يكرهون.

أما الذى يشـرب الخمر فـقد يكون فى عزلة عن الـناس ، لم يرتكب إساءة إلى أحد ، لكنه ظلم نفسه.

فإنْ صنع الإنسـان سُوءًا ـ أى: أضرَّ بغـيره ـ فهذا اسـمه «سوء» ، أمـا حين يصنع فعلاً يضرُّ نفسه ، فهذا ظلم النفس.

والفحشاء هى كل ذنب فيه حَدٌّ ، وفيه عقوبة.

والحق سبحانه يقول :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ .. (٩٠) ﴾ [النحل]

وقد قـلنا : إن القرآن الكريم نَصَّ فى أمـر الزنا بأنه كان فـاحشـة ، وهذا هو الذنب الوحيد الذى سماه فاحشة.

ولكن العلماء حين تكلَّموا عن الفاحشة قالوا: هى الذنب العظيم الذى يبلغ من مرتكبه أنه يسـتره عن الناس حتى لا يراه أحد ، كأنه هو نفسـه حين يصنعه يعلم أنه لا يصح أنْ يتجاهَر به.

أما المنكر فهو الأمر الذى اجترأ أنْ يصنعه ، ولكن المجتمع يستنكره.

فهناك مرتبتان:

الأولى: هى الفحشاء ، وهى ما سـتره الإنسان فى نفسه من الآثام ، فصاحب الإثم يتحرَّج أنْ يعرفه المجتمع ، فيستره.

الثانية: هى المنكر ، وهو ما تعالم به وأنكره المجتمع.

والشيطان يأمر بالسـوء والفحشاء والمنكر ، فهو يريد الإنسـان عاصيًا على

أىِّ وجه كان ، فالشيطان يأتى للإنسـان ويُزيِّن له طريق الباطل ، فهو يدخل من ناحية الغفلة فى النفس البشرية لِيُوقع أبناء آدمَ فى المعصية.

ولو أن أبناء آدم حكَّموا عقـولهم ، وهم يعرفون أن هناك عداوة مُسْـبَقَة بين آدم وإبليس ، وأن إبليس طلب من الله سبحانه وتعالى أن يُبـقيه إلى يوم القيامة لينتقم من آدم وأولاده بإغوائهم على المعصية(١) .

لو تنبَّهنا إلى ذلـك لأخذنا حذرنا ، وعندمـا تنكشف وسوسة الشـيطان فإنه يهرب.

فـإبليس يدخل إلى ناحيـة الغـواية بأن أقـسم بعـزة الله ، وأن الله عـزيز لا يحتاج لخلقه ، ولا يضره سبحـانه وتعالى مَنْ كفر ، ولا يزيد شيئًا فى ملكه مَنْ آمن.

فاستغل الشيطان عزة الله فى استغنائه عن خلقه ، فقال كما يروى لنا القرآن الكريم:

﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ(٢) لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) ﴾ [ص]

والقرآن يشرح لنا كيف يُغوى إبليسُ بنى آدم ، فيقول:

﴿ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ﴾ [الأعراف]

---

(١) قال تعالى عن إبليس أنه قال : ﴿ قَالَ أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤) قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ (١٥) قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ (١٧) ﴾ [الأعراف]

(٢) العـزة: الرفـعة والامـتناع. والعـزة : الشـدة والقوة. وقـوله تعـالى : ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ .. (٨) ﴾ [المنافقون] . أى: له العزَّة والغَلَبة سبحانه. [لسان العرب ـ مادة : عزز]

أى : أن إبليس لا يجتهد فى إغواء مَنْ باع نفسه للمعصية ، وانطلق يخالف ما أمر اللـه به ، فالنفس الأمَّارة بالسوء لهـا شيطانها ، وهى ليست بـحاجة إلى إغواء ؛ لأنها تأمر صاحبها بالسوء.

ولذلك فإن إبليس لا يذهب إلى الخـمَّارات وبيوت الدعارة ، ويبـذل جهدًا فى إغـواء مَنْ يجـلسـون فـيـهـا ؛ لأن كل مَنْ ذهب إلى هـذه الأمـاكن هو من شياطين الإنس.

ولكن إبليس يذهب إلى مهـابط الطاعة وأماكن العبادة ، هؤلاء يبـذل معهم كل جَهْـده ، وكل حيلَه ليصـرفهم عن عبادة اللـه ، ولذلك لابُدَّ أنْ نتنبه إلى أن إبليس لم يَقُلْ : لأقعدنّ لهم على الطريق المعوج .

فالطريق المـعوج بطبيـعته يتـبع الشيطان ، فإبليس يـريد أهل الطاعة ، يُزيِّن لهم المعصية ، ويُغرِيهم بالمال الحرام.

يقول الحق سبحانه :

﴿ ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ (١٧) ﴾ [الأعراف]

هذه هى جهات الغواية[1] التى يأتى منها إبليس.

(من بين أيديهم) . أى : من أمامهم ، وهذه هى الجهة الأولى.

(ومن خلفهم) . أى : من ورائهم ، وهذه هى الجهة الثانية .

(وعن أيمانهم) . أى : من اليمين ، وهذه هى الجهة الثالثة.

(١) أغـواه: أضله وأوقـعـه فى الغى والضـلال. قـال تعـالى : ﴿ **أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا** (٦٣) ﴾ [القصص] أى : أضللناهم كما ضللنا. وغوَى بمعنى خاب وضل لأنه انهمك فى الجهل.

(وعن شمائلهم). أى : من الشمال ، وهذه هى الجهة الرابعة.

وكلنا نعلم أن الجـهات ستٌ ، وليست أربعًـا ، فما همـا الجهتـان اللتان لا يأتى منهما الشيطان ؟

هما (فـوق ، وتحت) ، هرب إبليس من هاتين الجـهتـين بالذات ، ولم يَقُلْ سآتى لهم من فـوقهم أو من تحتـهم ؛ لأنه يعلم أن الجهة العليـا تمثل الفوقـية الإلهية ، وأن الجهة السُّفلى تمثل العبودية البشرية ، حينما يسجد الإنسان لله ، ولذلك ابتعد إبليس عن هاتين الجهتينِ تمامًا.

ومن العجيب أنك إذا نظرتَ إلى أبواق الإلحـاد فى كل عصر ، تجدها تأتى من الجهات التى يأتى منها الشيطان.

يقولون «تقـدمى» جهة الأمام ، ويقـولون «رجعى» جهـة الخلف ، ويقولون «يمينى» جهة اليمين ، ويقولون «يسارى» جهة اليسار.

نقول لهم: نحن لَسْنا فى أىِّ جهة من هذه الجهات:

لا تقدميين .. ندعو إلى التحلُّل والفجور.

لا رجعيين .. نقول هذا ما وجدنا عليه آباءنا.

لا يساريين.. نُنكر الدين ونُناصر الكفر.

لا يمينيين ..نؤمن بالرأسمالية واستغلال الإنسان.

ولكننا أمة مـحمدية فوقـية ، كل أمورنا من الله ، ومـا دامت أمورنا من الله سبحانه وتعالى ، فنحن لا نخضع لمسَاوٍ لنا ، ولكننا نخضع لله العلى القدير ، وما دُمْتَ تخضع لأعلى منك ، فلا ذِلَّة أبدًا ، بل عِزّة ورِفْعة.

نحن أمة محمدية فوقية ، نعلن عبوديتنا وخضوعنا لله ، ونتبع منهج السماء ، ولذلك فقد تميزنا عن البشر جميعًا ؛ لأن كل إنسان فى الدنيا لا يخضع لله سبحانه وتعالى ولا يأخذ منهجه عنه ، فهو خاضع لمنهج بشرى وضعه مُسَاوٍ له من البشر.

والنفس البشرية لها هَوىً تريد أن تُحقِّقه ؛ لذلك فهى تضع المنهج الذى يُمكِّنها من أنْ تتميز به على الناس ، المنهج الذى تستفيد منه هى وحدها .

وقد يكون المنهج من وضع مجموعة أفراد أو طبقة.. نقول : إن مناهجهم لفائدتهم ، ولكن الله سبحانه وتعالى يضع منهجه ليعطيك خيرًا ، لا ليأخذ منك الخير ، لأنه جَلَّ جلاله مصدرُ الخير كله ، وهو ليس محتاجًا لما تملك ، ولا ما يملك كل البشر.

إذن : العدل والخير والعزة هى منهج السماء ، فالله لا يأخذ منك ولكن يعطيك ، ولا يُذلك ولكن يُعزك.

فالشيطان لا يأتى للإنسان من فوق ومن تحت ؛ لأن الفوقية هى الجهة التى يلجأ إليها العبد مُسْتغيثًا ومُسْتجيراً بربه ، والتحتية هى جهة العبودية الخاصة.

فالعبد أقرب ما يكون من ربه وهو ساجد[1]، فهو فى الحالتين محفوظ من تسلط الشيطان عليه ؛ لأن الله تعالى يقول :

---

(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «**أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، فأكثروا الدعاء**» . أخرجه مسلم فى صحيحه (٤٨٢) ، وأحمد فى مسنده (٢ / ٤٢١) ، وأبو داود فى سننه (٨٧٥) .
=

﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ (٤٢) ﴾ [الحجر]

ويقول تعالى :

﴿ ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ (١٧) ﴾ [الأعراف]

فالشيطان يأتى من اليمين لِيُزهِّد الناس ويصرفهم عن عمل الحسن والطاعة، واليمين رمز العمل الحسن ؛ لأن كاتب الحسنات على اليمين ، وكاتب السيئات على الشمال ، ويأتى عن شمائلهم لِيُغريهم بشهوات المعصية.

وإبليس لا يذهب إلى الخمَّارة لِيُغوى مَنْ فيها ، فمَنْ فيها اختاروا السلوك السيء ، ولذلك فَهُمْ لا يحتاجون إلى شيطان ، لأنهم هم أنفسهم شياطين.

= قال أبو حامد الغزالى فى الإحياء (الجزء الأول) : «السجود هو أعلى درجات الاستكانة ، فتمكن أعز أعضائك وهو الوجه من أذل الأشياء وهو التراب ، وإن أمكنك أن لا تجعل بينهما حائلاً فتسجد على الأرض فافعل ، فإنه أجلب للخشوع وأدل على الذل .
وإذا وضعت نفسك موضع الذل فاعلم أنك وضعتها موضعها ورددت الفرع إلى أصله، فإنك من التراب خُلقْتَ وإليه تعود ، فعند هذا جدِّد على قلبك عظمة الله ، وقل «سبحان ربى الأعلى» ، وأكدَه بالتكرار ، فإن الكرَّة الواحدة ضعيفة الأثر.
فإذا رَقّ قلبك وظهر ذلك فلتصدق رجاءك فى رحمة الله ، فإن رحمته تتسارع إلى الضعف والذل لا إلى التكبر والبطر ، فارفع رأسك مُكبرًا وسائلاً حاجتك ، ثم أكِّد التواضع بالتكرار فَعُدْ إلى السجود ثانيًا ».

لكن الشـيطان يقف علـى باب المـسجـد ليـرى الناس وهى تفـعل الخـيـر فـيـوسـوس لهم ، وفى هذا إجـابة لمن يقـولون : إن الوسـاوس تأتـينى لحظة الصلاة.

والصلاة ـ كما نعلم ـ هى أشرفُ موقف للعبد ؛ لأنه يقف بين يَدَىْ الرب ؛ لذلك يحاول الشيطان أنْ يُلهِىَ الإنسانَ عنها حتى يحبس عنه الثواب.

وهذه الوسـاوس ظاهرة صحـية فى الإيمـان ، ولكنها تحـتاج إلى اليـقظة ، فساعة ينزغ الشيطان الإنسان نزغة ، فليتذكر قول الحق سبحانه:

﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ[1] فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ (٢٠٠) ﴾ [الأعراف]

وعندما نسـتعيذ بالله من الشـيطان يعرف الشيطان أنك مُنْتبـه له ، حتى ولو كنت تقرأ القرآن فى أثناء الصلاة ووسوس لك الشيطان ، اقطع القراءة واستعذ بالله ، ثم واصل القراءة والصلاة[2].

(١) نَزْغُ الشيطان:وساوسه ونَـخْسه فى القلب بما يُسوِّل للإنسان من المـعاصى. [لسان العرب ـ مادة : نزغ] ونزغ بين الرجلين : أفسد مـا بينهما. قال تعالى : ﴿ مِنْ بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي (١٠٠) ﴾ [يوسف]

قال الجـصاص فى أحكام القـرآن (٣ / ٥١) : «وذلك يقـتـضى أنه متى اسـتعاذ بالـله من شر الشيطان أعاذه منه وازداد بصيرة فى رد وسواسه والتبـاعد مما دعاه إليه ، ورآه فى أخسِّ منزلة وأقبح صورة لما يعلم من سوء عاقبته إن وافقه ، وهَوَّن عنده دواعى شهوته».

(٢) عن عثـمان بن أبى العـاص أنه أتى النبى ﷺ فـقال : يا رسول الـله ، إن الشيطان قـد حال بينى وبين صـلاتى وقراءتى، يلبـسـها علىَّ. فـقال رسـول الله ﷺ : «ذاك شيطان يُقـال له خنزب، فإذا أحسـسته فتعـوذ بالله منه. واتفل على يسارك ثلاثًا». قال : ففـعلت ذلك فأذهبه الله عنى . أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٢٠٣) ، وأحمد فى مسنده (٤ / ٢١٦) .

وحين يعرف الشيطان أنك مُنتبه له مرة واثنتين وثلاثًا ، فهو يبتعد عنك ، فلا يأتى لك من بعد ذلك إلا إذا أحسَّ منك غفلة.

والحق سبـحانه يُبيِّن لنا طريقـةالشيطان فى أَخْذ النصيب المـفروض [1]من عباد الله ، فقال عن إبليس أنه قال :

﴿ وَلأُضِلَّنَّهُمْ ..(١١٩) ﴾ [النساء]

والإضــلال مـعناه أن يسلـك الشـيطان بالإنسـان سـبيـلاً غـير مـؤدٍّ للغـاية الحـمـيـدة ؛ لأنه حـين يسلك الشـخص أقـصـر الطرق المـوصِّلة إلى الغـاية المنصوبة ، فمعنى ذلك أنه اهتدى.

أما إذا ذهب بعيـدًا عن الغاية فهذا هو الضلال ، وكلـما خَطَا الإنسان خُطْوة فى هذا السبـيل ابتعد عن الغـاية ، وهذا الابتعـاد عن الغاية هو الضلال المـبين البعيد ، والإضــلال من الشيطان يكون بتزيينه الشرَّ والقبحَ للإنســان ليُبعده عن مسالك الخير والفضيلة.

ومن بعد ذلك يأتى على لسان الشيطان ما قاله الحق سبحانه فى هذه الآية:

﴿ وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ .. (١١٩) ﴾ [النساء]

والأمانى هى أن ينصب الإنسان فى خياله شيـئًا يستمتع به من غير أنْ يخطو له خطْوة عمل تُقَـرِّبه من ذلك ، ومثال ذلك: الإنسان الذى نراه جـالسًا ويُمنِّى نفسه قائلاً: سـيكون عندى كذا..وكذا وكذا. ولا يتقدم خُطْوة واحـدة لتحقيق ذلك.

(١) قال ابن كثير فى تـفسيره (٢ / ٥٥٦) : «أى : معينًا مقدرًا معلومًـا. قال قتادة : من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار ، وواحد إلى الجنة» .

وكل أمنية لا تحـفز الإنسان إلى عـمل يُقرِّبه منها هى أمنيـة كاذبة ، ولذلك يُقال : « إن الأمـانى بضاعة الحـمقى » ، والشيطان يُمنِّى الإنسـان بأنه لا يوجد بَعْث ولا جزاء .

والحق سبحانه يقول :

﴿ يَا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا(١) إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ(٢) مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ (٢٧) ﴾ [الأعراف]

وهذا تحذير من فتنـة الشيطان حتى لا يُخرِجنا من جنة التكليف ، كـما فتن أبوينا فأخرجهما من جنة التجربة.

إذن: ففـتنة الشيطان إنما جـاءت لتخرج خلق الله عن منهج الله ، وحـينما عصى إبليس ربَّه عزّ عليه ذلك ، فبعد أن كان فى قـمة الطاعة صار عاصيًا لأمر الله معصية أدَّته وأوصلته إلى الكفر ، لأنه رَدَّ الحكم على الله.

إن ذلك قـد أوغر صـدره وأحنقـه(٣) ، وجـعله يوغـل ويسـرف فى عـداوة الإنسان ؛ لأنه عرف أن طرده ولعنه كان بسبب آدم وذريته.

---

(١) السوءة: مـا يقبح إظهـاره وينبغى سـتره. قـال تعالى : ﴿ **لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ** ﴾ [المائدة : ٣١] وجـمعـها سـوءات قال تعـالى : ﴿ **يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا** ﴾ [الأعراف : ٢٦] . أى : يغطى عوراتكم ويسترها.

(٢) القبيل : الجماعة أو العشيرة أو الكفلاء أو الأعوان المناصرون.

(٣) الوغـر : احتـراق الغيظ. ومنه قـيل : فى صـدره علىَّ وَغْر، أى : ضـغن وعداوة وتوقـد من الغيظ. ويقال : وغر صدره عليه. إذا امتلأ غيظًا وحقدًا. [لسان العرب ـ مادة : وغر] والحنق : شدة الاغتياظ .

ويُعلمنا الحق سبحانه وتعالى أن نتنبه إلى أن الشيطان لن يكتفى بنفسه ، ولن يكتفى بالذرية ، بل سيزين لقوم من البشر أن يكونوا شياطين الإنس ، كما وُجد شياطين الجن.

وهم مَنْ قال فيهم سبحانه:

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ(١) **الْقَوْلِ غُرُورًا (١١٢) ﴾** [الأنعام]

وكلمة **﴿ زُخْرُفَ الْقَوْلِ (١١٢) ﴾** [الأنعام]

تعنى الاستمالة التى تجعل الإنسان يرتكب المعصية ، وينفعل لها ، ويتأثر بزخارف القول ، وكل معصية فى الكون ، هكذا تبدأ من زخرف القول ، فللباطل دُعاته ، ومُروِّجوه ، ومُعْلنوه.

إنهم يُزيِّنون للإنسان بعض شهواته التى تصرفه عن منهج الله ، بل إنهم يقولون إذا فعلوا فاحشة :

﴿ وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ..(٢٨) ﴾ [الأعراف]

والله سبحانه لا يأمر بالفاحشة.

ولذلك يقول تعالى :

﴿ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ (٢٨) ﴾ [الأعراف]

---

(١) الزخرف :الزينة . وقال ابن الأعرابى فى قوله تعالى: ﴿ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا (١١٢) ﴾ [الأنعام] أى : حسن القول بترقيش الكذب . [لسان العرب ـ مادة : زخرف] .

والحق سبحانه يقول :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ[1] يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٩٠) ﴾ [النحل]

والمنكر ليس مُحـرَّمًا بالشرع فقط ، بل هو مـا يُنكره الطَّبع السليم ، وأيضًا فـصاحب الطبع غـير السلـيم يحكم أنه منكر إذا كـانت المعـاصى تعود عليـه بالضرر.

هنا يقول : أعوذ بالله منها ، وإن كـان هو يُوقِعها على الغير فهو يـعتقد أنها غير منكر.

وعلى سبـيل المثـال: نجد رجـلاً يُبيح لنفـسه أن يفـتح عينيـه على عورات الناس ، ويتلذذ بهـذه المسـألة ، لكنه سـاعةَ يرى إنسـانًا آخر يفـتح عينيـه على عورته أو على ابنته مثلاً فإنه يرى فى ذلك أبشع المنكرات.

لذلك لابُدَّ أن تجـعل للمنكر حَـدّاً يشـملك ويشمل غـيـرك ، ولا تنظر إلى الأمر الذى تكلف به أنت وحدك ، وإنما انظر إلى الأمر المكلَّف به الآخرون.

وإياك أنْ تقولَ: إنه حدد بصرى من أن يتمتع بجسم يسير أمامى. إنه سبحانه كما حرم نظرك إلى ذلك ، حرم أنظار الناس جـميعًا أن ينظروا إلى محارمك ، وفى هذا صيانة لك.

***

(١) البغى : العدوان والاستطالة على الناس. وقال الأزهرى: معناه الكبر، والبغى الظلم والفساد. والفئة الباغية: هى الظالمة الخارجة عن طاعة الإمام العادل. [لسان العرب ـ مادة : بغا].

(٣) ... تقوى الله

تقوى الله هى مطلوب الحق سبحانه من عباده فى جميع التكليفات الشرعية. وقديمًا قالوا: التقوى هى العمل بالتنزيل، والخوف من الجليل، والاستعداد ليوم الرحيل.

يقول الحق سبحانه:

﴿ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ (١٩٧) ﴾ [البقرة]

وهذا يشمل زاد الدنيا والآخرة، فإذا كان الزاد هو ما تَقِى به نفسك من الجوع والعطش، وهو خير لاستبقاء حياتك الفانية، فما بالك بالحياة الأبدية التى لا فَنَاءَ فيها؟

أَلاَ تحتاج إلى زاد أكبر؟

فكأنّ الزاد فى الرحلة الفانية يُعلِّمك أن تتزود للرحلة الباقية.

والله سبحانه يُذكِّرنا بالأمور المُحَسَّة، وينقلنا منها إلى الأمور المعنوية، ولكن إذا نظرتَ بعُمق وصدق وحَقٍّ وجدتَ الأمور المعنوية أقوى من الأمور الحسية.

ولذلك نلاحظ فى قوله سبحانه وتعالى :

﴿ يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا[1] .. (٢٦) ﴾
[الأعراف]

هذا أمر حسيّ ، ويفيدنا ويزيدنا سبحانه «ريشًا». إنه سبحانه لا يوارى السوءة فقط ، وإنما زاد الأمر إلى الكماليات التى يتزين بها ، هذه الكماليات هى الريش ، أى : ما يتزين به الإنسان.

ثم قال الحق سبحانه:

﴿ وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ (٢٦) ﴾ [الأعراف]

أى : أنعمتُ عليكم باللباس والريش ، ولكن هناك ما هو خير منهما ، وهو «لباس التقوى».

فإن كنتَ تعتقد فى اللباس الحسيّ أنه ستر عورتك ، ووقاك حَرّاً وبَرْداً ، وتزينتَ بالريش منه ، فافهم أن هذا أمر حِسيّ ، ولكن الأمر الأفضل هو لباس التقوى.

فاللباس الأول يُوارى عورة مادية ، ولباس التقوى يُوارى العورات القيمية والمعنوية ، وكل ذلك إنزال من أعلى.

وساعة يدعو الله سبحانه الناس إلى تقواه يقول:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ[2] مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا (١) ﴾
[النساء]

---

(١) الريش والرياش: الخصب والمعاش والمال والأثاث واللباس الحسن الفاخر. [لسان العرب ـ مادة : ريش].

(٢) بث : نشر وكثَّر. وبثثت الخبر فانبث ، أى انتشر. وانبث الجراد فى الأرض : انتشر. [لسان العرب ـ مادة : بثث].

ومعنى : ﴿ اتَّقُوا رَبَّكُمُ .. (١) ﴾ [النساء]

أي : اجعلوا بينكم وبينه وقاية.

وماذا أفعل لأتقى ربنا؟

أوَّلُ التقــوى أنْ تؤمن به إلهًا ، وتـؤمن أنه إله بعقلك ، إنه سـبحانـه يعرض القضية العقلية للناس ، فيقول :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ .. (١) ﴾ [النساء]

ولـم يقل : اتقوا الله . لأن الـله مفهومـه العبادة ، فـالإله معبـود له أوامر وله نَواهٍ ، والحق سبحانه لم يصل بالناس لمـرتبة الألوهية بعد ، إنما هم لا يزالون فى مرتبة الربوبية.

والربُّ هو : المتولِّى تربية الشىء ، خَلْقـاً من عدم ، وإمدادًا من عُدم ، لكن أليس من حَقِّ المتولى خَلْقَ الشىء وتربيته أن يجعل له قانون صيانة؟

إن من حقه ومسئوليته أنْ يضع للمخلوق قانون صيانة ، ونحن نرى الآن أن كل مخترع أو صانع يضع لاختراعه أو للشىء الذى صنعه قانون صيانة.

بالله ، أيخلق سبـحانه البشـر من عدم ، وبعد ذلك يتـركهم ليتـصرفوا كـما يشاءون؟ أَمْ يقول لهم : اعملوا كذا وكـذا ، ولا تعملوا كذا وكذا ، لكى تُؤدُّوا مهمتكم فى الحياة ؟

إنه يضع دستور الدعوة للإيمان ، فقال :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم .. (١) ﴾ [النساء]

إذن : فالمطلوب منهم أنْ يتقوا ، ومعنى يتقوا أن يقيموا الوقاية لأنفسهم بأن يُنفِّذوا أوامر هذا الربِّ الإله الذى خلقهم.

وبالله ، أيجعل خلقهم عِلَّة ، إلا إذا كان مشهودًا بها له؟

هو سبحانه يقول :

﴿ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم ...① ﴾ [النساء]

كأنَّ خِلْقة ربنا لنا مشهود بها ، وإلا لو كان مشكوكًا فيها لَقُلْنَا له: إنك لم تخلقنا ـ ولله المثلُ الأعلى .

أنت تسمع مَن يقول لك: أحسِن مع فلان الذى صنع لك كذا وكذا ، فأنت مُقِرٌّ بأنه صنع أم لا؟ .

فإذا أقررتَ بأنه صنع ما صنع ، فأنت تستجيب لمن يقول لك مثل ذلك الكلام.

إذن : فَقَوْل الله:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم .. ①﴾ [النساء]

فكأن خَلْقَ الله للناس ليس مَحلَّ جدال ولا شك من أحد ، فأراد سبحانه أنْ يجذبنا إليه ، ويأخذنا إلى جنابه بالشيء الذى نؤمن به جميعًا ، وهو أنه سبحانه خلقنا ، إلى الشيء الذى يريده ، وهو أنْ نتلقى من الله ما يقينا من صفات جلاله.

وجاء سبحانه بكلمة «رب» ولم يقل : «اتقوا الله» ؛ لأن مفهوم الرب هو الذى خلق من عَدَم، وأَمَدَّ من عُدْم [1]، وتعهد وهو المربِّى ، ويبلغ بالإنسان مرتبة الكمال الذى يُراد منه.

وهو الذى خلق كل الكون ، فأحسن الخَلْق والصُّنْع.

ولذلك يقول الحق سبحانه:

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم [2] مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وسخر الشمس والقمر لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فأنى يؤفكون (٦١) ﴾ [العنكبوت]

إذن: فقضية الخلق قضية مُسْتقرة ، وما دامت قضية مستقرة فمعناها: مَا دُمْتم آمنتم بأنِّى خالقكم فَلِى قدرة إذن ، هذه واحدة ، وربيَّتكم. إذن: فَلِى حكمة.

وإله له قدرة وله حكمة ، إما أنْ نخاف من قدرته فنرهبه ، وإما أنْ نشكر حكمته فَنُقرّ بها.

واستقرار قضية الخَلْق فى أذهان الناس من مُشْركى العرب وغيرهم أمرٌ سَاقَه الحق سبحانه فى القرآن فى مواضع كثيرة.

---

(١) العَدَم والعُدْم والعُدُم: فقدان الشىء وذهابه. وغلب على فقد المال وقلَّته. والعَدَم: الفقر. وكذلك العُدْم. [لسان العرب ـ مادة : عدم]. وهذه المادة (عدم) لم ترد فى شىء من القرآن الكريم. وقد قال تعالى : ﴿ **هَلْ أَتَىٰ عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا** ﴾ [الإنسان : ١] أى : أنه سبحانه أوجد الإنسان بعد أن لم يكن شيئًا يذكر لحقارته وضعفه. [تفسير ابن كثير ٤ / ٤٥٣].

(٢) المقصود بهم مشركو العرب، فَهُمْ كما يقول ابن كثير فى تفسيره (٣ / ٤٢١) : «معترفون بأنه المستقل بخلق السماوات والأرض والشمس والقمر وتسخير الليل والنهار، وأنه الخالق الرازق لعباده ومُقدِّر آجالهم، واختلافها واختلاف أرزاقهم... وقد كان المشركون يعترفون بذلك ، كما كانوا يقولون فى تلبيتهم: لبيك لا شريك لك ، إلا شريكًا هو لك ، تملكه وما ملك».

فقال سبحانه:

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٢٥) ﴾ [لقمان]

فَخَلْق هذه الأشياء لا أحدَ يستطيع ادعاء أنه خلقها ، وحتى لو سألت الكفار أنفسهم عمَّن خلقهم فسيقولون : الله. لأن عملية الخَلْق والإيجاد من الممكن أن يدعيها مَنْ لم يعملها ، ومع ذلك لم يَدَّعها أحد من البشر ؛ لأنها عملية أكبر من أنْ يدعيها أحد ؛ لأنها فوق قدرات البشر مجتمعين.

ولذلك يقول الحق سبحانه:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لاَّ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ (٧٣) ﴾ [الحج]

فهذه الآلهة لن تستطيع أن تخلق أقلَّ شيء وهو الذباب ، حتى ولو اجتمعوا لتحقيق هذا الهدف ، وليس هذا فقط ، بل إن الذباب لو سلبهم شيئًا لا يستطيعون استرداده منه ، فإنْ كانت عملية خَلْق الذباب صعبة عليكم فنتحدَّاكم أنْ تستنقذوا ما يسلبه الذباب منكم.

فما دام الله سبحانه هو الذى خلق كل ذلك ، وأنزل منهجًا ، فعليكم أنْ تجعلوا بينكم وبينه وقاية ، تحميكم من صفات الجلال ، وتُقرِّبكم من آثار صفات الجمال ، وأنْ تسمعوا إلى البلاغ من الرسل عليهم السلام ، وإلى مطلوباته سبحانه.

وما دام كل إنسان يعترف أن الخالق سبحانه والمالك هو الله تعالى ، فعلى الإنسان أن يقى نفسه النار.

والعجيب أن الجميع يجيب بأن الله سبحانه هو الذى خلق ، فالحق سبحانه يقول :

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (٨٧) ﴾ [الزخرف]

ويقول أيضًا :

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ .. (٢٥) ﴾ [لقمان]

ويقول أيضًا:

﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ (٣١) ﴾ [يونس]

ولذلك ؛ أمَا كان يجب أن نُرهف الآذان ، ونُعمل الأبصار ، لنرى قدرة الله سبحانه الذى وهب لنا كل تلك النعم من رزق ، وسمع، وبصر ، وإحياء ، وإماتة ، وإحياء من ميت ، وتدبير الأمر كله ؟

أمَا كان يجب أن نقول: يا مَنْ خلقتنا ، ماذا تنتظر منَّا ؛ لنعمر الكون الذى أوجدتنا فيه؟

فكيف - إذن - يتجه البعض بالعبادة لغير الله تعالى ، لشمس أو لقمر، أو ملائكة ، أو نبىّ ، أو صنم؟

كيف ذلك ، والعبادة معناها إطاعة العابد للمعبود فيما يأمر به؟

وهل هناك إله بغـيـر منهج يأمـر به عبـاده ، ومَنْ عـبـد الشمس هل كـلَّفَتْـه الشمس بشيء ؟ .. لا.

إذن: يتسـاوى عندها مَنْ عبـدها ، ومَنْ لم يعبدها ، وفى هـذا نَقْص لألوهية كُلِّ معبود غير الله تعالى.

ولذلك يُنهى الحق سبحانه الآية بقوله :

﴿ أَفَلا تَتَّقُونَ (٣١) ﴾ [يونس]

وهذه كلمة قالها جميع الأنبياء والـرسل لأقوامهم ، وقد ذكر الحق سبحانه ذلك.

فقالها هود لقومه عاد :

﴿ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلا تَتَّقُونَ (٦٥) ﴾ [الأعراف]

وقالها نوح لقومه ، قال تعالى :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلا تَتَّقُونَ (٢٣) ﴾ [المؤمنون]

وقالها صالح لقومه ثمود ، قال تعالى:

﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلا تَتَّقُونَ (١٤٢) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٤٣) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٤٤) ﴾ [الشعراء]

وقالها لوط لقومه ، قال تعالى:

﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلا تَتَّقُونَ (١٦١) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٦٢) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٦٣) ﴾ [الشعراء]

وقالها شعيب لقومه ، قال تعالى:

﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلا تَتَّقُونَ (١٧٧) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٧٨) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٧٩)﴾ [الشعراء]

والتـقوى من الوقـاية.. والوقاية هي الاحـتراس والبـعد عن الشـر .. لذلك يقول الحق تبارك وتعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ (٦)﴾ [التحريم]

أي : اعملوا بينكم وبين النار وقاية ..احترسوا من أنْ تقعوا فيها.

ومن عجـيب أمر هذه التـقوى ، أنك تجـد الحق سبـحانه وتعالـى يقول فى القرآن الكريم ـ والقرآن كله كلام الله ـ (اتقوا الله) ويقول (اتقوا النار).

كـيف نأخذ سلوكًـا واحدًا تجـاه الحق سبـحـانه وتعالى ، وتجـاه النار التى سيُعذب فيها الكافرون؟!

الله تعالى يقول : ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ ... (١٣١)﴾ [آل عمران]

أي : لا تفعلوا مـا يُغضب الله حتى لا تُعذَّبوا فى النار ، فكأنك قـد جعلتَ بينك وبين النار وقاية ، بأن تركتَ المعاصى وفعلتَ الخير.

وقوله تعالى : ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ (١٨٩)﴾ [البقرة]

كيف نتقيه ، بينما نحن نطلب من الله كُلَّ النعم وكُلَّ الخير دائمًا؟

كيف يمكن أنْ يتم هذا؟ وكيف نتقى مَنْ نحب؟

نقول: إن لله سبحانه وتعالى صفات جلال وصفات جمال.

أما صـفات الجلال فتـجدها في : القهـار ، والجبّار ، والمـذلّ ، والمنتقم ، والضّـار. كل هذا من متـعلقـات صفـات الجـلال ، بل إن النار من مـتعلقـات صفات الجلال.

أما صفات الجـمال فهي : الغفار ، والرحيم ، وكل الصـفات التي تتنزَّل بها رَحَمات الله وعطاءاته على خَلْقه.

فإذا كنت تَقِى نفسك من النار ـ وهي من متعلقات صفات الجلال ـ لأبُدَّ أنْ تَقِى نفسك من صـفات الجلال كلها ؛ لأنه قـد يكون من متعلقاتهـا ما هو أشدُّ عذابًا وإيلامًا من النار.

فكأنَّ الحقَّ سبحانـه وتعالى حين يقول: ﴿**اتقوا النار**﴾ و﴿**اتقوا الله**﴾ يعنى أن نتـقى غضب الله الذي يُؤدِّى بنا إلى أنْ نتـقى كل صفـات جلاله ، ونجـعل بيننا وبينها وقاية.

فمن اتقى صفات جلال الله ، أخذ صفات جماله.

ولذلك يقول رسول الله ﷺ :

«**إذا كانت آخر ليلة من رمضان تجلى الجبار بالمغفرة**».

وكـان المـنطق يقـتـضى أن يقـول رسـول الله ﷺ : «**تجلى الرحمن بالمغفرة**» ، ولكن ما دامت هناك ذنوب ، فـالمقام لصـفة الجبـار الذي يُعذِّب خَلْقه بذنوبهم ، فكأن صفة الغفار تشفع عند صفة الجبار.

وصفة الجبار مقامها للعاصين ، فتأتى صفة الغفَّار لتشفع عندها ، فيغفر الله للعاصين ذنوبهم ، وجمال المقابلة هنا حينما يتجلى الجبار بجبروته بالمغفرة.

فسـاعةَ تأتى كلمة «جـبار» يشعـر الإنسان بالفـزع والخوف والرعب ، لكن عندما تسـمع «تجلى الجبـار بالمغفـرة» فإن السعـادة تدخل إلى قلبك ؛ لأنك

تعرف أن صاحب العقوبة ـ وهو قادر عليها ـ قد غفر لك.

والنار ليست آمرة ولا فاعلة بذاتها ، ولكنها مأمورة.

إذنْ: فاستعذْ منها بالآمر ، أو بصفات الجمال فى الآمر.

والحق سبحانه يقول:

﴿ وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِى أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (١٣١) ﴾ [آل عمران]

وهذا فيه سَلْب لمـضَّرة ، وإيجاب لمنفعة ، فإنه يُوجِب لك منـفعة الفلاح ، ويسلب منك مَضرَّة النار.

ولذلك يقول الحق تعالى:

﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ..(١٨٥) ﴾ [آل عمران]

لأنه إذا زُحزح عن النار ولم يعد فى نار ولا فى جنة ، فهذا حسن ، فما بالك إذا زُحزِح عن النار وأُدْخل الجنة؟

إن هذا هو الفوز الكبير ، وهذا هو السبب فى أن ربنا سـبحانه وتعالى ساعة السير على الصراط سيُرينا النار ونمرُّ عليها ، لماذا؟

كى نعرف كيف نجانا الإيمان من هذه؟

وما الوسيلة كى نفلح ونتقى النار؟

إن الوسيلة هى اتباع منهج الله ، الذى جاء به على لسان رسوله ﷺ .

فاتقاء الله هو باتبـاع منهجه ، فيُطاع الله باتباع المنهج فـلا يُعصى ، ويُذكر فـلا يُنسى ، ويُشْكر فلا يُكْفـر (١)، وطريق الطاعـة يوجـد فى اتبـاع المنهج بـ «افعل» و «لا تفعـل»، ويذكر ولا ينسى؛ لأن العبد قـد يطيع الله ، وينفذ منهج الله ، ولكن النعم التى خلقها الله قد تشغَلُ العبدَ عن الله.

والمنهج يدعـوك أن تتذكـر فى كل نعمـة : مَنْ أنعم بها، وإياك أن تُنسـيك النعمة المنعم ، وليشكر العبدُ الله ، ولا يكفر بالنعم التى وهبها له الله.

وما دُمْتَ أيها الـعبد تستقـبل كل نعمة وتردُّها إلى الله ، وتقـول : « ما شاء الله ، لا قوة إلا بالله» (٢) ولا تكفر بالنعم. أى : أنك تؤدى حَقَّ النعمة ، وكل نعمة يؤدى العبد حَقَّها ، تعنى أنها نعمة شكر العبدُ رَبَّه عليها ، ولم يكفُر بها.

وقد قال تعالى:

---

(١) ذكره ابن كـثيـر فى تفسيـره (١ / ٣٨٧) من قول ابن مـسعود رضى الله عنه مـوقوفًـا عليه. وقال: «وقد رواه ابن مردويه... وكـذا رواه الحاكم فى مستدركه .. عن ابن مسعـود مرفوعًا فذكـره، ثم قال : صحيـح على شرط الشيخـين ولم يخرجاه كـذا قال. والأظهر أنه مـوقوف والله أعلم».

(٢) وقد ذكر تبارك وتعالى هذا فى قرآنه فقال : ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا * كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلالَهُمَا نَهَرًا * وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَرًا * وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا * وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا * قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً * لَّكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا * وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ﴾ [الكهف : ٣٢ - ٣٩]

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ .. ١٠٢ ﴾ [آل عمران]

وقد قيل فى معنى ﴿ حَقَّ تُقَاتِهِ .. ١٠٢ ﴾ [آل عمران]

أى : أنه لا تأخذك فى الله لَوْمة لائم ، أو أن تقول الحق ولو على نفسك ، هذا ما يُقَال عنه «حق التقى». أى : التقى الحق الذى يُعتبر تقيًا بحقٍّ وصدق[1].

وقال العلماء: إن هذه الآية عندما نزلت وسمعها الصحابة ، استضعف الصحابة نفوسهم أمام مطلوبها ، فقال بعضهم: مَنْ يقدر على حَقِّ التُّقى؟

ويُقال : إن الله أنزل بعد ذلك [2] :

﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ .. ١٦ ﴾ [التغابن]

وقد يتساءل متسائل :

الذى يتقى الله حَقَّ تقاته خيرٌ ، أم الذى يتقى الله ما استطاع؟

طبعًا ، حقّ تقاته خَيْرٌ من قَدر الاستطاعة ، فالذى يُطبِّق الآية الكريم: ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ .. ١٠٢ ﴾ [آل عمران] يُحقِّق خيرًا أكبر فى عمله ، ولكنه لا يستطيع أن يتقى الله حَقَّ تُقَاته إلا فى أعمال محدودة جدًا.

إذن: الخير هنا أكبر، ولكن العمل الذى تنطبق عليه الآية محدود.

---

(١) قال ابن عباس : «حق تقاته» أى : «يجاهدوا فى سبيله حق جهاده ، ولا تأخذهم فى الله لومة لائم ، ويقوموا بالقسط ولو على أنفسهم وآبائهم وأبنائهم» ذكره ابن كثير فى تفسيره (١ / ٣٨٨) .

(٢) ذكر ابن كثير فى تفسيره (٤ / ٣٧٧) أن سعيد بن جبير قال فى هذه الآية : «لما نزلت هذه الآية ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ ﴾ [آل عمران : ١٠٢] اشتد على القوم العمل ، فقاموا حتى ورمت عراقيبهم ، وتقرحت جباههم ، فأنزل الله هذه الآية ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾ [التغابن : ١٦] تخفيفًا على المسلمين».

أما قوله تعالى:

﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ..(١٦) ﴾ [التغابن]

فإنه قـد حَدَّد التـقوى بقـدر الاستطاعـة ؛ ولذلك تكون الأعمـال المقـبولة كثيرة، وإنْ كان الأجر عليها أَقَلّ.

عندما نأتى إلى النتيجة العامة .. أعمال أجرها أعلى، ولكنها قليلة ومحدودة جدًا .. وأعمال أجرها أقلّ ولكنها كثيرة.. أيهما فيه الخير؟

طبعًا الأعمال الكثيرة ذات الأجر الأقلّ فى مـجموعها تفوق الأعمال القليلة ذات الأجر المرتفع.

فاتقاءُ الله حَقَّ تقاته خَيْرٌ من اتقاء الله قَدْر الاستطاعة ، ولكن فى المحصِّلة العامة فالخير فى الآية التى نصَّتْ على الاستطاعة.

والحق سبحانه يقول :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ .. (١) ﴾ [النساء]

وقوله تعالى : ﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ (١) ﴾ [النساء] المقصود بها آدم.
وقول الحق سبحانه : ﴿ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا (١) ﴾ [النساء] المقصود بها حواء.

والحق سبحانه يقول :

﴿ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ (٢١) ﴾ [الذاريات]

أى : يكفى أنْ تجعل من نفسك عَالَمًا ، هذا العَالَم موجود فيه كل ما يثبت قدرة الحق ، وأحقـيته لأن يكون إلهًا واحـدًا ، وإلهًا معبودًا ، مُـستحقـاً لتقوانا والخوف منه سبحانه.

فالحق سبحانه قال :

﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ . .(٩٨) ﴾ [الأنعام]

وهذا إخبار من الله تعـالى أنه خلق الناس من نفس واحدة ، هى نَفْس آدم ، وهو أيضًا استقراء فى الوجود ، وهو ما نسميه «التنازل للماضى».

لأنك لو نظرت إلى عـدد العَالَم فى هذا القـرن ، ثم نظرتَ إلى عدد العـالم فى القرن الذى مضى تجده نصف هـذا العدد ، وإذا نظرت إليه فى القرن الذى قبله تجده رُبْع تعداد السكان الحاليين.

وكلما توغلتَ فى الزمن الماضى ، وتذهب فيـه ، وتبعد يقلُّ العدد ويتناهى ، إلى أن نصل إلى «نفس واحدة» ، وهذا ما ذكره الله لنا.

ولقائل أن يقول : كيف تكون نفسًا واحدة ، وهو القائل سبحانه:

﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ . .(٤٩) ﴾ [الذاريات]

ونقول : إن الحق سـبحانه وتعالى خلق النفس الواحـدة ، وأوضح أيضًا أنه خلق من النفس الواحدة زوجها ، ثم بدأ التكاثر.

إذنْ : فالاستـقراء الإحصائـى فى الزمن الماضى يدلُّ على صِدْق القضـية ، وكذلـك كل شىء متكاثر فى الوجـود من نبات ومن حـيوان ، تجـدها تواصل التكاثر.

وإنْ رجـعتَ بالإحصـاء إلى الماضـى ، تجد أن الأعـداد تقلّ وتقلّ إلى أن تنتهى إلى أَصْل منه التكاثر.

إنه يحتاج إلى اثنين:

﴿ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا . .(٣٦) ﴾ [يس]

ولماذا لم يَقُلْ زوجين وجاء الحق هنا بقوله:

﴿مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ..(١)﴾ [النساء]

أوضح العلمـاء أن هذا دليلٌ على الالتحـام الشـديد ؛ لأننا حين نكون من نفس واحدة فكلنا ـ كل الخَلْق ـ فيها أبعاض من النفس الواحدة.

وقُلْنا من قبل : إننا لو أتينا بسنتيمتـر مكعب من مادة مُلوّنة حمراء مثلاً ، ثم وضعناها في قارورة ، ثم رججنا القارورة نجد أن السنتيمتر المكعب من المادة الحمراء قـد انتشـر في القارورة ، وصـار في كل قطرة من القارورة جـزءٌ من المادة الملونة.

وهَبْ أننا أخذنـا القارورة ووضعناها في بـرميل ، ثم رججنا البـرميل جـيدًا سنجد أيضًـا أن في كل قطرة من البرمـيل جزءًا من المادة الملوّنة ، فـإذا أخذنا البرمـيل ورميناه في البـحر فسـتنسابُ المـادة الملونة ليصيـر في كل قطرة من البحر ذرة متناهية من المادة الملونة.

إذن: ما دام آدم هو الأصل، وما دُمْنَا ناشئيـن من آدم ، وما دام الحق سبحانه قد أخذ حواء من آدم الحيّ فصارت حيّة. إذن: فحياتها موصولة بآدم وفيها من آدم ، وخرج من آدم وحواء أولاد فيهم جُزْء حيّ.

وبذلك يردُّنا الحق سبـحانه إلى أَصْل واحـد ، ليُـثيـر ويُحـرِّك فينا أصـول التراحم والتوادّ والتعاطف.

ومن فضل الله سبحانه أنه تعالى خلقنا جميعًا ، أي بني آدم من نفس واحدة ليحدث أُنْـس التآلف في حركة الحـياة ، ولكل جنس قانونه ونظامه والتـقاءاته ومعاشرته.

فلو أن الإنسـان خُلِق من أجناس مـختـلفة لتـعـذَّر عليـه الائتلاف واتحـاد الحركة والأُنْس فى المعيشة ، فخلقكم من نفس واحدة.

وأيضًا ليثبت التساوى فى الأصل ، فلا مَزِيّة لأحد لأنه خُلِق من جنس أعلى من الآخر.

ولذلك الحق سبحانه وتعالى حينما يردُّنا إلى الأصل يقول الرسول ﷺ :

«**كلكم لآدم ، وآدم من تراب**» (١)

أى: لا فَضْلَ لأحدكم على الآخر إلا بحُسْنه فيما يستقبل عن ربه.

قال تعالى : ﴿ **إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ** (١٣) ﴾ [الحجرات]

ولا بُدَّ أن يحدث تعايش بينهم ، وحـركة الحياة تجمـعهم ، فلابُدّ أن يكون بينهم إِلْفٌ فى أنْ يكونوا من جنـس واحد ، فلا بُدّ للمـجتـمع أن تكون النفس واحدة ، حتى تتساند حركته ، ويكون هناك إِلْفٌ ومودَّة ورحمة.

وما النفس الواحدة؟

فآدم عليه السلام خُلِق بالشكل المعروف ، والحق سبحانه قال عن آدم:

---

(١) عن ابن عمر ﷺ أن رسول الله ﷺ خطب الناس يوم فـتح مكة فقال: يأيها الناس إن الله قد أذهب عنكم عـبية الجـاهلية وتعـاظمها بآبائهـا، فالناس رجلان: بر تقـى كريم على الله ، وفاجر شـقى هيِّن على الله ، والناس بنو آدم ، وخلق الله آدم من تراب » أخرجـه الترمذى فى سننه (٣٢٧٠) وأخرجـه من حديث أبى هريرة الإمام أحمـد فى مسنده (٢/ ٣٦١) وأبو داود فى سننه (٥١١٦) .

﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ[1] وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي ..(٢٩) ﴾ [الحجر]

لم يتكلم الحقُّ سبحانه عن حواء ، أخلقها منه؟ أم خلقها خَلْقاً مثل خَلْق آدم وسوّاها مثله ، ثم طمرها فى خَلْق آدم ، مما يدلُّ على أن المرأة محجوبة حتى فى قصة الخلق.

والحق سبحانه حينما تعرَّض لقصة آدم عليه السلام لم يوضح لنا كيف تَمَّ خَلْق حواء ، ولكنه أدخل حواء فى خطابه لآدم عليه السلام.

﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلا مِنْهَا رَغَدًا[2] حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (٣٥) ﴾ [البقرة]

وليس لأحد أن يقول لنا: إن حواء كانت ضِلْعًا من آدم ؛ لأنه قد يقول قائل وله الحق:

ولماذا نأخذ معنى خَلْق حواء من نفس آدم بمثل هذا التصور؟

ألم يَقُل الحق سبحانه:

﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ..(١٢٨) ﴾ [التوبة]

أأخذ الله محمدًا ﷺ من نفوسنا وكوَّنه؟

---

(١) سويته: سويت خلقه وصورته. [راجع: تفسير القرطبى ٥ / ٣٧٤٧]. وقال تعالى: ﴿ أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى (٣٦) أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ (٣٧) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ (٣٨) ﴾ [القيامة]

قال ابن كثير فى تفسير هذه الآيات: «أى: فصار علقة ثم مضغة ثم شكل ونفخ فيه الروح فصار خلقًا آخر سويًا سليم الأعضاء ذكرًا أو أنثى بإذن الله وتقديره».

(٢) رَغَدَ العيش: اتسع وطاب. وقوله: ﴿ وَكُلا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا (٣٥) ﴾ [البقرة] أى: أكلا طيبًا مُوسَّعًا عليكم فيه.

لا ، إنما هو رسول من جنسنا البـشرى ، وكأنه سبحـانه قد أشار إلى دليل ؛ لأن خَلْق حواء قد انطمـست معالمه عنَّا ، ولأنه أعطانا بيـان خَلْق آدم وتسويته من طين ومراحل خَلْقه إلى أنْ صار إنسانًا.

ولذلك يجوز أن يكون قد جـعل خَلْق آدم هو الصورة لخلق الجنس الأول، وبعد ذلك تكون حواء مثله.

فيكون قوله سبحانه: ﴿ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا . . (١) ﴾ [النساء]

أى : من جنسهـا ، خلقها من طين ثم صَـوَّرها الخ ، ولكنه سبحـانه لم يُعِد علينا التجربة فى حواء كما قالها فى آدم.(١)

أو المـراد من قـوله (منهـا) أى : من الضـلع . وهذا شىء لم نشـهـد أوله ، والشىء الذى لم يشهـده الإنسان ، فالحـجة فيه تكون مـمَّنْ شهده ، وسبـحانه أراد أن يرحـمنا من متـاهات الظنون فى هذه المـسألة ، مـسألة كـيف خلقنا ؟ وكيف جئنا ؟

والحق سبحانه يقول :

﴿ مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا(٢) (٥١) ﴾ [الكهف]

---

(١) أخرج مسلم فى صحيحه (١٤٦٩) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : «إن المرأة خلقت من ضلع، لن تستقيم لك على طريقة، فإن استمتعت بها استمتعت بها وبها عوج، وإن ذهبت تقيمها كسرتها، وكسرها طلاقها» قال النووى فى شرحه: «فيه دليل لما يقوله الفقهاء أو بعضهم أن حواء خلقت من ضلع آدم، وبيَّن النبى ﷺ أنها خلقت من ضلع».

وقال ابن كثيـر فى تفسيره (١ / ٤٤٨) : «خلقت حواء من ضلعـه الأيسر من خلفه وهو نائم فاستيقظ فرآها فأعجبته، فأنس إليها وأنست إليه».

(٢) العضد: مـا بين المرفق إلى الكتف، ويستعمل مـجازًا للمعين المساعـد. قال تعالى : ﴿ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا (٥١) ﴾ [الكهف] أى : أعوانًا مساعدين.

وما داموا لم يشهدوا خَلْق السماوات والأرض ، ولا خَلْق أنفسهم ، فلا بُدَّ أن نأخذ ذلك عن الله، فما ينبئنا به الله عن خلق السماوات والأرض ، وعن خلقنا هو الحقيقة ، وما يأتينا عن غير الله سبحانه وتعالى فهو ضلال وزَيْف.

فالحق سبحانه لم يُشْهد أحدًا على كيفية خَلْق السماء والأرض وخَلْق الإنسان ، فنحن لا نأخذ معلومات عن كيفية الخَلْق بعيدًا عن القرآن .

فإنْ حُدِّثْتم كيف خُلِقْتم بصورة تختلف عَمَّا جاء في القرآن ، فقولوا : كذبتم.

وقد أخبرنا الحق سبحانه عن كيفية الخَلْق ، فبيَّن أنه سبحانه خلق الإنسانَ من التراب والماء فصار طينًا ، ثم استوى الطين ، فصوَّره الحق صورةَ الإنسان ، ونفخ فيه الروح ، وآخِرُ مراحله في الإيجاد هي الروح ؛ لذلك فخروج الروح هو أول مرحلة في الموت.

فعظمة الله سبحانه أنه خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها ، خلق الرجل وخلق الأنثى ، وهي من جنسه ، ولكنها تختلف معه في النوع ، بحيث إذا التقيا معًا أنشأ الله منهما رجالاً ونساء.

ولذلك يقول الحق تعالى :

﴿ وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً..(١) ﴾ [النساء]

ولنا أن نتأمل حكمة الخالق الذي ربط الرجل والمرأة برباط تحمُّل مسئوليات عُمْران الكون ، بأن تبدأ المسئولية بينهما برغبة ولذَّة ، ثم تعب وتضحيات في سبيل الأبناء.

إن التأمل للحظة لقاء الرجل بالمرأة فى فراش الزوجية والاستمتاع الحسىِّ فى حدود أوامر الله [1]، هذا التأمل يجعلنا نقول :

إنه لولا عطاء الحق لنا مـن انسجـام وحنان ومـودة وترابط ولذة ، لما كـان قادرًا على تعمير الكون.

إن قمـة اللقـاء الذى يحدث منه التـوالد مصـحوبة بلذة ، وذلك من حكـمة الخالق جَلَّ وعَلاَ ، حتى لا يهرب الإنسـان من تعمير الكون بالذرية التى تخلفه عملاً فى الأرض.

وبهذا تتحقق عمارة الأرض التى قال عنها الحق سبحانه:

﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا..(٦١)﴾ [هود]

والحق سبـحانه جَلَّتْ مـشيـئته فى الإنشـاء ، فهـو ينشئ الإنسان من التـقاء الزوج والزوجـة ، وإنْ أرجـعتَ هذا الإنشـاء إلى البـداية الأولى فى آدم عليـه السـلام ، فستـجد أن الحق سبحـانه وتعالى قـد خلقه من نفـس مادة الأرض، والأرض مخلوق من مخلوقات الله.

(١) استمتاع الرجل الحسى بزوجته له حدود وله آداب على الزوج أن يلتزم بها:
- فتستحب المداعبة والملاعبة والملاطفة والتقبيل والانتظار حتى تقضى المرأة حاجتها.
- وأمر الإسلام بستر العـورة فى كل حال، إلا إذا اقتضى الأمر كشفها ، ويجـوز كشفها عند الجماع ، ولكن لا ينبغى أن يتجرد الزوجان تجردًا كاملاً.
- ويُسن أن يسمى الإنسان ويستعيذ عند الجماع.
- يحرم التكلم بما يجرى بين الزوجين أثناء المباشرة ، وهو أمر مخالف للمروءة.
- يحرم إتيان المرأة فى دبرها ، ولا حرج فى إتيان النساء بأى كيفية ، ما دام ذلك فى الفرج.
[راجع كتاب فقه السنة ـ للشيخ سيد سابق ٢ / ٢٤٣- ٢٤٥] .

فمنىُّ الزوج وبويضـة الزوجة يتكوَّنان من خُلاَصة الدم ، الذى هـو خُلاَصة الأغـذية وهى تأتى من الأرض ، فـسواء رمـزتَ لآدم بإنشـائه من الأرض ، أو أبقيتها فى ذريته ، فكلُّ شىء مَرَدُّه إلى الأرض.

إذن: فهى عملية مقصودة ، وعناية وغاية وحكمة.

والحق سبحانه حينما يقول:

﴿ وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً ..(١) ﴾ [النساء]

أى: من آدم وحواء . واكتفى تعالى بأن يقـول : «نساء» ولم يَقُلْ : كثيرات، لماذا؟ لأن المفروض فى كل ذكورة أن تكون أقلَّ فى العدد من الأنوثة. وأنت إذا نظرتَ مثلاً فى حقل فيه نخل. تجـد كَمْ ذكرًا من النخل، وكم أنثى؟ ستجد ذكرًا أو اثنين.

إذن : القلَّة فى الذكورة مقصودة ؛ لأن الذَّكَـر مُخصِّب ، ويستطيع الذَّكر أن يُخصِّب آلافًا.

فإذا قال الله سبحانه:

﴿ وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً ..(١) ﴾ [النساء]

فالذُّكورة هى العنصر الذى يُفترض أن يكون أقلَّ كـثيرًا ، فماذا عن العنصر الثانى وهو الأنوثة؟

لابد أن يكون أكثر.

ونريد أن نفهم هـذه كى نأخذ منها الدليل الإحـصائى على وجـود الخالق ، فهو سبحانه: ﴿ وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً ..(١) ﴾ [النساء]

والجمع البشرى الذى ظهر من الاثنين سَيُبَثُّ منه أكثر ، وبعد ذلك يُبَثُّ من المبثوث الثانى مبثوثًا ثالثًا ، وكلما امتددنا فى البَثِّ تنشأ كثرة.

وعندما تنظر لأىِّ بلد من البـلاد تجد تعداده منذ قرن مضى أقلَّ بكثـير جدًا من تعداده الآن.

مثال ذلك : كان تعداد مصر منذ قرن لا يتـعدى خمسة ملايين ، ومن قرنين كان أقلَّ عددًا ، ومن عشرة قرون كان أقلَّ ، ومن عشرين قرنًا كان أقلَّ.

إذن : فكلمـا امتـدَّ بك المسـتـقبل فـالتعـداد يزيد ؛ لأنه سـبحـانه يبثُّ من الذكورة والأنوثة رجالاً كثيرًا ونساء ، وسيبث منهم أيضًا عددًا أكبر.

فكلمـا تقدم الزمن تحـدث زيادة فى السكان ، ونحن نرى ذلك فى الأسـرة الواحـدة ، إن الأسرة الواحـدة مكونة عـادة من أب وأم ، وبعـد ذلك يمكن أن نرى منهـمـا أبنـاء وأحفــادًا ، وعندما يطيـل الله فى عمـر أحـد الوالدين يرى الأحفاد ، وقد يرى أحفاد الأحفاد.

إذن : كلمـا تـقـدم الزمن بالمـتكـاثر من اثنين يزداد ، وكلمـا رجـعتَ إلى المـاضى يقلُّ ، فالـذين كانوا مليـونًا من قـرن كانوا نصف مـليون من قـرنين ، وسلسلـها حـتى يكونـوا عشـرة فقط ، والعشـرة كانوا أربعة ، والأربعـة كانوا اثنين ، والاثنان هما آدم وحواء.

فعندمـا يقول الحق سبـحانه إنه خلق آدم وحواء ، وتـحاول أنت أنْ تُسلسل العالم كله سترجعه لهما ، وما دام التكاثر ينشأ من الاثنين ، فمن أين جاءا؟

الحق سبحانه يوضح لنا ذلك بقوله:

﴿ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ .. (١٣) ﴾ [الحجرات]

والحق تعالى بعد أن يقول :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ .. ① ﴾ [النساء]

يقول بعد هذا فى نفس الآية:

﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ .. ① ﴾ [النساء]

لقـد قدَّم الحقُّ سـبحانـه الدليل أولاً على أنه إله قادر ، وخلقكم مـن عَدَم ، وأمـدَّكم من عُـدْم ، وسـخَّـر العـالم لخـدمتكـم ، وقدَّم دليـل البَثِّ فى الكون المنشور الذى يوضح أنه إله ، فلا بُدَّ أنْ تتلقَّوْا تعليماته ، ويكون معبودًا منكم ، أى : مُطَاعًا ، والطاعة تتطلب منهجًا: افعل ولا تفعل.

وأنزل الحق سبحانه القرآن كمنهج خاتم ، ويقول :

﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ .. ① ﴾ [النساء]

إنه سبحانه بعـد أن أخذهم بما يتعاملون ويتراحمـون ويتعاطفون به أوضح لهم : أنتم مع أنكم كنتم عـلى فترة مـن الرسل ، إلا أن فطرتكم التى تتغـافلون عنها تعترف بالله كخالق لكم.

فـتعظيم الـله أمر فطرى فى البـشـر ، ولذلك فـأنت إذا أردتَ إنفاذ أمـر من الأمور ، وتريـد أن تؤثر على مَنْ تطلب منه أمرًا تقـول : سألتُك بالله أن تـفعل ذلك.

وما دام قـال هذا ، فكأن هناك قـضية فطريـة مشتـركة هى أن الله تعـالى هو الحق ، وأنه هو الذى يُسـأل به ، ومـا دام قد سُـئِل بالله فلن يُـخيِّب رجـاء مَنْ سأله.

إنه فى الأمور التى تريدون بها تحقيق مسائلكم تَسْألون الله ، وتسألون أيضًا بالأرحام ، وتقولون: بحق الرحم الذى بينى وبينك، أنا من أهلك ، وأنا قريبك وأمنا واحدة ، أرجوك أن تحقق لى هذا الأمر. (١)

إذن: فمرة تُسألون بالله الذى خلق ، ومرة تُسألون بالأرحام ؛ لأن الرحم هو السبب المباشر فى الوجود المادى.

ويختم الحق سبحانه الآية بقوله :

﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ① ﴾ [النساء]

لأن كلمـة «اتقوا» تعنى اجـعل بينك وبين غـضب ربك وقـاية بإنفاذ أوامـر الطاعة ، واجتناب ما نهى الله عنه.

والرقيب من «رقب» إذا نظر. ويقـال «مرْقب». ونجد مـثل هذا المرْقب فى المنطقـة التى تحـتاج إلى حـراسة ، حـيث يوجـد «كشك» مـبنىّ فوق السُّـور ليجلس فيه الحارس كى يراقب.

ومكان الحراسة يكون أعلى دائمًا من المنطقة الـمحروسة ، وكلمة «رقيب» تعنى ناظرًا عن قصد أن ينظر ، ويقولون : فلان يراقب فلانًا. أى : ينظره .

---

(١) أخرج ابن أبى حاتم عن الحسن أنه تلا هـذه الآية وقال : إذا سئلت بالله فاعطه ، وإذا سئلت بالرحم فاعطه.

وأخـرج عبـد بن حـميد عن عكـرمة فى قـوله تعـالى : ﴿ **الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ** ﴾ [النساء : ١] . قال : قـال ابن عباس : قـال رسول الله ﷺ : «**يقول الله تعالى : صلوا أرحامكم ، فإنه أبقى لكم فى الحياة الدنيا ، وخير لكم فى آخرتكم**». [راجع الدر المنثور للسيوطى ٢ / ٤٢٤ ـ طبعة دار الفكر بيروت ١٩٩٣ م] .

صحــيح أن هناك مَنْ يراه ذاهبًا وآتيًا مــن غير قصــد منهم أن يروه ، لكن إن كان مراقبًا ، فمعنى ذلك أن هناك مَنْ يرصده.

وسبحانه يقول:

﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا (١) ﴾ [النساء]

فليس الله بصيرًا فقط ، ولكنه رقـيب أيضًا ، ولله المثل الأعلى . نحن نجد الإنسان قـد يبصـر مَا لا غاية له فى إبصـاره ، فهـو يمرُّ على كثير من الأشـياء فـيبـصرها ، لكنه لا يرقـب إلا مَنْ كان فى باله ، والحق سـبـحانه رقـيب علينا جميعًا كما فى قوله سبحانه :

﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا (٥٢) ﴾ [الأحزاب]

***

(٤) ... رسالة الحق

لقد جاءت رسالة محمد عليه الصلاة والسلام تصفيةً لكل الرسالات التى سبقتْ ، وعلى الناس جميعًا أنْ يُميِّزوا ، ليختاروا الحياة الإيمانية الجديدة؛ لأن الرسول قد جاء بالنور والبرهان .

البرهان الذى يرجح ما هو عليه ﷺ على ما هم عليه ، والنور الذى يهديهم سواء السبيل.

ها هو الحق سبحانه يخاطب الناس جميعًا ، لِيُصفِّى مركز منهج الله فى الأرض ، فيقول مُنبِّهًا كل الناس:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَّكُمْ وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (١٧٠) ﴾ [النساء]

لقد كان الناس قبل رسول الله على مِلَل [١] وعلى أديان ونحلٍ شتَّى ، فجاء البرهان بأن الإسلام قد جاء ناسخًا وخاتمًا. والبرهان هو تعاليم هذا الدين وأدلته ، فلا حجة لأحد أن يتمسك بشىء مما كان عليه [٢] .

(١) الملل : جمع ملة ، وهى الشريعة والدين. قال أبو إسحاق : الملة فى اللغة سنتهم وطريقهم. [لسان العرب ـ مادة : ملل] .

(٢) عن أبى هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «والذى نفس محمد بيده ، لا يسمع بى أحد من هذه الأمة يهودى ولا نصرانى ، ثم يموت ولم يؤمن بالذى أرسلت به ، إلا كان من أصحاب النار » أخرجه مسلم فى صحيحه (١٥٣) وأحمد فى مسنده (٢/ ٣١٧) .

وجاء محمد ﷺ بالنور الذى يهدى الإنسان إلى سواء السبيل.

وهـذه تصـفيـة عقـدية شـاملة ، تتخلص بـها البـشريـة من كل ما يشـوب عقائدها ، ولتبدأ مرحلة جديدة.

فمنهجُ الحقِّ سبحانه السـابق على القرآن كان مطلوبًـا من المنْزَلِ إليهم أنْ يحافظوا عليـه ، وما دام قد طلب الحق سبـحانه منهم ذلك ، فكان من الواجب أنْ يمتثلوا لطاعته ، لكنهم تركوا المنهج.

فكلُّ منهج عُرْضَة ؛ لأنْ يُطاع ، وعُرْضَة لأنْ يُعْصى.

ولكنهم لم يحفظوا الكتب ، بل حرَّفوا ما فيها بمراحل مختلفة:

منها : النسيان ، وهو مُتمثِّل فى قَوْل الحق سبحانه:

﴿ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ (١٣) ﴾ [المائدة]

والنسـيان قد يكون عـدم قدرة على الاسـتيـعاب ، لكنه أيضًـا دليلٌ على أن المنهج لم يكن على بالهم ، فلو كانت كتب المنهج على بالهم لَظلُّوا على ذِكْر منه ، وما لم ينسوه كتموا بعضه ، فقال الحق سبحانه فيهم:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ (١٥٩) ﴾ [البقرة]

وما لم يكتموه حَرَّفوه ولَوَّوْا ألسنتهم به ، وقال الحق:

﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٨) ﴾ [آل عمران]

أى : أنهم يَلْوون ألسنتهم بالكلام الصادر من الله ليُحرِّفوه عن معانيه ، أو يلوون ألسنتهم عندما يريدون التعبير عن المعانى.

إنهم عندما يَلْوون ألسنتهم بالكتاب يُحرِّفونه رغبةً فى التلبيس والتدليس عليكم ، لتظنُّوا أنه من الكتاب المنزَّل من عند الله على رسولهم.

ولم يقتصروا على ذلك ، بل وضعوا من عندهم أشياء ، وقالوا : إنها من عند الله.

قال تعالى:

﴿ **فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ** (٧٩) ﴾ [البقرة]

وكان أَمْر حِفْظ كتب المنهج السابقة موكولاً لهم ، ولذلك قال الحق سبحانه عنهم :

﴿ **إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا**(١) **وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ**(٢) **بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ** (٤٤) ﴾ [المائدة]

فقد استحفظ الله الربانيين والأحبار بالتوراة ، أى : طلب منهم أن

---

(١) الذين هادوا : دخلوا فى اليهودية. والهَوْد: التوبة. هاد يَهُود: تاب ورجع إلى الحق ، فهو هائد. وقال تعالى: ﴿ **إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ** ﴾ [الأعراف : ١٥٦] أى : تبنا إليك. [لسان العرب - مادة: هود] .

(٢) الأحبار جمع حَبْر. والحِبْر والحَبْر: العالم ، ذميًا كان أو مسلمًا ، بعد أن يكون من أهل الكتاب. قال أبو عبيد : معناه العالم بتحبير الكلام والعلم وتحسينه. [لسان العرب - مادة : حبر] .

يحفظوها ، وكان هذا أمرًا تكليفيًا ، والأمر التكليفى عُرْضة لأن يُطاع ، وعُرْضة لأن يُعصى.

فالحق سبحانه طلب منهم أنْ يحفظوا المنهج ، ولكنهم ـ ما عدا النبيين ـ لم يُنفِّذوا ، وكان يجب أنْ يطيعوه ، ولكن أغلبهم آثر العصيان ، فلما عصى البشرُ المنهجَ ولم يحافظوا عليه ، لم يأمن الله البشر من بعد ذلك على أن يستحفظهم على القرآن.

وكأنه قال : لقد جُرِّبتم فلم تحافظوا على المنهج ، ولأن القرآن منهج خاتم لن يأتى له تعديل من بعد ذلك فسأتولى أنا أمر حفْظه:

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩) ﴾ [الحجر]

ومصداق هذا النص أن بعض المسلمين أسرفوا على أنفسهم فى هَجْر منهج الإسلام ومنهج القرآن إلا أنك تجد عجبًا ، فبمقدار بُعدهم عن منهج الإسلام تطبيقًا يحافظون على القرآن تحقيقًا.

فتجدهم يكتبون القرآن بكل ألوان الكتابة وبكافة الأحجام ، فهناك حجم ذهبى ترتديه النساء فى صدورهن ، وحجم يوضع فى اليد ، وبعد ذلك نجد الكفرة أنفسهم يخترعون طريقة لكتابة القرآن فى صفحة واحدة.

إذن : فالله يُسخِّر لحفظ القرآن حتى مَنْ لم يكن مسلمًا ، وتلك خواطر من الله ، ونحن نرى كل يوم مَنْ يبتعدون بسلوكهم عن المنهج ، لكنهم يرصدون المال لحفظ القرآن.

وهذا يُثبت لنا أن حفظ القرآن ليس أمرًا تكليفيًا ، بل هو إرادة الله.

وما دام الحق سبحانه هو الذى يحفظ المنهج ، فالقرآن مهيمن على كل الكتب ؛ لأنه سبحانه وتعالى قد ضمن عدم التحريف فيه.

إذن: فالكتاب المهيمن هو القرآن.

والحق سبحانه يقول :

﴿ **وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ** ..(٤٨) ﴾ [المائدة]

والذين فسَّروا كلمة «مهيمن» على أنه «مُؤْتَمن» قول صحيح.

والذين فسَّروا كلمة «مهيمن» بأنه «رقيب» قول صحيح.

والذين فسَّروا كلمة «مهيمن» بأنه «شهيد» قول صحيح.

والذين فسَّروا كلمة «مهيمن» بأنه «قائم على كل أمر» قول صحيح.

وإذا رأيت اختلافات فى تفسير اسم واحد من أسمائه ـ سبحانه ـ فلتعلم أن الحق يُصدِّق على كل ذلك.

وباللازم لا يكون رقيبًا إلا إذا كان شهيدًا ، ولا يكون شهيدًا إلا إذا كان قائمًا على الأمر، ولا يكون كل ذلك إلا إذا كان مُؤتَمنًا ومؤمنًا (١)

---

(١) قال ابن كثير فى تفسيره (٢ / ٦٥) : «هذه الأقوال كلها متقاربة المعنى، فإن اسم المهيمن يتضمن هذا كله ، فهو أمين وشاهد وحاكم على كل كتاب قبله ، جعل الله هذا الكتاب العظيم الذى أنزله آخر الكتب وخاتمها وأشملها وأعظمها وأكملها حيث جمع فيه محاسن ما قبله وزاده من الكمالات ما ليس فى غيره ، فلهذا جعله شاهدًا وأمينًا وحاكمًا عليها كلها وتكفل تعالى حفظه بنفسه الكريمة ، فقال تعالى : ﴿ **إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ** ﴾ [الحجر : ٩] » .

وقد دعـا إبراهيم عليه السلام الله سبحانه وتعالى لـيُتِمّ نعمتـه على ذريته ، ويزيد رحمته على عباده ، فقال :

﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ(1) إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٢٩) ﴾ [البقرة]

فدعا بأن يرسل لهم رسولاً يُبلِّغهم منهج السماء ، حتى لا تحدث فترة ظلام فى الأرض تنتشر فـيها المعصيـة والفساد والكفر ، ويعبد الناس فـيها الأصنام كما حدث قبل إبراهيم عليه السلام .

وكلمة ﴿ رَسُولاً مِّنْهُمْ .. (١٢٩) ﴾ [البقرة]

ترد على الـيـهـود الذين أحـزنهم أن رسـول الله ﷺ مـن العـرب ، وأن الرسالة كان يجب أن تكون فيهم.

ونحن نقـول لهـم: إن جَـدَّنا وجَـدَّكم إبراهيم وأنتم مـن ذرية يعـقـوب بن إسحاق. ومحمد ﷺ من ذرية إسماعيل بن إبراهيم وأخ لإسحاق.

ولا حُجَّـة لما تدَّعُونه من أن الله فضّلـكم واختاركم على سائر الشـعوب ، إنمـا أراد الحق سبـحـانه وتعـالى أن يسلب منكـم النبـوة ؛ لأنكم ظلمـتُم فى الأرض ، وعَهْد الله لا يناله الظالمون.

والحق سبحانه يقول :

﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ

---

(1) الزكاة فى اللغـة: الطهارة والنماء والبركة والمـدْح. [لسان العرب ـ مادة : زكـا] وزكا : طهر وصلح فـهو زكيٌّ وهى زكـية . قال تعـالى: ﴿ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴾ [مريم :١٩] طاهراً صالحًا. وقال تعالى: ﴿ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ ﴾ [الكهف : ٧٤] طاهرة غير مذنبة.

﴿وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (١٦٤)﴾
[آل عمران]

والرسول مبعوث للكل ، فلماذا كانت المنَّة على مَنْ آمن فقط ؟ لأنه هو الذى انتفع بهذا ، أما الباقون فقد أهدروا حقَّهم فى الأسوة ، ولذلك تكون المنة على مَنْ آمن.

وشاء الحق سبحانه أن يختم رسول الله الرسالات ، فأرسله بالإسلام الذى يغلب الحضارات ، رغم أنه ﷺ من أمة أُمية ، لا تعرف شيئًا ، حتى لا يُقال عن الإسلام : إنه مجرد وثْبة حضارية ، وجاء لهم بمنهج غلب الحضارات المعاصرة له: فارس والروم فى وقت واحد.

فالرسول إنما جاء بالقيم التى تهدى إلى الطريق المستقيم ، فجاء بالدين الحق ، ليظهره فوق أى ديانة فاسدة ، فيقول سبحانه :

﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (٣٣)﴾
[التوبة]

ولقائل أن يقول :

لماذا إذن وُجدت فى العَالم أديان أخرى ، كاليهودية والنصرانية؟

ولماذا إذن هناك مَلاَحدة ما دام الله قد قضى ألاَّ يوجد مع الإسلام دينٌ آخر؟

ونقول : أنت لم تفهم مراد الآيتين الكريمتين ، إن الحق سبحانه يقرر مرَّة أن الدين سيظهر ولو كره المشركون ، ومعنى ذلك أن هناك كافرين ومشركين، وأهل ديانات أخرى ، وسيظهر الإسلام عليهم ، ويجعله الله هو السائد بالحجة والبرهان ، وبشهادة الكافرين والملحدين والوثنيين أنفسهم.

لأن أمور الحياة ستتعبهم فى كل قضايا حياتهم ، ولا يجدون حلولاً لهذه المتاعب إلا بأنْ يذهبوا إلى قضية الإسلام ، لا لأنه إسلام ، ولكن لأن أسلوب وقواعد الإسلام هى التى ستُخلِّصهم من مشكلاتهم.

ولجوؤهم إلى أقضية تتفق مع الإسلام - مع كفرهم بالإسلام - هو شهادة قوية على أن الإسلام جاء دينَ الفطرة ودين العقل ، وأن الكل سيحتاج إليه قهرًا عنه ، ومَنْ لم يأخذه دينًا فسيضطر إلى أنْ يأخذه نظامًا.

فأديان السماء لا تتعاند ، إنها كلها مُتكَاتفة فى أن تصل الأرضَ بالسماء على ما تقتضيه حالة العصر زمانًا ومكانًا.

وقديمًا كان العالم معزولاً عن بعضه ، وكل بيئة لها أجواؤها وداءاتها ، فيأتى الرسول ليعالج فى مكان خاص داءات خاصة ، لكن الله جاء برسوله ﷺ بعد أن توحدتْ هذه الداَّءاتُ فى الدنيا .

جاء رسولنا الكريم ليعالج هذه الداءات العالمية ، وجاء رسول الله مُؤيَّدًا بأوصافه ، ومُؤيَّدًا بتعاليمه التى تُخفِّف عنهم إصرهم [1] وأغلالهم.

والحق سبحانه يقول :

﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ [2] وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٥٧) ﴾ [الأعراف]

(١) الإصر : العهد الثقيل. وقيل : الإصر : الإثم والعقوبة للغوه وتضييعه عمله ، وأصله من الضيق والحبس. [لسان العرب - مادة : أصر].

(٢) العَزْر : النصر بالسيف. وعَزَره وعَزَّره: أعانه وقوَّاه ونصره. والتعزير ههنا: الإعانة والتوقير والنصر مرة بعد مرة . [لسان العرب ـ مادة : عزر] .

إذن: فطريق الفلاح كان مكتوبًا فى التوراة والإنجيل، وكان الأمرُ باتباع محمد ﷺ النبى الأمى موجودًا فى الكتب السابقة على القرآن.

وكانت البشارة بمحمد رسولاً من عند الله يأمر بكل الخير ، وينهى عن كل الشر ، ويُحلُّ للناس كافة الأشياء التى تُحسن الفطرة الإنسانية استقبالها ، ويُحرِّم عليهم أن يُزيفوا ويُغيِّروا المنهج الذى جاء به رسول الله ﷺ ، وألاَّ يستسلموا للعناد.

فقد جاء محمد ﷺ ليزيل عنهم عبْءَ تزييف المنهج ، فمَن اتبع نور رسول الله ﷺ أحسَّ بالنجاة والفوز ، ومَنْ لم يتبع هذا النور فهو الخارج عن طاعة كتاب السماء.

وأهل الكتاب يعرفون رسول الله ﷺ ، ويعرفون زمنه ورسالته.

يقول الحق سبحانه:

﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٤٦) ﴾ [البقرة]

فاليهود والنصارى يعرفون رسالة محمد ﷺ ، ومكتوب فى التوراة والإنجيل أنه الحق ، ومطلوب منهم أنْ يؤمنوا به.

إذن : فرسول الله معلوم مُقدَّمًا من أهل الكتاب كمعرفتهم لأبنائهم ، فهم يعرفونه بالبشارة به ، وبالإخبار عنه ، وبالنعْت لشكله وصورته ، فإذا كان كفار قريش على فَتْرة [1] من الرسل فليسألوا أهل الكتاب.

(١) الفَتْرة : ما بين كل نبيين. وفى الصحاح: ما بين كل رسولين من رسل الله عز وجل من الزمان الذى انقطعت فيه الرسالة . [لسان العرب ـ مادة :فتر].

وقد سمع الأوس والخزرج من أهل الكتاب أن هناك نبيًا قادمًا سيؤمنون به ويتبعونه ويقتلون به العرب قَتْل عاد وإرم.

إذن: فالصَّيْحة الإيمانية على لسان رسول الله ﷺ لم تكن مفاجئة للكون، وإنْ كتمها الذين كفروا من أهل الكتاب، هؤلاء الذين جاء فيهم قول الحق سبحانه:

﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ (١) عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ (٨٩) ﴾

[البقرة]

فرسالة محمد ﷺ لم تكن مفاجئة لأهل الكتاب، بل كانوا ينتظرونها، وكانوا يؤكدون أنهم سيؤمنون بها كما تأمرهم به كتبهم، ولكنهم رفضوا الإيمان وأنكروا الرسالة عندما جاء زمنها.

ويقول تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ ... (١٧٠) ﴾ [النساء]

والحق هو الشيء الثابت الذى لا يتغير مهما تغيرت عليه الظروف؛ لأن الحقَّ صِدْق له لَوْن واحد، فإذا رأى جمع من الناس حادثة واحدة، ثم جاء كل واحد منهم فأخبر بها إخبارَ صِدْق فلن تختلف رواية الحادثة من واحد لآخر.

أما إنْ سولت نفسُ بعض الناس لهم أن يتزيَّدوا في الحادثة، فكل واحد سيحكى الحادثة على لَوْن مختلف عن بقية الألوان، وقد يسافر خَيَالُ أحدهم في شطحة الكذب ويسترسل فيه.

(١) الاستفتاح: الاستنصار. أى: أن أهل الكتاب من اليهود كانوا يستنصرون على الكفار بالنبى الذى سيبعث آخر الزمان ويتوعدونهم بأنه سينصرهم عليهم فلما جاء الرسول كفروا به.

والحق سبحانه وتعالى يوضح لنا:

لقد جاءكم الرسول بالحق مهما تغيرت الظروف والأحوال ، ومهما جئتم إليه من أيِّ لون ، سواء في العقديات أو فى العبادات أو فى الأخلاق أو فى السلوك ، وستجدون كل شيء ثابتًا ، لأنه الحق.

فمهما اختلطت بالحق أشياءُ ، فهو كحق يُبعد ويطرد هذه الفقاقيع والخبث ويُنحِّيها عنه ، فإنْ عَلا الباطل يومًا على الحق فلنعلم أنه عُلُوُّ الزَّبَد الذى يذهب جُفَاء [1] مَرْمِيًا به ومَطْرُوحًا.

وسيظلُّ الحق هو الحق إلى يوم القيامة ، فالحق لا يتناقض ولا يتغير.

وسبحانه يقول :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَّكُمْ .. (١٧٠) ﴾

[النساء]

والإيمان هو اعتناق العقيدة بوجود الإله الأعلى ، والبلاغ عنه بواسطة الرسل ، وأنَّ للحق ملائكة ، وأنَّ هناك بَعْثًا بعد الموت وحسابًا.

ويقتضى الإيمان أن نعمل العمل وَفْق مُقْتضياته ، وذلك هو اختيار الخير ، ولنعلم جيدًا أن الإيمان لا ينفصل عن العمل.

والخير يعلمه الله ، ولذلك يقول الحق سبحانه:

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا (٦٦) ﴾ [النساء]

(١) جفأ الوادى غُثَاءه : رمى بالزَّبَد والقذى . واسم الزَّبَد: الجُفَاء. وقال تعالى : ﴿ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً .. (١٧) ﴾ [الرعد] أى : باطلاً. [لسان العرب ـ مادة : جفأ].

وهذا الخير أشد تثبيتًا لغيرهم ؛ لأن مَنْ يرَوْنهم يُنفِّذون حكم الله ، فلا بُدَّ أنهم وثقوا أنهم سيذهبون إلى خير مما عندهم ، إذن : فهو يثبت من بعدهم.

أو المعنى: لو أنهم فعلوا ما أُمروا به من اتباع رسول الله ﷺ وطاعته والانقياد لما يراه ويحكم به ؛ لأنه الذى لا ينطق عن الهوى لكان ذلك خيرًا لهم فى دُنْياهم وأُخْراهم ، وأقوى وأشد تثبيتاً واستقرارًا للإيمان فى قلوبهم ، وأبعد عن الاضطراب فيه.

والحق سبحانه يقول:

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم .. (٦٦) ﴾ [المائدة]

أى : أنهم لو طَبَّقوا التوراة والإنجيل دون تحريف [(١)]، وآمنوا بالقرآن لَكَان خَيْرًا لهم ، والتوراة كتاب اليهود ، والإنجيل كتاب عيسى عليه السلام ، وقد أنزل الله بعد ذلك الكتاب الجامع المانع ، وهو القرآن الكريم.

وأراد لهم الحق بالإيمان بما جاء فى التوراة والإنجيل من بشارة برسول الله ﷺ ؛ لأن الإيمان بالتوراة والإنجيل - من قبل تحريفهما - إنما يقود إلى الإيمان بمحمد ﷺ ، وبما أنزله الله إليه.

(١) عن زياد بن لبيد أنه قال : ذكر النبى ﷺ شيئًا فقال : «**وذاك عند ذهاب العلم**» قال : قلنا يا رسول الله وكيف يذهب العلم ونحن نقرأ القرآن ونقرئه أبناءنا وأبناؤنا يقرئونه أبناءهم إلى يوم القيامة. فقال ﷺ : « **ثكلتك أمك يا ابن أم لبيد، إن كنت لأراك من أفقه رجل بالمدينة، أو ليس هذه اليهود والنصارى يقرأون التوراة والإنجيل ولا ينتفعون بما فيهما بشىء**». أخرجه أحمد فى مسنده (٤ / ٢١٩) وابن ماجه فى سننه (٤٠٤٨) ، والترمذى فى سننه (٢٦٥٣) والدارمى فى سننه (١ / ٨٧). وقد صحح ابن كثير إسناد الحديث عند ابن ماجه.

واليهود - كما عرفنا - هم الذين توعَّدوا العرب بمجيء رسول الله ، لكن العرب سبقوهم إلى الإيمان بمحمد بن عبدالله.

لقد أراد الحق سبحانه لأهل الكتاب أنْ يُحسِنوا الإيمان أولاً بصحيح التوراة وبصحيح الإنجيل ، حتى يكون ذلك هو المدخل الطبيعى للإيمان بالقرآن.

وهم بالإيمان لا يأخذون خَيْر الآخرة فقط ، بل يأخذون خير الدنيا أيضًا.

يقول الحق سبحانه:

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴿٩٦﴾ ﴾ [الأعراف]

فلو آمنوا بالموجود الأعلى ، واتقوا باتباع منهجه أمرًا ونهيًا ، لعاشوا فى كل خير ، فإن اتقوا ربهم أتَتْ لهم بركات من السماء والأرض.

فإنْ أردتَّها بركات مادية تجدها فى المطر الذى ينزل من أعلى ، وبركات من الأرض مثل النباتِ ، وكذلك كنوزها التى تستنبط منها الكماليات المرادة فى الحياة.

وماذا يحدث لو لم يؤمن الناس؟

ها هو ذا الحق سبحانه يقول :

﴿ وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧٠﴾ ﴾ [النساء]

فسبحانه هو الغنىُّ عن عباده وعن إيمانهم ، وسيظل كونه الثابت - بنظرية القَهْر والتسخير - هو كونه ، ولن يتغير شىء فى الكون بكفر الكافرين ، سِوى سخط الكون عليهم لأنه مُسخَّر لهم.

ولذلك يقول الحق سبحانه:

﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِين (١) (٢٩) ﴾ [الدخان]

فالسماوات والأرض لهما انفعـال .. انفعال يصل إلى مرحلة البكاء ، فهما لم تبكيا على فـرعون وقومه ، ولكنهـما تبكيان حُزْنًا عنـدما يفارقهمـا الإنسان المؤمن المصلى المطبِّق لمنهج الله (٢) .

فـالأرض التى كان بهـا قـوم فرعـون كان لهـا مشـاعـر، والنبات والأنهـار والعيون وكل النِّعَم التى يَنْعم بها الإنسان لها مشاعر وأحاسيس ، وهى تغضب وتسخط وتضجُّ برجود الكافرين بنعمة الله فيها.

ولذلك لا تبكى السـماء والأرض على الـخَسف والتنكيل بهـؤلاء العُصَـاة الكافرين المشركين.

وما دام الحق سـبحـانه وتعالى قـد نفى بكاء السمـاوات والأرض على قوم فرعون ، ففى المقابل لابـد أنها تبكى على قوم آخرين ، لأنها لا تبكى إلا على المهديين.

وقد حَلَّ لنا الإمام على بن أبى طالب ـ كرم الله وجهه ـ هذه المسألة فقال :

«إذا مـات المؤمن بكى عليه موضعان: موضع في الأرض، وموضع

(١) أنظره: أخَّره وأمهله وتأنَّى عليه. وقد قال تعالى عن إبليس : ﴿ قَالَ أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ [الأعراف : ١٤] أى : أمهلنى وأخِّر حسابى وعقابى إلى يوم القيامة.

(٢) عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال : **«ما من عبد إلا وله في السماء بابان: باب يخرج منه رزقه، وباب يدخل منه عمله وكلامه، فإذا مات فقداه وبكيا عليه ، وتلا هذه الآية : ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ ﴾[الدخان : ٢٩] ـ وذكر، أنهم لم يكونوا عملوا على الأرض عملاً صالحاً يبكى عليهم ولم يصعد لهم إلى السماء من كلامهم ولا من عملهم كلام طيب، ولا عمل صالح فتفقدهم فتبكي عليهم»**. قال الهيثمى فى مجمع الزوائد (٧ / ١٠٥) : «قلت: روى الترمذى بعضه. رواه أبو يعلى وفيه موسى بن عبيدة الربذى وهو ضعيف».

في السماء ، أما موضعه الذي في الأرض فَمُصلاه ، وأما موضعه في السماء فمصعد عمله» [1] .

لأن موضعه الذى كان يصلى فيه يُحرم من أن واحدًا كان يصلى فيه ، وأما موضعه الذى كان يصعد منه عمله ، فيفتقد رائحة عبور العمل الصالح.

والحق سبحانه يقول :

﴿ **لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ** (٦٤) ﴾ [الحج]

فالله سبحانه هو الغنى ؛ لأن له ما فى السماوات والأرض ، ومع ذلك لا ينتفع بما يملك ، ولكنه جعل هذا النفع لعباده وخلقه ، فهو بصفات خَلْقه أوجد الأشياء ، فلا أحد يعطيه شيئًا من عنده.

فهو تعالى غنيٌّ وحميد ، أى غنيٌّ محمود ؛ لأن غِنَاه يعود على الناس بالخير.

ولأن الله هو الغنى عن عباده لم يجبرهم على الإيمان به ، بل قال سبحانه:

﴿ **وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ** (٢٩) ﴾ [الكهف]

فالاختيار لك ، والله سبحانه وتعالى قد خلقك ، وخلق الكون الذى يخدمك من قبل أن توجد ، وأنت طارئ على هذا الكون ، طارئ على الشمس وعلى القمر ، وعلى الأرض ، وعلى الجبال ، وعلى الماء ، وعلى أى شىء فى هذا الوجود.

---

(١) أورده ابن كثير فى تفسيره (٤ / ١٤٢) وعزاه لابن أبى حاتم أن عباد بن عبدالله قال : سأل رجل عليًا رضى الله عنه : هل تبكى السماء والأرض على أحد؟ فقال له : لقد سألتنى عن شىء ما سألنى عنه أحد قبلك ، إنه ليس من عبد إلا له مُصلًى فى الأرض ومصعد عمله من السماء ، وإن آل فرعون لم يكن لهم عمل صالح فى الأرض، ولا عمل يصعد فى السماء، ثم قرأ على رضى الله عنه : ﴿ **فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ** (٢٩) ﴾ [الدخان]

(٥) ... الرسول نور وبرهان

قد جاءكم النور. أيها الناس. وبيَّن لكم الرسول كثيرًا مما تختلفون فيه ، وتسامح عن كثير من خطاياكم ويريد أن يُجرى معكم تصفية شاملة.

فعليكم. أيها الناس. أنْ تلتفتوا وتنتبهوا، ولتبحثوا ماذا يريد الله بهذا المنهج.

والله قد ضرب المثل بالنور ، وهذا النور يهدى إلى «افعل» و «لا تفعل» ، ومَن الذى يقول لنا : إن هذا النور قادم من الله ؟ إنه الرسول.

ومَن الذى يدلُّنا على أن الرسول صادقٌ فى البلاغ عن الله؟

الذى يدل على صدْقه هو قول الله سبحانه :

﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُّبِيناً** (١٧٤) ﴾

[النساء]

فالذى جاء أولاً من ربكم هو البرهان على أن رسول الله ﷺ صادق فى البلاغ عن الله ، وليبلغنا أن الكتاب قد جاء بالمنهج ، والقرآن يتميز بأنه البرهان على صِدْق النبى وهو المنهج النُّورانى ؛ لأن البرهان هو الحُجَّة على صِدْق الرسول فى البلاغ عن الله.

ونحن نعرف البرهان فى حياتنا التعليمية أثناء دراسة مادة الهندسة عندما نقابل تمريناً هندسياً فنأخذ المعطيات ، وبعد ذلك ننظر إلى المطلوب إثباته ، ونعيد النظر فى المعطيات لنأخذ منها قوة للبرهنة على إثبات المطلوب.

وإنْ كانت المعطيات لا تعطى ذلك فإننا نتجه إلى خطوة أخرى هى العمل على إثبات المطلوب ، وهذا الكون فيه مُعْطيات ، وهو كَوْنٌ مُحْكَم ، ونلمس إحكامه فيما لا دَخْلَ لحركتنا فيه.

﴿ لا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ (٤٠) ﴾ [يس]

فإنْ كنتم مُعْجبين باتزان الكون الأعلى فذلك لأنه مصنوع بنظام دقيق ، وإذا كان الحق سبحانه قد وضع لنا نظاماً دقيقاً هو المنهج بـ «افعل كذا» و«لا تفعل كذا» فذلك حتى لا تفسد حركتك الاختيارية إن اتبعتَ المنهج ، وتصرفتَ فى حياتك بمنهج الله ، ويكون الميزان معتدلاً.

إذن: فقد أعطانا الحق سبحانه مُعْطيات ، عندما ينظر الإنسان فيها نَظَرا فِطْرياً بدون هوىً ، فإنها تأخذ بيده إلى الإيمان .

وهذه الكائنات الموزونة لا بُدَّ لها من خالق ؛ لأن الإنسان طرأ عليها ، ولم تَأْتِ هى من بعد خَلْق الإنسان ، ولا أحد من البشر يَدَّعى أنه صنع هذا الكون.

وكان لا بُدَّ أن تكون مهمة العقل البشرى أنْ يُفكِّر ويقدح الذِّهْن ليتعرف على صانع هذا الكون ، وكان لا بُدَّ أنْ يتوجه بالشكر لمن جاء ليحُلَّ له هذا اللغز .

وقد جاءت الرسل لتَحُلَّ لنا هذا اللغز ، ولتدلُنا على مطلوب عقلى فطرى ، فإذا جاء الرسول ليحُلَّ هذا اللغز ، ويبلغنا أن الذى خلق الكون هو الله وهذه صفاته ، ويبلغنا أن هذا المنهج جاء من الله ويحمل معه معجزةً هى دليلُ صِدْق البلاغ عن الله ، وهى معجزة لا يقدر عليها البشر ، ويتحدى الرسول البشر أنْ يأتوا بمثل معجزته.

إذن : فلا بُدَّ أن يؤمن كل البشر لو صَدَقوا الفهم ، وأخلصوا النية.

ما هو البرهان إذن؟

البـرهان هو المعـجـزة الدَّالة على صدْق الرسـول فى البـلاغ عن الله ، هذا البلاغ عن الله الذى بحث عنه العقل الفَطرى وآمن أنه لابُدَّ أن يكون موجودًا ، لكنه لم يتعرف على أنه «الله».

إن الرسول هو الذى يُبلِّغنا عن اسم الخالق ، وهو الذى يُقدِّم لنا المنهج.

إذن : فمجىء الرسل أمر منطقى تُحتِّمه الفطرة ويُحتِّمه العقل.

فالبرهان هو الإعجاز الدَّال على صِدْق المبلّغ الأخير عن الله ، وهو الحجة الدامغة.

ونعلم أن كل رسول يأتى بمـعجزة تُثبت صدْق بلاغـه عن ربه ، وقد تكون المعجزة بعيدة عن المنهج ، ثم يعطيهم الرسولُ المنهج ببلاغ من الله.

مثال ذلك: أن معـجزة سيدنا موسى كانت العصـا ، لكن منهجه هو التوراة. وعيـسى عليه السـلام كانت معـجزته إبراء الأكـمه [(١)] والأبـرص [(٢)] وإحياء الموتى بإذن الله ، لكن منهجه الإنجيل.

أما رسـولنا محـمد ﷺ ، وهو النبى الخاتـم فقد تجلَّتْ مـعجـزته فى أنها عَيْنُ منهجـه ، إنها القرآن ، ولم تنفصل المعجـزة عن المنهج ؛ لأنه رسول عام إلى الناس كَافَّة [(٣)]، وإلى أنْ تقومَ الساعة.

(١) الكمه فى التـفسير: العَمَى الذى يُولَد به الإنسان ، وذكر أهل اللغة: أن الكَمَـه يكون خِلْقة، ويكون حادثًا بعد بصر. [لسان العرب ـ مادة : كمه] .

(٢) البرص: مرض جلدى يُحدث بُقَعًا بيضاء فى الجلد تشوهه ، وهو من أعراض مرض الجذام الكثيرة.

(٣) عن جابر بن عـبدالله الأنصارى أن رسول الله ﷺ قـال : قال رسول الله ﷺ : «**أعطيت خمسًا لم يعطهن أحد قبلي، كان كل نبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى كل أحمر وأسود، وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلى، وجعلت لى الأرض طيبة طهورًا ومسجدًا، فأيُّما رجل أدركته الصلاة صلّى حيث كان، ونصرت بالرعب بين يدى مسيرة شهر، وأعطيت الشفاعة**» أخرجه مسلم فى صحيحه (٥٢١) .

وليس لأحد أنْ يقـول «أنا رسول من عند الله» ، بل لابُدَّ أن يُـقدِّم بين يَدَى دَعْواه معجزة تثبت أنه رسول من الله.

ولذلك قلنا : إن من لزوم التحدِّى ألاَّ يتحدَّى اللهُ حين يعطى رسولاً معجزة إلا بشىء نبغ فيـه القوم المبـعوث إليهـم ذلك الرسول ؛ لأن الحق سبـحانه لو جاء لهم بشىء لم يدرسوه ولم يعرفوه ، فالردُّ منهم يكون للرسول بقولهم:

إن هذا أمـر لم نروّض أنفسنا ولم نُدرِّبها عـليه ، ولو روّضنا أنفـسنا عليـه لاستطعنا أنْ نفعلَ مثله ، وأنت قد جئتَ لنا بشىء لم نُعوِّد أنفسنا عليه.

لذلك يرسل الحق سبحانه الرسول ـ أى رسـول ـ بمعجزة من جنس ما ينبغ فيه القوم المرْسَل إليهم.

مـثال ذلـك ، موسـى علـيه السـلام ، أرسله الله إلى قـوم كـانوا نابغـين فى السحر ، فكانت معجزته تقرُب من السحر.

وإيَّاكَ أنْ تقولَ : إن معجزة موسى كانت سحرًا ؛ لأن موسى عليه السلام لم ينزل بسـحر، ولكن جـاء بمعجـزة ، فَهُمْ كـانوا يُخيِّلون للـناس أشياء لـيستْ واقعًا.

لذلك تجد القـرآن يعطيك الفارق بين ما يكون عليـه ما يأتى به الله على يَد رسول من الرُّسُل من معجزة ، وسحر القوم ، فيقول القرآن :

﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ (17) قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ[1] بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ[2] (18) قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَىٰ (19) فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ (20) ﴾ [طه]

(١) الهَشّ: جَذْبُك الغـصن من أغصان الـشجرة إليك ، ومنه قـوله عز وجل : **﴿ وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي ﴾** [طه : ١٨] قال الفراء: أى : أضـرب بها الشجر اليابس ليـسقط ورقها فتـرعاه غنمه. [لسان العرب ـ مادة : هشش].

(٢) الإربة والإرب : الحاجة. وجمعهما مآرب . أى : حاجات وأغراض .

كأن الحقَّ سبحانه يقول لموسى عليه السلام : إن حدود علمك بما فى يدك أنها عصا تتوكأ عليها ، وتَهُشُّ بها على غنمك ، أما علمى أنا فهو علم آخر.

لذلك يأمره أنْ يُلقى العَصا ، فلما ألقاها وجدها حية تسعى ، فأوجس فى نفسه خيفة .

إن ﴿فَأَوْجَسَ[1] فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَىٰ ..(٦٧)﴾ [طه]

هى التى فرَّقتْ بين سِحْر القوم ومعجزة موسى عليه السلام . لماذا ؟

لأن الساحر يُلقى العصا فيراها الناس حَيَّة ، وهو يراها عَصًا ؛ لأن الساحر لو رآها حَيَّة لَخافَ مثل الناس ، لقد خاف موسى عليه السلام لأنها تغيرتْ وصارتْ حَيَّة فعلاً.

ولذلك قال له الله :

﴿قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ (٢١)﴾ [طه]

فلو كانت من جنس السحر لما أوجسَ فى نفسه خيفةً ؛ لأنه سوف يراها عَصًا وإنْ رآها غيرُه حَيَّة ، وهذا هو الفارق .

وقوم عيسى أيضاً كانوا مشهورين بالحكمة والطب ، إذن : فستجىء الآيات من جنس الحكمة والطب ، ثم تتسامى المعجزة ؛ لأن الذى يُطبِّب جسماً ويُداويه لا يستطيع أنْ يُعيد الميت إلى الحياة ؛ لأنَ الإنسان إذا مَا ماتَ فقد خرج الميت عن دائرة علاج الطبيب .

ولذلك رقَّى الله آيةَ عيسى ، إنه يَشْفى المرضى ، ويُحيى الموْتَى أيضاً ، وهذا تَرقٍّ فى الإعجاز .

(١) أوجس القلب فزعاً : أحسَّ به. قال أبو إسحاق : معنى أوجس: وقع فى نفسه الخوف. وتوجّس بالشىء : أحسَّ به فتسمَّع له. وتوجَّسْت الشىء والصوت إذا سمعته وأنت خائف. (لسان العرب ـ مادة : وجس)

والحق سبحانه يقول :

﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ②﴾ [يوسف]

فهو قرآن عربى ؛ لأن الرسول ﷺ سيجاهر بالدعوة فى أمة عربية ، وكان لا بُدَّ من وجود معجزة تدلُّ على صدق بلاغه عن الله ، وأن تكون ممَّا نبغَ فيه العرب ؛ لأن المعجزة مشروطة بالتحدِّى ، ولا يمكن أنْ يتحدَّاهم فى أمر لا رِيادةَ لهم فيه ، ولا لَهُمْ به صِلَة ، حتى لا يقولَنَّ أحد: نحن لم نتعلم هذا ، ولو تعلمناه لجئنا بأفضل منه .

وقد كان العرب أهلَ بيانٍ وأدبٍ ونُبوغ فى الفصاحة والشعر ، وكانوا يجتمعون فى الأسواق ، وتتفاخر كلٌ قبيلة بشعرائها وخُطبائها المفوَّهين ، وكانت المباريات الآدائية تُقَام ، وكانت التحديات تجرى فى هذا المجال ، ويُنصب لها الحكام .

أى: أن الدُّرْبة على اللغة كانت صناعة متواترة ومتواردة ، محكومٌ عليها من الناس فى الأسواق ، فَهُمْ أمة بَيَانٍ[1] وبلاغة وفصاحة.

لذلك شاء الحق ـ سبحانه ـ أن يكون القرآنُ معجزةً من جنس ما نبغ فيه العرب ، وهم أوَّلُ قومٍ نزل فيهم القرآن ، وحين يؤمن هؤلاء لن يكون التحدى بفصاحة الألفاظ ونَسَق الكلام ، بل بالمبادئ التى تَطْغى على مبادئ الفُرْس والروم.

هذا هو البرهان .

(١) البيان : إظهار المقصود بأبلغ لفظ ، وهو من الفهم وذكاء القلب مع اللسَن ، وأصله الكشف والظهور . (لسان العرب ـ مادة : بين).

أما النور فقد جاء أيضاً من أمـر حسِّى ؛ لأن النور يمنع الإنسانَ من أنْ يتعثَّر فى مشْيته ، أو أنْ يُخطئ الطريق ، أو أنْ يصطدم بالأشياء فَيُؤذيها أو تُؤذيه .

إذن : هناك نور مـادىّ تبصـرون به الأشيـاء فتـحددون به مـواقعكم منهـا ، فيسلم منكم الضعيف ، وتسلمون أنتم من القوى عنكم.

هذا هو النور المادىّ ، وهو أمـر يشترك فيه المـؤمن والكافر ، لم يضنّ اللهُ به حتى على الكافر .

لكن هناك نور آخر جعله الله نورَ الهـداية ونورَ اليقين ونورَ القيم ، يأتى من الله على أيدى الرسل ، فإذا أخذ المؤمن النُّورَيْن ، فقد انتفع فى الدنيا ، ويمتدّ انتفاعه من الدنيا إلى انتفاعه فى الآخرة .

ولذلك قال تعالى:

﴿نُورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٣٥)﴾ [النور]

والحق سبحانه حين يضرب مثلاً للمعـنويات ليتعرف إليها الناس فهو يُقدِّم لها بأمـر مادىّ يتـفق عليه الكُلُّ ، ليُـقرِّب الأمـر المعنوىّ أو الغيـبىّ إلى أذهان الناس ؛ لأن المعنويات والغيبيات يصعب إدراكها على العباد .

فلذلك هو سبـحانه وتعالى يُقرِّب هـذا الأمر ويُبيِّنه بأنْ يضربَ لنا مـثلاً من الأمور المادية المـحسَّة ، حتى تقـترب الصورة من الأذهان ؛ لأننا جمـيعاً نرى الماديات .

وبهذا يُلحق الحق سبحانه الأمر المـعنوى وهو غير معلوم لنا بالأمر المادىّ الذى نعرفه ، فتقترب الصورة من أذهاننا وتتضح لنا.

وإذا كنا فى كَـوْنِ الله تعالى نجـد النهار إنمـا يكون نهاراً بإشـراق الشمس

الواحدة التى تنير نصف الكرة الأرضية ، ثم تنير النصف الثانى من بعد غروبها عن النصف الأول ، فيتميز النهار بالضوء ، ويتميز الليل بالظُّلمة .

ومعنى النور فى الحسِّيات أنه شعاع يجعل الإنسان يرى مَا حوله ، حتى يستطيع أن يتحرك فى الحياة دون أن يصطدم بالأشياء المحيطة به.

ولكن إنْ كانت الدنيا ظلاماً فسيصطدم الإنسان بما حوله.

حينئذ يكون هناك أمر من أمرين:

- إما أن يكون الإنسانُ أقوى من الشىء الذى اصطدم به فيحطمه .

- وإما أن يكون هذا الشيءُ أقوى من الإنسان فيصاب الإنسان إصابةً تتناسب مع قوة الشىء الذى اصطدم به .

إذن : فالذى يحميك من أنْ تُحطِّم أو تتحطَّم هو النور الذى تسير على هُدَاه.

إذنْ : فساعةَ أن يأتى النور ، تتضح أمامك معالم الدنيا ، وتكون خُطَاك على بينة من الأمر ، فلا ترتطم بما هو أضعف منك فتحطمه ، ولا يرتطم بك ما هو أقوى منك فَيُحطِّمك .

هذا هو النور الحسىّ ، وأكبر ما فيه نور الشمس الذى يستفيد منه كل الخَلْقْ ، المؤمن والعاصى ، والكافر والمشرك ، والمسخَّر من حيوان أو نبات أو جماد .

هذا النور هو نعمة عامة خلقها الله سبحانه وتعالى بقانون الربوبية الذى يعطى النِّعَم لجميع خَلْقه فى الدنيا سواء مَنْ آمنوا ، أم مَنْ لم يؤمنوا .

فإذا غابت الشمس نجد كل واحد منا يستعين بنور يعطيه الضوء فى حيِّز محدود ، وعلى قَدْر إمكاناته ، فواحد يُوقِد شمعة ، وواحد يأتى بمصباح

«جاز» صغير ، وواحـد يستخدم الكهرباء فيأتى بمصـباح «نيون» ، وواحد يأتى بالعديد من مصابيح الكهرباء ليملأ المكان بالنور ، كُلٌّ على قَدْر إمكاناته .

فإذا طلعت شمس الله ، فهل يُبقى أحدٌ على مصباحه مُضَاءً ؟

وفى المـعنويات نور أيضـاً ، فالنور المـعنوىّ يهـديك إلى القيم ، حتى لا ترتطم بالمعنويات السافلة التى قد تقابلك فى مسيرة الحياة.

إذن: فكل ما يهدى إلى طريق الله يُسمَّى نوراً .

والحق سبحانه يقول:

﴿قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ (١٥)﴾ [المائدة]

وإذا كـانت التـجـربـة قـد أثبـتت أن نوراً من خلق اللـه وهو الشـمس ، إذا سطعتْ فالجميـع يُطفئون مصابيحهم ، فكذلك إذا مـا جاء نور الهداية من الله سبحانه وتعالى فيجب أنْ تُطْفأ بقية الأنوار من مقترحات أفكار البشر .

فلا يأتى أحـد بفكر رأسمـالى ، أو يأتى آخر بفكر شيـوعى ، أو ثالث بفكر وُجُودى [(١)] ؛ لأن كل هذه القـيم تُمـثِّـل أهواء مـتنوعـة من البـشـر ، وتعـمل لحساب أصحابها.

أما منهج الله تعالى فهـو لصالح صَنْعة الله وهم البشر جميـعاً ، فلا يحاول

(١) تنسب كلمة الوجودية إلى الوجود ، لا الوجود المطلق ، ولكنها تعنى أن يهتدى الإنسان إلى وجوده بنفسه ، لا بالتحـليل النفسى والمراقبة الباطنية ، ولا يهتـدى بهدى الأخلاق المقررة وأصول الآداب المـتواضع عليها لأنهـا تنشأ قبل نشـوء الأفراد ، وإنما نهتـدى إلى وجودنا بثورة فى أعماق هذا الوجـود ، أى بصدمة عاطفية قوية ، أو بيـقظة من يقظات الضمير ، أو بضربة من ضـربات التجارب تفـصلنا من المجتـمع الذى نعيش فيـه . انظر كتاب (أفـيون الشعـوب) للعقاد ـ دار الاعـتصام طبعـة ١٩٧٥م ـ ص ٩٩ (المذاهب الهدامـة) وانظر نقد هذه الفلسفة فى كتاب (الإسلام والمذاهب الفلسفية) للدكتور مصطفى حلمى ـ دار الدعوة ـ الطبعة الأولى ١٩٨٥م ـ ص (٢٢١ ـ ٢٣٦).

أحد أن يضع قيماً للحياة تخالف منهج الله ؛ لأن الله قد بيَّن لنا منهج العبادة ومنهج القيم ؛ لذلك لا يصحُّ أنْ يأتى إنسان بشرع يخالف تعاليم الله .

إذن : فما دام الحق سبحانه قد أنزل نور الهدى منه فلابُدَّ أن نُطفِئ جميعاً مصابيح الأفكار القائمة على الهوى ، ونأخذ النور كله من منهج الله القويم والصالح لكل زمان ومكان ، كما نأخذ النور فى النهار من شمس الله .

والحق تبارك وتعالى يقول:

﴿الَر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ① ﴾ [إبراهيم]

أى: أن مُهِمَّة هذا الكتاب هى أنْ يُخرج الناس من ظلمات الجهل والكفر والشرك إلى نور الإيمان ؛ لأن كل كافر مشرك تحيط به ظلمات ، يرى الآيات فلا يُبصِرها ، ويعرف أن هناك حساباً وآخرة ولكنه ينكرهما ، ولا يرى إلا الحياة الدنيا القصيرة غير المأمونة فى كل شىء ، فى العمر والرزق والمتعة .

ولو تطلع إلى نور الإيمان لرأى الآخرة وما فيها من نعيم أبدىّ ، ولَعَملَ مِنْ أجلها ، ولكن لأنه تحيط به الظلمات لا يرى ، والطريق لأنْ يرى هو هذا الكتاب «القرآن الكريم » ؛ لأنه يُخرِج الناسَ إذا قرأوه من ظلمات الجهل والكفر إلى نور الحقيقة واليقين .

فإذا أخذنا نور الهداية من الله سبحانه وتعالى فهو ينير لنا طريقنا فى القيم والمعنويات ، تماماً كما تُنير لنا شمس الله طريقنا فى الحياة المادية.

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ⑰⑤﴾ [النساء]

ومعنى الاعتصام: التمسك ، ولا يتأتى إلا في عُلُو . فيقال: «اعتصمت بحبل الإيمان» لأن للإنسان ثقلاً ذاتياً ، هذا الثقل الذاتي إنْ لم يرفعه سواه فإنه يقع بالإنسان .

وهذا لا ينشأ إلا إذا كان الإنسان مُعلَّقاً في الجو ويمسك بحبل ، ولا يوجد مَنْ يدفعه إلى أسفل ، بل الإنسان بثقله الخاص يهبط إلى الأرض.

فمَنْ يعتصم بالله ويُمسك بحبل الإيمان فإنه يمنع نفسه من الهُوِيِّ والسُّقوط.

وهنا نشعر أن الاعتصام بالله هو أن نتبع ما تُلى علينا من الآيات ، ومَا سَنَّه لنا رسول الله ﷺ .

إذنْ : فَبَابُ الاعتصام هو كتاب الله وسنة رسوله ﷺ .

وكذلك كان وجود الرسول بين أظهرهم هو الأمر الضروري ، لأنهم كانوا منغمسين في حمأة [1] الجاهلية ، فلا بُدَّ أن توجد إشراقة الرسول بينهم حتى تُضيء لهم ، فَيَرَوْا أن الله قد أخرجهم من الظلمات إلى النور .

ولنلاحظ دائماً أن الله حين يُبيِّن جزاءً لمؤمن على إيمانه وطاعته ، فسبحانه يقول مرة :

﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [الأعراف]

ومرة أخرى يقول:

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾﴾ [النساء]

(١) الحمأة في اللغة : الطين الأسود المنتن . فكأن الجاهلية بما فيها من فساد وبُعْد عن الدين كالطين الأسود المنتن الرائحة الذى انغمسوا فيه .

ما الفَرْق بين الاثنين ؟

إن الناس فى العبادة صِنْفان :

- منهم مَنْ يعبدُ اللهَ ويريد نعيم الجنة ، فيعطيه الله الجنة جَزَاءً لعبادته ولعمله الصالح .

- وآخر يعبد الله ؛ لأن الله يستحق العبادة ، ولا تمرُّ الجنة على باله ، وهذا ينال ذات الرحمة ، إنه ينال لقاء وجه الله.

وما الفَرْق بين الجنة والرحمة ؟

إن الجنة مخلوقة لله ، فهى باقية بإبقاء الله لها ، ولكن الرحمة باقية ببقاء الله ، وهذا ضمانٌ كافٍ ، فمَنْ يرى الله فيه حُسْن العبادة لذاته - سبحانه - يضعه الله فى الرحمة .

ومَجِيءُ رسول الله ﷺ برسالته الخاتمة هو فى نفسه رحمة ، ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ (١٠٧)﴾ [الأنبياء]

فما دام رسول الله ﷺ هو خَاتَمُ الرسل وبُعِثَ للناس كلهم ، وللزمن كُلِّه إلى أنْ تقوم الساعة فهو رحمة من الله للعالمين جميعًا ، ولذلك كان لا بُدَّ أنْ يتسع دينه لكل أقضية الحياة التى يعاصرها الرسول ، والتى يعاصرها خَلَفُه من بعده إلى أنْ تقوم الساعة.

فلا يوجد شىء فى الحياة إلا ولكتاب الله فيه تشريع ، وللسنة النبوية فيه توضيح.

فالرسول ﷺ لم يكُنْ رحمةً لمن أُرسِل إليهم فقط ، ولكنه رحمة للعالمين جميعهم .

والعَالَم هو كُلُّ مَا سِوَى الله ، فالملائكة عَالَم ، والجن عَالَم ، والإنس عَالَم ، والجماد عَالَم ، والحيوان عَالَم ، والنبات عَالَم .

فالرسول ﷺ رحمةٌ لكل هذه العوالم .

ويقول تعالى:

﴿وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (١٠٥)﴾ [البقرة]

فَالحقُّ سبحانه ذو الفضل الهائل الزائد عن حاجته سبحانه ، لأنه ربما يكون عندى فَضْل ، ولكننى أُبْقيه لأننى سأحتاج إليه مستقبلاً.

والفَضْل الحقيقى هو الذى من عند الله سبحانه ؛ لذلك فإن الله تعالى هو ذو الفضل العظيم ، لأنه غَيْرُ مُحتاجٍ إلى أحد من خَلْقه أو كَوْنه ؛ لأن الله كان قبل أنْ يُوجَد شىء ، وسيكون بَعْد ألاَّ يوجد شىء .

فإذا نظرنا إلى عالم الملائكة نقول:

ما هى الرحمة التى نالتهم من النبى ﷺ ؟

نقول: «رُوِى أن رسول الله ﷺ سأل جبريل يوماً فقال له: أنت جئتنى من عند الله بقوله سبحانه :

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ (١٠٧)﴾ [الأنبياء]

فأىُّ رحمة نالتْك منى؟

فقال جبريل : كنت أخشى سوء العاقبة مثل إبليس ، فلما أنزل الله عليك قوله: ﴿ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ (١)﴾ [التكوير : ٢٠] . أَمِنْتُ ».

(١) مكن مكانة فهو مكين: ثبت واستقر فهو ثابت مستقر. قال تعالى : ﴿ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ [يوسف : ٥٤] أى: عظيم عندنا ثابت المنزلة .

فإذا كان هذا فى الملائكة ، فَمَا بَالُكَ بالعوالم الأدنى من ذلك؟

لا شَكَّ أنه وضع لكل شيء مبدأ ومنهجاً .

وقد وضع الحقُّ سبحانه فى منهجه الطريق المستقيم ، وهو أقصر الطرق إلى تحقيق الغاية ، فأقصر طريق بين نقطتين هو الطريق المستقيم ، ولذلك إذا كنتَ تقصد مكاناً فأقصر طريق تسلكه هو الطريق الذى لا اعوجاجَ فيه ، ولكنه مستقيم تماماً .

والحق سبحانه يقول :

﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا (٦٩)﴾ [النساء]

فحين تقول: « اهدنا الصراط المستقيم ».

فأنت تطلب من الله تبارك وتعالى أن تكون مع النبيين والصِّدِّيقين والشُّهداء والصالحين.

أى: أنك تطلب من الله جَلَّ جلاله أنْ يجعلك تسلك نفس الطريق الذى سلكه هؤلاء لتكون معهم فى الآخرة .. فكأنك تطلب الدرجة العالية فى الجنة ؛ لأن كل مَنْ ذكرناهم لهم مَقَام عالٍ فى جنة النعيم .

★★★

(٦) ... عموم رسالة محمد ﷺ

رسالة عالمية ، جاءت للناس كل الناس ، لذلك كان رسولها هو خاتم الرسل والنبيين ، أرسله مَنْ له مُلْك السماوات والأرض ، نبيًا أميًا ، في اتباعه الهداية والرشاد .

يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥٨) ﴾ [الأعراف]

فالحقُّ سبحانه يأمر رسوله ﷺ أن يعلن للناس أن رسالته تعُمُّ الزمان والمكان .

فقد كان الرسل السابقون لرسول الله ﷺ - وعلى جميع الرسل السلام - قد بُعِث كل منهم لأمة محدودة زمانًا ومكانًا ، أما رسالة محمد ﷺ فهي لعامّة الزمان وعامّة المكان.

وقد وقع المشركون في اللّبْس ، فقالوا :

﴿ لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ ... (٢٠) ﴾ [يونس]

فقد ظنوا أن الآية هى الآيات المحسّة الكونية المشهودة ، وما علموا أن الآيات التى سبق بها الرسل إنما جاءت لتناسب أزمان رسالاتهم ، ولتناسب مواقعهم من المرسل إليهم .

فكانت الآيات التى اصطحبوها آيات حسِّية ، وكل آية كانت من جنس ما نبغ فيه القوم المبعوث إليهم ، أما محمد ﷺ فلو جُعِل له آية حسِّية لآمن بها مَنْ شاهدها ، ولَصارتْ خبرًا لمن لم يشاهدها .

ونحن على سبيل المثال كمسلمين لم نصدِّق أن موسى عليه السلام قد ضرب البحر بعصاه فانشقّ ، إلا لأن القرآن قال ذلك[1] ، لأن كل أمر حسى يقع مرة واحدة فمَنْ شاهده آمن به ، ومَنْ لم يَرَهُ - إن حُدِّث به - له أنْ يُكذِّب ، وله أن يُصدِّق .

ولكنّا صدَّقنا ، لأن القائل هو الحق سبحانه ، وقد أبلغنا ذلك فى القرآن ، وثقتنا فيمن قال هى التى جعلتنا نصدق معجزات الرسل السابقين على رسول الله ﷺ .

---

(١) يقول تعالى: ﴿ **فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ** (٦٣) ﴾ (الشعراء) وقد كانت لهذه العصا ثلاث معجزات ، منها شق البحر ، ومنها تحولها إلى حية عظيمة تلقف ما صنع السحرة من تخييل ، وذلك فى قوله تعالى : ﴿ **فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ** (٤٤) **فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ** (٤٥)﴾ (الشعراء) والمعجزة الثالثة هى إخراج الماء من الحجر بعد ضربه بالعصا ، وذلك قوله تعالى: ﴿ **فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا** .. (٦٠) ﴾ (البقرة).

وقد يتساءل البعض عن السر فى عدم جعل معجزة الرسول الدائمة معجزةً حسِّية .

فنقول : لقد شاء الحق سبحانه أن يرسل الرسول ﷺ بمعجزة باقية إلى أنْ تقوم الساعة ، وهى معجزة القرآن .

وتتحدث كتب السيرة أن الماء نبع[1] من بين أصابعه ﷺ ، فمن صدَّق صدَّق ، وإن قرأتَ ولم تصدق ذلك ، فاعلم أنك لست المقصود بها .

فقد كان المقصود بها هم المعاصرون لها ، وقد جاءت لتربيب[2] الإيمان فى القوم المعاصرين ؛ لأنهم كانوا فى حاجة إلى شَدِّ أزْرهم الإيمانى .

وحدَّثتنا كتب السيرة أيضًا عن حفنة الطعام التى أكل منها عدد كبير من الرجال[3] ، ومن صدَّق الرواية فليصدقها ، ومنْ لم يُصدِّقها ، فهذه الآية لم تأت له ، لكنها جاءت للمعاصرين له ﷺ .

(١) أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (٥/ ٣٥٦) من حديث زياد بن الحارث الصدائى أن رسول الله ﷺ سأله فى غزوة تبوك : « هل من ماء يا أخا صداء؟ فقال : لا إلا شىء قليل لا يكفيك . فقال النبى ﷺ : اجعله فى إناء ثم ائتنى به ، ففعلت فوضع كفه فى الماء . قال الصدائى : فرأيت بين أصبعين من أصابعه عينًا تفور » . الحديث

(٢) ربَّبه تربيبًا : ربَّاه . وفى الحديث : لك نعمة تربها ، أى : تحفظها وتراعيها وتُربِّيها ، كما يربى الرجل ولده . [لسان العرب ـ مادة : ربب] .

(٣) عن أنس بن مالك قال : صنعت أم سليم للنبى ﷺ خُبْزة ، وضعت فيها شيئًا من سمن . ثم قالت : اذهب إلى النبى ﷺ فادعه . قال : فأتيته فقلت : أمى تدعوك . قال : فقام وقال لمن كان عنده من الناس : قوموا ، قال : فسبقتهم إليها فأخبرتها . فجاء النبى ﷺ فقال : هاتى ما صنعت . فقالت : إنما صنعته لك وحدك . فقال : هاتيه . فقال : يا أنس أَدْخِل علىّ عشرة عشرة . قَال : فما زلتُ أُدْخِل عليه عشرة عشرة . فأكلوا حتى شبعوا وكانوا ثمانين . أخرجه ابن ماجه فى سننه (٣٣٤٢) .

وهذا لا يمنع أن يكون للرسول ﷺ معجزات حِسِّية كباقى إخوانه من الرسل علينا أنْ نؤمنَ بها بالثقة فيمَنْ أخبر بها .

والذين طلبوا أنْ يأتى لهم محمد ﷺ بمعجزة حِسِّية ، كمعجزة موسى عليه السلام ، نَسُوا أن موسى عليه السلام قد بُعث إلى قوم محدودين ، هم بَنُو إسرائيل .

أما محمد ﷺ فقد بُعث إلى الناس كافَّة ؛ لذلك كان لابُدَّ أنْ تكون معجزته متجددة العطاءات ، وتحمل المنهج المناسب لكل زمان ومكان ، أما المعجزة الحسية فهى تنقضى بانقضاء زمانها ومكانها .

وقد تميَّز كل رسول بمعجزة يتحدى بها أولاً ، ثم ينتهى دورها ، لينزل له بعدها منهج من السماء ، ليبشِّر به قومه ، لكن رسول الله ﷺ تميَّز بمعجزة لا تنتهى ، وهى عَيْنُ منهجه ؛ لأنه رسول إلى كل الأزمان وإلى كل الأمكنة ، فكان لابدَّ من معجزة تصاحب المنهج إلى يوم القيامة .

وفى ذلك يقول رسول الله ﷺ :

« أُعطيت خمساً لم يُعْطَهُنَّ أحد من الأنبياء قَبْلى:

نُصِرْتُ بالرعْب مسيرة شهر ، وجُعلتْ لى الأرضُ مسجداً وطَهُوراً ، فأيُّما رجلٍ من أمتى أدركته الصلاةُ فَلْيُصَلِّ ، وأُحلَّتْ لى الغنائم ، وكان النبى يُبعث إلى قومه خاصَّة وبُعثْتُ إلى الناس كافَّة ، وأُعطيت الشَّفاعة » (١)

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٣٥) وكذا مسلم فى صحيحه (٥٢١) من حديث جابر بن عبد الله رضى الله عنه .

ثم بعد ذلك أراد الحقُّ سبحانه وتعالى أنْ يُثبت عمومية الرسالة بعمومية تسخير الكون للخَلْق ؛ لذلك كان الحديث مُوجّهاً إلى كافّة الناس :

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ..﴿١٥٨﴾﴾ [الأعراف]

وكل مَنْ يُطلق عليهم ناس فالرسول مُرْسَل إليهم :

﴿إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ..﴿١٥٨﴾﴾ [الأعراف]

وأراد سبحانه أنْ يُعطينا الحيثيات التى تجعل لله رسولاً ، يُبلِّغ قومه وكافَّة الأقوام منهجَ الله فى حركة حياتهم ، فقال:

﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ..﴿١٥٨﴾﴾ [الأعراف]

وما دام هو الذى يملك السماوات والأرض ، ولم يدّع أحدٌ من خَلْقه أنه يملكها ، وفى السماوات والأرض وما بينهما حياتنا ومقوِّمات وجودنا ، فهو سبحانه أَوْلَى وأحقُّ أنْ يُعبدَ.

ولو أن السماء لواحد ، والهواء لواحد ، والأرض لواحد ، وما بينهما لواحد لَكانَ من الممكن أنْ يكونَ إلهٌ هنا ، وإلهٌ هناك ، وإلهٌ هنالك .

وفى هذا يقول الحق سبحانه:

﴿إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ..﴿٩١﴾﴾

[المؤمنون]

إذن: فما دام الوجودكله من السماوات والأرض ، وما سواهما لله ، فهو الأَوْلى أنْ يُعبد ، وأول قمة العبادة أنْ تشهد بأنه لا إله إلا هو ، وحيثية ألوهيته الأولى أن له مُلْكَ السماوات والأرض .

وما دام إلهـاً فلا بُدَّ أنْ يُطَـاع ، ولا يُطاع إلا بمنهـج ، ولا منـهـج إلا بافعل ولا تفعل . وأول المنهج القمة العقدية. إنه هو التوحيد.

وجعل الله للتوحيد حيثية من واقع الحياة ، فقال :

﴿يُحْيِي وَيُمِيتُ ..(١٥٨)﴾ [الأعراف]

وهـذا أمـر لم يَدَّعـه أحـد أبداً ، لأن الله هو الـذى له مُلْك السـماوات والأرض ، ولأنه يُحي ويُميت .

ولذلك نجد مَنْ حاجّ إبراهيم فى ربِّه ، يقول الحقُّ سبحانه عنه :

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ ..(٢٥٨)﴾ [البقرة]

وحاول هذا الملك أن يُدير حواراً سُفسطائياً مُضلِّلاً ليفحم ويُسكِت إبراهيم عليه السلام ، فقال :

﴿ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ ..(٢٥٨)﴾ [البقرة]

وذلك بأن يأمر بقتل إنسـان ثم يعفو عنه ، وهو بذلك لا يُميته بل يُـحييه فى منطق السُّفسطائيين ، لكن هل الأمر بالقتل هو الموت؟

طبعاً لا ، لأن هناك فارقاً بين الموت والقـتل ، فقد يقتل إنسان إنساناً آخر ، لكنه لا يمكن أنْ يُميته ؛ لأن الموت يـأتى بدون هَدْم بِنْيته بشىء ، برصاصة أو بحجر أو بقنبلـة .

ولا أحدَ قادرٌ على أنْ يُميت أحداً إذا رغب فى أنْ يُميته ، فالموت هو الحادث بدون سبب ، لكن أنْ يقتل إنسان إنساناً آخر فهذا ممكن .

ولذلك يقول الحقُّ سبحانه عن نفسه :

﴿يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ..(١٥٨)﴾ [الأعراف]

وانظروا إلى الدقة فى الأداء ، فما دام قد أمر الحق رسوله أن يقول : إنى رسول الله إليكم جميعاً ، وحيثية الإيمان هى الإقرار والاعتقاد بوحدانية الله الذى له مُلْك السماوات والأرض.

وهو سبحانه لا إله إلا هو ، وهو يُحى ويميت ، لذلك يدعوهم إلى الإيمان بالخالق الأعلى :

﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ..(١٥٨)﴾ [الأعراف]

لم يَقُلْ محمد : وآمنوا بى ، لأنها ليست مسألة ذاتية فى شخص محمد ﷺ ، إنما هو تكريم لرسالتك إلى الناس ، فالإيمان لا بذاتك وشخصك ، ولكن لأنك رسول الله ، فجاء بالحيثية الأصيلة .

﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ..(١٥٨)﴾ [الأعراف]

فالحيثية هنا هى الرسالة ، والرسول لم يَأتِ من عند نفسه ، ولم يَدَّعِ هذا الأمر الجليل لنفسه ، ولكن الشحنة الإيمانية تفيد أنه خُلِق بما يُؤهِّله للرسالة ، وبمجرد أنْ نزل عليه الوحى امتلك اندفاعاً ذاتياً لأداء الرسالة ، ولم يحتج لمن يدفعه لأداء الرسالة .

وقد قال الحق سبحانه :

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ..﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة]

فقد أراد الحق سبحانه أن يُثبت للرسول ﷺ المجىء ذاتياً ، ولكن هذا المجىء الذاتى ليس من عند محمد ﷺ فى البداية ، بل هو رسول من عند الله ، فأتى الحق سبحانه هنا بكلمة «جاء».

وكلمة «رسول» تدلُّ على أنه ليس من عنده ، وكلمة «جاء» تدل على أن الشحنة الإيمانية جعلت لذاته عملاً ، فهو ﷺ يعشق الجهاد من أجل الرسالة ، ويعشق الكفاح من أجل تحقيق هذه الرسالة .

والله الذى أرسل رسوله بالتكاليف والمنهج لكم ، لابُدَّ أن يكون قد كلف مَنْ هو مُؤْتمن عليكم ، وهو محمد ﷺ ، وهو لم يأتِ من جنس الملائكة ، بل هو بشر مثلكم .

ومن رحمته سبحانه أنْ جعل لكم رسولاً من أنفسكم ، ومن قبيلتكم ، ومن العرب ، لا من فارس أو الروم .

والرسول ﷺ هو أول مَنْ آمن بالله ، وامتزج إيمانه بإيمان المؤمنين .

وفى ذلك يقول تعالى :

﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ ... ﴿٢٨٥﴾﴾ [البقرة]

أى : أن كلاً من الرسول والمؤمنين آمنوا بالله .

إن الإيمان الأول هو إيمان الرسول ﷺ ، والإيمان أيضًا من المؤمنين بالرسالة التى جاء بها الرسول بناءً على توزيع الفاعل فى « آمن » بين الرسول والمؤمنين .

وبعد ذلك يجمعهما الله ـ الرسول والمؤمنين ـ فى إيمان واحد ، وهذا أمر طبيعى ؛ لأن الرسول ﷺ آمن بالله أولاً ، وبعد ذلك بلّغنا الرسول ﷺ وآمنا بالله وبه ، ثم امتزج الإيمان فصار إيماننا هو إيمان الرسول ، وإيمان الرسول هو إيماننا.

إذن: فالرسول فى مرحلته الأولى سبق بالإيمان بالله ، والرسول مطلوب منه حتى حين يؤمن بالله ـ أن يؤمن بأنه رسول الله .

ألم يَقُل الرسول ﷺ : أشهد أن محمداً رسول الله(١) ؟

وكان الرسول إذا ما أعجبه أمر فى سيرته ذاتها ، يقول: أشهد أنّى رسول الله(٢). إنه يقولها بفرحة .

(١) عن عبد الله بن ربيعة السلمى قال: كان النبى ﷺ فى سفر فسمع مؤذناً يقول: أشهد أن لا إله إلا الله. فقال النبى ﷺ : أشهد أن لا إله إلا الله. قال: أشهد أن محمداً رسول الله. قال النبى ﷺ : أشهد أنى محمد رسول الله . أخرجه أحمد فى مسنده (٤/ ٣٣٦) .

(٢) أخرج مسلم فى صحيحه (١١١) كتاب الإيمان من حديث أبى هريرة ﷺ أنه قال: شهدنا مع رسول الله ﷺ حُنيناً ، فقال لرجل ممن يدعى بالإسلام: هذا من أهل النار. فلما حضرنا القتال قاتل الرجل قتالاً شديداً فأصابته جراحة ، فقيل: يا رسول الله الرجل الذى قلت له آنفاً: إنه من أهل النار. فإنه قاتل اليوم قتالاً شديداً ، وقد مات . فقال النبى ﷺ : إلى النار . فكاد بعض المسلمين=

ويقول الحق سبحانه في آية أخرى :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ ..(١٣٦)﴾ [النساء]

فالحق سبحانه يخاطبكم بلفظ الإيمان ، ويريد أن يتصل إيمانكم بعد كلامه الحق مع إيمانكم قبل كلامه ، فلا ينقطع ولا ينفصم خيط الإيمان أبداً ، بل لا بد من المداومة على الإيمان ، وألا يترك مؤمن هذا الشرف .

فإنْ رأى واحد منكم مُنَاديً بوصف طُلِب منه الوصف بعده ، فليعلم أن المراد هو المداومة .

ونعلم أن الحق هنا يخاطب مؤمنين ومنافقين وأهل كتاب ؛ لذلك فلابُدَّ أن تشملهم الآية ؛ لأن الإنسان إنْ آمن بالله فقط ، فهذا يقتضى أنْ يبحثَ المؤمن بالله عن مطلوب الله ، ومطلوب الله إنما جاء به رسول .

لذلك فالإيمان بالله يقتضى أن يؤمن الإنسان برسول ؛ لأن قصارى ما يعطيك العقل أيها الإنسان أن تؤمن بأن وراء الكون إلهاً خلقه ويُدبِّره .

ولكن ، ما اسم هذا الإله ؟

= أن يرتاب ، فبينما هم على ذلك إذ قيل إنه لم يمت ، ولكن به جراحاً شديداً ، فلما كان من الليل لم يصبر على الجراح فقتل نفسه ، فأُخبر النبى ﷺ بذلك ، فقال: الله أكبر ، أشهد أنى عبد الله ورسوله. ثم أمر بلالاً فنادى فى الناس أنه لا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة ، وإن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر .

لا يعرف الإنسان ذلك إلا عن طريق الرسول ، فهذه أمور لا تُعرف بالعقل ، ولكن لابُدَّ من الإخبار بها ، وكذلك مطلوبات الله ، وكذلك جزاء المؤمنين على حُسْن إيمانهم ، ولذلك كان لا بُدَّ من مجيء رسول للبلاغ .

إذنْ: فلابُدَّ مع الإيمان بالله أنْ تؤمنَ بالرسول ، وما دُمْت أيها المؤمن قد آمنتَ برسوله فلابُدَّ أن تؤمن بالكتب التي جاءت على لسان الرسول .

فالقمة الإيمانية هي أنْ تؤمنَ بالله ، ولازمها أنْ تؤمنَ برسول الله ، وأنْ تؤمنَ بكتاب مع الرسول .

ونحن نعلم أن الإسلام بدأ بين الضعفاء إلى أنْ سار الأقوياء إليه ، وتلك سنة الله في الكون ، بل إننا نجد أن النبي ﷺ في بَدْء الرسالة كان مطلوباً منه أنْ يؤمنَ بأنه رسول .

وكما تقول أنت: أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله ، كان على النبي ﷺ أيضاً أن يقول: أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله .

وسبحانه جَلَّ شأنه ، الخالق الأكرم ، آمنَ بنفسه أولاً ، بدليل قوله سبحانه:

﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ ..(١٨)﴾ [آل عمران]

فأول شاهد بالألوهية الحقة هو الله ، وقد شهد لنفسه ، ومعنى ذكر شهادته لنفسه لنا أن نؤمن بأنه سبحانه يزاول قيوميته[1] وطلاقة قدرته بكلمة «كُنْ» ،

---

(١) القيوم والقيام في صفة الله تعالى وأسمائه الحسنى: القائم بتدبير أمر خلقه في إنشائهم ورزقهم وعلمه بأمكنتهم. والقيوم: من أسماء الله تعالى المعدودة ، وهو القائم بنفسه مطلقاً لا بغيره ، وهو مع ذلك يقوم به كل موجود ، حتى لا يتصور وجود شيء ولا دوام وجوده إلا به. (لسان العرب - مادة: قوم).

وهو سبحانه عالم أن مخلوقاته تستجيب قطعاً .

وكان لابُدَّ أن يعلمنا أنه آمن أولاً بأنه الأول ، وأنه الإله الحقّ، بحيث إذا أمر أيّ كائن أمراً تسخيرياً فلابُدَّ أن يحدث هذا الأمر ، وسبحانه لا يتهيّب أن يأمر.

لذلك قال تعالى:

﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾ [آل عمران]

وهى شهادة الذات للذات ، وشهدت الملائكة شهادة المشهد ، وشهد أولو العلم شهادة الاستدلال .

وحين يشهد محمد ﷺ أنه رسول الله ، فهو يؤمن بأنه رسول ، ولو لم يؤمن برسالته لَتهيّب أنْ يُبلِّغنا بالرسالة ، وبعد أنْ آمن ﷺ أنه رسول من الله جاءه التكليف من الحق .

إذن : فى البداية كان لابُدَّ أنْ يؤمنَ أنه رسول ، وأنْ يُبلِّغ الدعوة إلى قريش وسائر الجزيرة ، وتعبر دعوته بعد ذلك من الجزيرة إلى الشام ، وتتعدى الرسالة الشام بالإعلام وإنْ لم تتعدّ بالفعل ، حتى يأتى أتباعه من الصحابة وينساحوا بالإسلام فى كل بقاع الأرض .

ولذلك كانت الرمزية فى إرسال الكتب: كتاب لفلان ، وكتاب لفلان ، وكتاب لفلان[1] ، ليفهم العالم أن دعوة النبى ﷺ بالإيمان والإسلام دعوة

(١) بعث رسول الله ﷺ كتباً إلى ملوك الأرض من حول أرض الحجاز كقيصر الروم وكسرى فارس ومقوقس مصر وغيرهم ، يدعوهم إلى الإسلام مع جماعة من أصحابه ، ووجّه كلاً منهم إلى وجهة=

مُتعدّية ؛ لأنها خالفتْ دعوات الرسل عليهم السلام ، فقد كان كل رسول إنما يعلم أنَّ حدود دعوته هى أمته ، أما محمد ﷺ فقد كانت لرسالته مراحل :

آمن بذاته أولاً ، ثم دعا الأقربين ، ثم من بعد ذلك قريشاً ، ثم أبلغ العرب ، ثم الشام ، وتعدَّت الدعوة بالكتب إلى جميع الملوك فى العالم ، وصارت أمة محمد ﷺ مُؤْتمنة على حَمْل الدعوة ونَشْرها فى أى مكان ، ومعها حُجَّتها ، وهى القرآن .

وشاء الله أنْ يختمَ رسولُ الله ﷺ الرسالات ، وأرسله بالإسلام الذى يغلب الحضارات ، رغم أنه ﷺ من أمة أمية لا تعرف شيئاً ، حتى لا يُقال عن الإسلام أنه مجرد وَثْبة حضارية ، وجاء لهم بمنهج غلب الحضارات المعاصرة له: فارس والروم فى وقت واحد .

هذه الأمة الأُمية قال فيها الحق سبحانه :

﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ[(1)] رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ[(2)] وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (2)﴾ [الجمعة]

وكانت هذه الأمية شَرَفاً لهم كيْلا يُقال: إنهم أصحاب قفزة حضارية من أمة

= وقال لهم «إن الله بعثنى رحمة وكافة، فأدوا عنى يرحمكم الله» أورده ابن هشام فى السيرة النبوية (٤/ ٦٠٧) عن محمد بن إسحاق .

(١) الأمى: من لا يقرأ ولا يكتب. والأميون هنا: هم العرب لأن معظمهم كان لا يقرأ ولا يكتب .

(٢) زكا: طهر وصَلُح. والتزكية : التطهير والإصلاح. قال ابن كثير فى تفسيره (١/ ٤٢٤): «أى : يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، لتزكو نفوسهم وتطهر من الدنس والخبث الذى كانوا متلبسين به فى حال شركهم وجاهليتهم ».

مُتمـدينة ، وكانت هذه الأُمية مُلْفِـتة ؛ لأن ما جاء في تلك الأمـة من تشريعات وقفتْ أمامه الأمم الأخرى إلى زماننا هذا باندهاشٍ وتقدير .

وشاء الحق سبحانه لهذه الأمة أنْ تحملَ رسالةَ السماء لكل الأرض ، وبعد أن نزل قول الحق سبحانه :

﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا ..(٣)﴾ [المائدة]

فَهِمَ بعض الناس أن الرسول ﷺ ينعى نفسه لأمته .

ومن بعد رحيله ﷺ إلى الرفيق الأعلى انساح صحابته بالدين الخاتم في الدنيا كلهـا ، وخلال نصف قرن من الـزمان صار للإسـلام جناحان: جناح في الشرق ، وجناح فـي الغرب . وهزم أكبـر امبراطـوريتين متـعاصرتـين له ، هما امبراطورية فارس بحضارتها و امبراطورية الروم .

وكانت البـلاد تتخطَّف الإسلام كمـنهج حياة ، حدث ذلك بعـد أن حارب الإسلامُ الامبراطوريتين في آنٍ واحد ، وأقبل الـناس على الإسلام لِيتحقَّقوا من معـجزته التي لـمسُوها في خـلق مَنْ سمـعوا القرآن وحـملوا رسالتـه ، ثم في اكتشافهم لعدالة القرآن في إدارة حركة الحياة .

وهكذا اكتشفـوا أن معجزة الإسلام عقليةٌ ، وأن رسالتـه رسالة عامة للناس كافة ، وأن رسوله ﷺ هو الرسول الخاتم الذى لـم يَأْتِ لهم بـمعجزة حسِّية

فحسب ، وإذا كـان القرآن معجـزة فى اللغة للقوم الذين نزل فيـهم رسول الله ﷺ ، فالقرآن لمن لم يعرفوا لغة القرآن كـان معجزة فى العدالة والقيم النابعة منه ، والقوانين والتشريعات التى جاء بها .

فالإسـلام قد جـاء بقـوانين لا يمكن أنْ تخرجَ من أُمـة أميـة ، لأنها قـوانين رسـالة خـاتمة ، لذلـك فكانت سابـقةً للعـصـور ، لأنهـا قوانـين تنبع من دين سماوى خاتم .

والحق سبحانه يقول :

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً ..(٢٨)﴾ [سبأ]

وقد فـهم الناس الفارق بين رسـالته ﷺ وبين كافـة الرسالات السـابقة ، فإلى قوم عاد أرسل هوداً ، فقال تعالى :

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ..(٦٥)﴾ [الأعراف]

وقال عن أهل مَدْين[1] :

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ..(٨٥)﴾ [الأعراف]

وقال عن بعثة موسى عليه السلام :

﴿وَرَسُولاً إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ ..(٤٩)﴾ [آل عمران]

---

(١) مدين: اسم قـرية على بحر القـلزم (البحر الأحـمر) أو اسم قـبيلة فى هذا المكان أُرسل إليـهم النبى شعيب عليه السلام. ورد ذكرها فى القـرآن عشر مرات: (الأعراف: ٨٥)، (التوبة: ٧٠)، (هود: ٨٤، ٩٥)، (طه: ٤٠)، (الحج: ٤٤)، (القصص: ٢٢، ٢٣، ٤٥)، (العنكبوت: ٣٦) .

وهكذا حَدَّد الحق سبحانه زمانَ ومكانَ القومِ فى أيِّ رسالة سبقتْ رسالة محمد بن عبد الله ﷺ .

لكن الأمر يختلف حين أرسل سبحانه محمداً رسولاً ، وجعله للناس كافّة ، فقد علم سبحانه أزلاً أن هذا هو الدين الخاتم.

والحق سبحانه قد أرسل الرسل ، وجعل خاتم الرسل سيدنا محمداً ، فمعنى ذلك أن رسالته ﷺ ستكون رسالة لا استدراكَ للسماء عليها ، فما دام الله قد ختم به الرسالة ، وأنزل عليه قوله :

﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا ..(٣)﴾ [المائدة]

إذنْ : فلم يَعُدْ للسماء استدراكٌ على هذه الرسالة.

وقد جاء رسول الله ﷺ بمنهج يضمُّ صحيحَ العقائد والقصص والأخبار ، وهو يوافق ما جاء فى موكب الرسالات من يَوْمِ أن خلقَ الله الأرض وأرسل الرسل .

وقد أخذ الله العهد على الأمم والأنبياء من قبل بأنه إذا جاء رسول مُصدِّق لما معهم لَيُؤْمِنُنَّ به ، فقال تعالى :

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ(1) النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ

(١) الميثاق: العهد. والمواثقة : المعاهدة . والموثق والميثاق : بمعنى واحد . قال تعالى: ﴿ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ .. (66)﴾ [يوسف]

مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي[1] **قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ (٨١)﴾** [آل عمران]

فرسول الله ﷺ جاء خاتماً ، وجاءت رسالته عامة ، ولذلك أخذ الله العهد على كل رسول أنْ يُبشِّر قومه بأنه سيأتى رسول خاتم ليكون عند أهل كل ديانة خلفية تُطمئنهم على أنه إذا جاء رسول ، فقد عرفوا خبر مَقْدمه .

إذنْ : فرسول الله مشهود له من كل الرسل .

وحينما أرسل الله محمداً ﷺ جعله ختَاماً للأنبياء ، وختم به ركْب النبوة ، وهذا يعنى أن النبوة كان لها ركْب. وفى كل عصر من العصور يأتى نبى على مقدار اتساع الحياة ، وعلى مقدار التقاء الكائنين فى الحياة ، وعلى مقدار الداءات والأمراض التى تأتى فى المجتمع.

ولكن الله عَلِم أزَلاً أن رسول الله ﷺ سيأتى فى فترة ، ورسالته ومنهجه ينتظم ويضمُّ كل قضايا الزمن إلى أن تقوم الساعة.

وهو زمن يعلم الله أن فوارق المواصلات فيه ستنتهى ، وفوارق الحواجز فيه ستنتهى ، فيحدث الخبر فى أدْنى الشرق وأعلاه فتسمعه فى أدنى الغرب وأعلاه ، والخبر فى الغرب تسمعه فى الشرق ، والداء يوجد مرّة فى أمريكا ، وبعد يوم أو يومين يوجد فى أيِّ بلد من البلاد .

---

(١) الإصر: العهد الثقيل . وهو: الميثاق والعهد. (لسان العرب ـ مادة: أصر) .

إذن : فالمسافات انتهت ، وجعلت المواصلاتُ العالَم كقطعة واحدة ، فالداءاتُ في المجتمع القديم كانت تنعزل انعزالاً إقليمياً لعُسْر الاتصال ، وكل داء في جماعة قد لا يصل إلى الجماعة الأخرى ، فهؤلاء لهم داء لا يصل إلى الجماعة الأخرى .

لذلك كان الحق سبحانه يرسل لكل جماعة ليعالج داءاتها ، لكن إذا التحم العالم هذا الالتحام ، فلا بُدَّ أن يأتيَ رسول واحد جامع للناس جميعاً ؛ لأن قضايا الداءات ستكون واحدة .

وكذلك أخذ الله العهد على رسولنا ﷺ بأنْ يؤمنَ بالرسل السابقين ، فهو ﷺ لم يَأتِ ليهدم أدياناً ، ولكن ليكمل أدياناً ، كأن الأديان السابقة بكل ما جاء فيها من صحيح العقائد والقصص والأخبار موجودةٌ في الإسلام .

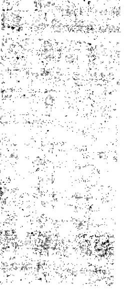
وفوق كل ذلك جاء الإسلام بشرائع تناسب كل زمان ومكان ، ولذلك قال الرسول ﷺ :

«مثَلي ومثل الأنبياء قبلي كمثل رجل بنى بُنْياناً ، فأحسنه ، وأجمله وأكمله إلا موضعَ لبنة ، فجعل الناس يطوفون به ويقولون : ما رأينا أحسن من هذا ، لولا موضع هذه اللبنة ، فكنتُ أنا اللبنة »(١) .

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٢٨٦) كتاب الفضائل ، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، وكذا أخرجه الترمذي في سننه (٢٨٦٢)، والحميدي في مسنده (١٠٣٧) .

إذن : فزمام كل الأمر انتهى إلى رسول الله ﷺ ، فقد أخذ الله العهد على غيره أنْ يُصدِّقوه عندما يجيء ، وهو ﷺ آمن وصدّق بمن سبق من الرسل ، ولن يجيء من بعده شيء يطلب من رسول الله ولا من أمته أن يُصدِّقوه .

❑❑❑



(٧) البغى ..
ومتاع الحياة الدنيا

كثيرٌ من الناس ينسَوْنَ الآخرة ، ويعتقدون أن هذه الحياة الدنيا هى كل شىء ، لذلك نجد الذين يبغون في الأرض بغير الحق يظلمون الناس ، يأخذون من الدنيا كل شىء ، حلالاً أم حراماً .

يقول الحق سبحانه :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنفُسِكُم مَّتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٣) ﴾ [يونس]

عندما يَصفُ الحق سبحانه الحياة التى نعرفها بأنها «دنيا» ، ففى ذلك ما يشير إلى أن هناك حياةً تُوصَف بأنها «غير دُنْيا» ، وغير الدنيا هى «العُلْيا» .

ولذلك يقول الحق سبحانه فى آية أخرى :

﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ[١] لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٦٤) ﴾ [العنكبوت]

---

(١) أي: هى الحياة النشيطة الكاملة الدائمة ذات الحركة والبركة والخير، وحياتهم فى الجنة ليست خاملة. وقال الأزهرى: المعنى أن من صار إلى الآخرة لم يمت ودام حياً فيها لا يموت ، فمن أُدخل الجنة حى فيها حياة طيبة ، ومن دخل النار فإنه لا يموت فيها ولا يحيا. (لسان العرب ـ مادة: حيا) .

أى: هى الحياة التى تستحق أن تُسمّى حياة ؛ لأن الدنيا لا يُقاس زمانها ببدايتها إلى قيام الساعة ؛ لأن تلك الحياة بالنسبة للكون كله ، ولكن لكُلِّ فرد فى الحياة دُنْيا ليس عمرها كذلك ، وإنما دُنْيا كل فرد هى مقدار حياته فيها ، ومقدار حياته فيها لا يُعلم أهو لحظة ، أم يوم ، أم شهر ، أم قَرْن .

وقصارى الأمر أنها محدودة حَداً خاصاً لكل عمر ، وحَداً عاماً لكل الأعمار.

والمتعة فى الدنيا على قَدْر حظِّ الإنسان فى المتع ، فهى على قَدْر إمكاناته، فإذا نظرنا إلى الدنيا بهذا المعيار فإن متاعها يعتبر قليلاً ، ولهذا لا يصح ولا يستقيم أن يغترّ الإنسان بهذه المتعة .

والحق سبحانه يقول :

﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ (١٨٥)﴾ [آل عمران]

فالغرور - إذن - أنْ تُلهيك متعة قصيرة الأجل عن متعة عالية لا أمَد لانتهائها ، فحتى لا يغترّ عائش فى الدنيا فيلهو بقليلها عن كثير عند الله فى الآخرة يجب أن يُقارن متعة أجلُها محدود - وإنْ طال زمانها - بمتعة لا أمَد لانتهائها ، متعة على قَدْر إمكاناتك ، ومتعة على قَدْر سعة فَضْل الله .

لذلك كانت الحياة الدنيا متاعَ الغرور ممَّن غُرّ بالتافه القليل عن العظيم الجليل .

والله لم يظلم الدنيا فوصفها أنها متاع ، ولكن نبَّهنا إلى أنها ليست المتاع الذى يُغترّ به فيلهى عن متاع أبْقى ، إنه الخلود .

فنعيم الآخرة دائم لا يزول عنك ، وأنت خالد لا تزول عن النعمة بالفناء أو الموت ، وأنت لا تتمتع فى الآخرة بقدراتك أنت ، بل بقدرة الله سبحانه ، فكأن المتاعَ أكبرُ كثيراً من قدرتك ، وأعلى كثيراً من كل ما تستطيع أن تحققه .

والإنسان لا يستطيع أن يُوقِن أنه سيستمتع بالحياة الدنيا ، فهذا أمر مطعونٌ فيه وغَيْر مُتيقّن ، فليس كل كائن حَىٍّ مُسْتمتعاً بالحياة ، هناك أشقياء ، وهناك تُعَساء ، وهناك مَنْ حياتُهم كلُّهَا تعب .

وحتى أولئك المستمتعون بالحياة فى الحاضر ، مَنْ يُدريهم ماذا يحمل المستقبل لهم ؟ ألاَ يمكن أنْ يكونَ استمتاعهم هذا وَقْتياً ؟ ألاَ يمكن أنْ يأتيهم ظَرْف من الظروف ، أو قَدَر من الأقدار يملأ حياتهم بالشقاء ؟

إننا نجد العقلاء - حين يَرَوْن فى نعمة الله عليهم مَا يُكدر حياتهم - يشكرون الله ، بينما نجد الإنسان السَّطحى التفكير والفهم يَسْتاء وينفعل ويزيد الموقف مُعَاناة .

العاقل - إذنْ - يعرف أن الإنسانَ يعيشُ فى دُنْيا أغْيار ، ومعنى أننا نعيش فى دنيا أغيار أنه تأتى أحداث تنقلنا من حال إلى حال ، أى من الـغِنَى إلى الفقر ،

أو من الصحة إلى المرض ، إلى غير ذلك من أحوال الدنيا المتقلّبة المتغيّرة ، ففى الدنيا لا يدوم حال ، وما دامت الدنيا أغياراً ، فأحوال الناس تتغير فيها دائماً .

والحق سبحانه وصف متاع الدنيا ، فقال :

﴿فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾﴾ [التوبة]

وقوله سبحانه: (إلا قليل) ليس مقصوداً به المتعة العادية للدنيا التى يتمتع بها الناس ، ولكن المقصود به متاع القمة الذى لا يصل إليه ولا يحدثُ إلا لأفراد قليلين فى العالم .

فقد يعيش إنسانٌ فى قَصْر ضَخْم ، وحوله المئات من الناس يخدمونه ، وعنده من الأجهزة الالكترونية وغيرها ما يجعله بمجرد أنْ يريدَ شيئاً يضغط على زرٍّ صغير فيجد ما يريده أمامه ، وكُلُّ شيء حوله يُحقِّق له رغباته .

بل إنه يعيش فى درجة الحرارة التى يريدها داخل قَصْرِه ، وعنده أفْخر أنواع الطعام والشراب ، وإذا أراد أن ينتقلَ من مكان إلى آخر ضغطَ على زرٍّ فيتحرك به الكرسى إلى المكان الذى يريده ، وكل مَنْ حوله يطيعونه طاعةً عمياء ، فكل رغباته أوامر ، وحياته تُشبه الحلْم الجميل .

إذا عاش إنسانٌ فى هذا الجو ، وانبهر بهذه النعم كلها ، يستوقفه ربُّ العزة

سبحانه ويُوضِّح له : لا تنبهر، فهذا المتاع الذى تعيش فيه بالنسبة للآخرة قليل.

فإذا قرأ الناس أو سمعوا أو شاهدوا ما يعيش فيه هذا الإنسان من متعة وانبهروا بها ، يُوضِّح لهم الله : لا تنبهروا ولا يأخذكم العَجب ، فكُلُّ هذا الذى تروْنَه أمامكم بالنسبة لمتاع الآخرة قليل [(١)].

ولهذا نجد الحق سبحانه وتعالى يُنفِّر عباده من أنْ تفتنَهم نعَمُ الدنيا مهما بلغتْ ، فيُوضِّح لهم: لا تظنُّوا أن هذه النعم كثيرة ، بل إنها نعَم قليلة بالنسبة لما ينتظركم فى الآخرة ، فإذا كان الإنسان بفطرته يحب كثرة النعم ، ففى هذه الحالة لن تفتنه نِعَم الدنيا ، بل سوف يطلب نِعَم الآخرة .

ورسول الله ﷺ يقول :

«لو أن ابن آدم أُعطِى وادياً ملآن من ذهب أحبَّ إليه ثانياً ، ولو أعطى ثانياً أحب إليه ثالثاً »[(٢)] .

---

(١) وقد أوضح القرآن موقف الناس من نعيم وزينة قارون واختلافهم فى شأنه ، فكان هناك موقفان :

ـ ﴿قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ۝٧٩﴾ [القصص]

ـ ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ ۝٨٠﴾ [القصص]

ولكن اتضحت حقيقة هذه الزينة ، وأنها غطاء للبغى والظلم وأكل أموال الناس بالباطل ، فكان عقاب الله بالخسف ، فتغير موقف هؤلاء الدنيويين ، فقال عنهم رب العزة سبحانه :

﴿وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ۝٨٢﴾ [القصص]

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٤٣٨) وأبو نعيم فى حلية الأولياء(١/ ٣٣٧)عن عبد الله بن الزبير .

أى: أن الإنسان الذى امتلك واديين يريد أنْ يحتفظَ بالواديين كما هما ويطمع فى امتلاك الوادى الثالث ، رغم أنه قد لا يعيش لينفق مقدار وَادٍ واحد ، فالإنسان بطبعه لا يحب القليل من النعم بل يطلب الكثير ، لماذا ؟

لأن كثيراً من الناس ينسَوْنَ الآخرة ، ويعتقدون أن هذه الحياة الدنيا هى كُلُّ شىء ، لذلك نجد أولئك الذين يبغون فى الأرض بغير الحق ، ويظلمون الناس يحاولون أنْ يأخذوا من الدنيا كُلَّ شىء يمكن أنْ تُعطيه لهم ، حلالاً أو حراماً ، وهذا واضح فى سلوكهم الدنيوى .

والحق سبحانه يقصُّ علينا خبر قارون الذى أعطاه الله مَا أعطاه من الكنوز والمال والعز والجاه ، ولكنه لم يعترف للمنعم بنعمته عليه ، بل إنه استخدم نعمة الله عليه فى البغى وظلم الناس والعُلُو والفساد فى الأرض .

يقول تعالى :

﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ[(1)] بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ[(2)] إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (76) وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ

(1) ناء بحمله : نهض بجهد ومشقة. وناء به الحمل : أثقله وأماله. ونَوْء العصبة بالمفاتح أن تثقلهم . (لسان العرب ـ مادة: نوأ) .

(2) الفرح: البطر والأشر . والبطر: التبختر والطغيان فى النعمة . والأشر: شدة المرح . قال الزجاج : معنى قوله تعالى : ﴿لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (76)﴾ [القصص] . معناه : لا تفرح بكثرة المال فى الدنيا ، لأن الذى يفرح بالمال يصرفه فى غير أمر الآخرة . (لسان العرب ـ مادتا : بطر ، فرح) .

إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ[1] الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (٧٧) قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي أَوَ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ (٧٨) فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٧٩) وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الصَّابِرُونَ (٨٠) فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ (٨١) وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ (٨٢) تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (٨٣)﴾

[القصص]

فقارون كان عنده المال الكثير الذى كان بسطوته[2] يظلم الناس ويبغى عليهم ، والبَغْى إما أن يكون بالاستيلاء على حقوق الناس ، وإما بالاحتقار ، أو الازدراء ، وإما بالبطر عليهم .

والبغى : هو تجاوز الحدِّ فى الظلم وهو إفساد ، لأن الإنسان إذا ما أخرج أىَّ شىء عن صلاحه ، يقال : «بغى عليه » ، فإنْ حفرتَ طريقاً ممهداً فهذا إفساد ، وإنْ ألقيتَ بنفاية[3] فى بئر يشرب منه الناس ، فهذا إفساد وبَغْى .

---

(١) الابتغاء : الطلب . والبغية : الحاجة. قال الأصمعى: بغى الرجل حاجته أو ضالته إذا طلبها . (لسان العرب ـ مادة : بغا) .

(٢) السطوة: شدة البطش. والسطو: القهر بالبطش. وسطا عليه: صال . (لسان العرب ـ مادة: سطا) .

(٣) نفاية الشىء: بقيته وأردؤه . والنفاية : ما نفيته من الشىء لرداءته والمراد بالنفاية هنا : الفضلات =

وأىّ شئ قائم على الصلاح فتخرجه عن مهمته ، وتطرأ عليه بما يفسده ، فهذا بغى .

والبغى : أعلى مراتب الظلم ؛ لأن الحق سبحانه هو القائل :

﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ .. (٧٦)﴾ [القصص]

ويعطينا رسول الله ﷺ صورة البَغْى الممثَّلة فى الاعتداء بالفساد على الأمر الصالح ، فيقول ﷺ :

«أسرع الخير ثواباً : البر ، وصلة الرحم .

وأسرع الشر عقوبة : البغى ، وقطيعة الرحم »[(١)] .

والحق سبحانه لا يؤخر عقاب البَغْى وقطيعة الرحم إلى الآخرة ، بل يعاقب عليهما فى الدنيا ، حتى يتوازن المجتمع ؛ لأنك إن رأيت ظالماً يحيا فى رضاً ورخاء ثم يموت بخير ، فكُلُّ مَنْ يراه ويعلم ظلمه ولم يجد له عقاباً فى الدنيا ، سوف يستشرى فى الظلم .

ولذلك تجد أن عقاب الله تعالى لمثل هذا الظالم فى الدنيا ، وأن يرى الناس نهايته السيئة ، وحين يرى الناس ذلك يتعظون ، فلا يظلمون ، وهذا ما يحقق التوازن فى المجتمع .

= وكل ما من شأنه تلويث الشىء وإفساده . (اللسان ـ مادة : نفى) .

(١) أخرجه ابن ماجه فى سننه (٤٢١٢) ، وابن عدى فى الكامل (٤/ ٧٠) ط . دار الفكر . والذهبى فى الميزان (ت/ ٣٨٣١) من حديث عائشة ، كلاهما فى ترجمة صالح بن موسى الطلحى ، وهو كوفى ضعيف . وقال ابن عدى: لا يتعمد الكذب . وسياق نص الحديث يؤخذ به .

وإلا ، فلو ترك الله سبحانه الأمر لجزاء الآخرة لَشَقِى المجتمع بمن لا يؤمنون بالآخرة ويحترفون البغى ؛ ولذلك يرى الناس عذابهم فى الدنيا ، ثم يكون لهم موقعهم من النار فى الآخرة .

ويقول ﷺ محذراً : «لا تَبْغِ ، ولا تكُنْ باغياً »[1] .

فالباغى إنما يصنع خَلَلاً فى توازن المجتمع ، والذى يبغى إنما يأخذ حَقّ الغير ، ليستمتع بناتج من غير كَدِّه وعمله ، ويتحول إلى إنسان يحترف فَرض الإتاوات على الناس ، ويكسل عن أى عمل غير ذلك .

وأنت ترى ذلك فى أبسط المواقع والأحياء ، حين يحترف بعض ممَّنْ يغترُّون بقوتهم الجسدية ، وقد تحولوا إلى فُتوات يستأجرهم البعض لإيذاء الآخرين ، والواحد من هؤلاء إنما احترف الأكل من غير بَذْل جهد فى عمل شريف .

والبَغْى - إذن - هو عمل مَنْ يفسد على الناس حركة الحياة ، لأن مَنْ يقع عليهم ظلم البغى ، إنما يزهدون فى الكَدِّ والعمل الشريف الطاهر .

وإذا ما زهد الناس فى الكَدِّ والعمل الشريف تعطَّلت حركة الحياة ، وتعطلتْ مصالح البشر ، بل إن مصالح الظالم نفسها تتعطل ، ولذلك قال الحق سبحانه :

(١) أخرجه الحاكم فى مستدركه على الصحيحين (٢/ ٣٣٨) عن أبى بكرة ، وقال : صحيح الإسناد ، ولم يخرجاه . وأقره الذهبى .

﴿إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ .. (٢٣)﴾ [يونس]

ولقائل أن يسأل: وهل هناك بَغْى بحق ؟

أقول: نعم ، لأن البَغْى اعتداء على الصالح بإفساد ، وأنت ساعة ترى إنساناً يفسد الشيء الصالح فتسأله : لماذا تفعل ذلك ، وقد يُجيبك بأن غرضه هو الإصلاح ، ويُعدِّد لك أسباباً لهذا البغى ، فهذا بَغْى بحقٍّ ، أما إنْ كان بَغْياً بدون سبب شرعىّ فهذا هو البَغْى ، بل قمته .

ومثال البَغْى بحقٍّ ، أقول : ألم يستولِ النبى ﷺ على أرض بنى قريظة ، وأحرق زرعهم(١) ، وقطع الأشجار فى أراضيهم ، وهدم دورهم ؟ أليس فى ذلك اعتداء على الصالح ؟

لقد فعل رسول الله ﷺ ذلك ؛ لأنه ردّ على عدوان أقسى من ذلك(٢) .

(١) أخرج البخارى فى صحيحه (٤٠٣١)، ومسلم فى صحيحه (١٧٤٦) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: «حرَّق رسول الله ﷺ نخل بنى النضير وقطع وهى البُوَيْرة» والبويرة : مكان معروف بين المدينة وتيماء ، وهى من جهة قبلة مسجد قباء إلى جهة الغرب ، ويقال لها أيضاً البويلة . قاله ابن حجر فى الفتح (٧/ ٣٣٣).

(٢) ذكر ابن حجر فى الفتح (٧/ ٣٣١) فى سبب ذلك أن رسول الله ﷺ خرج إلى بنى النضير يستعينهم فى قضاء دية رجلين من بنى عامر ، وكان بين بنى النضير وبنى عامر عقد وحلف ، فلما أتاهم يستعينهم قالوا : نعم . ثم خلا بعضهم ببعض فقالوا : إنكم لن تجدوه على مثل هذه الحال . قال : وكان جالساً إلى جانب جدار لهم ، فقالوا : مَنْ رجل يعلو على هذا البيت فيلقى هذه الصخرة عليه فيقتله ويريحنا منه ؟ فانتدب لذلك عمرو بن جحاش بن كعب ، فأتاه الخبر من السماء ، فقام ﷺ مظهراً أنه يقضى حاجة ، وقال لأصحابه : لا تبرحوا ، وأمر بحربهم والمسير إليهم ، فتحصنوا ، فأمر بقطع النخل والتحريق » .

وهكذا نرى أن هناك بَغْياً بحقٍّ ، وبغياً بغير حَقٍّ ، ولذلك يُسمى الله جزاء السيئة سيئة مثلها ، ويقول سبحانه :

﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ..﴿١٩٤﴾﴾ [البقرة]

ويسميه الحق سبحانه «اعتداء» رغم أنه ليس اعتداء ، بل هو ردّ للاعتداء ، فَلكسْر حِدّة الغلِّ أباح لك الحق سبحانه وتعالى أن تعتدى على مَنْ اعتدى عليك بمثل ما اعتدى ؛ لأنه سبحانه لا يريد لك أن تظل فى حالة غليان بالغضب أو القهر بما يمنعك من العمل ، بل يريد الحق سبحانه أن تتوجه بطاقاتك إلى أداء عملك .

ولذلك لا يلزمك الحق سبحانه إلا بحكم العدل ، فيقول عز وجل:

﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ..﴿١٩٤﴾﴾ [البقرة]

ويُطلقها الحق سبحانه وتعالى قضيةً تظلُّ إلى الأبد بعد ما تقدم ، فيقول :

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنفُسِكُم مَّتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ..﴿٢٣﴾﴾ [يونس]

وهنا يُبيِّن الله سبحانه وتعالى وكأنه يخاطب الباغى :

يا مَنْ تريد أن تأخذ حَقَّ غيرك ، اعلم أن قصارى ما يعطيك أَخْذ هذا الحق هو بعض من متاع الدنيا ، ثم تُجازى بعد ذلك بنار أبدية .

وقد سأل ابن مسعود رضي الله عنه رسول الله ﷺ : يا رسول الله ، أيُّ الظلم أعظم ؟ قال: «ذراع[1] من الأرض ينتقصها المرء المسلم من حقِّ أخيه ، فليس

(١) الذراع : مقياس للأطوال بمقدار ٧٥ سنتيمتراً أو ٥٨ سنتيمتراً .

حصاة من الأرض يأخذها أحد إلا طوقها يوم القيامة إلى قعر الأرض ، ولا يعلم قعرها إلا الذى خلقها»[1] .

وأنت إنْ قارنتَ زمن المتعة المغتصبة الناتجة عن البغى بزمن العقاب عليها لَوجدتَ أن المتعةَ رخيصة هيِّنة بالنسبة إلى العقاب الذى سوف تناله عليها ، ولا تأخذ عمرك فى الدنيا قياساً على عمر الدنيا نفسها ؛ لأن الحق سبحانه قد يشاء أنْ يجعلَ عمر الدنيا عشرين مليوناً من السنوات ، لكن عمرك فيها محدود .

فاربأوا[2] على أنفسكم ، وافهموا أن متاع الدنيا قليل ، إن كان هذا المتاع نتيجة ظلمكم لأنفسكم ؛ لأن نتيجة هذا الظلم إنما تقع عليكم ، لأن مُقْتضى ما يعطيكم هذا الظلم من المتعة والنعمة هو أمر محدود بحياتكم فى الدنيا ، وحياتكم فيها محدودة .

ولا يظنّ الواحد أن عمره هو عمر البشرية فى الدنيا ، ولكن لِيَقِسْ كل واحد منكم عمره فى الدنيا ، وهو محدود .

ولذلك يقول الحق سبحانه فى آية أخرى :

﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ .. (٧٧)﴾ [النساء]

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (١/ ٣٩٦) والطبرانى فى معجمه الكبير (١٠/ ٢٦٦) قال الهيثمى فى المجمع (٤/ ١٧٤) : « إسناد أحمد حسنٌ ».

(٢) يقال : إنى لأربأ بك عن ذلك الأمر أى أرفعك عنه . ورابأت الشىء ورابأت فلاناً : حذرته واتقيته . (لسان العرب ـ مادة : ربأ) .

وهنا يؤكد الحق سبحانه : ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنفُسِكُم .. ﴿٢٣﴾﴾ [يونس]

وقد يتمثّل جزاء البَغْى فى أن يشاء الحق سبحانه ألاّ يموت الظالم إلا بعد أنْ يرى مظلومه فى خير مما أخذ منه ، ولذلك أقول دائماً : لو عَلم الظالم ما ادخره للمظلوم من الخير ، لَضنَّ عليه بالظلم .

وعلى فَرْض أن الظالم يتمتع بظلمه ، وهو من متاع الدنيا القليل ، نجد الحق سبحانه يقول :

﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ .. ﴿٢٣﴾﴾ [يونس]

وحين نرجع إلى الله تعالى فلا ظُلْم أبداً ؛ لأن أحدكم لن يظلم أو يُظلم ، فكلٌّ منكم سوف يَلْقى ما يُنبئه به الله سبحانه إنْ ثواباً أو عقاباً ، مِصْداقاً لقول الحق سبحانه :

﴿إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [يونس]

وقد جاء الخبر عن نبأ الجزاء من قبل أنْ يقع ، ليعلم الجميع أن لكل فعل مقابلاً من ثواب أو عقاب ، كما أن فى ذكر النبأ مقدماً تقريعاً لمن يظلمون أنفسهم بالبغى .

والحق سبحانه لا يظلم أحداً ، ومِصْداق هذا قوله تعالى :

﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [يونس]

ولكن الحق سبحانه لا يترك الباغى أو الظالم دون أنْ يُعذبه فى الدنيا

ويأخذه بظلمه ، لأنه سبحانه لو تركهم لعقاب الآخرة لاستشرى الظلم ، ولأصبح الذى لا يؤمن بالآخرة مُحترفاً للبغى .

يقول تعالى :

﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ .. (٤٧)﴾ [الطور]

أى : قبل الآخرة لهم عذاب .

والحق سبحانه يأخذ الظالمين درجة درجة ، فهو يستدرجهم من حيث لا يعلمون ، ويعطيهم نِعَمه ، ثم يرهقهم بما وصلوا إليه ، فإنه سبحانه يُملى للظالم ويُعليه ، ثم يُلقيه من علٍ .

يقول تعالى :

﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً(١) فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ(٢) (٤٤)﴾ [الأنعام]

أى : لم نعجل بعقاب الظالمين ، بل تركناهم فتمادوا فى المعصية ، حتى إذا فرحوا بما أوتوا من النعمة والثروة وكثرة العدد ، فسبحانه يمدُّ ويملى لهم ليأخذوا وليبنُوا وليترفوا ، وليفرحوا بما أخذوا ، ومن بعد ذلك يفتح الله عليهم أبواب كل شىء .

---

(١) البغت والبغتة : الفجأة . وهو أن يفجأك الشىء . وقد بغته الأمر يبغته : فجئه . والمباغتة : المفاجأة . (لسان العرب ـ مادة : بغت) .

(٢) أبلس من رحمة الله : يئس وندم . والمبلس : اليائس . ولذلك قيل للذى يسكت عند انقطاع حجته ولا يكون عنده جواب : قد أبلس . والإبلاس : الحيرة . وقال أبو بكر : الإبلاس معناه فى اللغة القنوط وقطع الرجاء من رحمة الله . (لسان العرب ـ مادة : بلس) .

فالحق سبحانه يرفع الظالم إلى درجات عالية ، ثم يخسف به الأرض .

وربُّنا سبحانه يعطى الظالمين الكثير ، ويمدُّهم فى طغيانهم ، ثم يأخذهم أخْذ عزيز مُقْتدر ، وقد دلَّتْ وقائع الحياة على هذا ، ورأينا أكثر من ظالم وجبّار فى الأرض ، والحق يُملى له فى العُلُو ، ويمدُّ له فى هذه الأسباب ، ثم يأخذه أَخْذ عزيز مُقتدر ، ولو بواسطة حارسه .

يقول تعالى :

﴿وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا[1] فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ (١١٦)﴾ [هود]

فالترف الذى عاشوا فيه جاء من الظلم والبَغْى بغير الحق ، وأَخْذ حقوق الناس ، وامتصاص دماء الكادحين ، حتى أطغتْهم النعمة ، وأنستْهم المنعم سبحانه ، وقد مدَّ الله لهم فى النعمة .

ويقول تعالى :

﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ (١٨٢) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (١٨٣)﴾

[الأعراف]

والإملاء هو الإمهال ، وهو التأخير .

أى : أنه لا يأخذهم مرة واحدة ، فساعةَ يقوم الظالم الفاسد بالكثير من الشرِّ فى المجتمع ، نجد أهلَ الخير وهم يزيدون من فعل الخيرات .

(١) الترف : التنعُّم . والتتريف : حُسْن الغذاء . والمترف : الذى قد أبطرته النعمة وسعة العيش ، وهو أيضاً المتنعم المتوسّع فى ملاذ الدنيا وشهواتها . (لسان العرب ـ مادة : ترف) .

وأيضاً ، فـإن الإملاءَ للظالم يجـعل الظالم تزداد مظالمه زيادةً تجـعل الأمة التى يعيش فيها تكره ظُلْمه ، فإذا وقع عليه عذاب ، لا يعطف عليه أحد .

ولذلك يقولـون : لا يموت ظالم فى الدنيا حـتى ينتقمَ الله مـنه ، ومن تمام انتقـام الله من الظالم أن يرى هذا الانتـقام من ظلمـهم هذا الظالم حتى يـشفى نفسه منه .

واعلموا أن الله تعـالى يسمع ويرى ، وأن الله خبيـر لا تَخْفى عليه خـافية ، فلا تـخدعوا أنفـسكم وتحـسبوا أن اللـه يُفلت الظالم ، أو أن الله يَخْفى علـيه شـىء ، أو يُعجزه شىء .

❑❑❑

(٨) موعظة ..
الشفاء والهدى والرحمة

إن الله يريد أنْ يُلفِت خَلْقه إلى أنهم إذا أرادوا أنْ يصلوا إلى الهدف الثابت الذى لا يتغير فليأخذوه عن الله. وإذا أرادوا أنْ يتبعوا الطريق الذى لا توجد فيه أىُّ عقباتٍ أو مُتغيرات فليأخذوا طريقهم عن الله .

يقول الحق سبحانه :

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [يونس]

نحن نعلم أن مُتعلِّقات الربوبية تتوزَّع ما بين قسمين :

القسم الأول : هو مُقوِّمات الحياة التى يعطيها الحق سبحانه من قُوتٍ ورزق ، وهذه المقوِّمات للمؤمن والكافر .

والقسم الآخر : هو مُقوِّمات القِيم التى ترسم منهج حركة الحياة ، وهذه للمؤمن فقط .

وقد وصف الحق سبحانه هنا الموعظة أنها (من ربكم)، فهى قادمة من الرب سبحانه ، أى: أنها من كمالات التربية ، فالموعظة نوع من التربية جاءت

من ربكم المأمـون عليكم ؛ لأنه هو الذى خلق من عَدَم ، وأَمـدَّ من عُدْم ، ولم يختص بنعمة الربوبية المؤمنين فقط ، بل شملتْ نعمته كل الخلق .

لذلك جاء الخطاب هنـا للناس جميعـاً ، فهم مُخَـاطبون بأصول العـقائد ، والإيمان الأعلى بالواجد[1] المـوجد ، فـهـذا يكون خطاباً للناس كـافّة ، أمـا المؤمنون فيكون خطابهم لتكليفهم بالتكاليف والأحكام ، مثل قوله تعالى :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ .. (١٨٣)﴾ [البقرة]

وقوله تعالى :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى .. (١٧٨)﴾ [البقرة]

والآية هنا تُصوِّر الموعظة[2] وكأنهـا تجسدتْ وصار لهـا مجىء ، رغم أن المـوعظة هى كـلمـات ، وأراد الله تعـالى بذلك أن يعطـىَ للمـوعظة صـورةَ الحركة التى تؤثر وتحضُّ على الإيمان .

والموعظة هى الوصـية بالخـير والبُعْد عـن الشر بلفظ مُؤثر ، ويُقـال: فلان واعظ مُتميِّز ، أى: أن كلامه مستميل وأسلوبه مؤثر وجميل .

والموعـوظ دائماً أضعف من الواعظ ، وتكـون نفسُ الموعوظ ثقـيلة ، فلا تتقبل الموعظةَ بيُـسْر إلا ممّن يجيد التأثير بجـمال الكلمة وصدق الأداء ، لأن

---

(١) الواجـد ، من أسمـاء الله عـز وجل ، هو الغنى الذى لا يفـتـقر . وأوجـده الله أى : أغناه . (لسـان العرب ـ مادة : وجد) .

(٢) الوعظ والعظة والموعظة : النصح والتذكير بالعواقب . قال ابن سيده : هو تذكيرك للإنسان بما يُلَيِّن قلبه من ثواب وعقاب . (لسان العرب ـ مادة : وعظ) .

الموعـوظ قد يقول فى نفسه : لقد رأيتنى فى مـحلٍّ دونك وتريد أنْ ترفعنى ، وأنت أعلى منى .

فإذا قـدّر الواعظ هذا الظَّرْف فى المـوعوظ فهـو يستـميل نفسه. ولنتـذكر الحكمة التى تقول :

«النُّصْح ثقيل ، فـلا تجعلوه جَدَلاً ، ولا ترسلوه جَبَـلاً ، واستعيـروا له خِفَّة البيان » .

وذلك لتستميل أُذُن السامع إليك ، فتأتى له بالأسلوب الجميل المقنع الممتع الذى يعجبه ، وتلمس فى نفسه صميم ما ترغب أن يصلَ إليه .

والمـوعظة القادمـة بالمنهج تخصُّ العقـلاء الراشدين ؛ لأن حـركة العـاقل الراشد تمرُّ على عقله أولاً ، ويختار بين البدائل ، أمـا حركة المجنون فهى غير مُرتَّبة ولا مُنسَّقة ، ولا تمرُّ على عقـله ؛ لأن عقله مُخْتَلُّ الإدراك ، وفاقدٌ للقدرة على الاختيار بين البدائل .

ولكن لماذا يُفسد العاقلُ الاختيارَ بين البدائل ؟

إن الذى يفسد حركةَ اختيار العاقل هو الهوى[1] ، والهوى إنما ينشأ مِمّا فى النفس والقلب .

والحق سبحانه يقول :

(١) هوى النفس : إرادتها . والهوى : محبة الإنسان الشيء وغلبته على قلبه . وقال عز وجل : ﴿وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٤٠﴾ [النازعات] معناه : نهاها عن شهواتها وما تدعو إليه من معاصى الله عز وجل . (لسان العرب ـ مادة: هوا) .

﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ .. ﴿٥٠﴾﴾ [القصص]

فلا أضلَّ ممَّنْ اتبع هواه بعيداً عن هدى الله ؛ لأن هوى الإنسان إنِ التقى مع هوى المشرِّع سبحانه فهو هَوى محمود ؛ لأن الرسول ﷺ يقول:

«لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تِبَعاً لما جئْتُ به »[(١)] .

فهوى النفس ليس مذموماً على إطلاقه ، إلا إذا خالف أوامر الله سبحانه. والهوى هو لُطْف الشيء في النفس والمـيْل إليه ، فالشيء تستلطفه في نفسك فتنزع إليه نزوعاً ، وقد يكون غيرَ مُسْتحب أو غيرَ مَقْبول ولا مَشْروع .

إذن : فمن الممكن أنْ يتجه الهوى إلى الخير ، وهو الهوى الذى يحمل النفس على أنْ يسيرَ الإنسانُ تبعاً للحق ، فالمطلوب أن يُطوِّع الإنسان هواه لمطلوب الله ، وما دام قد طوّع هواه لمطلوب الله ، فهذا يعنى أن هواه الشخصى قد امتنع .

لذلك يقول الحق سبحانه :

﴿قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ .. ﴿٥٧﴾﴾ [يونس]

أى : أنه سبحانه وتعالى قد أنزل عليكم ما يشفى صدوركم من غل يؤثر فى أحكامكم ، وحقد ، وحسد ، ومكر ، ويُنقِّى باطن الإنسان ؛ لأن أىّ حركة من

(١)أخرجه ابن أبى عاصم فى كتاب « السنة » (١/ ١٢) من حديث عبد الله بن عمرو ، وأورده ابن رجب الحنبلى فى « جامع العلوم» (ص ٤٦٠) وضعَّفه . وقد ذكره ابن حجر العسقلانى فى فتح البارى (١٣/ ٢٨٩) من حديث أبى هريرة وقال : « أخرجه الحسن بن سفيان وغيره ورجاله ثقات، وقد صححه النووى فى آخر الأربعين » قلت : الحديث عن ابن عمرو وليس أبا هريرة .

حركـات الإنسان لها نبْع وجـدانىّ ، ولابُدّ أن يُشْفَى النبع الوجـدانى ، ليصحّ ، حتى تخرج الحـركـات من الجوارح ، وهى نابعـة من وُجْـدان طاهر مُصـفّىً وسليم ، وبذلك تكون الحركات الصادرة من الإنسان سليمة .

ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ (٥٧) ﴾ [يونس]

وجاءتْ كلمة «الشفاء» أولاً ، لتُبين أن الهـداية الحقّة إلى الطريق المستقيم تقتضى أنْ تُخرِج ما فى قلبه من أهواء ، ثم تدلّه إلى المنهج المستقيم .

وإنْ سأل سائلٌ عن الفارق بين الشفاء والرحمة ، نجيب :

إن الشفاء هو إخراجٌ لما يُمرض الصدور ، أما الرحمة فهى اتباع الهداية بما لا يأتى بالمرض مرة أخرى .

واقرأ إنْ شئتَ قوْلَ الحق سبحانه :

﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ .. (٨٢)﴾ [الإسراء]

ففى القرآن شفاءٌ ورحمـة ، أى وقاية وعلاج . والذى يلتزم بمنهج القرآن لا تصيبه الداءاتُ الاجتماعية والنفسية أبداً ، والذى تغفل نفسه وتشرد منه يُصَاب بالداء الاجتماعى والنفسى ، فإنْ عاد إلى منهج القرآن فهو يشفى من أىِّ داء .

فساعة تسمع القرآن ، فهو يشـفيك من الداء الذى تعانى منه نفسياً ، ويُقوِّى قدرتك على مقاومة الداء ، ويُفجِّر طاقات الشفاء الكامنة فى أعماقك .

وهو رحمـةٌ لك حين تتخذه مَنْهجاً ، وتُطبِّقـه فى حياتك ، فيـمنحك مناعةً تحميك من المرض ، فهو طِبٌّ علاجىّ ، وطبٌّ وقائىّ فى آنٍ واحد .

وهكذا يتبيّن لنا أثر الموعظة : شفاء ، وهدى ، ورحمة.

إنها تعالج ليس ظواهر المرض فقط ، ولكن تعالج جذور المرض .

إذن : فشفاء الصدور يجـب أنْ يتم أولاً ؛ لذلك نجد الطبيب الماهر هو مَنْ لا ينظر إلى ظواهر المـرض فقـط ليعـالجهـا ، ولكنه يبـحث عَمّـا خلف تلك الظواهر ، على عكس الطبيب غير المـدرّب العَجُول الذى يعالج الظواهر دون علاج جذور المرض .

ومثال ذلك : طبيب الأمراض الجلدية غـير الماهر حين يرى بُثوراً (١) ، فهو يعـالجهـا بما يطمـسهـا ويزيلها مـؤقتـاً ، لكنهـا تعود بعـد قليل ، أما الطبـيب المدرَّب الفاهم فهو يعالج الأسباب التى تنتج البثور ، ويزيلها بالعلاج الفعَّال ، فيقضى على أسباب ظهورها .

وفى القرآن الكريم نجد قصة ابتلاء سيدنا أيوب عليه السلام (٢) ، فقد قال له الحق سبحانه :

---

(١) البثور : خُـرَّاج صغار ، وخص بعضهم به الوجـه . قال أبو منصور : البثور مـثل الجدرى يقبح على الوجه وغيره من بدن الإنسان . (لسان العرب ـ مادة : بثر) .

(٢) ابتلى الحق سبـحانه عبده أيوب عليـه السلام بالضر فى جـسده وماله وولده حتى لم يبق من جـسده مغرز إبرة سليـماً سوى قلبه ، ولم يبق له من الدنيا شىء يستـعين به على مرضه وما هو فـيه ، غير أن زوجته حفظت ودّه لإيمانها بالله تعالى ورسوله ، فكانت تخدم الناس بالأجرة وتطعمه وتخدمه نحواً من ثمانى عشرة سنة ، وقـد كان قبل ذلك فى مـال جزيل وأولاد وسعـة طائلـة من الدنيا ، فسُلب =

﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾﴾ [ص]

أي : اضرب برجلك ذلك المكان يخرج لك منه ماء بارد ، تغتسل منه ، فيزيل الأعراض الظاهرة ، وتشرب منه ليعالج أصل الداء[(١)] .

إذن : فالموعظة وكأنها تجسّدتْ ، فجاءت من ربكم - المأمون عليكم - شفاء ، حتى تعالج المواجيد التي تصدر عنها الأفعال ، وتصبح مواجيد سليمة مستقيمة ، لا تحلُّل فيها .

وتكون هُدَىً إلى الطريق الموصِّل إلى الغاية الحقَّة .

فالهدى هو الدلالة على طريق يُوصِّلك إلى ما تطلبه ، فالإشارات التي تدل المسافر على الطريق هي هُدىً له ، لأنها تُبيِّن له الطريق الذي يُوصِّله إلى المكان الذي يقصده .

والهدى يتطلب : هادياً ، ومَهْدياً ، وغاية تريد أنْ تُحقِّقها . فإذا لم تَكُن هناك غاية أو هدف ، فلا معنى لوجود الهدى لأنك لا تريد أن تصل إلى شيء ، وبالتالي لا تريد من أحد أن يدلّك على طريق .

= جميع ذلك حتى آل به الحال إلى أن ألقى على مزبلة من مزابل البلدة هذه المدة بكمالها . (انظر : تفسير ابن كثير ٤/ ٣٩) .

(١) قال تعالى : ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾﴾ [ص] وقال ابن كثير في تفسيره : «أمره أن يقوم من مقامه ، وأن يركض الأرض برجله ففعل ، فأنبع الله تعالى عيناً وأمره أن يغتسل منها فأذهبت جميع ما كان فيه بدنه من الأذى ، ثم أمره فضرب الأرض في مكان آخر فأنبع له عيناً أخرى وأمره أن يشرب منها ، فأذهبت جميع ما كان في باطنه من السوء وتكاملت العافية ظاهراً وباطناً » .

إذن: لابُدَّ أن نوجد الغاية أولاً ، ثم نبحث عَمَّنْ يُوصِّلنا إليها .

وهنا نتساءل : مَنِ الذى يُحدِّد الهدف ، ويُحدِّد لك الطريق للوصول إليه ؟

إذا أخذنا بواقع حياة الناس فإن الذى يحدد لك الهدف لابُدَّ أن تكون واثقاً من حكمته ، والذى يُحدِّد لك الطريق لابُدَّ أن يكون له من العلم ما يستطيع به أنْ يدلّك على أقصر الطرق لتصل إلى ما تريد.

فإذا نظرنا إلى الناس فى الدنيا نجد أنهم يُحدِّدون مطلوبات حياتهم ، ويحددون الطريق الذى يحقق هذه المطلوبات ، فالذى يريد أن يبنى بيتاً مثلاً يأتى بمهندس يضع له الرسم ، ولكن الرسم قد يكون قاصراً عن أن يُحقِّق الغاية المطلوبة فيظل يُغيِّر ويُبدِّل فيه ، ثم يأتى بمهندس على مستوى أعلى فيضع تصوراً جديداً للمسألة كلها .

وهكذا يكون الهدف مُتغيِّراً وليس ثابتاً ، وعند التنفيذ قد لا توجد المواد المطلوبة فنغيّر ونُبدِّل لنأتى بغيرها ، ثم فوق ذلك كله قد تأتى قوة أعلى فتوقف التنفيذ أو تمنعه .

إذن : فأهداف الناس مُتغيّرة تحكمها ظروف حياتهم وقدراتهم ، والغايات التى يطلبونها لا تتحقق لقصور علم البشر وإمكاناتهم .

إذن : فكلُّنا محتاجون إلى كامل العلم والحكمة ليرسم لنا طُرق حياتنا ، وأنْ يكونَ قادراً على كل شىء ، ومالكاً لكل شىء ، وأنْ يكونَ الكون خاضعاً

لإرادته ، حتى نعرف يقيناً أن ما نريده سيتحقق ، وأن الطريق الذى سنسلكه سيُوصِّلنا إلى ما نريده .

ويُنبِّهنا الحق سبحانه إلى هذه القضية فيقول :

﴿قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ ..(١٢٠)﴾ [البقرة]

إن الله يريد أنْ يلفتَ خَلْقه إلى أنهم إذا أرادوا أنْ يصلوا إلى الهدف الثابت الذى لا يتغير ، فليأخذوه عن الله .

وإذا أرادوا أنْ يتبعوا الطريق الذى لا توجد فيه أيُّ عقبات أو مُتغيّرات ، فليأخذوا طريقهم عن الله تبارك وتعالى .

إنك إذا أردتَ باقياً ، فَخُذْ من الباقى .

وإذا أردتَ ثابتاً ، فخُذْ من الثابت .

ولذلك كانت قوانين البشر فى تحديد أهدافهم فى الحياة وطريقة الوصول إليها قاصرةً ، علمتْ أشياء ، وغابتْ عنها أشياء ، ومن هنا فهى تتغيّر وتتبدَّل كل فَتْرة من الزمان .

ذلك أن مَنْ وضع القوانين من البشر له هدف يريد أن يُحقِّقه ، ولكن الله جَلَّ جلاله لا هوى له ، فإذا أردتَ أنْ تُحقِّق سعادة فى حياتك ، وأن تعيش آمناً مطمئناً ، فَخُذِ الهدف عن الله ، وخُذِ الطريق عن الله .

والله قد حدَّد لخَلْقه ولكل ما فى كونه أقصر طريق لبلوغ الكون سعادتَه ،

والذين لا يأخذون هذا الطريق يُتعِبون أنفسهم ، ويُتعِبون مجتمعهم ولا يُحقِّقون شيئاً .

إذن : فالهدف يُحقِّقه الله لك ، والطريق يُبيِّنه الله لك ، وما عليك إلا أنْ تجعلَ مُراداتك فى الحياة خاضعة لما يريده الله .

وقد وصف الحق سبحانه قرآنه ، فقال :

﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ[1] فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾﴾ [البقرة]

أى : أن هذا القرآن هُدىً للجميع ، فالذى يريد أن يتقىَ عذاب الله وغضبه يجد فيه الطريق الذى يُحدِّد له هذه الغاية ، فالهدى من الحق تبارك وتعالى للناس جميعاً ، ثم خَصَّ مَنْ آمن به بهُدى آخر ، وهو أن يعينه على الطاعة .

إذن : فهناك هدى من الله لكل خلقه ، وهو أنْ يدُلَّهم سبحانه وتعالى ويبين لهم الطريق المستقيم ، هذا هو هدى الدلالة ، وهو أن يدلَّ الله خَلْقه جميعاً على الطريق إلى طاعته وجنته[2].

(١) الريب : الشك ، والظنة ، والتُّهمة . والريب : ما رابك من أمر وقد رابنى الأمر وأرابنى . (لسان العرب ـ مادة : ريب) .

(٢) للهدى معانٍ متعددة :

١ ـ الدلالة إلى الحق : من نحو قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ ﴿١٧﴾﴾ [فصلت] فهدايتهم هنا بمعنى إرشادهم إلى طريق الحق والدلالة عليه ، سواء سلكوه أم لا ، ومنه قوله تعالى : ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ..﴿٣﴾﴾ [الإنسان] .

٢ ـ الإعانة والتوفيق فى اتباع الحق : من نحو قوله تعالى : ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ.. ﴿٥٦﴾﴾ [القصص] وقوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴿٦٩﴾﴾ [العنكبوت] .

أما الرحمـة ، فكلنا نعيش برحمات الله ، حتى الكافر يعيش على الأرض برحمة اللـه ، ويأخذ أسباب حيـاته برحمة الله ، والنعم والخيـرات التى يعيش عليها تأتيه بسبب رحمة الله .

والمؤمن يأخذ نِعَم الـدنيا برحمة الله ، ويزيد الله له بالبـركة والاطمئنان ، والاطمئنان نعمة كبرى ، فمَنْ يَعِشْ فى هذه الحياة وهو مُطمئِن إلى غاية أفضل من هذه الحياة ، فهذا لَوْنٌ عظيم من الاطمئنان .

ويقول الحق سبحانه :

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢١٨)﴾ [البقرة]

إن الدنيا كلهـا مُسخَّرة تحت قَهْـر الرحمن ومشيـئته وتسخـيره ، وله تمام التصرُّف فى كل الكائنات ، وهو الخالق البديع .

ولكن ، ما هى الرحمة ؟

الرحمة : ألاَّ تُبْتلَى بالألم من أوَّل الأمر .

أما الشفاء : فهو أن تكون مُـصَاباً بداءٍ ، ويُبرئك الله منه ، لكن الرحمة هو ألاَّ يأتىَ الداءُ أصلاً .

ولذلك أحب أن أقول ـ دائماً ـ مع إخوانى هذا الدعاء :

« اللهم بالـفـضل لا بالعـدل ، وبالإحـسـان لا بالمـيـزان ، وبـالجـبـر لا بالحساب» .

أي : عاملنا بالفضل لا بالعدْل ، وبإحسانك لا بالميزان .

ولقد علّمنا رسول الله ﷺ أن دخول الجنة لا يكون بالأعمال وحدها ، ولكن بفضل الله ورحمته ومغفرته ، فيقول ﷺ :

«لن يدخلَ أحدكم الجنة بعمله ، فقالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : ولا أنا ، حتى يتغمدنى[1] الله برحمته »[2] .

إذن : فالمؤمن يرجو الله ، ولا يشترط على الله ، إن المؤمن يتجه بعمله خالصاً لله ، يرجو التقبُّل والمغفرة والرحمة ، وكُلُّ ذلك من فضل الله .

والحق سبحانه قد أوجب على نفسه الرحمة ، فقال :

﴿كَتَبَ[3] رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ[4] ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٥٤)﴾ [الأنعام]

فتشريع التوبة هو من ظواهر رحمة الله تعالى بعباده الذين يرتكبون الذنوب فى حالة الحماقة والطيش ، ويُقبلون على التوبة فوراً ، هؤلاء يقبل الحق سبحانه توبتهم .

---

(١) تغمده الله برحمته : غمره بها . قال أبو عبيد : يتغمدنى ويلبسنى ويتغشانى ويسترنى بها. (لسان العرب ـ مادة : غمد) .

(٢) متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٤٦٣) ، ومسلم فى صحيحه (٢٨١٦) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

(٣) كتب : أى : سجَّلها وأوجبها على نفسه تفضلاً منه ، وتكرّماً على خلقه .

(٤) الجهالة : أن تفعل فعلاً بغير العلم. (اللسان ـ مادة: جهل) وبجهالة أيضاً، أى: بطيش وسفه وعدم تبصُّر.

والحق سبحانه توَّاب ورحيم ، توّاب يتوب على العُصَاة ، ويغفر لهم ذنوبهم بعد أنْ وقعوا فيها ، أما الرحمة فإنه يرحم بعض خَلْقه فلا يرتكبون أىَّ معصية من البداية ، فالرحمة ألاَّ تقعَ فى المعصية.

والرحمة والرحمن والرحيم ، مُشتقٌ منها الرحم الذى هو مكان الجنين فى بطن أمه ، هذا المكان الذى يأتيه فيه الرزق ، بلا حَوْل ولا قوة ، ويجد فيه كل ما يحتاج إليه نموّه مُيسَّراً ، رِزْقاً من الله بلا تعبٍ ولا مقَابلٍ .

انظر إلى حُنُوِّ الأم على ابنها وحنانها عليه ، وتجاوزها عن سيئاته وفرحته بعودته إليها .

ولذلك قال الحق سبحانه فى حديثه القدسى :

«أنا الرحمن ، خلقت الرحم ، وشققت لها اسماً من اسمى ، فمَنْ وصلها وصلتُه ، ومَنْ قطعها قطعتُه » (١).

الله سبحانه وتعالى يريد أنْ نتذكرَ دائماً أنه يحنُو علينا ويرزقنا ، ويفتح لنا أبواب التوبة باباً بعد آخر ، ونعصى فلا يأخذنا بذنوبنا ، ولا يحرمنا من نعَمه ، ولا يُهلكنا بما فعلنا .

ولذلك فنحن نبدأ تلاوة القرآن الكريم بسم الله الرحمن الرحيم ، لنتذكر

(١) حديث قدسى أخرجه أحمد فى مسنده (١/ ١٩١ ـ ١٩٤) والترمذى فى سننه (١٩٠٧) وقال : حديث صحيح . وكذا أخرجه أبو داود فى سننه (١٦٩٤) كلهم من حديث عبد الرحمن بن عوف . وقد شرحه الإمام محمد متولى الشعراوى (رحمه الله) فى كتاب « الأحاديث القدسية » (المجلد الأول ـ صفحة ١١) بتحقيقى (عادل أبو المعاطى) ـ نشر :دار الروضة .

دائماً أبواب الرحـمة المفتوحـة لنا ، نرفع أيدينا إلى السمـاء ، ونقول : يا ربّ رحمتك ، تجاوزْ عن ذنوبنا ، وسيِّئاتنا .

وبذلك يظلُّ قـارىء القرآن مُـتصلاً بأبـواب رحمة الله ، كـلما ابتـعد عن المنهج أسرعَ ليعودَ إليـه ، فما دام الله رَحْماناً ورحيـماً لا تُغلَق أبواب الرحمة أبداً .

فالحقُّ سـبحانه رحمـانٌ فى الدنيا لكثرة عـدد الذين يشملهم الله سبـحانه وتعالـى برحمتـه ، فرحـمةُ الله فى الدنيـا تشمل المـؤمنَ والعاصى والـكافر ، يُعطيهم الله مُقوِّمات حياتهم ، ولا يُؤاخِذهم بذنوبهم ، يرزق مَنْ آمن به ، ومَنْ لم يؤمن به ، ويعفو عن كثير .

إذن : عـددُ الذين تشملهـم رحمـة الله فى الدنيـا هُمْ كل خَلْقه ، بصـرف النظرِ عن إيمانهم أو عدم إيمانهم .

أما فى الآخرة فاللهُ رحيمٌ بالمؤمنين فقط ، فالكفار والمشركون مطرودون من رحمة الله .

إذن : الذين تشـملهم رحمة الله فـى الآخرة أقلُّ عدداً من الذين تشـملهم رحمة الله فى الدنيا .

❑❑❑

(٩) ... يقين الداعى

حين يعرض الداعى أمر دعوته على الناس ويترك لهم الحكم ويضعهم فى نقطة الاختيار، فهذه ثقة منه بأن قضايا دعوته إن نظر إليها أىُّ إنسان مُنْصِف فلابُدَّ أن يلتجىء إلى الإيمان بتلك الدعوة .

يقول الحق سبحانه لرسوله ﷺ :

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ(١) **وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٤)﴾** [يونس]

فالحقُّ سبحانه يأمر رسوله ﷺ بأن يعرض على الكافرين قضية الدين ، وأنْ يضعوها فى كفَّة ، ويضعوا ما يؤمنون به فى الكفّة المقابلة ، ويترك لهم الحكم فى هذا الأمر .

هم ـ إذن ـ فى شَكٍّ : هل هذا الدين صحيحٌ أم فاسدٌ ؟

والشكُّ ـ كما نعلم ـ معناه : تساوى كِفّة النفى وكِفّة الإثبات ، فإنْ رجحتْ واحدة منهما فهذا ظَنٌّ ، وتكون المرجوحة وَهْماً وافتراءً وكذباً .

---

(١) الوفاة: المنية . والوفاة : الموت . وتُوفِّى فلان وتوفّاه الله إذا قبض نفسه . وقال غيره : توفّى الميت استيفاء مدته التى وُفيت له وعدد أيامه وشهوره وأعوامه فى الدنيا . (لسان العرب ـ مادة : وفى) .

وحين يعرض الرسول ﷺ أمر الدين عليهم ويترك لهم الحكم ، فهذه ثقةٌ منه ﷺ بأن قضايا دينه إنْ نظر إليها الإنسان ليحكم فيها ، فلابُدَّ أنْ يلتجيءَ الإنسان إلى الإيمان .

وهذا من نحو قول الله سبحانه على لسان رسوله ﷺ :

﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٢٤)﴾ [سبأ]

والرسول ﷺ على الهدى بالقَطْع ، وخصومه على ضلال بالقطع ، ولكن رسول الله ﷺ يُسلِّم الأمر طالباً من خصومه أن يراجعوا أنفسهم ليناقشوا القيم التى يدعو إليها الإسلام ، وسيجدون أن قيمَ الإسلامْ هى الهدى وأنهم على ضلال .

ونعلم أن الهدى والضلال لا يجتمعان ، فنحن كمسلمين على هُدىً ، وأنتم على ضلال ، ووسيلة التمييز أن يُحكِّم الإنسانُ عقلَه فى المسألة ، وبذلك يرى مَنِ الذى على هدى ، ومَنِ الذى على ضلال ، فلا يمكن أن يكون المتناقضان مُحقَّيْنِ .

فأحدهما لابُدّ أن يكون على هُدىً ، والآخر لابُدَّ أنه على ضلال .

وهذا الشكُّ قد واجه كل الرسل من قِبَل أقوامهم بعد أنْ دعوْهُمْ إلى عبادة الله وحده .

يقول تعالى :

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم

مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ(١) فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ (٦١)﴾

[هود]

فكان أول شيء طلبه صالح ـ عليه السلام ـ من قومه ثمود أن اعبدوا الله ، وأَمْر عبادة الله وحده مطلوبٌ من كُلِّ أحد ، ولا يسَع أحداً مخالفته ، فهو تقريرُ واقعٍ لا يستطيعون تغييره ، فليس لهم إلهٌ آخَر غير الله ، مهما حاولوا ادعاءَ آلهة أخرى .

فماذا كان ردّ قومه ـ ثمود ـ عليه ؟

يقول الحق عز وجل ما جاء على ألسنتهم :

﴿قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ (٦٢)﴾ [هود]

فقد كانوا ينظرون إلى صالح ـ عليه السلام ـ بتقدير ورجاء قبل أن يدعوهم لعبادة الله تعالى وحده ، ولا إله غيره ، والمرجوُّ هو الإنسان المؤمّل فيه الخير ، ذكاءً ، وطموحاً ، وأمانة ، وأية خَصْلة من الخصال التى تُبشِّر بأن له مستقبلاً حَسناً .

ولكن ، ما إنْ دعاهم صالح ـ عليه السلام ـ إلى عبادة الله سبحانه وتعالى أعلنوا أنه ـ بتلك الدعوة ـ إنما يُفسِد رجاءهم فيه وما كانوا يأملونه فيه .

---

(١) استعمره فى المكان : جعله يعمره . قال الشيخ الشعراوى (رحمه الله) فى تفسيره لهذه الآية (المجلد ١١/ ٦٥٣٠) بتحقيقى (عادل أبو المعاطى) ـ نشر: أخبار اليوم : « أى: طلب منكم عمارتها، وهذا يتطلب أمرين اثنين: أن يُبقى الناس الأمر الصالح على صلاحه.أو يزيدوه صلاحًا».

وأضاف قوم ثمود :

﴿وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ (٦٢)﴾ [هود]

إذنْ : فَهُم ليسوا على يقين أن عبادتهم لما عبدَ آباؤهم هى عبادة صادقة ، ودعوة صالح - عليه السلام - لهم جعلتْهم يترددون فى أمر تلك العبادة ، وهذا يُظهر أن خصالَ الخيرِ فى صالح - عليه السلام - جعلتهم يترددون فى أمرِ عبادتهم.

ويَحْسِم الحق سبحانه أمْرَ قضية الشرك به ، فيأمر رسوله ﷺ أن يقول :

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ .. (١٠٤)﴾ [يونس]

ويُثبِّت الحق سبحانه قلب نبيه ﷺ ، فيقول :

﴿لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ[1] (٩٤)﴾ [يونس]

فالحقُّ القادم من الله تعالى ثابت لا يتغير ؛ لأنه واقع ، والواقع لا يتعدد ، بل يأتى على صورة واحدة ، أما الكذب فيأتى على صور متعددة .

والرسول ﷺ إنما جاء بالقيم التى تهدى إلى الطريق المستقيم ، جاء بالدين الحق ، فالطريق المستقيم هو أقصر الطرق إلى تحقيق الغاية ، فأقصر

---

(١) الامتراء فى الشيء : الشك فيه . وامترى وتمارى : شك . والمرية : الشك والجدل . قال تعالى: ﴿فَلا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ (١٧)﴾ [هود] والمراء: المماراة والجدل . والمراء أيضاً : من الامتراء والشك . (لسان العرب - مادة : مرى) .

طريق بين نقطتين هو الطريق المستقيم ، ولذلك إذا كنتَ تقصد مكاناً فأقصر طريق تسلكه هو الطريق الذى لا اعوجاجَ فيه ، ولكنه مستقيمٌ تمامًا.

ولا تحسب أن البُعْد عن الطريق المستقيم يبدأ باعوجاج كبير ، بل باعوجاج صغير جداً ، ولكنه ينتهى إلى بُعْد كبير .

ويكفى أنْ تراقبَ قضبان السكة الحديد ، عندما يبدأ القطار فى اتخاذ طريق غير الذى كان يسلكه ، فهو لا ينحرف فى أول الأمر إلا بضعة ملليمترات ، أى أن أول التحويلة ضيقٌ جداً ، وكلما مشيت اتسع الفَرْق وازداد اتساعاً ، بحيث عند النهاية تجد أن الطريق الذى مشيتَ فيه يبعد عن الطريق الأول عشراتِ الكيلو مترات وربما مئات الكيلو مترات .

إذن: فأيُّ انحراف مهما كان بسيطاً يُبعِدك عن الطريق المستقيم بُعْداً كبيراً.

ويقول الحق سبحانه على لسان رسوله وعبده عيسى بن مريم :

﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ (٥١)﴾ [آل عمران]

فهذا هو الصراط المستقيم الذى لا التواءَ فيه ، لأن الطريق إذا التوى انحرف عن الهدف ، وحتى تعرف أن الكُلَّ يسير على طريق مستقيم واحد ، فلتعلم أنك إنْ نظرتَ ـ على سبيل المثال ـ إلى الدائرة ، فستجد أن لها محيطاً ولها مركزاً ، ومركزُ الدائرة هو الذى نضع فيه «سِنّ الفرْجار» حتى نرسم الدائرة ، وبعد ذلك تصل من المركز إلى المحيط بأنصاف أقطار ، وكلما بَعُدْنا

عن المـركز زاد الفـرق ، وكلما نقرب من المركز تتلاشى الفروق .

فإذا ما كان الخَلْق جـميعاً يلتقون عند المركز الواحـد فهذا يعنى الاتفاق ، لكن الاخـتلافَ يحدث بيـن البشر كلـما بَعُدوا عـن المركز ، ولذلـك لا تجد للناس أهـواء ، ولا نجد الناس شِـيَعاً إلا إذا ابتعدوا عن المـركز الجامع لهم ، والمركز الجـامع لهم هو العبودية للإله الواحد ، وما دامت عبـوديته لإله واحد ففى هذا جَمْع للناس ، بلا هَوىً أو تفرُّق .

لذلك كـان الله هو الحقّ ، فـلا يوجـد فى الكون حَـقَّـانِ ، بل يوجـد حَقٌّ واحد ، وما عـداه هو الضلال ، فلو وجَّهتم الأمـر بالربوبية والعبوديـة إلى غيره تكونون قد ضَلَلْتُم الطريق .

يقول سبحانه :

﴿فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلالُ ..(٣٢)﴾ [يونس]

ويقول تعالى:

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (٦٢)﴾ [الحج]

فالـله تعالى هو الإله الحقّ ، ومـا عداه من مـعبـودات على اختـلافهـا هى الباطل .

ولذلك يقول الحق سبحانه لرسوله ﷺ :

﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِي إِلَى

الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لاَّ يَهِدِّي[1] إِلاَّ أَن يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾

[يونس]

أى : هل من شركائكـم مَنْ يهدى الإنسانَ إلى غايته ؟ هـل قالت الشمس مثـلاً غايـتهـا ؟ هل قالت الملائكـة غايـتها ؟ هل قالت الأشـجار أو الأحجار أو الرسل الذين عبدتموهم شيئًا غير مُرَاد الله تعالى ؟

إنهم آلهـة باطـلة لا تعـرف الغـاية من العـابد لهـم ، ولا يعـرفـون الطريق الموصِّل إلى تلك الغاية .

ولذلك يأتى القول الفَصْل : ﴿قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ . .﴿٣٥﴾﴾ [يونس]

فالله هداكَ أيهـا الإنسان إلى الحقِّ فى كل حركـة تتحركـها بالمنهج الذى أنزله الله سـبحـانه مُكتَمـلاً على رسـوله ﷺ مـن بَدْء «لا إله إلا الله» إلى «إماطة[2] الأذى عن الطريق» ، وهو منهج مُـسْتـوعِب مُسْتوفٍ لكُلِّ حـركات الإنسان .

---

(١) يهدّى : أصلها يهتدى ، قلبت تاء الافتعال دالاً وأدغمت فى الدال حتى اشتقوا منها هدّى يهدّى هدّاء بدون همزة الوصل . والمـعنى : هل الله الذى يهدى إلى الحق أحق وأجـدر أن تتبعـوه أم الآلهة التى تعبدونها ، هذه الآلهة العاجزة التى لا تستطيع أن تهتـدى إلى الخير والنفع بنفسها إلا أن يهديها غيرها لعجـزها وقصـورها لا شك أنها ليـست أحق بالاتباع بـل الله وحده هو الأحق بالعـبادة . (القـاموس القويم للقرآن الكريم ٢/ ٣٠٠) .

(٢) إماطة الأذى : تنحيـته وإبعاده ودَفْعـه . (لسان العرب ـ مادة : ميط). ومنـه حديث رسول الله ﷺ الذى رواه أبو هريرة أنه قال: «الإيمان بضع وسبعون ـ أو بضع وستون ـ شعبة فأفضلها لا إله إلا الله ، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق ، والحياء شعبة من الإيمان » . أخـرجه مسلم فى صحيحه (٣٥) قال النووى فى شرحه «المراد بالأذى كل ما يؤذى من حجر أو مدر أو شوك أو غيره » .

وجاءت الإجـابة من الله تعالى على لسـان رسوله ﷺ ؛ لأنهم انبـهروا بالسؤال وتلجلجوا ، ولم يوجد عند أيٍّ منهم قدرة على المعارضة ، فالغاية من خَلْق الإنسان وغيره يُوجزها قول الحق سبحانه :

﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات]

فالله سبـحانه تفرَّد بالألوهية بربوبيتـه للخَلْق ، لأنه خَلَق من عدم ، ورَزَق من عُدْم ، وخـلق لنا وسائل العلم ودبّر لنا الأمـر ، وأخرج الحيَّ من الـميت ، وأخرج الميت من الحي ، وهدى للحق .

فأين - إذن - هؤلاء الشركاء الذين اتخذتموهم مع الله تعالى؟

وهل صنع واحد منهم ، أو كلهم مجتمعين شيئاً واحداً من تلك الأشياء ؟

إذن : فالذيـن أشركوا قـد ارتكبوا الإثم العـظيم ، وهؤلاء الشركـاء إمّا أنْ يكونوا من الملائكة أو من الأنبياء والرُّسُل الذين فُتن بهم بعضُ الناس .

وهناك مَن اتخـذ وسائط أخـرى مثل : الـشمس والقـمر والنجـوم ، وهذه أشياء عُلوية ، وبعض الناس اتخذوا وسائط سُفْلية كالأشجار والأحجار ، فهل أيُّ شيء من كُلِّ ذلك يـهـدي إلى الحق ؟ ومـا منهج أيٍّ مِـنهم إذنْ ؟ وكـيف بلَّغوكم به ؟

إن كل هؤلاء يعلمون أن أيّاً منهم لا يسـتطيع أن يهدي ، بل هو يُهدى من الله سبحـانه وتعالى ، فمن أين قلتم إن الملائكة ستـهديكم ؟ أو : من أين جاء الذين فُتنوا برسولهم واتخذوه إلهاً ؟ ومن أين جاء هذا الرسول بمنهجه ؟

إن كلّ كائن لا يهدى إلا بعد أن يُهدى من الله أولاً ، وإن كانت الأشياء - المتخذة شركاء - لا هدايةَ لها ، ولا منهجَ ، ولا عقلَ ، ولا تفكيرَ ، كالشمس والقمر والنجوم فى العُلْويات ، والأشجار والأحجار فى السُّفْليات ، فماذا قالت هذه الأشياء؟

إنها لم تقُلْ شيئاً .

وهكذا لا يستقيم أمر اتخاذهم شركاءَ مع الله .

لذلك حسمَ الحقُّ - سبحانه وتعالى - أمر قضية الشرك به ، فقال لنبيه ﷺ :

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٤)﴾ [يونس]

أى: أنه ﷺ لا يمكن أنْ يعبدَ الشركاء وأن يعبد الله ، لأنه لن يعبد إلا الله .

وقد سبق أن قطع الحق سبحانه هذا الأمر بأن قال لرسوله ﷺ :

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣) وَلا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ (٤) وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٥) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ (٦)﴾

[الكافرون]

هذا هو قَطْع العلاقات التام فى تلك المسألة التى لا تقبل المساومة ، وهى العبادة ، ونحن نعلم أن العبادة أمْر قلبى لا يمكن المساومة فيه ، وقَطْع

العلاقات فى مثل هذا الأمر أمرٌ واجب ، لأنه لا يمكن التفاوض حوله ، فهى ليست علاقاتِ ظرفٍ سياسى ، ولكنه أمر ربانى ، يحكمه الحق سبحانه وحده.

فهذا القول الكريم يُشعر مَنْ يسمعه ويقرؤه أنهم سيظلون على عبادة غير الله ، وأن محمداً ﷺ سيظل على عبادة الله .

فقد حاول الكفار أنْ يستميلوا المؤمنين بالحيلة بعد أن فشلت القوة والبطش والإرهاب ، فقالوا : نعبد إلهكم فترة ، وتعبدون إلهنا فترة [1].

فكانت هذه الآيات إعلاناً بمرحلة تتسم بأنه لا مهادنة ولا حلولَ وسط بين الكفر والإيمان ؛ لأنه لو قبل المؤمنون عبادتهم لآلهة الكفار ، فهذا اعترافٌ منهم بأن آلهتهم حقّ ، ولو قبلوا أن يعبدوا الإله الواحد ويشركوا به آلهة أخرى لَكانَ ذلك تفريطاً ، ولا يمكن أنْ يحدثَ ذلك .

وهكذا فشلتْ حيلة الكفار فى تمييع وتضييع قضية الدين ، وضاع مكرُهم ، وبقى الوجود الإيمانى قوياً مُتحداً فى مواجهة جبروت الكفار بعد أنْ كان مُهدّداً .

---

(١) ذكر ابن هشام فى «السيرة النبوية» (١/ ٣٦٢)، والواحدى فى «أسباب النزول» ص ٢٦١ ـ أن رهطاً من قريش (الأسود بن المطلب ، الوليد بن المغيرة ، أمية بن خلف ، العاص بن وائل) قالوا : يا محمد هلم اتبع ديننا ونتبع دينك ، تعبد آلهتنا سنة ونعبد إلهك سنة ، فإن كان الذى جئت به خيراً مما بأيدينا قد شركناك فيه وأخذنا بحظنا منه ، وإن كان الذى بأيدينا خيراً مما فى يدك قد شركت فى أمرنا وأخذت بحظك ، فقال : معاذ الله أن أشرك به غيره ، فأنزل الله تعالى : ﴿**قل يأيها الكافرون**﴾ إلى آخر السورة ، فغدا رسول الله ﷺ إلى المسجد الحرام وفيه الملأ من قريش ، فقرأها عليهم حتى فرغ من السورة ، فأيسوا منه عند ذلك » .

يقول تعالى لرسوله ﷺ :

﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ قُل لاَّ أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ (٥٦)﴾ [الأنعام]

نحن نعرف أن الرسول ﷺ لم يعبد أىّ صنم قبل الإسلام ، وكان ذلك نابعاً من اقتناع فِطْرى ، ومع ذلك جاءه النهى عن مثل تلك العبادة ، لماذا ؟

جاء الأمر بذلك النهى حتى نتبينَ الفرْق بين أمر العادة وأمر العبادة ، فقد علمنا أن رسول الله ﷺ لم يعبد الأصنام استجابةً لفطرته السليمة التى فطره الله وخلقه عليها ، وانتقل ذلك من إلْفِ الفطرة إلى التكليف العبادى .

﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ..(٥٦)﴾ [الأنعام]

لقد كانوا يدعُونَ الأصنام والأوثان ويعبدونها من دون الله ، ولو ناقشنا هذه المسألة فِطْرياً نجد سَخَفَ هذا اللون من التفكير ، لماذا ؟ لأن الأصنام حجارة كان يقوم بنحتها أهل الجاهلية ويعبدونها .

إذن : فهم قد خَلَقوا ما يعبدونه ، وهذا مُنَافٍ للفطرة ، لأن الكائن إنما يتجه بالعبادة إلى خالقه ، إن تحكيم الفطرة فى ذلك الأمر ينتهى إلى حكم واضح ، هو سَخَفَ هذا اللون من التفكير .

إذن : فمسألة عبادة المشركين للأصنام لا تنبع من هُدى ، ولكنها خضوع إلى هَوى ؛ لأن الهُدى هو الطريق الموصِّل للغاية المعتبرة ، والهوى هو خواطر النفس التى تُحقِّق شهوة .

يقول الحق سبحانه :

﴿قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ (٣٦)﴾

[الرعد]

أى : أننى سأعبد الله وحده ، ولن أعطف على عبادته شيئاً ، وسأدعو لعبادته وحده ، وذلك لأنه ﷺ يعلم أنه سيؤوب إليه ، كما سيؤوب إليه كُلُّ إنسان ، فلا أحدَ ينفلتُ من ربِّه وخالقه ، ولا بُدَّ لكل إنسان أن يعد عُدَّته لهذا المآب .

وقد جاء الحق سبحانه بدليل لا مراء[1] فيه ، وهو دليل قوىّ ، وهو أن الحق سبحانه وتعالى وحده هو المستحق للعبادة ، لأنه سبحانه (الذى يتوفاكم) ولا يوجد مَنْ يقدر أو يتأبَّى على قَدَرِ الله سبحانه حين يُميته .

يقول سبحانه :

﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٤٢)﴾

[الزمر]

فالحق سبحانه هنا يسند مسألة قَبْض الروح بالموت إلى الله عز وجل ، وفى آية أخرى ، يسندها لملَك واحد ، فيقول :

(١) المراء والمرية: الجدل والشك . وماراه يماريه : ناظره وجادله. قال تعالى : ﴿فَلا تُمَارِ فِيهِمْ إِلاَّ مِرَاءً ظَاهِرًا وَلا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا (٢٢)﴾ [الكهف] فلا تجادل أهل الكتاب فى شأن أهل الكهف إلا جدالاً واضحاً يسيراً .

﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ⑪﴾ [السجدة]

ومرة يسندها الحق سبحانه إلى رُسُل من المعاونين لملَك الموت :

﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ⑪⑥﴾ [الأنعام]

والحق سبحانه وتعالى صادق فى كل بلاغ عنه ؛ لأن كل أمر يحدد الأجل ليس بمراد الموكّل بإنهاء الأجل ، إنما هو بإذن من الله تعالى الذى يحدد ذلك[1] .

وما دام كل أمر قد صدر منه ، فهو سبحانه الذى يتوفّى الأنفس ، وبعد ذلك فالملَك الذى يتوفّى الأنفس - عزرائيل - له أعوان[2] ، فهو عندما يتلقى الأمر من الله فهو ينقل الأوامر إلى أعوانه ليباشر كل واحد مهمته .

إذن : فصيرورة الأمر بالموت نهائياً إلى الله ، وصيرورة الأمر بالموت إلى الملائكة ببلاغ من الله ، هذا هو الإذن ، والإذن يقتضى مَأذوناً ، والمأذون هم

---

(١) أورد ابن كثير فى تفسيره (٣/ ٤٥٨) عن جعفر بن محمد قال سمعت أبى يقول : نظر رسول الله ﷺ إلى ملك الموت عند رأس رجل من الأنصار فقال له النبى ﷺ : «يا ملك الموت ، ارفق بصاحبى فإنه مؤمن . فقال ملك الموت : يا محمد طب نفساً وقرّ عيناً فإنى بكل مؤمن رفيق ، والله يا محمد لو أنى أردت أن أقبض روح بعوضة ما قدرت على ذلك حتى يكون الله هو الآمر بقبضها» .

(٢) «سُمى ملك الموت فى بعض الآثار بعزرائيل وهو المشهور . قاله قتادة وغير واحد وله أعوان ، وهكذا ورد فى الحديث أن أعوانه ينتزعون الأرواح من سائر الجسد حتى إذا بلغت الحلقوم تناولها ملك الموت» قاله ابن كثير فى تفسيره (٣/ ٤٥٨) .

ملائكة الموت الذين أذن لهم مَلَكُ الموت بذلك ، وملَكُ الموت تلقّى الإذن من الله سبحانه وتعالى .

فإذا ما أطلق الحق سبحانه هذه الأساليبَ الثلاثةَ فى وَصْف عملية الوفاة ، فهو إيضاحٌ لمراحل الولاية التى صنعها الله ، فهو الآمر الأعلى يصدر الأمر إلى عزرائيل ، وعزرائيل يُطلق الأمر لجنوده .

ويأمر الحق سبحانه نبيه ﷺ ، فيقول :

﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا[1] وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُكَ وَلا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾﴾ [يونس]

وهذا الخطاب ليس مُوجّهاً لرسول الله ﷺ فقط ، ولكنه مُوجّه لكُلِّ مؤمن ، وإذا ما عبد المؤمن الله سبحانه فهو يستقبل أحكامه ، ولذلك يأتى الأمر هنا بألاَّ يلتفتَ وجه الإنسان المؤمن إلى غير الله تعالى ، فيقول الحق سبحانه :

﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا .. ﴿١٠٥﴾﴾ [يونس]

فلا يلتفت فى العبادة يميناً أو يساراً ، فما دام المؤمنُ يعبد الله ولا يعبد

(١) حنف : مال . قال تعالى : ﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ﴿١٣٥﴾﴾ [البقرة] أى : مائلاً إلى ملة إبراهيم عاطفاً عليها محباً لها، وقوله : ﴿حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ ﴿٣١﴾﴾ [الحج] أى : مائلين لله مطيعين له مؤمنين به محبين له .

غيره ، فليعلم المؤمن أن هناك ـ أيضاً ـ شِرْكاً خفياً ، كأن يعبدَ الإنسانُ مَنْ هم أقوى أو أغنى منه ، وغير ذلك من الأشخاص التى يُفْتَنُ بها الإنسان .

والمشرك من هؤلاء لحظةَ أنْ عبدَ الصنم ودعاه من دون الله تعالى فهل استجاب له ؟ وحين عبده هل قال الصنم له : افعل كذا ، ولا تفعل كذا .

إن الأصنام التى اتخذها المشركون آلهةً لم يكُنْ لها منهج ، ولا أحد منها ينفع أو يضر ، وحين يجىء النفع لا يعرف الصنم كيف يمنعه ، وحين يجىء الضُّر لا يقدر الصنم أنْ يدفعه .

إذن : فمَنْ يدعو من دون الله ـ سبحانه وتعالى ـ هو دعاء لمن لا ينفع ولا يضرّ .

ولذلك قال سبحانه :

﴿ وَلا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُكَ وَلا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ (١٠٦) ﴾ [يونس]

فالله ـ سبحانه وتعالى ـ خلق الناس ودعاهم إلى الإيمان به ، وأن يُحبوه ، لأنه يحبهم ويعطيهم ، ولا يأخذ منهم ، لأنه سبحانه فى غِنىً عن كل خَلْقه .

❑❑❑

(١٠) ... الهدى .. والضلال

الحق سبحانه غنىٌّ بذاته وصفاته وافعاله عن كل مخلوقاته ، فهو سبحانه لا يستفيد من خلقه ، بل الفائدة كلها لصنعته التي يريدها سعيدة ، فكل المنهج جاء لصالح الصنعة ، فالذى يهتدى فلنفسه ، ومن يضل فعليها .

يقول الحق سبحانه :

﴿مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَن يُضْلِلْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٧٨)﴾

[الأعراف]

ويقول الحق سبحانه فى موضع آخر :

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ (١٠٨)﴾ [يونس]

المعركة الخاصة بقضية الهداية والإضلال قائمةٌ من قديم ، ولا تزال أيضاً ذيول هذه المعركة موجودة إلى الآن ، وأوضحنا هذه القضية فى مواضعَ متعددة ، ولكننا نكررها للتأكيد ولتستقر فى الأذهان ، لأن هناك دائماً مَنْ يقول : إذا كان الله هو الهادى والمضلّ ، فلماذا يُعذِّبنى إنْ ضللْتُ ؟

وشاع هذا السؤال ، وأخذه المستشرقون والفلاسفة ، ويُراد منه إيجاد مُبرر للنفس العاصية غير الملتزمة ، ونقول لكل مجادل :

لماذا قصرْتَ الاعتراضَ على مسألة الضُّرِّ والعذاب إنْ ضللت ؟

ولماذا لا تذكر الثوابَ إنْ أحسنتَ وآمنتَ ؟

إن اقتصارك على الأولى دون الثانية دليلٌ على أن الهداية التى جاءت لك هى مكسب تركته ، وأخذت المسألة التى فيها ضرر ، ولا يقول ذلك إلا المسرفون على أنفسهم .

وهم قد ناقشوا مسألة «خَلْق أفعال العباد» ، وتساءلوا : مَنْ خلق هذه الأفعال؟ هل خلقها الله أم أن العبد يخلق أفعاله ؟ ونسأل : ما هو الفعل ؟

إنه توجيه طاقة لإحداث حدث ، فطاقة اليد أنها تعمل أىّ عمل تريده منها ، قد تضرب بها إنساناً ، أو تحمل بها إنساناً واقعاً على الأرض ، أو تُربِّت بها على اليتيم .

إذن : ففى اليد طاقة تصلح لأن تفعل الخير وتفعل الشر ، وأنت لحظةَ أنْ تضرب إنساناً ، فأىّ عضلة تحركها حين ترتفع اليد لتضرب ؟ إنك بمجرد رغبتك فى أن تضرب ، تضرب ، عكس الإنسان الآلى حين يرفع شيئاً ، فله أجزاء وأزرار تعمل ، وكلها آلات .

وأنت حين تُربِّت على كتف يتيم ، ما هى الأعضاء والأجهزة التى تُحركها لتعمل هذا العمل ؟

إذن : فالله هو الذى خلق فيك الانفعال للفعل ، فإنْ نظرتَ إلى ذلك ، فكلٌ فعل من الله ، ولكن توجيه الجارحة[1] إلى الفعل هو محلّ التكليف .

إذن : فأنت تُحاسَب لأنك فعلتَ ، لا لأنك خلقْتَ ؛ لأن خالق الأفعال هو الله سبحانه وتعالى ، وأنت تفعل بمجرد الإرادة والاختيار ، مثل اللسان فيه طاقة مخلوقة لبيان ما فى النفس ، إنْ أردتَ أن تقول «لا إله إلا الله» صَلُحَتْ ، وصَلُحَت كذلك عند الملحد أن يقول ـ والعياذ بالله ـ لا يوجد إله . واللسان لم يعْصِ فى هذه ولا فى تلك .

إذن : فالذى خلق قدرة الجارحة على الفعل هو الله ، وأنت تُوجّه الجارحة . إذن : فكلُّ الأفعال مخلوقة لله ، لكن توجيه الطاقة للفعل بالميل والاختيار إنما يكون من العبد .

والحق سبحانه وتعالى يهدى الجميع بالمنهج ، ومَنْ يُقبل عليه بنيّة الإيمان يُعينه على ذلك ، ولذلك لا يصح أن نختلف فى مسألة مثل هذه ، وأن نسأل مَنْ خلق الأفعال ، بل علينا أنْ نُحدِّد الأفعال وكيف تُوجد ، وما دَوْر الإنسان فيها ؛ لأننا نعلم أن الله قد يسلب طاقة الفعل على الأحداث ، مثل مَنْ يريد أن يؤذى إنساناً بيده ، لكنه يُصَاب بشلل فلا يقدر أن يرفعَ يده ، ولو كان هو الذى يخلق لرفع يده وآذى بها مَنْ أراد ، لكنه لا يخلق الطاقة الصانعة للفعل .

---

(١) جوارح الإنسان : أعضاؤه وعوامل جسده كيديه ورجليه ، واحدته جارحة ، لأنهن يجرحن الخير والشر أى يكسبنه . (لسان العرب ـ مادة : جرح) .

وعلى ذلك تكون الهداية نوعين : هداية دلالة ، وهداية معونة .

أما هداية الدلالة فهى للجميع ، للمؤمن والكافر ؛ لأن الحق سبحانه لم يدلّ المؤمن فقط ، بل يدلّ المؤمن والكافر على الإيمان به .

فمن يُقبل على الإيمان به سبحانه ، فإن الحقّ تبارك وتعالى يجد فيه أهلاً للمعونة ، فيهديه هداية المعونة ، فيأخذ بيده ويُعينه ، ويجعل الإيمانَ خفيفاً على قلبه ، ويعطى له طاقةً لفعل الخير ، ويشرح له صدره ، ويُيسِّر له أمره .

فمَنْ شاء له الله الهداية يعطيه الهداية ، ومَنْ شاء له الضلال زاده ضلالاً ، وقد بيّن سبحانه أن مَنْ شاء هدايته يهتدى ، وهذه معونة من الله ، والكافر لا يهتدى ، وكذلك الظالم والفاسق ؛ لأنه سبحانه قد ترك كل واحد منهم لاختياره ، وهكذا يمنع سبحانه وتعالى عنهم هداية المعونة .

ويقول الحق سبحانه مُوضِّحاً هذه المسألة :

﴿وَأَمَّا ثَمُودُ(1) فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ ..(17)﴾ [فصلت]

فالهداية التى كانت لقوم ثمود إنما هى هداية الدلالة ، وليست هداية المعونة.

فهداية الدلالة هى الهداية العامة ، وهى أساس البلاغ عن الله ، فقد بيّن لنا الله تبارك وتعالى فى منهجه بافعل ولا تفعل ما يُرضيه وما يُغضبه ، وأوضح لنا

(1) ثمود : قبيلة من العرب الأُوَل . ويقال : إنهم من بقية عاد ، وهم قوم صالح عليه السلام ، بعثه الله إليهم ، وهو نبى عربى . (لسان العرب ـ مادة : ثمد) .

الطريق الذى نتبعه لنهتدى ، والطريق الذى لو سلكناه حقّ علينا غضبُ الله وسَخَطه .

ولكن ، هل كل مَنْ بيّن له الله سبحانه وتعالى طريق الهداية اهتدى ؟

نقول : لا ، فهناك مَنْ لا يأخذ طريق الهداية بالاختيار الذى أعطاه الله له ، فلو أن الله سبحانه وتعالى أرادنا جميعاً مَهْديين ما استطاع واحد من خَلْقه أنْ يخرجَ على مشيئته(١) .

ولكنه جَلَّ جلاله خلقنا مختارين لنأتيه عن حُبٍّ ورغبة ، بدلاً من أن يقهرنا على الطاعة .

ما الذى يحدث للذين اتبعوا طريقَ الهداية ، والذين لم يتبعوه وخالفوا مُرَاد الله الشرعى فى كَوْنه ؟

الذين اتبعوا طريق الهداية يُعينهم الله سبحانه وتعالى ، ويُحبِّبهم فى الإيمان والتقوى ، ويُحبِّبهم فى طاعته ، واقرأ قوله تبارك وتعالى:

﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (١٧)﴾ [محمد]

أى : أن كُلَّ مَنْ يتخذ طريق الهداية يُعينه الله عليه ، ويزيده تقوى وحُباً فى الدين ، فمَنْ ذهب إلى رِحَابه وآمن به أعطاه الله هداية ثانية .

---

(١) يقول تعالى: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ (١٤٩)﴾ [الأنعام] ويقول أيضاً: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ (٩)﴾ [النحل] .

إن الحق سبحانه يعطيهم حلاوة الهداية ، وهى التقوى ، كأن الحق سبحانه يقول للعبد المؤمن : مَا دُمْتَ قد أقبلتَ علىّ بالإيمان فَلكَ حلاوة الإيمان .

فإذا امتثل المؤمنُ لمنهج الله وأطاعه ، فالحقُّ - عَزّ وجَلَّ - يشرح صدره بذلك ، ويُحبِّب الطاعة إليه ، فيزداد طاعةً .

أما الذين إذا جاءهم الهدى ابتعدوا عن منهج الله وخالفوه ، فإن الله تبارك وتعالى يتخلّى عنهم ويتركهم فى ضلالهم وغيّهم وكفرهم .

أى : أنه ما دام هناك مَنْ لم يؤمن بالله فهل يُمسِك الله بيده ليهديه هداية المعونة ؟

لا ، لأنه إذا لم يؤمن بالأصل وهو هداية الدلالة ، فكيف يمنحه الله هداية المعونة ؟

وما دام لم يؤمن بالله ، أكان يُصدِّق التيسيرات التى يمنحها الله له ؟

والحق سبحانه قد بيّن لنا المحرومين من هداية المعونة على الإيمان ، وهم ثلاثة ، كما بيّنهم لنا فى القرآن :

﴿وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (١٠٧)﴾ [النحل]

﴿وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (١٠٨)﴾ [المائدة]

﴿وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٢٥٨)﴾ [البقرة]

إذن : فالمطرودون من هداية الله فى المعونة على الإيمان ثلاثة ، هم :

- الكافرون .

- الفاسقون .

- الظالمون .

* أما الكافر فعدم هداية الله له لم تنصبّ عليه كإنسان ؛ لأن كُفْره سبق عدم هدايته ، فهو لم يكفر لأن الله لم يَهْده ، وإنما الله لم يَهْده لأنه كافر ، فكُفْره سابق على عدم هدايته .

ولذلك قال تعالى عنهم :

﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ[1] اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (١٠٨) ﴾ [النحل]

ومعنى أن الله تعالى طبع على قلوبهم أن ما فيها من الكفر لا يخرج ، وما هو خارجها من الإيمان لا يدخل.

فسبحانه وتعالى - إذن - هو الذى طبع على قلوبهم ، ولكن بعد أن ملأوا قلوبهم بالكفر ونافقوا[2]، وهم الذين تسببوا بهذا الطبع لأنفسهم ، بعد أنْ

(١) طبع الله على قلبه: ختم. ويقال: طبع الله على قلوب الكافرين، أى: ختم فلا يعى وغطّى ولا يُوفّق لخير. قال أبو إسحاق النحوى: معنى طبع فى اللغة وختم واحد، وهو التغطية على الشىء والاستيثاق من أن يدخله شىء . (لسان العرب - مادة : طبع) .

(٢) سمى المنافق منافقاً للنفق وهو السرب فى الأرض. وقيل: إنما سمى منافقاً لأنه نافق كاليربوع وهو دخوله نافقاءه. والنفاق: الدخول فى الإسلام من وجه والخروج عنه من آخر. وإظهار غير ما فى الباطن. (لسان العرب - مادة : نفق) .

بدأوا بالكفر ، فطبع الحق سبحانه وتعالى على قلوبهم بما فيها من مرض ، ولو لم يبدأوا بالكفر لما طبع الله على قلوبهم .

وساعة يُنسب الطبع إلى الله يكون أقوى طَبْع على القلوب ، ويأتى الطبع من الله سبحانه وتعالى كَحُكْم نهائى من أن الله قضى عليهم به ، فلا يخرج من قلوبهم ولو كان قَدْراً ضئيلاً من النفاق ، ولا تغادر قلوبهم ذرّة من كفر ، ولا يتسرب إلى قلوبهم ذرة من إيمان ؛ لأنهم لا يعلمون قَدْر الإيمان الحق .

فما دام الكافر قد أعجبه كفر قلبه ، فالحق سبحانه يختم على قلبه ، تماماً كما تختم الشيء بالشمع الأحمر ، فلا ينفتح قلبه للإيمان ، وستظل قلوبهم محتفظة بالكفر .

ولكن .. لماذا يختم ويطبع الله جَلَّ جلاله على قلوبهم؟

لأن القلب هو مكان العقائد ، ولذلك فإن القضية تُناقَش فى العقل ، فإذا انتهت مناقشتها واقتنع بها الإنسان تماماً فإنها تستقر فى القلب ، ولا تعود إلى الذهن مرة أخرى ، وتصبح عقيدة وإيماناً .

والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [الحج]

وإذا عَمِى القلب عن قضية الإيمان ، فلا عَيْنٌ ترى آياتِ الإيمان ، ولا أذنٌ تسمع كلام الله .

وقد قال الحق سبحانه :

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٦) خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ[١] وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٧)﴾ [البقرة]

ونقول: أهي القلوب خُلقت غلفاً.. أي: أن القلوب خُلقَتْ مختُوماً عليها بحيث لا يدخلها هُدًى ولا يخرج منها ضلال ، أم أنتم الذين فعلتم الخَتْم وأنتم الذين صنعتُم الغلاف والخَتْم؟

وسبحانه أوضح فى آيتى سورة البقرة أنه جَلَّ وعلاَ الذى ختم على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ، فالخَتْم على القلب حتى لا يتعرفوا إلى الدليل ؛ لأن القلبَ محلُّ الأدلة واليقين والعقائد .

والخَتْم على الأسماع والأبصار هو الخَتْم على آلاتِ إدراك الدلائل البينات على وجود الحقّ الأعلى ، فمقرّ العقائد مختومٌ عليه وهو القلب ، ومضروب على الآذان وعلى البصر غشاوة ، فهل هذا كائنٌ بطبيعة تكوين هؤلاء ؟

لا ، لأنه إذا كان هذا بطبيعة التكوين ، فلماذا خَصَّهم الله بذلك التكوين ؟ ولماذا لم يكُنِ الذين اهتدوا مختوماً لا على قلوبهم ، ولا على أسماعهم ، ولا على أبصارهم ؟

غير أن الواحد منهم يُبرّر لنفسه وللآخرين انحرافه وإسرافه على نفسه

(١) الغشاء والغشاوة: الغطاء . والغشاوة: ما غشى القلب من الطبع. وغشّاه تغشية إذا غطاه . (لسان العرب ـ مادة : غشى) .

بالقول «خلقنى الله هكذا»(١).

وهذا قول مُزيَّف وكاذب ؛ لأن صاحبه إنما يكفر أولاً ، فلما كفر وانصرف عن الحق تركه الله على حاله ؛ لأن الله أغنى الشركـاء عن الشرك ، فمن اتخذ مع الله شريكاً فهو للشريك وليس لله.

إذن : فالخَتْم جاء كنتيجة للكفر.. فهم إذن سبقوا بالكفر فلم يَهْدِهم الله .

ـ أما الفاسقون فقد قال عنهم الحق سبحانه :

﴿وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (١٠٨)﴾ [المائدة]

والفسق هو الخروج عن الطاعة ، وهى مـأخوذة من الرُّطَبَة ، فالبلح قبل أن يصبح رُطَباً لا تـستطيع أن تنـزع قشـرته ، ولكن عندمـا يصـبح رُطَباً تجـد أن القشرة تبتـعد عن الثمرة ، فيقال: فسـقتِ الرُّطبة ، ولذلك مَنْ يخرج عن منهج الله يُقال له : فاسق . .

فهـو ينسلخ عن منهج الله بسـهولة ويُسْـر ، لأنه غيـر ملتصق به ، وعنـدما تبتـعد عن منهج الله فإنك لا ترتبط بأوامـره ونواهيه ، فلا تُؤدِّى الصلاة مـثلاً ، وتفعل ما نهى الله عنه لأنك فسقْتَ عن دينه .

والذى أوجد الفِسْق هو أن الإنسان خُلِق مُخْتاراً ، قادراً على أن يفعل أو لا يفعل ، وبهـذا الاختـيار أفسـد الإنسانُ نظامَ الكون ، فكلُّ شىء لـيس للإنسان

(١) وذلك مثل قول المشركين الذى حكاه رب العزة سبحانه : ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلا آبَاؤُنَا وَلا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ.. (١٤٨)﴾ [الأنعام] .

اختيار فيه تراه يؤدى مهمته بدقة عالية كالشمس والقمر والنجوم والأرض .

كلها تتبع نظاماً دقيقاً لا يختلُّ لأنها مقهورة ، ولو أن الإنسان لم يُخْلَق مختاراً لكان من المستحيل أن يفسُقَ ، وأن يبتعد عن منهج الله ويُفسِد فى الأرض ، ولكن هذا الاختيار هو أساس الفساد كله .

والحق سبحانه يقول :

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٨٠﴾﴾ [التوبة]

وحين ينفى الحق سبحانه الهداية عن الفاسق ، فليس معنى هذا أنْ يقولَ الفاسق : الله لم يَهْدِنى فماذا أفعل؟ ويُحمّل المسألة كلها لله ، بل نسأل الفاسق : لماذا لم يَهْدِك؟ لأنك فسقتَ.

إذنْ : فعدم الهداية من الله لك كان بسبب أنك أخذتَ طريق الفِسْق والبُعْد عن منهج الله ، ومن هنا فالهداية المقصودة فى هذه الآية ، ليستْ هى الهداية بمعنى الدلالة على طريق الخير ؛ لأن الدلالة إلى طريق الخير تأتى من الله للمؤمن والكافر .

* أما الظالمون ، فقد قال الحق سبحانه :

﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [آل عمران]

فهؤلاء ارتكبوا الظلم الأصيل ، وهو الشرك بالله ، والحق سبحانه عندما يتركهم فإنه يزيدهم ضلالاً ، ويختم على قلوبهم ، فلا يعرفون طريقاً إلى الإيمان.

لقد جاءهم الرسول بالآيات الدّالة على صِدْق رسالته ، ولكنهم ظلموا أنفسهم الظلم الكبير العظيم ، وهو الشرك بالله.

فأعلى مراتب الظلم هو الشرك بالله ، وهو الظلم العظيم ، ذلك أن الإنسانَ حين يظلم إنساناً آخر ويأخذ منه شيئاً ليعطيه لآخر ، فهل هناك إنسانٌ يقدر على أنْ يأخذَ من الله شيئاً ؟

لا ، فالإنسان لا يستطيع أن يظلم الله ، لكنه ينال عقوبة الشرك ، وهذا ظُلْم خائبٌ للنفس ، والذى يشرك بالله لا يأخذ إلا الخسار ، وذلك هو كل الخيبة .

لأن الظلم حينما يحقق للظالم نَفْعاً فهو ظُلْم هيّن ، ولكن الظلم العظيم هو أن يشرك إنسان بالله ، ولا يأخذ إلا العقاب الصارم ، فإذا كان المشرك يتأبّى على منهج الله فى الأشياء ، فهل يجرؤ على أن يتأبّى على قَدَريات الله غير الاختيارية فيه ، كالموت مثلاً ؟

والحق يأمر الإنسان بالإيمان ، ومتعلقات الإيمان من شهادة بوحدانيته ، وإيمان برسله وكتبه واليوم الآخر ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت مَنِ استطاع إليه سبيلاً .

والمشرك يتأبّى على الإيمان والتكاليف ، فهل يجرؤ على التأبِّي على المرض أو الموت ؟

لذلك فهو يظلم نفسه ظُلْماً خائباً ، والحق سبحانه لا يهديه ؛ لأن معنى الهداية هو أنْ يجد الإنسانُ مَنْ يدلُّه على الطريق الموصِّل للغاية ، فهداه أى دلّه على الطريق الموصِّل للغاية .

ولا يتجنّى سبحانه على خَلْقه فلا يهديهم ، بل الذين ظلموا أنفسهم ولم يؤمنوا هم الذين لا ينالون عناية الحق سبحانه وتعالى باختيارهم .

فالحقُّ تبارك وتعالى ينفى ما يستوجب الهداية عَمَّنْ ظلم أو فسق أو كفر؛ لأن الحق سبحانه لا يهدى مَنْ قدّم الكفر ، أو قدّم الظلم ، أو قدّم الفسْق .

فكأن الكافر أو الظالم أو الفاسق هو الذى يمنع الهداية عن نفسه ، ولو قدَّم الإنسانُ الإيمانَ لدخلَ فى هداية الله تعالى ، فكأن خروج الإنسان عن مشيئة هداية الله هى مسألة من عمل الإنسان وباختياره .

فقد يختار الإنسانُ طريقَ الغواية ، ويترك طريق الهداية ؛ لذلك لا يهديه الله ؛ لأنه سبحانه لا يهدى إلا المؤمن به ، وإن اختار الإنسان طريق الهداية فالحق سبحانه يعطيه المزيد من الهدى ، لأنه آمنَ بالله ، فاختار طريق الهداية ، واستقبل منهج الله بالرِّضى .

وهكذا نفهم قَوْل الحق تبارك وتعالى :

﴿فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ۝٨﴾ [فاطر]

فالذين يقـرأون القرآن لِفَهْم قـضية الهـداية عليهم أن يستـقرئوا كُلّ الآيات المتعلقة بالموضوع .

فسبحانه وتعالى قد أوضح أنه لا يهدى الكافر ، إذنْ: فهو يهدى المؤمن .

وأوضح أنه لا يهدى الظالم . إذن : فهو يهدى العادل .

وأوضح أنه جَلَّ وعلاَ لا يهدى الفاسق. إذن: فهو يهدى الطائع.

فـلا يقولَنَّ أحـد: إن الله لم يَشَأْ أنْ يهـدينى ؛ لأن هذا فَـهْم خاطئ لمـعنى الهـدايـة من الله ، فـسبـحانـه وتعـالى قـد بيَّن لنا مَنْ شـاء هدايته ، ومَنْ شـاء إضلاله .

وهو سبحانه يهدى مَنْ قدَّم أسباب الهداية ، وأسلم مقاليد زمامه للإيمان .

والله سبحانه وتعالى يقول :

﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا[1] كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ[2] عَلَى الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ (١٢٥)﴾ [الأنعام]

وهذه هداية المـعـونة ، وهى للذى آمن ، ويصـبح أَهْلاً لمـعـونة الله ، بأن

(١) حرج صـدره : ضاق فلم ينشـرح لخير . والحـرج فى اللغة: أضيق الضـيق ، ومعناه أنه ضـيق جداً. (لسان العرب ـ مادة : حرج) .

(٢) الرجس: يُعبر به عن الحرام والفعل القبيح والعذاب واللعنة والكفر.(لسان العرب ـ مادة: رجس).

يُخفِّف عنه أعباء التكاليف ويُيسرها له ، ويجعله يعشق كل الأوامر ويعشق البُغْض والتجافى عن كل النواهى .

يقول بعض الصالحين :

«اللهم إنِّى أخاف ألاَّ تثيبنى على الطاعة ، لأنِّى أصبحتُ أشتهيها » .

كأنه عَشِق الطاعة بحيث لم يَعُدْ يجد فيها مشقة أو تكليفاً ؛ لذلك فهو خائف . وكأنه قد فهم أنه لا بُدَّ أن تُوجد مشقة .

ولمثل هذا الإنسان الصالح أقول :

لقد فقدتَ الإحساس بمشقة التكليف ؛ لأنك عشقتَه ، فألِفْتَ العبادة كما ألفتْكَ وعشقتْكَ ، وحدثَ الانجذاب بينك وبين الطاعة . وجعلت رسول الله ﷺ مثلاً لك وقُدْوة ، فقد كان ﷺ يرى أنه إذا نُودِى إلى الصلاة يقوم الناس إليها كُسَالى ، لكنه ﷺ يقول لبلال حينما يأتى وقت الصلاة :

«أرحنا بها يا بلال» (1).

وهذا غير ما يقوله بعضٌ مِمَّنْ يؤدون الصلاة الآن ، حيث يقول الواحد منهم : هيَّا نُصلِّى لِنُزيحها من على ظهورنا ، وهؤلاء يُؤدُّونها بالتكليف لا بالمحبة والعشق .

أما الذين أَلِفُوا الراحة بالصلاة حينما يحزُبهم ويشتدّ عليهم أمر خارج عن

(1) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٥/ ٣٦٤) وأبو داود فى سننه (٤٩٨٥) عن رجل من الصحابة .

نطاق أسبابهم. فيقول الواحد منهم : ما دامت الصلاةُ تُريح القلب فلأذهب إليها وألْقى ربى زائداً على أمر تكليفه لى مُتقرِّباً إليه بالنوافل .

ولذلك كان رسول الله ﷺ إذا حَزَبه أمر قام إلى الصلاة [1]، ومعنى حَزَبه أن الأسباب البشرية لا تنهض به ، فيقوم إلى الصلاة ، وهذا أمر منطقىّ ، ولله المثَلُ الأعلى .

إذن: فعشْق التكليف شىءٌ يدلُّ على أنك ذُقْتَ حلاوة الطاعة ، أى : يصبح مَا يشتهيه مُوافِقاً لمنهج الله ، فإذا وصل وانتهى المؤمن إلى هذه المنزلة فهو نعْم العبد السوىّ .

إذن: فمعنى قوله تعالى :

﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ.. ﴿١٢٥﴾﴾ [الأنعام]

أى : يجعل الأمور التى يظن بعضٌ من الناس أنها مُتعِبة ، فإنه بإقباله عليها وعِشْقه لها يجدها مريحة ، ويُقبِل عليها بشوق وخشوع .

إذن: فالحق سبحانه قد هدى المؤمن والكافر إلى طريق الإيمان ، فَمَن اتخذ طريق الإيمان أعانه الله تعالى عليه ، ومَن اتخذ طريق الكفر ـ والعياذ بالله ـ تركه الله يُعانى ويضلّ .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

---

(١) عن حذيفة بن اليمان رضى الله عنه قال : « كان النبى ﷺ إذا حزبه أمر صلى » أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٥/ ٣٨٨) وأبو داود فى سننه (١٣١٩).

﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً(1) ضَنكًا .. (124)﴾ [طه]

أى : أن حياته تمتلئ بالهموم والمشاكل ، لأنه يخالف منهج الله ، وإذا لم تنشأ المشاكل مع المخالفات لَقَال الناس : خالفنا منهج الله وفلحنا ، ولذلك كان لابُدّ أن تُوجد المشاكل لتنبهنا أن منهج الله يجب أنْ يُسيِّطر .

والحق سبحانه وتعالى أنزل لنا المنهج القويم ليجعل حركة حياتنا مُتسَاندة ، فإن اتبعنا المنهج صِرْنا نأخذ الأوامر من إله واحد ، وصار كل منّا مُكلّفاً بالتعاون مع غيره ، وهذا لن يحدث إلا إذا استجبنا لما يدعونا الله إليه تشريعاً والرسول بلاغاً ، وبهذا تتساند الحياة ، وتصبح حياة لها طعم ، وينطبق عليها قول الحق تبارك وتعالى :

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (97)﴾ [النحل]

فالذى يُقيِّد حركته بمنهج الله يأخذ اطمئناناً فى الدنيا ونعيماً مُقيماً لا يزول ولا ينتهى فى الآخرة ، فالحياة الطيبة فى الدنيا وعدم الضلال والشقاء مُتحقِّقان لمن اتبعَ منهج الله تعالى .

ولذلك يقول تعالى :

﴿فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ .. (108)﴾ [يونس]

---

(1) المعيشة الضنك: الضيقة. وكل عيش من غير حلّ ضنك وإن كان واسعاً. وقال أبو إسحاق: الضنك أصله فى اللغة الضيق والشدة. (لسان العرب ـ مادة : ضنك) .

لأن حصيلة هدايته لا تعود على مَنْ خَلَقه وهداه ، بل تعود عليه هو نفسه انسجاماً مع الكون ، وإصلاحاً لذات النفس ، وراحةَ بال واطمئناناً ، وانتباهاً لتعمير الكون بما لا يفسد فيه.

ويقول الحق سبحانه عن فريضة الحج :

﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (٩٧)﴾ [آل عمران]

وقد يقول قائل : ولماذا لم يقل الله : ومن كفر فإن الله غنى عنه؟ وقال:

﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (٩٧)﴾ [آل عمران]

ونقول : إن الله غنيّ عن كل مخلوقاته ، وإياك أنْ تفهمَ أن الذى لم يكفر وآمن ، وأدَّى ما عليه من تكليف ، أنه عمل منفعةً لله .

إن الله غنيّ عن الذى أدَّى ، وعن الذى لم يُؤدِّ ، إياك أن تظن أن مَنْ أدّى قد صنع لله معروفاً ، أو قدّم لله يَدًا[1]، فإن الله غنى عَمَّن لا يفعل ، وعمّن يفعل .

فأمْر الله لك بافعل كذا ولا تفعل كذا إنما يريد تعالى صلاح نفسك فى ذاتها ، فهو لن يستفيد منك شيئاً ، فأنت إنْ صلحت أو عصيت فلن تزيد أو تنقص من مُلْك الله تعالى شيئاً .

---

(١) اليد هنا بمعنى الفضل والنعمة .

فالحق سبحانه لا يستفيد من خلقه ، بل الفائدة كلها لصنعته التى يريدها سعيدة ، فكل المنهج جاء لصالح الصنعة ، فالذى يهتدى فلنفسه ، ومن يضل فعليها .

ولذلك قال تعالى :

﴿إِنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ (٤١)﴾ [الزمر]

❑❑❑

(١١) ... زلزلة الساعة

اليوم العظيم ، يوم الدين ، يوم القيامة ، يوم يقوم الناس لرب العالمين ، يوم تُرَجّ الأرض رجًا ، ذلك يوم الحساب الذى يحتاج من البشر وقفة بل وقفات مع أنفسهم لتتحقق تقوى الله والخشية منه ، باتباع منهجه سبحانه .

يقول الحق سبحانه :

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (١) يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ[1] كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ (٢)﴾ [الحج]

فالأرض ستتزلزل وترتج يوم القيامة بصورة رهيبة لم يعرفها أحد من قبل، ويعطى الله فى كونه من كونيات الحياة ما يثبت صدق هذا الفزع ، فيجعل الأرض تُحدِث نوعاً من الزلزال ، فتُهدم بيوت وبلاد ، ويموت الناس ، ويحدث الفزع بين الناس.

هذه الأشياء جعلها الله لتنبهنا إلى أن للكون إلهاً مدبراً وخالقاً قادراً على إهلاك الناس فى لحظات .

والزلزلة هى الحركة الشديدة التى تُخرِج الأشياء عن ثباتها ، وتزيلها عن

---

(١) ذهل يذهل : غفل عنه . وهو كناية عن شدة الهول والفزع .

مواقعها . والحق سبحانه تكلم عن هذه الحركة المضطربة للأرض كثيراً فى مثل قوله تعالى :

﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ۝١ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝٢ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ۝٣ إِذَا رُجَّتِ الأَرْضُ رَجًّا ۝٤ وَبُسَّتِ(١) الْجِبَالُ بَسًّا ۝٥ فَكَانَتْ هَبَاءً مُّنبَثًّا ۝٦﴾ [الواقعة]

وفى آية أخرى يقول الحق سبحانه :

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١ وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ(٢) أَثْقَالَهَا ۝٢ وَقَالَ الإِنسَانُ مَا لَهَا ۝٣﴾

[الزلزلة]

ومن العجيب أن الحيوان الأعجم يشعر بالزلزال قبل وقوعه ، بينما الإنسان السيد رغم علمه وتقدمه لم يصل إلى ما أعطاه الله للحيوان فى هذا المجال .

ولذلك - فى زلزال أغادير الشهير - وجدوا أن الحمير أخذت فى النهيق وخرجت إلى الخلاء قبل حدوث الزلزال بساعة ، فأى إعلام أخبر هذه الحيوانات بما سيقع من دمار وموت وخراب؟

كل هذا يُذكِّرنا أن الحق سبحانه سخر لنا هذا الكون بقدرته وإرادته ، ولو أراد أن يهلكنا بعذاب من عنده ، فما أيسر هذا عليه سبحانه ، ولكن رحمته هى التى تجعله يمهلنا ويسامحنا ويعفو عنا رغم المعاصى والذنوب مع أنه قادر علينا .

---

(١) بسَّه : فتَّه وجعله أجزاء دقيقة . أى : أن الجبال فتتت تفتيتًا شديدًا .

(٢) قال ابن كثير فى تفسيره (٤/ ٥٣٩) : « يعنى : ألقت ما فيها من الموتى . قاله غير واحد من السلف».

وقد افتتح الحق سبحانه سورة الحج بقوله تعالى :

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ①﴾ [الحج]

وقال قبلها فى سورة الأنبياء :

﴿وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ ⑨⑦﴾ [الأنبياء]

فجاء بذكر هذا الوعد الحق ، وهو قيام الساعة ، وما يصاحبها من أهوال .

وقلنا: إن الزلزلة هى تحرُّك الأشياء حركة تخلخلها عن أمكنتها ، والزلازل التى نراها فى الدنيا تعطينا صورة مصغرة عما يمكن أن يحدث فى الكون .

فالأرض تكون مستقرة ، والقيامة لم تقم بعد ، ثم تهتز الأرض فجأة فتبتلع قرى بأكملها وتدمر مدناً عن آخرها ، فهذا معناه أن الحق سبحانه وتعالى يرينا صورة من قدرته على زلزلة الأشياء الثابتة .

كما أن البراكين وما تقذف به من حمم قادمة من باطن الأرض تعطينا صورة مصغرة لقول الله تعالى :

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا ① وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا ②﴾ [الزلزلة]

فنرى أشياء عجيبة تخرج من باطن الأرض من معادن وصخور وغير ذلك لما خلقه الله فى باطن الأرض من نِعَم .

وقد لفتنا الحق سبحانه إلى انتظام الكون ، فيقول تعالى :

﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ⑥ وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ⑦ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ⑧ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ

الْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ [(١)] لَهَا طَلْعٌ [(٢)] نَضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ ﴿١١﴾﴾ [ق]

وفى لحظة من اللحظات يأمر الحق سبحانه كونه فيختل نظامه ، فترى الأرض المستقرة وقد تزلزلت ، فهو سبحانه الذى يملكها ، فيجعلها تضطرب ويُحدث فى موقع منها زلزالاً ، فتندثر المبانى التى عليه حتى تفهم أن الدنيا ليست محكومة حكماً آلياً ، بل محكومة بالأسباب ، وزمامها ما زال فى قيومية المسبب .

وهذا لَفْتٌ من الله لنا يوضح : لقد صنعتُ هذه القوانين بقدرتى ، ولن تخرج هذه القوانين عن طلاقة قدرتى .

ويقول الحق سبحانه :

﴿وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ ﴿١٥﴾﴾ [النحل]

هذه الرواسى لتثبيت الأرض ، وإلا فلو أن الأرض مخلوقة على هيئة الثبات ، هل كانت تحتاج إلى مثبتات ؟

ولكن لا بُدّ أنها متحركة ومُعرّضة للاضطراب ، فخلق لها الله هذه المثقلات ، فهى مثبتة فى الأرض مثل الوتد ، حتى لا تضطرب .

والحق سبحانه يقول عن الأرض والجبال:

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ﴿٦﴾ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾﴾ [النبأ]

(١) بسقت النخلة بسوقاً: طالت. قال تعالى : ﴿ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ ﴿١٠﴾ ﴾[ق] أى : طويلات عاليات. [القاموس القويم ١/ ٦٧].

(٢)نضد الشىء: جعل بعضه فوق بعض ، أو بجانب بعض فى نظام فهو منضود ونضيد أى: مرصوص بنظام. [القاموس القويم ٢/ ٢٧١].

معنى ذلك أن الجبال لها صلة بتثبيت الأرض ، فلو أن الأرض مخلوقة على هيئة الثبوت والاستقرار ، فلماذا كانت تميد أو تضطرب؟

معنى ذلك أنها عُرْضة للحركة والاضطراب ، ولذلك خلقنا الجبال الرواسى ، وقد وقف العلماء عند كلمة «أوتاد» ليقولوا : إنها مُثَبِّتات ، لكن التشبيه هنا لايعطى أنها مُثَبِّتات فقط ، لماذا؟

لأن الوتد ، معروف لكل إنسان عاش بين مَن استقبلوا القرآن أولاً ، فبيوتهم كانت من الشَّعر ، والأوتاد أدوات تثبيت لهذه البيوت ، فلو لم تثبت الخيام بالأوتاد ، فإن العُمد لا تكفى للتثبيت.

أما الأوتاد فإنها تختلف ، ففى النواحى أقوى ، والتى فى الجوانب تكون أقلَّ فى القوة ؛ ولذلك نرى جبالاً عالية ، وجبالاً أقلّ علواً ، وهكذا.

وقد شاء الحق سبحانه أن يخلق فى الأرض الرواسى ، لتجعلها تبدو ثابتة غير مُقلقة ، والراسى هو الذى يثبت ، ولو كانت الأرض مخلوقة على هيئة الاستقرار لما خَلَق الله الجبال ، ولكنه خلق الأرض على هيئة الحركة ، ومنع أنْ تميدَ بخَلْق الجبال ليجعل الجبال رواسى للأرض.

ولذلك امتنَّ الحق سبحانه على عباده بجَعْل الأرض مستقرة بالجبال ، فقال تعالى: ﴿**أَمَّن جَعَلَ الأَرْضَ قَرَارًا** (٦١)﴾[النمل] ، فقد خلق الله الأرض على هيئة مريحة تصلح لأنْ يستقر عليها الإنسان.

ويقول فى آية أخرى: ﴿**اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ قَرَارًا** (٦٤)﴾ [غافر]

والحق سبحانه يقول هنا:

﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ** (١)﴾ [الحج]

فالخطاب هنا عامٌّ للناس جميعاً ، يريد أنْ يلفتهم إلى قوة الإيمان ، وتقوى الله ، بأنْ يجعلوا بينهم وبين أَمْر الله بزلزلة الساعة وقاية ، فتقيك العذاب الذى لا طاقة لك به.

والزلزلة: هى الحركة العنيفة الشديدة ، كما لو أردتَ أنْ تخلعَ وتداً من الأرض ، فعليك أولاً أنْ تهزه وتُخلخله من مكانه ، حتى تجعل له مجالاً فى الأرض يخرج منه ، إنما لو حاولتَ جَذْبه بداية فسوف تجد مجهوداً ومشقة فى خَلْعه ، وكذلك يفعل الطبيب فى خَلْع الضرس.

فمعنى الزلزلة: الحركة الشديدة التى تزيل الأشياء عن أماكنها .

والحق سبحانه وتعالى تكلم عن هذه الحركة كثيراً ، فقال: ﴿إِذَا رُجَّتِ الأَرْضُ رَجًّا (٤) وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا (٥) فَكَانَتْ هَبَاءً مُّنبَثًّا (٦)﴾ [الواقعة]

وقال تبارك وتعالى:

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا (١) وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا (٢) وَقَالَ الإِنسَانُ مَا لَهَا (٣) يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا (٤) بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا (٥)﴾ [الزلزلة]

فالزلزال هنا ليس زلزالاً كالذى نراه من هزَّات أرضية تهدم بعض البيوت ، أو حتى تبتلع بعض القرى ، فهذه مجرد آيات كونية تثبت صِدْق البلاغ عن الله وتُنبِّهك إلى الزلزال الكبير فى الآخرة ، إنه صورة مصغرة لما سيحدث فى الآخرة ، حتى لا نغترّ بسيادتنا فى الدنيا ، فإن السيادة هِبَة لنا من الله.

فليس هذا زلزالاً عاماً ، إنما هو زلزال مخصوص منسوب إلى الأرض بوحى من الله ، وبأمر منه سبحانه أنْ تتزلزل.

لذلك وُصِف هذا الزلزال بأنه شيء عظيم: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ

(١)﴾ {الحج} فحين تقول أنت أيها الإنسان: هذا شيء عظيم ، فهو عظيم بمقياسك أنت ، أما العظيم هنا فعظيم بمقاييس الحق سبحانه ، فلكَ أنْ تتصورَّ فظاعة زلزال وصفه الله سبحانه بأنه عظيم.

وإذا كان الحق سبحانه قد قال في سورة الأنبياء:

﴿وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ(٩٧)﴾ {الأنبياء}

فلا بُدَّ أنْ يعطينا هنا صورة لهذا الوعد ، ونُبذة عما سيحدث فيه ، وصورة مُصغَّرة تدلُّ على قدرته تعالى على زلزال الآخرة ، وأن الأرض ليس لها قِوَام بذاتها ، إنما قوامها بأمر الله وقدرته ، فإذا أراد لها أنْ تزول زالتْ.

فإذا أراد الله زوال الأرض وانتهاء الكون وتحقُّق زلزلة الساعة نسف اللهُ سبحانه الجبال نسفاً ؛ لذلك قال تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا (١٠٥)﴾ {طه}

أي: نُفتِّتها ونذروها في الهواء ، وقد يتصوَّر البعض أن الجبال تُهدُّ وتتحول إلى كتل صخرية ، كما نُفجِّر نحن الصخور الآن إلى قطع كبيرة ؛ لذلك أكّد على النَّسْف ، وأن الجبال ستكون ذرات تتطاير.

لذلك قال في آية آخرى: ﴿ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ (٥)﴾{القارعة}

أي: كالصوف المندوف.

وفي آية أخرى يقول تعالى :

﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا (٤٧) ﴾ {الكهف}

أي: اذكر جيداً يوم نُسيِّر الجبال وتنتهي هذه الدنيا ، واعمل الباقيات

الصالحات لأننا سنسيِّر الجبال التى تراها ثابتة راسخة تتوارث الأجيال حجمها وجرْمها ، وقُوَّتها وصلابتها ، وهى باقية على حالها.

ومعنى تسيير الجبال: إزالتها عن أماكنها ، كما قال فى آية أخرى: ﴿**وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا** (٢٠)﴾[**النبأ**] ، وقال فى آيـة أخرى: ﴿**وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ** (٣)﴾[**التكوير**] ، وقال: ﴿**وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ** (١٠)﴾ [**المرسلات**]

ونلحظ أن الحق سبحـانه ذكر أقوى مظهر ثابت فى الحيـاة الدنيا ، وإلا ففى الأرض أشياء أخرى قوية وثابتة كالعمائر ناطحات السحاب ، والشجر الكبير الضـخم المعمّـر وغيرهـا كثيـر ، فإذا كـان الحق سبـحانه سـينسف هذه الجـبال ويزيلها عن أماكنها ، فغيرها مما على وجه الأرض زائل من باب أوْلَى.

والحق تعـالى يقول فى سورة الـنازعات: ﴿ **يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ** (٦) **تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ** (٧) **قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ** (٨)﴾ [النازعات]

فـهناك حـال يحدث فى الكون ، وحـال آخـر يظهـر بانفعـال الإنسـان يوم القـيامـة فيـه .. أما الـذى يظهر فى الكون فـهـو المؤثر الأول ، لما حدث انفـعل الإنسان له ، فحدث ما حدث.

إذن : ظاهرات ظهرتْ فى الـكون الانقلابى هذا ﴿ **يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ** (٦) **تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ** (٧)﴾[**النازعـات**] هذا ما حدث ، مـا الذى يحدث بعد ذلك فى النفس الإنسانية أو النفس الكافرة؟

﴿**قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ** (٨) **أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ** (٩)﴾ [**النازعات**]

والراجفة هى الأرض ، يـحدث لها الاهتزاز الذى يَقْلب كـيانها. ﴿**تَتْبَعُهَا الرَّادِفَـةُ** (٧)﴾[**النازعـات**] والتى أردفتْ بها السماء ؛ لأن الـسماء خُلِقَتْ بعد الأرض.. لكن هل الأرض راجفة؟ أو مرجوفة؟

الأرض ليست راجفة ، هناك شيء رجفها ، الأرض مرجوفة مضطربة ، وهذا أسلوب العرب قبل نزول القرآن كانوا يأتون به ، شيء يُسمونه «المجازات» مثلما يقولون ﴿عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾﴾ {الحاقة}

هل العيشة هي الراضية؟ أم مَرْضِيٌّ عنها؟ العيشة مَرْضِيٌّ عنها ، ولكن بلغ من رضاك عنها أنّ رضاك عنها وحبك لها ليس من جانب واحد ، ولكن تعدَّى الرضا منك إلى أنها أصبحتْ راضية ومُتعلِّقة بك ؛ لأن الحب أعنف ما يكون حينما يكون من جانب واحد.

أنت تحب شيئاً وهو لا يحبك ، أما حين تكون تحب شيئاً وهو يحبك يكون الامتزاج تاماً ، فكأن الحق سبحانه حينما يقول ﴿عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾﴾ {الحاقة} معناها أنه بلغ من رضاك عن العيشة أن نفس العيشة راضية عنك وتحبك ، ومنسجمة معك ومتجاذبة ، فلا مظنَّ أنها تفلت منك ؛ لأنها راضية ومُحِبة ، لكن عندما تكون أنت مُحباً وغير محبوب ، هذا هو الشقاء.

إذن: فبلغ من هَوْل الموقف أن الأرض رجفتْها قدرة الله ، إلى أنْ أصبحت هي في ذاتها راجفة ، فكأن الله أمدها بقوة ترجف هي ذاتياً ، هي مرجوفة في الواقع ، ولكنها راجفة.

﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ ﴿٧﴾﴾ {النازعات}

الأرض يحصل فيها ما يحصل ، والسماء يحدث فيها ما يحدث ، فإذا حدث هذا في الكون عَلِم الناس جميعاً الذين كانوا ينكرون أن الأمر جِدٌّ ، أن الدنيا ستبقى ومَنْ عليها هم الذين يذهبون وغيرهم يجيئون.

فإذا جاءت بوادر ما كانوا يُكذِّبون به ، ماذا يحدث لهم؟ يُعرض عليهم

شريط أعمالهم ومواقفهم العَقَدية والسلوكية ، فما كانوا يُكذِّبون به بدأتْ بوادره تظهر .

لذلك قال تعالى : ﴿ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾ ﴾ [النازعات]

فقلوبهم مضطربة ، فزعة ، قلقة ، لأنها رأتْ بوادر ما كانوا يُكذِّبون فاستحضرت النفوس أعمالها ، ووجدتْ نفسها على خلاف المنهج الذى كان يجب أن يكون .

إذن : فلا بُدَّ أن ننتظر مصيراً مؤلماً كالذى بشَّرَتْ به الرسل أصحاب هذه المناهج ، وتصبح المسألة حقاً واقعاً.

وبعد ذلك قال: ﴿ أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ ﴿٩﴾ ﴾ [النازعات]

فالعين هى المنفذ الذى تستطيع أن تدرك به كل حقيقة النفس الإنسانية ، فتستطيع من نظرة العين أنْ تعرف ، أهى نظرة مُحبٍّ أم نظرة مُبْغض؟ وتستطيع من نظرة العين أن تعرف ، أهى نظرة إعجاب أم نظرة احتقار وتهكُّم؟

وتستطيع أن تعرف من نظرة العين كل ما يمكن أن تُكنّه النفس الإنسانية ، ولذلك الحق سبحانه يقول: ﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ ﴿١٩﴾ ﴾ [غافر]

إذن : فالعين هى المنفذ ، حتى الأطباء عندما يحبون أن يعرفوا سلامة شرايين الإنسان من عدمها ينظرون إلى شرايين العين ، وهى أصدق وسيلة.

إذن: فالقلوب واجفة نعرفها من ﴿أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ ﴿٩﴾﴾ [النازعات] ذليلة منكسرة متواضعة بعد أنْ كانت أبصاراً متوقحة ، مستهزئة ، مُنكرة. فالعين هى التى أفشتْ السر ، ونلاحظ هنا أن القرآن لم يقُلْ: أبصارهم خاشعة ، بل نسب الأبصار إلى القلوب ، فقال: ﴿أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ ﴿٩﴾﴾ [النازعات]

هذا يعطينا لفتة أسلوبية جديدة أيضاً ، وهو أن القلوب حين تضطرب ، وحين ترجف ، وحين تقلق يسرى القلق فيها إلى كل جزء من أجزاء النفس.

فكأن القلب ليس هو الواجف ، بل أصبح كلُّ الجسم واجفاً ، فأصبح اضطراب القلوب السِّمة للأنفس والأجساد كلها ، فقال: ﴿**أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ** (٩)﴾ {**النازعات**} ، فكأنهم جميعاً باضطرابهم وقلقهم ، كل ذاتهم أصبحت مضطربة.

ومن هذا الاضطراب المرجف للقلوب ، المذلّ للأبصار ، يتبدى هَوْل وعظم هذه الزلزلة الشديدة ، فيقول الحق سبحانه: ﴿**يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ** (٢)﴾ {**الحج**}

فالذهول: هو انصراف جارحة عن مهمتها الحقيقية لهوْل رأته ، فتنشغل بما رأته عن تأدية وظيفتها ، كما يذهل الخادم حين يرى شخصاً مهيباً أو عظيماً ، فيسقط ما بيده مثلاً.

فالذهول - إذن - سلوك لا إرادى قد يكون ذهولاً عن شىء تفرضه العاطفة أو عن شىء تفرضه الغريزة.

العاطفة كالأم التى تذهل عن ولدها ، وعاطفة الأمومة تتناسب مع حاجة الولد ، ففى مرحلة الحمل مثلاً تجد الأم تحتاط فى مِشْيتها وفى حركاتها خَوْفاً على الجنين فى بطنها ، وهذه العاطفة من الله جعلها في قلب الأم للحفاظ على الوليد ، وإلاَّ تعرَّض لما يؤذيه أو يُودِى بحياته.

لذلك ، لما سألوا المرأة العربية عن أحبِّ أبنائها ، قالت: الصغير حتى يكبر ، والغائب حتى يعود ، والمريض حتى يُشْفَى.

فحسب الحاجة يعطى الله العاطفة ، فالحامل عاطفتها نحو ولدها قوية ، وهى كذلك فى مرحلة الرضاعة ، فانظر إلى المرضعة ، وكيف تذهل عن رضيعها وتنصرف عنه ، وأىُّ هَوْل هذا الذى يشغلها ويُعطِّل عندها عاطفة الأمومة والحنان ، وتُعطِّل حتى الغريزة.

وقد أعطانا القرآن صورة أخرى فى قوله تعالى:

﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ (٣٦)﴾ [عبس]

ومن عظمة الأسلوب القرآنى أنْ يذكر هنا الأخ قبل الأب والأم ، قالوا: لأن الوالدين قد يُوجَدان فى وقت لا يرى أنهما فى حاجة إليه ، ولا هو فى حاجة إليهما لأنه كبر ، أما الأخ ففيه طمع المعونة والمساعدة.

ولكن الحال أن كلَّ شخص مشغول بحاله ، ذاهل عن أقرب الناس إليه.

لذلك يقول الحق سبحانه:

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلا يَتَسَاءَلُونَ (١٠١)﴾ [المؤمنون]

ففى هذا اليوم بالذات ، لاينفع أحدٌ أحداً ، فالنسب موجود لكن دون نفع ، فالنفع من أمور الدنيا أنْ يُوجد قوىٌّ وضعيف ، فالقوىُّ يُعين الضعيف ، ويفيض عليه ، أما فى هذا الموقف فالكلُّ ضعيف.

لذلك ، حينما حدَّث رسول الله ﷺ أننا سنُحشر يوم القيامة حُفَاة عُراة تعجبتْ السيدة عائشة واستحيتْ من هذا الموقف ، فأخبرها رسول الله أن الأمر ليس كذلك ، فهذا موقف ينشغل كُلٌّ بنفسه ، والحال أصعب من أنْ ينظرَ أحدٌ لأحد(١).

(١) عن عائشة قالت: قال النبى ﷺ : «يبعث الله الناس يوم القيامة حفاة عراة غرلاً. فقالت عائشة=

وقوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ ۝ ﴾ [الحج]

والمرضعة تأتى بفتح الضاد وكَسْرها: مُرضَعة بالفتح هى التى من شأنها أنْ ترضع وصالحة لهذه العملية ، أما مُرضِعة بالكسر فهى التى تُرضع فعلاً ، وتضع الآن ثديها فى فم ولدها ، فهى مُرضِعة. فانظر إذن إلى مدى الذهول والانشغال فى مثل هذه الحالة.

بعد أنْ تكلَّم سبحانه عن المرضع رقَّى المسألة إلى الحامل ، ومعلوم أن الاستمساك بالحمل غريزة قوية لدى الأم حتى فى تكوينها الجسمانى ، فالرحم بمجرد أن تصل إليه البويضة المخصَّبة ينغلق عليها.

فإذا جاء وقت الميلاد انفتح له بقدرة الله ، فهذه إذن مسألة غريزية فوق قدرة الأم ودون إرادتها. إذن: وَضْع هذا الحمل دليل هَوْل كبير ، وأمر عظيم يحدث.

وثالث آثار هذه الزلزلة العظيمة ، هو قوله تعالى: ﴿ وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ۝ ﴾ [الحج]

فتراهم سكارى ، أى: يتمايلون مضطربين ، مثل السكارى حين تلعب بهم الخمر ، وتُميلهم يميناً وشمالاً ، وتُلقى بهم على الأرض ، وكلما زاد سُكْرهم وخروجهم عن طبيعتهم كان النوع شديداً.

وهكذا سيكون الحال فى موقف القيامة ، لا من سُكْر ، ولكن من خوف وهَوْل وفزع.

=: يارسول الله ، فكيف بالعورات؟ قال: لكل امرىء منهم يومئذ شأن يُغنيه». أخرجه أحمد فى مسنده (٦/ ٩٠) والنسائى فى سننه (٤/ ١١٤) والحاكم فى مستدركه (٤/ ٥٦٤) وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه.

لكن ، من أين يأتى اضطراب الحركة هذا؟

قالوا: لأن الله تعالى خلق الجوارح ، وخلق فى كل جارحة غريزة الانضباط والتوازن ، وعلماء التشريح يُحدِّدون فى الجسم أعضاء ومناطق معينة مسئولة عن حفظ التوازن للجسم ، فإذا ما تأثرتْ هذه الغدد والأعضاء يشعر الإنسان بالدَّوار ، ويفقد توازنه ، كأنْ تنظرَ من مكان مرتفع ، أو تسافر فى البحر مثلاً.

فهذا الاضطراب لا من سُكْر ، ولكن من هَوْل ما يرونه ، فيُحدث لديهم تغييراً فى الغُدَد والخلايا المسئولة عن التوازن ، فيتمايلون كمنْ اغتالته الخمر.

كل هذا وهُمْ لم يروْا العذاب بَعْد ، إنها مجرد قيام الساعة وأهوالها أفقدتهم توازنهم ؛ لأن الذى يصدق فى أن القيامة تقوم بهذه الصورة يصدق فى أن بعدها عذاباً فى جهنم.

إذن: انتهت المسألة وما كنا نُكذّب به ، ها هو ماثل أمام أعيننا.

ولكن متى الساعة؟

يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ **يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ**[1] **عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ** (187) ﴾ **[الأعراف]**

(1) قال الزجاج: يسألونك عن أمر القيامة كأنك فرح بسؤالهم. وقال الفراء: فيه تقديم وتأخير ، معناه: يسألونك عنها كأنك حفى بها. قال: ويقال فى التفسير: كأنك حفىٌّ عنها كأنك عالم بها [لسان العرب - مادة: حفى].

فَعِلْم الساعة عند الله ، لا يُبَيِّنها عند وقتها إلا هو سبحانه وتعالى ، فلا يعرف ميعاد الساعة إلا ربنا ، فلا يعرفه مَنْ هم فى السماوات ، وكذلك مَنْ هم فى الأرض ، وكل مَنْ على الأرض خائف مما سوف يحدث لحظة قيام الساعة.

ويخبرنا رسول الله ﷺ بالحالة التى تأتى عليها ، فيقول: «إن الساعة تهيج بالناس ، والرجل يُصلح حوضه ، والرجل يسقى ماشيته ، والرجل يقيم سلعته فى السوق ، والرجل يخفض ميزانه ويرفعه».

ومثل هذه التوقعات تخيف.. فالواقع فى هذا اليوم يكون فوق احتمال البشر وهو يأتى بغتة ، أى: يجىء من غير استعداد نفسىٍّ لاستقباله.

ولكن وطِّن نفسك على أن الساعة آتية لا محالة ، وهذا مصداق قوله تعالى: ﴿**إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ** (١٥)﴾ [**طه**]

والساعة هنا هى عمر الكون كله ، أما أعمار المكين فى الكون فمتفاوتة ، كُلٌّ حَسْب أجله ، فمَنْ مات فقد قامت قيامته ، وانتهتْ المسألة بالنسبة له.

إذن : نقول: الساعة نوعان:

ـ ساعة لكل منَّا ، وهى عمره وأجله الذى لا يعلم متى سيكون.

ـ وساعة للكون كله ، وهى القيامة الكبرى.

فقَوْله تعالى: ﴿**إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ** (١٥)﴾ [**طه**]. أى : اجعل ذلك فى بالك دائماً ، وما دام الموت سينقلك إليها سريعاً ، فإياك أنْ تقول : سأموت قريباً ، أما القيامة فبعد آلاف أو ملايين السنين ، لأن الزمن مُلْغىً بعد الموت ، كيف؟

الزمن لا يضبطه إلا الحدث ، فإن انعدم الحدث فقد انعدم الزمن ، كما يحدث لنا فى النوم ، وهل تستطيع أن تُحدِّد الوقت الذى نِمْتَه؟

لذلك قال الحق سبحانه وتعالى: ﴿ **كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا (٤٦)** ﴾ [النازعات]

والعبد[1] الذى أماته الله مائة عام لما بعثه قال: يوماً أو بعض يوم ، وكذلك قال أهل الكهف بعد ثلاثمائة سنة وتسع سنوات؛ لأن يوماً أو بعض يوم هى أقصى ما يمكن تصوُّره للنائم حين ينام ؛ لذلك نقول: «من مات فقد قامت قيامته» [2].

ومن حكمته سبحانه أنْ أخفى الساعة ، أخفاها للفرد ، وأخفاها للجميع ، وربما لو عرف الإنسان ساعته لقال: أفعل ما أريد ، ثم أتوب قبل الموت ؛ لذلك أخفاها الحق - تبارك وتعالى - لنكون على حذر أنْ نَلْقى الله على حال المعصية.

وكذلك أخفى الساعة الكبرى ، حتى لا تأخذ ما ليس لك من خَلْق الله ، وتنتفع به ظُلْماً وعدواناً ، وتعلم أنك إنْ سرقتَ سترجع إلى الله فيحاسبك ، فما دُمْت سترجع إلى الله فاستقِمْ وعدِّل من سلوكك.

ولذلك كان يوم الحساب ، يوم القيامة ، يوم الدين نعمة من نعَم الله عزوجل؛ لذلك قال الحق سبحانه فى سورة الفاتحة: ﴿ **الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢) الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣) مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (٤)** ﴾ [الفاتحة]

---

(١) هو عزير عليه السلام. قال تعالى في حقه: ﴿ **أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ (٢٥٩)** ﴾ [البقرة].

(٢) ذكره العجلونى فى كشف الخفاء (حديث رقم ٢٦١٨) عن أنس بن مالك رضي الله عنه وتمامه: «أكثروا ذكر الموت ، فإنكم إن ذكرتموه فى غنى كدَّره عليكم ، وإن ذكرتموه فى ضيق وسَّعه عليكم ، الموت القيامة».

فإذا كـانت كل نعَم الله تسـتحق الحـمد ، فإن «مـالك يوم الدين» تسـتحق الحمد الكبير؛ لأنه لو لم يوجد يوم للحساب ، لنجا الذين ملأوا الدنيا شروراً ، دون أنْ يُجازوا على ما فعلوا ، ولكان الذين التزموا بالتكليف والعبادة وحرموا أنفسهم من مُتَع دنيوية كثيرة إرضاءً لله قد شَقُوا فى الحياة الدنيا.

ولكن لأن الله ـ تبارك وتعالى ـ هو مالك يوم الدين أعطى الاتزان للوجود كله ، هذه المُلكية ليـوم الدين هى التى حَمَتْ الضـعيف والمظلوم ، وأبقتْ الحق فى كون الله.

إن الذى منع الدنيـا أنْ تتـحوّل إلى غـابة يفـتك فـيهـا القـوىُّ بالضعـيف ، والظالم بالمظلوم هو أن هناك آخرة وحساباً ، وأن الله سبحانه وتعالى هو الذى سيحاسب خَلْقه.

والإنسان المستقيم استقامته تنفع غيره ؛ لأنه يخشى الله ويعطى كل ذى حَقٍّ حَقّه ، ويعفو ويسامح.. إذن : كل مَنْ حوله قد استفاد من خلقه الكريم ، ومن وقوفه مع الحقِّ والعدل.

أما الإنسـان العاصى فيشـقى به المجتمع ؛ لأنه لا أحـد يسلَم من شرِّه ، ولا أحد إلاَّ يصيـبه ظلمه ؛ ولذلك فإن «مالك يوم الـدين» هى الميزان ، تعرف أنت أن الذى يُفسد فى الأرض تنتظره الآخرة ، لن يفلت مهـما كانت قوته ونفوذه ، فتطَمئن اطمئناناً كاملاً إلى أن عَدْلَ الله سينال كل ظالم.

والله ـ تبـارك وتعـالى ـ وصف نفسـه فى القـرآن الكريم بأنه «مـالك يوم الدين» ، ومـالك الشىء هو المتـصرف فـيه وحـده ، ليس هناك دَخْل لأىٍّ فـرد آخر.. فـأنا أملك عباءتى ، وأملك مـتاعى ، وأملك منزلى ، وأنا المتـصرف فى هذا كله أحكم فيه بما أراه.

فمالك يوم الدين .. معناها أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ سيُصرِّف أمور العباد فى ذلك اليوم بدون أسباب ، وأن كل شىء سيأتى من الله مباشرة ، دون أنْ يستطيع أحد أنْ يتدخّل ولو ظاهراً.

فهو سبحانه «مالك يوم الدين» ، وهو «ملك يوم الدين».

فإذا قيل «مالك يوم الدين» أى: الذى يملك هذا اليوم وحده يتصرف فيه كما يشاء.

وإذا قيل «ملك يوم الدين» فتصرُّفه أعلى من المالك ؛ لأن المالك لا يتصرف إلا فى مُلكه ، ولكن الملِك يتصرف فى مُلكه ومُلْك غيره ، فيستطيع أنْ يُصدِر قوانين بمصادرة أو تأميم ما يملكه غيره.

الذين قرأوا «مالك يوم الدين» أثبتوا لله سبحانه وتعالى أنه مالك هذا اليوم يتصرَّف فيه كما يشاء دون تدخُّل من أحد ولو ظاهراً.

والذين يقرأون «ملك يوم الدين » يقولون: إن الله سبحانه وتعالى فى ذلك اليوم يقضى فى أمر خَلْقه حتى الذين ملّكهم فى الدنيا ظاهراً ، ونحن نقول عندما يأتى يوم القيامة : لا مالكَ ولا مُلْك إلا لله.

الله ـ تبارك وتعالى ـ يريد أن يُطمئن عباده.. أنهم إذا كانوا قد ابتلوا بمالك أو ملك يطغى عليهم ، فيَوْم القيامة لا مالك ولا مُلْك إلا لله جَلَّ جلاله.

ويوم الدين موجود فى علْم الله سبحانه وتعالى ، بأحداثه كلها ، بجنته وناره ، وكل الخَلْق الذين سيُحاسبون فيه ، وعندما يريد أن يكون ذلك اليوم ويخرج من علْمه جَلَّ جلاله إلى علم خلقه ، سواء كانوا من الملائكة أو من البشر أو الجان يقول: كُنْ.

فالله وحده هو خالق هذا اليوم ، وهو وحده الذى يحدد كل أبعاده ، واليوم نحن نُحدِّده ظاهراً بأنه أربع وعشرون ساعة ، ونحدده بأنه الليل والنهار ، ولكن الحقيقة أن الليل والنهار موجودان دائماً على الأرض.

والله ـ سبحانه وتعالى ـ يريد أنْ يُطمئن عباده ، أنهم إذا أصابهم ظلم فى الدنيا ، فإن هناك يوماً لا ظلمَ فيه ، وهذا اليوم الأمر فيه لله وحده دون أسباب ، فكل إنسان لو لم يُدركه العدل والقصاص فى الدنيا فإن الآخرة تنتظره.

والذى اتبع منهج الله ، وقيَّد حركته فى الحياة يخبره الله سبحانه وتعالى أن هناك يوماً سيأخذ فيه أجره ، وعظمة الآخرة أنها تعطيك الجنة ، نعيم لايفوتك ، ولا تفوته.

فقوله سبحانه «مالك يوم الدين» يعطينا أن البداية من الله ، والنهاية إلى الله جَلَّ جلاله ، وبما أننا جميعاً سنلقى الله ، فلا بُدَّ أن نعمل لهذا اليوم ؛ ولذلك فإن المؤمن لا يفعل شيئاً فى حياته إلا وفى باله الله ، وأنه سيحاسبه يوم القيامة ، أما غير المؤمن فيفعل ما يفعل ، وليس فى باله الله.

وعن هؤلاء يقول الحق سبحانه:

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٣٩) ﴾ {النور}

فهكذا مَنْ يفعل شيئاً وليس فى باله الله ، فسيفاجأ يوم القيامة بأن الله ـ تبارك وتعالى ـ الذى لم يكُنْ فى باله موجوداً ، وأنه جَلَّ جلاله هو الذى سيحاسبه.

فقوله تعالى: **﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (٤) ﴾** {الفاتحة}

هو أساس الدين ؛ لأن الذى لا يؤمن بالآخرة يفعل ما يشاء ، فما دام يعتقد أنه ليس هناك آخرة ، وليس هناك حساب ، فممَّ يخاف؟ ومن أجل أنْ يُقيِّد حركته في الحياة.

إن الدين كله بكُلِّ طاعاته وكلِّ منهجه قائم على أن هناك حساباً فى الآخرة وأن هناك يوماً نقف فيه جميعاً أمام الله سبحانه وتعالى ؛ ليحاسب المخطىء ويثيب الطائع ، هذا هو الحكم فى كل تصرُّفاتنا الإيمانية ، فلو لم يكُنْ هناك يوم نُحاسَب فيه ، فلماذا نصلى؟ ولماذا نصوم؟ ولماذا نتصدَّق؟

إن كل حركة من حركات منهج السماء قائمة على أساس ذلك اليوم الذى لن يُفلِت منه أحد ، والذى يجب علينا جميعاً أن نستعد له ، إن الله سبحانه وتعالى سمَّى هذا اليوم بالنسبة للمؤمنين يوم الفوز العظيم ، والذى يجعلنا نتحمل كل ما نكره ونجاهد فى سبيل الله لنستشهد ، وننفق أموالنا لنعين الفقراء والمساكين.

كل هذا أساسه أن هناك يوماً سنقف فيه بين يدى الله ، والله ـ تبارك وتعالى ـ سمَّاه يوم الدين ؛ لأنه اليوم الذى سيُحاسب فيه كل إنسان على دينه ، عَمِل به أم ضيَّعه ، فَمْن آمن واتبع الدين سيُكافأ بالخلود فى الجنة ، ومَنْ أنكر الدين وأنكر منهج الله سيُجازى بالخلود فى النار.

ومن عَدْل الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن هناك يوماً للحساب ؛ لأن بعض الناس الذين ظلموا وبغَوْا فى الأرض ربما يُفلِتون من عقاب الدنيا ، هل هؤلاء الذين أفلتوا فى الدنيا من العقاب هل يُفلِتون من عَدْل الله؟

أبداً لن يُفلتوا ، بل إنهم انتقلوا من عقاب محدود إلى عقاب خالد ، وأفلتوا من العقاب بقدرة البشر فى الدنيا ، إلى عقاب بقدرة الله ـ تبارك

وتعالى ـ فى الآخرة ، ولذلك لابُدَّ من وجود يوم يعيد الميـزان ، فيعاقب فيه كل مَنْ أفسد فى الأرض وأفلت من العقاب.

بل إن الله ـ سبـحانه وتعـالى ـ يجعل إنساناً يُفلِـت من عقاب الدنيـا ، فلا تعتقد أن هذا خـيرٌ له ، بل إنه شَرٌّ له ؛ لأنه أفلت من عقاب مـحدود إلى عقاب أبدىٍّ.

والحمد الكبير لله ، بأنه «مـالك يوم الدين» ، وهو وحده الذى سيقضى بين خَلْقه ، فالله ـ سبحـانه وتعالى ـ يعامل خَلْقه جميعاً معـاملة متساوية ، وأساس التقوى هو يوم الدين.

١٢ الخَلْق دليل على البَعْث

إن الدين كله بكل طاعاته وكل منهجه قائم على أن هناك حساباً فى الآخرة.. وأن هناك يوماً نقف فيه جميعاً أمام الله سبحانه وتعالى.. ليحاسب المخطىء ، ويثيب الطائع.. هذا هو الحكم فى كل تصرفاتنا الإيمانية ، فلو لم يكُنْ هناك يوم نحاسب فيه.. فلماذا نصلى؟ ولماذا نصوم؟ ولماذا نتصدق؟

يقول الحق سبحانه:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٥) ﴾ {الحج}

لقد حاول الكفار والملحدون وأصحاب الفلسفة المادية أنْ ينكروا قضية البعث ، وهم فى هذا لم يأتوا بجديد ، بل جاءوا بالكلام نفسه الذى قاله أصحاب الجاهلية الأولى.

واقرأ قول الحق سبحانه وتعالى عما يقوله أصحاب الجاهلية الأولى:

﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ (٢٤)﴾ {الجاثية}

وأمنية الكافر والمسرف على نفسه ، ألاّ يكون هناك بَعْث أو حساب ،

والذين يتعجبون من ذلك نقول لهم: إن الله سبحانه وتعالى الذى أوجدكم من عدم يستطيع أنْ يُعيدكم وقد كنتم موجودين ، يقول جل جلاله:

﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٧)﴾ {الروم}

فإيجاد ما كان موجوداً أسهل من الإيجاد من عدم على غير مثال موجود والله سبحانه وتعالى يردُّ على الكفار ، فيقول سبحانه:

﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (٧٩)﴾ {يس}

وهكذا ، فإن البعث أهون على الله من بداية الخَلْق ، وكل شىء مكتوب عند الله سبحانه وتعالى فى كتاب مبين ، وما أخذته الأرض من جسد الإنسان تردُّه يوم القيامة ، ليعود من جديد.

إن الله ـ سبحانه وتعالى ـ قادر على أنْ يبدأ الخَلْق على غير مثال ، ثم يعيده بعد الموت ، وإعادته أهون عليه من ابتدائه بالنظر إلى مقاييس اعتقاد مَنْ يظن أن إعادة الشىء أسهل من ابتدائه ، فالله له مطلق القدرة فى خَلْقه ، وهو الغالب فى مُلْكه ، وهو الحكيم فى فعْله وتقديره.

إن الذى يعيد إنما يعيد من موجود ، أما الذى بدأ فمن معدوم ، فالأهون هو الإعادة ، أما الابتداء فهو ابتداء من معدوم ، وكلاهما من قدرة الحق سبحانه وتعالى.

إن هذه القضية إنما تُثبت اليوم الآخر ؛ لأن الإيمان باليوم الآخر هو الميزان العقدى ، فإن استقرَّ فى القلب فالإنسان بكل جوارحه يتجه إلى الأفعال التى تسير على ضوء منهج الله لينال الإنسان الجزاء الأوفى.

إن الإنسان حينما يفهم أن هناك حساباً وهناك جزاءً ، وهناك بَعثاً ، فهو يعرف أنه لم ينطلق فى هذا العالم ، ولم يفلت من الإله الواحد القهار ، إن للإنسان عودة ، فالذى يغتر بما آتاه الله نقول له: لا ، إنك لن تفلت من يد الله ، بل لك عودة بالموت وعودة بالبعث.

لذلك يقول الحق سبحانه مُتعجباً مِمَّنْ ينكرون البعث:

﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ (٨١) إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٨٢) فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٣)﴾ {يس}

فالمؤمنون وحدهم هم الذين استقبلوا أمر البَعْث بالتصديق ، بمجرد أن أبلغهم به رسول الله مُبلِّغاً عن ربه ، ونجد الحق سبحانه قد احترم فُضُول العقل البشرى ، فأوضح سبحانه ذلك ونصب الأدلة عليه ، وأبلغنا أنه لم يعجز عن الخَلْق الأول ؛ لذلك لن يعجز عن البعث.

فقد جاء بنا سبحانه من عدم ، وفى البعث سيأتى بنا من موجود ، ومن الغباء إذن أنْ يتشكك أحد فى البعث ، والمسرف على نفسه إنما ينكر البعث؛ لأنه لا يقدر على ضبط النفس ، ويظن أنه بإنكار البعث لن يلقى المصير الأسود الذى سيلقاه فى الآخرة.

ولو أن الواحد منهم وضع مسألة البَعْث فى يقينه لانصرف عن شهواته ، بينما هو يريد أنْ ينطلق بالشهوات ؛ ولذلك نجدهم يقولون: **﴿أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ (١٠)﴾** {السجدة}

وهم يقصدون بذلك أنهم بعد الموت سيصيرون تراباً ، ويعودون إلى الأرض كعناصر وتراب تذروه الرياح ، فكيف سيأتى بهم الله ، ويُنشئهم من جديد؟

ومن الكافرين مَنْ قال: سنصير تراباً ، ثم نختلط بالتربة ، ويتم زراعة هذه التربة ، فتمتزج عناصرنا بما تُنبته الأرض من فواكه وخُضر وأشجار ، ثم يأكل طفل من الثمرة التى تغذَّتْ بعناصرنا ، فيصير بعضٌ منّا فى مُكوِّنات هذا الطفل ، والقياس يوضح أننا سوف نتناثر ، فكيف يأتى بنا الله؟

لقد تساءل المشركون: أبعد أنْ نذوب فى الأرض وتتفكك عناصرنا الأولية نعود ثانية ونُبعث من جديد؟

﴿ وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا (٤٩) ﴾ [الإسراء]

والرُّفات: هو الفُتَات ومسحوق الشىء ، وهو التراب أو الحطام.

لقد استبعد هؤلاء البعث بعد الموت ؛ لأنهم غفلوا عن بداية الوجود ، وبداية خَلْق الإنسان ، وقد وقف الفلاسفة طويلاً أمام قضية البعث ، وأخذوا منها سبيلاً لتشكيك الناس فى دين الله.

ومن مغالطاتهم فى هذه المسألة أنْ قالوا: ما الحل إذا مات إنسان مثلاً ، ثم تحوَّل جسمه إلى رُفات وتراب ، ثم زُرِعت فوقه شجرة ، وتغذَّت على عناصره ، فإذا أكل إنسان من ثمار هذه الشجرة فسوف تنتقل إليه بالتالى عناصر من عناصر الميت ، وتتكوّن فيه ذرات من ذراته ، فهذه الذرات التى تكوّنت فى الثانى نقصت من الأول ، فكيف يكون البعث إذن على حَدِّ قولهم؟

والحقيقة أنهم فى هذه المسألة لم يفطنوا إلى أن مُشخَّص الإنسان شىء ، وعناصر تكوينه شىء آخر.. كيف؟

هَبْ أن إنساناً زاد وزنه ، ونصحه الطبيب بإنقاص الوزن فسعى إلى ذلك بالطرق المعروفة لإنقاص الوزن ، وهذه العملية سواء زيادة الوزن أو إنقاصه محكومة بأمرين: التغذية والإخراج ، فالإنسان ينمو حينما يكون ما يتناوله من

غـذاء أكثـر مما يُخرجـه من فضـلات ، ويضـعف إنْ كان الأمـر بعكس ذلك ، فالولد الصغير يـنمو لأنه يأكل أكثر مِمَّا يُخرِج ، والشيخ الكبـير يُخرِج أكثر مما يأكل؛ لذلك يضعف.

فلو مـرض إنسان مـرضاً أهزله وأنقـصَ من وزنه ، فذهب إلى الطبـيب فعالجه حتى وصل إلى وزنه الطبيعى ، فهل الذرات التى خرجت منه حتى صار هزيلاً هى بعينها الذرات التى دخلتْه حين تمَّ علاجه؟.

إن الذرات التى خـرجت منه لا تزال فى (المجارى) لم يتكون منـها شىء أبداً ، إنما كمية الذرات ومقاديرها هى التى تقوى وتشخص.

وربنا ـ سبحانه وتعالى ـ رحمة منه قال:﴿ **قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ** ④ ﴾[ق] فالحق سبحانه سيجمع الأجزاء التى تُكوِّن فلاناً المشخّص.

ثم يقول الحق سبحانه:﴿**قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا** ㊿﴾ **[الإسراء]**

أى: قُلْ رداً عليهم: إنْ كنتم تستبعدون البـعث وتستصعبونه مع أنه بَعْثٌ للعظام والرُّفات ، وقد كانت لها حياة فى فـترة من الفترات ، ولها إلْفٌ بالحياة فمن السهل أنْ نعيد إليها الحياة بل وأعظم من ذلك ، ففى قدرة الخالق سبحانه أن يُعيدكـم حتى وإنْ كنتم من حجارة أو من حـديد ، وهى المادة التى ليس بها حياة فى نظرهم.

وكأن الحق سبحـانه يتحدَّاهم بأبعد الأشياء عن الحـياة ، ويتدرج بهم من الحجـارة إلى الحـديد ؛ لأن الحديد أشـدُّ من الحجـارة وهو يقطعهـا ، فلو كنتم حجارة لأعَدْناكم حجارة ، ولو كنتم حديداً لأعدْناكم حديداً.

ثم يترقَّى بهم إلى ما هو أبعد من ذلك ، فيقول تعالى:﴿ **أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ**

﴿فِى صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ(١) إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾﴾ [الإسراء]

فالحق - سبحانه وتعالى - ارتقى بهم فى فرضية الأمر إلى أنْ يختاروا وتجتمع نفوسهم على شىء، يكون أعظمَ استبعاداً من الحجارة والحديد، وغاية ما عندهم فى بيئتهم الحجارة والحديد، فهما أبعد الأشياء عن الحياة، وقد اتفقوا على ذلك فليس فى محيط حياتهم ما هو أقسى من الحجارة والحديد.

ولكن الحق - سبحانه وتعالى - ارتقى بهم فى فرضية الأمر إلى أن يختاروا، وتجتمع نفوسهم على شىء، يكون أعظمَ استبعاداً من الحجارة والحديد.

ومن هذه الأجناس ما ذكره على بن أبى طالب:

«أشد جنود الله عشرة: الجبال الرواسى، والحديد يقطع الجبال، والنار تذيب الحديد، والماء يطفىء النار، والسحاب المسخّر بين السماء والأرض يحمل الماء، والريح يقطع السحاب، وابن آدم يغلب الريح يستتر بالثوب أو بالشىء ويمضى لحاجته، والسُّكْر يغلب ابن آدم، والنوم يغلب السُّكْر، والهمّ يغلب النوم، فأشدُّ جنود الله فى الكون الهمّ».

فهذه الأجناس هى المرادة بقوله تعالى: ﴿أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ﴿٥١﴾﴾ [الإسراء] فاختاروا أياً من هذه الأجناس، فالله تعالى قادر على إعادتكم وبَعْثكم كما كنتم أحياء.

ثم يقول تعالى:

﴿فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴿٥١﴾﴾ [الإسراء]

---

(١) أنغض رأسه: حرَّكه كالمتعجِّب من الشىء قال الفراء: أنغض رأسه إذا حرَّكه إلى فوق وإلى أسفل. [لسان العرب - مادة: نغض].

أى : أن الذى خلقكم بـداية قـادرٌ على إعـادتكم ، بل الإعـادة أَهْون من الخَلْق بداية ، ولكن الجواب لا يـكون مُقنعاً إلا إذا كـانت النتيجـة التى يأتى بها الجواب مُسلَّمة ، فهل هم مقتنعون بأن الله تعالى فطرهم أول مرة؟

نعم ، هم مؤمنون بهـذه الحقيـقة رغم كُفْـرهم ، بدليل قولهم: ﴿**وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ** ﴿٨٧﴾ ﴾[**الزخرف**] فهم مقتنعون بذلك ولكنهم نقلوا الجدل إلى قضـية أخرى فقالوا: مَنْ يعـيدنا؟ فإنْ قُلْت لهم: الذى فطركم أول مرة ﴿**فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ** ﴿٥١﴾﴾ [**الإسراء**]

ومـعنى يُنغضـون أى: يهـزُّون رؤوسهم من أعـلى لأسفل ، ومن أسـفل لأعلى استهزاءً وسخريةً مما يقول.

فإن كنتم شاكِّين فـى مسألة البعث ، فإليكم الدلـيل على صِدْقه ﴿**فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ** ﴿٥﴾﴾[**الحج**] أى: الخَلْق الأول ، وهو آدم عليه السـلام ، أما جمهرة الناسَ بعد آدم فخُلقوا من نطفة حية من إنسان حَيٍّ.

ثم تكلَّم سبحـانه عن الخَلْق الثـانى بعد آدم عليـه السلام ، وهم ذريتـه ، فقـال: ﴿**ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ** ﴿٥﴾﴾[**الحج**] ، والنطفة هى خلاصـة الخلاصة ؛ لأن جسم الإنسان تحدُث فـيه عملية الاحـتراق أى: احتراق الطعام بـداخل الجسم حيث يمتصّ الجسمُ خلاصةَ الغذاء ، وينقلها إلى الدم.

ومن هذه الخلاصة يُستخلص مَنِيُّ الإنسـان الذى تُؤْخَذ منه النطفة ، فهو إذن خلاصة الخلاصة فى الإنسان ، ومنه يحدث الحمل ، ويتكوَّن الجنين ، وكأن الخالق ـ عـزوجل ـ قد صـفَّاها هذه التـصفـية ، ونقـاها كل هذا النقاء ؛ لأنـها ستكون أصلاً لأكرم مخلوقاته وهو الإنسان.

والمنيُّ هو السـائل الذى يحمل النطفـة ، وهى الخلاصة التى يتـكوَّن منها

الجنين ، والعَلَقة هنا هى البُويضة المخصَّبة ، فبعد أنْ كان للبويضة تعلُّق بالأم ، وللحيوان المنوى (النطفة) تعلُّق بالأب ، اجتمعا فى تعلُّق جديد ، والتقيَا ليتشبَّثا بجدار الرحم ، وكأن فيها ذاتية تجعلها تَعْلَق بنفسها ، يُسمُّونها (الزيجوت).

بعد ذلك تتحول العلقة إلى مُضْغة ﴿**ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ** (٥)﴾ [**الحج**] والمضغة: هى قطعة لحم صغيرة قدر ما يُمضع من الطعام ، وهو خليط من عدة أشياء ، كما لو أكلت مثلاً قطعة لحم مع ملعقة خضار ، مع ملعقة أرز ، وبالمضغ يتحوّل هذا إلى خليط ، ذلك لأن جسم الإنسان لا يتكوَّن من عنصر واحد ، بل من ست عشر عنصراً.

هذه المضغة ﴿**مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ** (٥)﴾ [**الحج**] معنى مُخلَّقة يعنى: يظهر عليها هيكل الجسم ، وتتشكّل على صورته ، فهذه للرأس ، وهذه للذراع ، وهذه للرِّجْل وهكذا ، يعنى تخلَّقَتْ على هيئة الإنسان.

ثم يقول سبحانه: ﴿**لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى** (٥)﴾ [**الحج**] أى: تُوضح لكم كل ما يتعلق بهذه المسألة ﴿ **وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ** (٥)﴾ [**الحج**] وهى المضغة التى قُدِّر لها أن تكون جنيناً يكتمل إلى أنْ يولد لذلك قال: ﴿ **إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى** (٥)﴾ [**الحج**] أو: نسقطه ميتاً قبل ولادته.

ولكن ، ما الحكمة من خَلْقه وتصويره ، إنْ كان قد قُدِّر له أنْ يموت جنيناً؟ نقول: لنعرف أن الموت أمر مُطْلق ، لا رابطَ له ولا سِنّ ، فالموت يكون للشيخ كما يكون للجنين فى بطن أمه ، ففى أيِّ وقت ينتهى الأجل.

﴿ **ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ** (٥)﴾ [**الحج**]

فينقلنا السياق بين مراحل خَلْق الإنسان ، ومراحل نموه ، فينقلنا من

مرحلة الطفولة إلى المرحـلة النهائية من عمر الإنســان ، ثم تأتى مرحلة الأشُدّ ، يعنى : نضج نُضْجًا من حوادث الحياة.

ثم يقول تعالى: ﴿**وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا** ⑤﴾ [الحج]

وأرذل العـمـر يعنى رديئـه ، حين تظهـر على الإنسـان علامـات الخَـوَر والضعف ؛ مـثل أنْ ينسى ، وعندها يعـرف أن صحتـه وقوته وسلطانـه ليستْ ذاتية فيه ، إنما موهوبة له من الله.

وإذا بلغ الرجلُ أرذلَ العمر يعود من جديد إلى مرحلة الطفولة تدريجياً فيـحتاج لمن يأخذ بيـده ليقوم أو ليمـشى ، كما تأخـذ بيد الطفل الصغيـر ، فإذا تكلم يتلعثم كالطفل الذى يتعلم الكلام ، وهكذا فى جميع شئونه.

لكن ، لماذا يُرَدُّ بعضنا إلى أرذل العـمر دون بعض؟ الحق سبحـانه جعلها نماذج حتى لا نقـول : يا ليت أعمارنا تـطول؛ لأن أعمار الجـميع لو طالتْ إلى أرذل العمر لأصبح الأمر صعباً علينا ، فمن رحمة الله بنا أنْ خلق الموت.

ذلك مثل مَنْ خلق الإنسان ومراحل تكويـنه جنيناً ، ثم مراحل حياته فى الدنيـا حتى ينتـهى أمره بالموت ، طال العـمر أم قَصُـر ، فَمْن خلق مـن العدم ، وهذا كله ماثل أمام أعينكم ، قادر على الإعادة.

ويعطينا الحق ـ سبحـانه وتعالى ـ مثَلاً آخر على الإحيـاء ، وهو أمر ماثل أيضاً أمام أعْيُن المرتابين والشَّاكِّين فى أمر البعث ، فيقول تعالى: ﴿**وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ** ⑤﴾ [الحج]

فهذه صـورة حَيّة واقعـية نلاحظها جمـيعاً عيـاناً ، الأرض تكون جرداء سـاكنة ، لا حركـة فيـها ، فـإذا ما نزل عـليهـا الماء تغيـرتْ وتحركتْ ذراتهـا ، وتشققتْ عن النبات ، ولو حتى بالمطر الصناعى.

فـإذا أنزل الله تعـالى المطـر على الأرض الجـدباء الجـرداء تراها تتـفـتق بالنبـات ، فمن أين جاءت هـذه البذور؟ وكيف لم يُـصبهـا العطب ، وهى فى الأرض طوال هذه الفترات ؟

الأرض هى التى تحفظها من العطب ، إلى أنْ تجد البيئة المناسبة للإنبات ، أما عن نقْل هذه البذور فى الصحراء وفى الوديان ، فهى تنتقل بواسطة الريح ، أو فى رَوَث الحيوانات.

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ⓺ ﴾ [الحج]

أى : أن ما حدث فى خَلْق الإنسان تكـويناً ، وما حدث فى إنبات الزرع تكويناً ونماءً يُرَدُّ هذا كله إلى أن الله تعالى ﴿ هُوَ الْحَقُّ ﴾ [الحـج] ، فهو سبحانه الثـابت الذى لا يتـغـيَّـر فى الخَلْق والعطاء ، فـلا تظن أن عطـاءالله لك شىء جديد، إنما هو عطاء قديم يتكرر لك ولغيرك.

وما دام الأمر كـذلك ، وما دُمْتم تشاهدون آية إحـياء الموات فى الأرض الميتة فلا تنكروا البعث وإعادتكم بعد الموت ، فيقول تعالى:

﴿ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ ⓻ ﴾ [الحج]

وقد سبق أنْ أنكروا البعث بعد الموت وقالوا: ﴿ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ⓰ أَوَ آبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ⓱ ﴾ [الصافات]

فيـردُّ عليهم الحق سبـحانه: نعم ، سنعيدكـم بعد الموت ، والذى خلقكم من لا شىء قادر على إعادتكم من بـاب أوْلَى؛ لذلك يقول تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ⓶⓻ ﴾ [الروم]

والحق سبحانه هنا يخاطبنا على قَدْر عقولنا ، لأننا نفهم أن الخَلْق من موجود أهْوَنُ من الخَلْق من عدم ، أما بالنسبة للخالق عز وجل فليس هناك سهل وأسهل ، ولا هيِّن وأهْون.

فقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لاَّ رَيْبَ فِيهَا (٧)﴾ [الحج] كأن عملية إحياء الموتى ليست مُنْتهى قدرة الله ، إنما في قدرته تعالى كثير من الآيات والعجائب.

ومن هذه الآيات والعجائب ما ذكره الحق سبحانه من أمر العُزَير وهو من بني إسرائيل ، قال تعالى: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا [1] ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٥٩)﴾ [البقرة]

فقوْل الحق سبحانه ﴿وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ (٢٥٩)﴾ [البقرة] يدلُّ على أن هنا شيئاً عجيباً ، فقد أراد الله أنْ يُبيِّن له بنظرة إلى الحمار دليلاً على صِدْق مرور مائة عام ، ووجد الرجل حماره وقد تحول عظاماً مبعثرة ، ولا يمكن أنْ يحدث ذلك في زمن قصير ، فإن موت الحمار أمر قد يحدث في يوم ، لكن أنْ يرمَّ جسمه ثم ينتهي لحمه إلى رماد ، ثم تبقى العظام مبعثرة ، فتلك قضية تريد زماناً طويلاً لايتسع له إلا مائة عام ، فكأن النظر إلى الحمار هو دليل على صِدْق مرور مائة عام ، والنظر إلى الطعام دليل على صِدْق ﴿يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ (٢٥٩)﴾ [البقرة]

---

(١) أنشز الشيء: رفعه وأبرزه وأقامه. والمعنى: نرفع العظام بعضها فوق بعض حتى يتكوَّن هيكل عظمى كامل ثم نكسوها لحماً فيصير حماراً حياً كما كان. [القاموس القويم ٢/ ٢٦٧].

فالقضية إذن قضية عجيبة ، وكيف طُوى الزمن فى مسألة الطعام ، وكيف بُسط الزمن فى مسألة الحمار ، إنه سبحانه يُظهر لنا أنه هو القابض الباسط ، فهو الذى يقبض الزمن فى حقِّ شىء ، ويبسط الزمن فى حقِّ شىء آخر ، والشيئان متعاصران معاً ، وتلك العملية لا يمكن أن تكون إلا لقدرة طليقة لا تملكها النواميس الكونية ، وإنما هى التى تملك النواميس.

وفى آية أخرى يقول الحق سبحانه:

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ[1] إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٦٠) ﴾ [البقرة]

فكذلك يبسط الحقُّ قصة الحياة وقصة الموت فى تجربة مادية ، ليطمئن قلبُ سيدنا إبراهيم ، وقد جاءت قصة الحياة والموت ؛ لأن الشك عند الذين عاصروا الدعوة المحمدية كان فى مسألة البعث من الموت ، وكلُّ كلامهم يؤدى إلى ذلك ، فهم تعجبوا من حدوث هذا الأمر:

﴿ قَالُوا أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (٨٢) ﴾ [المؤمنون]

وفى قول آخر:

﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (٧٩) ﴾ [يس]

لقد أمر الحق سبحانه محمداً ﷺ ليجيب على ذلك: قُلْ يا محمد يحييها الذى أنشأها أول مرة ، فقد خلقها من عدم؛ ولذلك يقول الحق سبحانه:

---

(١) صُرْهن إليك: قطعهن. قاله ابن عباس وعكرمة وسعيد بن جبير وأبو مالك وأبو الأسود الدؤلى ووهب بن منبه . وقال العوفى عن ابن عباس (فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ..(٢٦٠)) [البقرة] أوثقهن ، فلما أوثقهن ذبحهن ثم جعل على كل جبل منهن جزءاً [تفسير ابن كثير ١/ ٣١٥].

﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٧) ﴾ [الروم]

فالذى ينكر هذه القضية لو تذكَّر خلْقته ونشأته لوجد الدليل على البَعْث لماذا؟ لأن الله خلقه من عدم ، فإذا وُجدتْ ثم مُتَّ وصار لك بقايا منثورة فى الأرض فخَلْقك من موجود أهون عليه من أنْ يخلقك من عدم ، وقد خلقك من عدم فخَلْقك من موجود أَهْون ، وهذا بمنطق البشر؛ لأنه لا شىء يصعب أو يهون على الله.

١٣ البشير النذير

حقيقة مهمة رسول الله ﷺ هى البلاغ بالبشارة والنذارة ، فكأنه سبحانه يُخفِّف العبء عن رسوله ، ويدعوه ألا يُتعب نفسه فى تكلُّف دعوة الناس ، فما عليه إلا البلاغ ، وعلى الله تبارك وتعالى الهداية للإيمان .

يقول الحق سبحانه: ﴿**قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٤٩) فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٥٠) وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (٥١)**﴾ **[الحج]**

والإنذار نوع من الرحمة ؛ لأنك تخبر بشرٍّ قبل أوانه ، ليحذره المنذَر ، ويحاول أن يُنجى نفسه منه ، ويبتعد عن أسبابه ، فحين أذكِّرك بالله ، وأنه يأخذ أعداءه أَخْذ عزيز مقتدر ، فعليك أنْ تربأ بنفسك عن هذه النهاية ، وأنْ تنجو من دواعى الهلاك.

ويقول الحق تبارك وتعالى: ﴿**إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ (١١٩)**﴾ **[البقرة]**

وفى آية أخرى يقول تعالى: ﴿**وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (١٠٥)**﴾ **[الإسراء]**

فالحق سبحانه هنا يخبر رسوله ﷺ بحقيقة مهمته كرسول عليه البلاغ بالبشارة والنذارة ، فلا يُحمِّل نفسه فوق طاقتها ؛ لأنه ليس مُلْزماً بإيمان القوم ، كما قال تعالى: ﴿**فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا (٦)**﴾ **[الكهف]**

أى: مُهلكها حُزْناً علـى عدم إيمانهم ، وفى آية أخرى قال:﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ۝ ﴾ [الشعراء]

فكأنه سبحانه يُخفِّف العبء عن رسوله ، ويدعوه ألا يُتعب نفسه فى دعوتهم ، فما عليه إلا البلاغ ، وعلى الله تبارك وتعالى الهداية للإيمان.

لكن حرص رسول الله على هداية قومه نابع من قضية تحكمه وتستولى عليه لخَّصَها ﷺ فى قوله:«والله لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه» (١).

فالنبى ﷺ كامل الإيمان ، ويحب لقومه أن يكون كذلك ، حتى أعداؤه الذين وقفوا فى وجه دعوته كان إلى آخر لحظة فى الصراع يرجو لهم الإيمان والنجاة ؛ لذلك لما مُكِّن منهم لم يعاجلهم بالعقوبة ، بل قال:«بل أرجو أن يُخرِج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده ، لا يشرك به شيئاً» (٢).

وفعلاً صدق الله ورسوله ، وجاء من ذريات هؤلاء مَنْ حملوا راية الدين ، وكانوا سيوفاً على أعدائه ، أمثال عكرمة بن أبى جهل (٣) ، وعمرو بن

(١) حديث متفق عليه. أخرجه البخارى فى صحيحه (١٣) ، ومسلم فى صحيحه (٤٥) كتاب الإيمان عن أنس بن مالك بلفظ «والذى نفسى بيده ، لا يؤمن عبد حتى يحب لجاره - أو قال: لأخيه - ما يحب لنفسه».

(٢) أخرج البخارى فى صحيحه (٣٢٣١ ، ٧٣٨٩) من حديث عائشة ﵂ أن جبريل عليه السلام قال لرسول الله ﷺ : إن الله قد سمع قول قومك لك ، وما ردوا عليك ، وقد بعث الله إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم ، فنادانى ملك الجبال فسلم علىّ ثم قال: يا محمد إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين ، فقال النبى ﷺ :«بل أرجو أن يُخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً».

(٣) هو : عكرمة بن أبى جهل المخزومى القرشى ، كان هو وأبوه من أشد الناس عداوة للنبى ﷺ وأسلم عكرمة بعد فتح مكة وحسن إسلامه فشهد الوقائع وولى الأعمال لأبى بكر ، واستشهد فى اليرموك عام ١٣ هـ وعمره ٦٢ سنة. الأعلام للزركلى (٤/ ٢٤٤).

العــاص[1] ، وخالد بن الوليـد ، وكثير من المسلمين كانوا حـريصين على قَتْل هؤلاء حـال كفـرهم فى مـعارك الإسـلام الأولى ، وهـم لا يعلمـون أن الله لم يُمكِّنهم من هـؤلاء لحكمة ، إنـهم سوف يـكونون معـك من سيـوف الإسـلام وقادته.

والحق سبـحانه لم يُعْطِ الرسل قـدرته ليفـعلوا ما شاءوا ، ولكـنهم فقط مُبلِّغون عن الله .

قال تعـالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [الأنعام]

فلا يطلبنَّ أحدٌ آيات منهم؛ لأنهم لا يسـتطيعون أن يأتوا بالآيات ، وكلُّ رسول يعلم أنه من البـشر ، وهو يستقبل عن الله فـقط ، ولذلك فلنأخذ الرسل على أنهم مُبشِّرون ومُنْذِرون.

والبشارة هى الإخبار بما يسرُّ قبل أنْ يقـع ، والسبب فى البشارة هو تهيئة السامع لهـا ليبـادر إلى ما يجعل البـشارة واقـعاً بأنْ يمتثل إلى المنـهج القادم من الإله الخـالق ، ونعـرف أن الإنذار هو الإخبـار بما يسـوء قـبل أن يقع ليـحتـرز السامع أن يقع فى المحاذير التى حرمها الله.

والبشـارة ـ كما نعلم ـ تلهب فى الراغب فى الفـعل والمحب له أنْ يفعلَ

(١) هو: عمـرو بن العاص السـهمى القـرشى ، أبو عبـدالله ، ولد عام ٥٠ ق.هـ. كـان فى الجاهلـية من الأشداء على الإسلام ، وأسلم فى هدنة الحديبية ، ولاَّه النبى إمرة جيش «ذات السلاسل» ثم استعمله على عُمـان ، ثم كان من أمراء الجيـوش فى الجهاد بالشـام فى زمن عمر ، وهو الذى افتـتح قنسرين وولاه عمر فلسطين ثم مـصر فافتتـحها ، وولى حكمها ٣٨ هـ ، توفـى بالقاهرة عام ٤٣ هـ عن ٩٣ عامًا. [الأعلام للزركلى ٥/ ٧٩].

العملَ الطيب ، والإنذار يحذر ويخوف مَنْ يرغب فى العمل السيء ليزدجر ويرتدع.

إذن: فمهمة الرسل هى البشارة والإنذار ، فلا تخرجوا بهم أيها الناس إلى مرتبة أخرى أو منزلة ليستْ لهم ، فتطلبوا منهم آيات أو أشياء ؛ لأن الآيات والأشياء كلها من تصريف الحق تبارك وتعالى.

والمطلوب من البلاغ طاعة الله وطاعة الرسول ، ولذلك يقول تعالى: **﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (٩٢)﴾** [المائدة]

أى: فإنْ أعرضتم عمّا كلفتكم به فاعلموا أنكم بتولِّيكم وإعراضكم لن تضروا الرسول ؛ لأن الرسول ما كُلِّف إلاَّ أنْ يقوم بالبلاغ المبين ، وإنما ضررتم أنفسكم حين أعرضتم عما كُلِّفتم به.

فالرسول مُبلِّغ عن ربه ، وعلينا أن نحذر الشيطان إذا أراد أنْ يدخل علينا من باب الطاعة ، فالحق سبحانه يوضح لنا أن الإنسان له الاختيار فى أنْ يذهب إلى الطاعة ، وله الاختيار فى أنْ يذهب إلى المعصية.

وإنْ تولَّى الإنسان عن الطاعة إلى المعصية ، وعن الإيمان الذى جاء به الرسول الذى بلّغ عن الله إلى البقاء فى الكفر ، فليعلم ذلك الإنسان أن الرسول قد أوْفى مهمته وأدَّاها.

فالمطلوب من الرسول أنْ يبلغ المنهج ، وقد بلَّغ ﷺ بلاغاً مبيناً ، محيطاً ، واضحاً ، ومستوعباً لكل أقضية الحياة ، لقد أبلغنا ﷺ مطلوب الله منا أن نؤمن بإله واحد ، قادر ، حكيم ، له كل صفات الكمال ، ذلك هو الأمر الأول فى العقيدة.

وأبلغنا ﷺ أن نبتعد عما كان عليه العرب من الأنصاب ومن الأوثان ومن الأصنام ، وبلاغ الرسول ﷺ يطلب منا إيماناً وعملاً ، فأول مطلوب الإيمان هو الاعتقاد فى الإله الواحد ، وأن نكفَّ عن عبادة الأوثان والأصنام.

﴿ **هَذَا بَلاغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ (٥٢)** ﴾ **[إبراهيم]**

فمهمة الرسول ـ إذنْ ـ هى البلاغ عن الله لمنهج الحياة الذى يصون حركة الحياة ، ويقول سبحانه عن مهمة الرسول: ﴿ **وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ (٤٠)** ﴾ **[الرعد]**

ويقول سبحانه: ﴿ **الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلاَّ اللَّهَ (٣٩)** ﴾ **[الأحزاب]**

وحين يقول الحق سبحانه: ﴿ **هَذَا بَلاغٌ لِّلنَّاسِ (٥٢)** ﴾ **[إبراهيم]**

فهو يُحدِّد لنا قِوام الدين بعد تلقِّيه من رسول الله ﷺ أن يُبلِّغه مَنْ سمعه لمن لم يسمعه.

ولذلك قال ﷺ :«نضَّر [1] الله امرءًا سمع مقالتى فوعاها ، وأداها إلى من لم يسمعها»[2].

وذلك لتبقى سلسلة البلاغ متصلة ، وإنْ لم يُبلغ قوم فالوِزْر على مَنْ لم يُبلّغ ، وبذلك يحرم نفسه من شرف التبعية لرسول الله ﷺ فمَنْ يعلم حكماً

---

(١) النضرة: النعمة والحُسْن والرونق. وقال الحسن المؤدّب: ليس هذا من الحسن فى الوجه ، إنما معناه: حسَّن الله وجهه فى خُلُقه أى: جاهه وقدره .[لسان العرب ـ مادة: نضر].

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (١/ ٤٣٧) ، والترمذى فى سننه (٢٦٥٧،٢٦٥٨) ، وابن ماجه فى سننه (٢٣٢) والحميدى فى مسنده (١/ ٤٧) من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه.

من أحكام الدين ، فالمطلوب منه هو تبليغه للغير ، مثلما طلب الحق سبحانه من رسوله أن يُبلِّغ أحكامه.

والحق سبحانه هو القائل: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا (١٤٣)﴾ [البقرة]

وهكذا شهد الرسول ﷺ أنه بلَّغكم، وبقى على كل مسلم يعلم حكماً من أحكام الدين أن يُبلِّغه لمن لا يعرفه، فقد ينتفع به أكثر منه ، وبعد أن سمع الحكم قد يعمل به ، بينما مَنْ أبلغه الحكم لا يعمل به.

وهكذا يتحمل المسلم مسئولية الإبلاغ بما يعرف من أحكام الدين لمن لا علمَ لهم به ، لتظل الرسالةُ موصولةً ، وكلنا نعلم أن الحق سبحانه قد قال: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ (١١٠)﴾ [آل عمران]

أي: أنكم يا أمة محمد قد أخذتم مهمة الأنبياء.

﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٥٠)﴾ [الحج]

وطالما آمنوا وعملوا الصالحات فقد انتفعوا بالنذارة ، وأثمرتْ فيهم ، فآمنوا بالله إلهاً فاعلاً مختاراً له صفات الكمال المطلق ، ثم عملوا على مقتضى أوامره ؛ لذلك يكون لهم مغفرة إنْ كانت ألَمَّتْ نفوسهم بشيء من المعاصى ، ويكون لهم رزق كريم.

والحق سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَٰذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٥)﴾ [البقرة]

والبُشْرى هنا إعلام بخير قادم للمؤمنين ، والإيمان هو الرصيد القلبى للسلوك ؛ لأن مَنْ يؤمن بقضية يعمل من أجلها ، والإيمان أنْ تنسجم حركة

الحياة مع ما فى القلب وَفْق مراد الله سبحانه وتعالى ، ونظام الحياة لا يقوم إلا على إيمان ، فكأن العمل الصالح ينبوعه الإيمان.

الحق ـ تبارك وتعالى ـ بشَّر الذين آمنوا وعملوا الصالحات بجنات تجرى من تحتها الأنهار ، والجنات جمع جنة ، وهى جمع لأنها كثيرة ومتنوعة ، وهناك درجات فى كل جنة أكثر من الدنيا ، واقرأ قوله تعالى: ﴿ **انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً (٢١)** ﴾ **[الإسراء]**

الجنات نفسها متنوعة ، فهناك جنات الفردوس ، وجنات عدن ، وجنات نعيم ، وهناك دار الخُلْد ، ودار السلام ، وجنة المأوى ، وهناك عِلِّيُّون الذى هو أعلى وأفضل الجنات ، وأعلى ما فيها التمتع برؤية الحق تبارك وتعالى ، وهو نعيم يعلو كثيراً عن أى نعيم فى الطعام والشراب فى الدنيا.

والطعام والشراب بالنسبة لأهل الجنة لا يكون عن جوع أو ظمأ ، وإنما عن مجرد الرغبة والتمتُّع.

والله جلَّ جلاله فى هذه الآية يعد بأمر غيبى ؛ ولذلك فإنه لكى يُقرِّب المعنى إلى ذهن البشر ، لا بُدَّ من استخدام ألفاظ مشهودة وموجودة ، أى: عن واقع نشهده.

واقرأ قوله تبارك وتعالى: ﴿ **فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٧)** ﴾ **[السجدة]**

إذن: ما هو موجود فى الجنة لا تعلمه نفس فى الدنيا ، ولا يوجد لفظ فى اللغة يُعبِّر عنه ، ولا مَلَكة من مَلَكات المعرفة كالسمع والنظر قد رأته ؛ ولذلك استخدم الحق تبارك وتعالى الألفاظ التى تتناسب مع عقولنا وإدراكنا.

قال تعالى: ﴿ **جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ (٢٥)** ﴾ **[البقرة]**

على أن هناك آيات أخرى تقول ﴿تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ ۝١٠٠﴾ [التوبة]

فما الفرق بين الاثنين؟ فتجري تحتها الأنهار ، أي: أن نَبْع الماء من مكان بعيد وهو يمرُّ من تحتها ، أما قوله تعالى: ﴿مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ۝٢٥﴾ [البقرة] فكأن الأنهار تنبع تحتها ، حتى لا يخاف إنسان من أن الماء الذى يأتى من بعيد يُقطع عنه أو يجفّ ، وهذه زيادة لاطمئنان المؤمنين أن نعيم الجنة باق وخالد.

وما دام هناك ماء ، فهناك خُضْرة ومنظر جميل ، ولابُدَّ أن يكون هناك ثمر ، وفي قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا ۝٢٥﴾ [البقرة]

حديث عن ثمر الجنة ، وثمر الجنة يختلف عن ثمر الدنيا ، إنك في الدنيا لابُدَّ أنْ تذهب إلى الثمرة وتأتي بها ، أو يأتيك غيرك بها ، ولكن في الجنة ، الثمر هو الذى يأتى إليك ، بمجرد أنْ تشتهيه تجده في يدك.

وتعتقد أن هناك تشابهاً بين ثمر الدنيا وثمر الجنة ، ولكن الثمر في الجنة ليس كثمر الدنيا ، لا في طَعْمه ولا في رائحته ، وإنما يرى أهلُ الجنة ثمرها ويتحدثون يقولون ربما تكون هذه الثمرة هي ثمرة المانجو أو التين الذى أكلناه في الدنيا ، ولكنها في الحقيقة تختلف تماماً ، قد يكون الشكل متشابهاً ، ولكن الطَّعْم وكل شيء مختلف.

يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ[1] أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ۝٥١﴾ [الحج]

والسعى : عمل يذهب إلى غاية ، فإنْ كان قَطْع مسافة نقول: سِرْنا من

(١) قال الزجاج : معناه ظانِّين أنهم يُعجزوننا ؛ لأنهم ظنوا أنهم لا يُبعثون ، وأنه لاجنة ولانار ، وقيل في التفسير : معاجزين معاندين . وقال ابن عرفة : أي يعاجزون الأنبياء وأولياء الله، أي: يقاتلونهم ويمانعونهم ، ليصيروهم إلى العجز عن أمر الله، وليس يعجز الله خلق في السماء ولا في الأرض، ولاملجأ منه إلا إليه. [لسان العرب ـ مادة :عجز].

كذا إلى كـذا ، وإنْ كان فى قضـية علميـة فكرية ، فيعنى أن الحـدث يعمل من شىء بداية إلى شىء غاية.

والسَّعْى لا يُحمد على إطلاقه ، ولا يُذَمُّ على إطلاقـه ، فإنْ كان فى خير فهـو محـمود ممدوح ، كـالسَّعْى الذى قـال الله فـيه: ﴿ **فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا** (١٩) ﴾ [الإسراء]

وإنْ كـان فى شرٍّ فـهـو قبـيح مذمـوم ، كـالسعى الـذى قال الله تعـالى فيـه: ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ** (٢٠٤) **وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ** (٢٠٥) ﴾ [البقرة]

وهم يظنون أنهم قـادرون أن يُعـجزونا ، فـحـين نأتى إليـهم بكلام بليغ مُعجز يختلقون كلامـاً فارغاً ليُعجِزونا به ، فأنَّى يكون لهم ذلك؟ وأنَّى لهم أنْ يطعنوا بكلامهم على كلام الله؟

﴿ **أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ** (٥١) ﴾. [الحج]

فهـذا حكم الله فيهم ، قـضية واضـحة من أقصـر الطرق ، فمَنْ ذا الذى يُعجز الله؟

١٤ عجز الآلهة

يعلن الحق سبحانه على الناس جميعاً في الآفاق ، إعلاناً مدوياً عاماً ، عن ضعف الآلهة المدَّعاة ، التي يتخذها الناس من دون الله.. يعلن عن هذا الضعف في صورة مَثَل معروض للأسماع والأبصار، مُصوَّر في مشهد شاخص متحرك ، تتملاه العيون والقلوب.. مشهد يرسم الضعف المزري ، ويمثله أبرع تمثيل.

يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لاَّ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ (٧٣) مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٧٤)﴾ [الحج]

والمثَل: تشبيه شيء غير معلوم بشيء آخر معلوم وعجيب وبديع يعلَق في الذِّهْن ، كما نصف لك إنساناً لم تَرَه بإنسان تعرفه. نقول: هو مِثْل فلان ، وهكذا كل التشبيهات.

ومنه قوله تعالى: **﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِى اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَاتٍ لاَّ يُبْصِرُونَ (١٧)﴾ [البقرة]**

وقوله تعالى: **﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (١٧٦)﴾ [الأعراف]**

وقوله تعالى: **﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ**

بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٤١)﴾ [العنكبوت]

إذن: الأمثال: إعلام بشيء معلوم ليصل العلم فيه إلى شيء مجهول، وكلمة (مثل) استقلت بأن يكون المثَلُ بديعاً في النسج، بليغاً موجزاً، بحيث تتناقله الألسنة بسرعة في كلمات معدودة.

فالمثَل قول مُوجز بليغ قيل في مناسبته، ثم استعمله الناس لخفَّته وجماله وبلاغته في المواقف المشابهة.

والحق - تبارك وتعالى - يضرب لكم هذا المثَل ويقول: خذوه في بالكم وانتبهوا له، وافتحوا له آذانكم جيداً واعقلوه؛ لأنه سينفعكم في علاقتكم برسول الله وبالمؤمنين.

والخطاب هنا مُوجَّه للناس كافّة، لم يخُصّ أحداً دون أحد، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ (٧٣)﴾ [الحج] فلم يقل يأيها المؤمنون؛ لأن هذا المثَل مُوجَّه إلى الكفار، فالمؤمنون ليسوا في حاجة إليه.

﴿ فَاسْتَمِعُوا لَهُ (٧٣)﴾ [الحج] يعني: انصتوا وتفهَّموا مراده ومرماه، لتسيروا في حركتكم على وَفْق ما جاء فيه، وعلى وَفْق ما فهمتم من مغزاه.

والحق - سبحانه وتعالى - يضرب لنا الأمثال بالأمور الحسية، كي ينقل المعاني إلى أذهاننا؛ لأن الإنسان له إلْفٌ بالُمحسِّ، وإدراكات حواسه تعطيه أموراً حسِّية أولاً، ثم تحقق له المعاني بعد ذلك.

وقد أعطانا الحق سبحانه هنا مَثَلاً، فما هو هذا المثل؟

يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ (٧٣)﴾ [الحج]

فالذين تعبدونهم وتتجهون إليهم من دون الله ﴿ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا (٧٣) ﴾ [الحج] وهو أصغر المخلوقات ﴿ وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ (٧٣) ﴾ [الحج] يعنى : تضافرت جهودهم ، واجتمع أمرهم جميعاً لا واحداً واحداً ، وهذا ترقٍّ فى التحدى ، حيث زاد فى قوة المتحدَّى.

كما ترقَّى القرآن فى تحدِّى العرب ، فتحداهم أولاً بأنْ يأتوا بمثل القرآن ، ولأن القرآن كثير تحدَّاهم بعشرسور فما استطاعوا ، فتحداهم بسورة واحدة فلم يستطيعوا.

ثم يترقَّى فى التحدى فيقول: ﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ (٨٨) ﴾ [الإسراء]

فكأنه سبحانه يقول: اجمعوا كل فصحائكم وبلغائكم بل والجن أيضاً يساعدونكم ولن تستطيعوا.

وقوله تعالى: ﴿لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا (٧٣) ﴾ [الحج] جاءت بنفى المستقبل ، فلم يقُلْ مثلاً: لم يخلقوا ، فالنفى هنا للتأبيد ، فهم ما استطاعوا فى الماضى ، ولن يستطيعوا أيضاً فيما بعد ، حتى لا يظن أحد أنهم ربما تمكّنوا من ذلك فى مستقبل الأيام ، ونفى الفعل هكذا على وجه التأبيد ؛ لأنك قد تترك الفعل مع قدرتك عليه ، إنما حين تتحدّى به تفعل لتردَّ على هذا التحدى ، فأوضح لهم الحق سبحانه أنهم لم يستطيعوا قبْلُ التحدى ، ولن يستطيعوا بعدُ التحدى.

ثم يقول تعالى: ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لاَّ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ (٧٣) ﴾ [الحج] فقد تقول : إن عملية الخَلْق هذه عملية صعبة لا يتحدَّى بها ؛ لذلك تحدَّاهم بما هو أسهل من الخَلْق.

﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لاَّ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ (٧٣) ﴾ [الحج] وهل يستطيع

أحد أنْ يُعيد ما أخذه الذباب من طعامه على جناحه ، أو رِجْلَيْه ، أو خرطومه؟

وكانوا يذبحون القرابين عند الأصنام ، ويضعون أمامها الطعام ليباركوه، فكانت الدماء تسيل عندها وتتناثر عليها ، فيحطّ عليها الذباب ، ويأخذ من هذه الدماء على أَرْجُله النحيفة هذه ، أو على أجنحته ، أو على خرطومه ، فتحدّاهم أنْ يستعيدوا من الذباب ما أخذه ، وهذه مسألة أسهل من مسألة الخَلْق.

ولك أن تُجرِّب أنت هذه العملية ، إذا وقع ذباب على العسل الذى أمامك ، فلا بُدَّ أنْ يأخذ منه شيئاً ولو كان ضئيلاً لا يُدْرَك ، ولا يُوزَن ، ولاتكاد تراه ، لكن أتستطيع أن تُمسك الذبابة ، وتردّ ما أخذتْ منك؟

فهؤلاء الشركاء لم يخلقوا شيئاً ، ولن يستطيع أحد الادعاء بأن هؤلاء الشركاء عندهم نية الخَلْق ، ولكن مجىء «لن» هنا يؤكد أنهم حتى بتنبيههم لتلك المسألة فلسوف يعجزون عنها ؛ لأن نفى المستقبل يستدعى التحدِّى ، رغم أنهم آلهة متعددة ، ولو اجتمعوا فلن يخلقوا شيئاً.

ويستمر التحدى فى قوله سبحانه : ﴿**وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لاَّ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ** (٧٣)﴾ [الحج]

أى: لو أخذ الذبابُ بساقه الرفيعة شيئاً مما يملكون لَمَا استطاعوا أنْ يستخلصوه منه.

وهكذا ، يتضح أن الحق سبحانه وحده هو الخالق لكل شىء وتلزم عبادته وحده لا شريك له ، وهو جَلَّ وعلا المتفرد بالربوبية والألوهية ، وهو القهار المتكبر ، والغالب على أمره أبداً ، فكيف يكون مَنْ دونه مساوياً له؟ لذلك لا شريكَ له أبداً.

ولذلك يقول الحق سبحانه: ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (١٩١) ﴾ [الأعراف]

أيشركون فى عبادة الله مَنْ لا يخلقون شيئاً ، وهم أنفسهم مخلوقون لله إن مَنْ أشركوا بالله الأصنام فعلوا ذلك بالوهم ، وتنازلوا عن العقل ، وكان الواجب أنْ يكونوا عقلاء ، فلا يتخذون من الأصنام آلهة.

والخَلْق - كما نعلم - أول مرتبة من مراتب القدرة ، فإذا كانت الأصنام التى اتخذها هؤلاء شركاء لا تخلق شيئاً بإقرارهم هم ، فكيف يعبدونها؟ إنها لا تخلق شيئاً بدليل أنها لا تتناسل ، بل إذا أراد العابدون أنْ يزيدوا صنماً ، صنعه العابدون بأنفسهم.

وفى آية أخرى يقول تعالى: ﴿ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (١٦) ﴾ [الرعد]

أى: لو كان هؤلاء الشركاء قد خلقوا شيئاً مثل خَلْق الله ، لكان لهم أنْ يعقدوا مقارنة بين خَلْق الله وخَلْق هؤلاء الشركاء ، ولكن هؤلاء الشركاء الذين جعلوهم مشاركين لله فى الألوهية لا يقدرون على خَلْق الشىء ، فكيف يختارونهم شركاء لله؟

ولذلك يقول الحق سبحانه:

﴿ هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ (١١) ﴾ [لقمان]

والحق سبحانه يعرض علينا فى سورة النمل خَلْق الله ، وهو مُشَاهد للناس جميعاً ، ولكن الحق سبحانه يُفصِّل الأمر لعلّ الناس يتذكَّرون: ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ (٦٠) ﴾ [النمل]

﴿أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٦١)﴾ [النمل]

ومادام أن الله تعالى ادَّعى مسألة الخَلْق لنفسه سبحانه ، ولم يَقُمْ لهذه الدعوى منازع ، فقد ثبتت له سبحانه إلى أنْ يدعيها غيره ﴿أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ (٦٠)﴾ [النمل]

فإنْ كان هناك إله آخر خلق الخَلْق ، فأين هو : إما أنه لم يَدْر بهذه الدعوى ، أو درى بها وجَبُن عن المواجهة ، وفى كلتا الحالتين لا يصلح إلهاً ، وإلا فَلْيَأت هو الآخر بخَلْق ومعجزات أعظم مما رأينا.

فإذا قال الله تعالى: أنا الله ، ولا إله غيرى ، والخَلْق كله بسمائه وأرضه صنعتى ، ولم يوجد معارض فقد ثبتت له القضية.

فالحق سبحانه يريد أنْ يبنى التصوُّر الإيمانى على جذور ثابتة فى النفس البشرية ؛ لأن الإنسان الذى يُفَاجأ بهذا الكون ، وفيه سماء بهذا الشكل بلا عَمَد ، وتحتها الكواكب ، وأرض مستقرة ، بالله ألاَ يفكر فيمَنْ صنع هذا؟

والله لو أن واحداً استيقظ من نومه ووجد سُرَادقاً قد نُصب فى الميدان ليلاً لوقف ليسأل: ما الحكاية؟ فما بالنا بواحد فتح عينيه فوجد هذا الكون المنتظم الذى يعطيه أسباب الحياة؟

ولو أن إنساناً وقعتْ به طائرة فى صحراء ، ولم يجد فيها ماء ولا شجراً ولا أناساً ، ولأنه مُجْهَد غلبه النوم ، فاستيقظ فوجد مائدة عليها أطايب الطعام بالله قبل أنْ يمدَّ يده لينتفع بها ألاَ يجول فكْره فيمَنْ صنع هذه؟

إن دهشته من الحدث تجعله يفكر فيمن جاء بها قبلما يذوق الطعام رغم أنه جوعان ، فكذلك الناس الذين فتحوا عيونهم فوجدوا هذا الكون العجيب ، وبعد ذلك لم يدَّع أحد منهم أنه خلقه.

ولو كان أحد قد ادَّعى أنه خلقه لكانت المسألة تسهل ، لكن أحداً لم يدَّع صُنْعه ، هذا الكون الذى نراه جميعاً بانتظامه الرائع وقوانينه الثابتة. هل قال أحد : إننى صنعته ؟ لا .

إذن : فالذى قال: إننى صنعته تَسْلَم له الدعوة ، حتى يأتى واحد آخر يقول : أنا الذى صنعتُه ، لم يحدث هذا قط برغم وجود الملاحدة والمفترين على الله.

ولذلك جاء قوله تعالى: ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ (٦٠) ﴾ [النمل]

كأن الحق يقول: إن لم أكُنْ أنا الذى خلقتُ ، فمن الذى خلق إذن؟ ولم يجرؤ أحد على أن ينسب الكون لنفسه ؛ لأن الكفار والملاحدة لا يستطيعون خَلْق شىء تافه من عدم.

ومثال ذلك كوب الماء الذى تركه الله ولم يخلقه على الصورة التى هو عليها ، كى يصنعوه ليفهموا أن كل شىء تم بخَلْقه سبحانه كوبَ الماء ، هذا شىء أترفَ الحياة ، وقبل أنْ تتم صناعة الكوب كنا نشرب ، ولم يكُنْ هناك شجر يطرح ويثمر أكواباً ، بل صنعه إنسان أراد أنْ يُترف الحياة.

فإذا كان هذا الشىء الصغير له صانع ، جال فى نواحى علوم شتى وفى المادة ، ثم نظر إلى الأرض حتى وجد المادة التى عندما تُصهر تعطى هذه الشفافية واللمعان ، فجرب فى عناصر الأرض فلم يجد إلا الرمل ، واكتشف هذه المادة ومزجها بمواد أخرى لصَهْرها وإذابتها ، واحتاجتْ صناعة الكوب إلى معامل وعلماء.

كل هذا من أجل الكوب الصغير الذى قد تستغنى عنه ، انظر ما يحتاجه لصُنْعه؟ احتاج طاقات جالتْ فى جميع مواد الأرض ، وإمكانات صناعية وأناساً يضعون معادلات كيماوية ، فما بالنا بالأشياء الأصلية ، وكم تحتاج؟

إن كل صنعة تحتاج على قدرها ، ولم يقُلْ أحد: إننى صنعتها. فيقول الحق: مَن الذى صنع كل هذا؟ وساعة يطرح سؤالاً فهو لا يريد أن يجعل القضية إخبارية منه ، وهو القادر أن يقول: أنا الذى خلق السماء والأرض. فماذا يفعل المسئول؟ إنه يتخبط فى إجابته ، ثم فى النهاية لا يجد إلا الله.

وكأن السائل لايطرح هذا السؤال إلا إذا وثق أن الإجابة لا تكون إلا على وَفْق ما يريد ﴿ **أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ(٦٠)** ﴾ **[النمل]**

وجاء هنا بالحاجة المباشرة ﴿**فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ(٦٠)**﴾ **[النمل]**

أى: أنها تسرُّ النظر بما فيها من خُضْرة ونضارة وطراوة وظلٍّ وأزهار وثمار ، ولم يختصر الأمر فيقول (لتأكلوا منها) لأن الذى يأكل هو الذى يملك فقط ، لكن جمال المنظر لا يحجزه أحد عن كل مَنْ يرى ، ويستمتع بما يراه ، وكل منا عندما يرى بستاناً جميلاً يسرُّه منظره ، صحيح أنك لا تمدّ يدك لتأكل منه ؛ لأنه ليس ملْكك لكن هل يمنعك أحد أنْ تُمتِّع به نظرك ، وأنْ تُمتّع أنفك برائحته الجميلة؟ لا.

وهكذا جاء الحق بالنعمة الشائعة لمن يملك ولمن لا يملك ، فقال: ﴿**ذَاتَ بَهْجَةٍ(٦٠)**﴾**[النمل]** ونعرف أن الحق ـ سبحانه وتعالى ـ حين يمتنُّ بالأشياء يوضح لك: إياك أنْ تفهم أن الغرض من هذه المسألة أن تأكلها لتملأ بها بطنك فقط ؛ لأن هناك أشياء جميلة لا ننتفع بها أَكْلاً ، فهناك ألوان من الشجر ليس له ثمرة لكن لا بُدَّ أن له عملاً ، فورقه الجميل قد يفيد فى الظل وما يُشيعه من رائحة تعطر الجو ، وبه خشب نحتاج إليه ، وبجانب هذا نجد أشجاراً لها ثمار جميلة ننتفع بها.

ولذلك يقول الحق: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ [1] دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٩٩)﴾ [الأنعام]

وسبحانه بديع السماوات والأرض، سبحانه هو القوى الذى خلق، وهو حَيٌّ لا يموت، سبحانه هو الخالق للكون، والعليم بكل ما فيه، ولا يحتاج إلى معاونة من أحد.

﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (١٠٢)﴾ [الأنعام]

وما دام هو خالق كل شيء وهو الباقى فهو الأحق بالعبادة؛ لأن العبادة معناها طاعة الأمر وطاعة النهى، ومادام سبحانه الذى خلق فهو الذى يضع قانون الصيانة للإنسان والكون، وإنْ خالفت المنهج يفسد الكون والإنسان، وإذا فسد الكون أو الإنسان فأنت تلجأ إلى منهج الخالق لتعيد لكل منهما صلاحيته؛ لذلك فهو الأَوْلَى بالعبادة.

﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ (١٠٢)﴾ [الأنعام]

وهذه شهادة شهد بها لذاته قبل أنْ يخلق كل شيء، وقبل أن يخلق الملائكة، وشهدتْ بها ملائكته، وشهد بها أولو العلم.

يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ (١٨)﴾ [آل عمران]

إذن: فالله شهد بألوهيته من البداية، ومن أسمائه الحسنى «المؤمن»،

---

(١) القنو: العذق، وهو ذو الشماريخ المكللة بالبلح وجمعه: أقناء وقنوان. [القاموس القويم ٢/ ١٣٥].

ونحن مـؤمنون بالـله ، وربّنا المؤمن بأنه إله واحـد ، وهذا الإيـمـان منه أنه إله واحد يخاطب كل شيء يريده ، وهو يعلم أن أيَّ شيء لا يقدر أنْ يخالفه.

لذلك كان قوْل الحق سبحانه: ﴿مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٧٤)﴾[الحج] ، أى: أن هؤلاء الكفار الذين عبدوا آلهة من دون الله لا تستطيع أنْ تخلقَ ذباباً ، ولا تستطيع حتى أنْ تردَّ من الذباب مـا أخذه ، هؤلاء ما عرفوا لله قدره ، ولو عرفوا قدر الله ما عبدوا غيره.

ومعنى المقدار فى حقه تعالى عظمته فى صفات الكمال فيه ﴿مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ (٧٤)﴾[الحج] ما عظَّموه حقَّ التعظيم الذى ينبغى له ، وما عرفوا قدره ولو عرفـوا ما عبدوا غـيره ، ولا عبـدوا أحداً معه مـن هذه الآلهة التى لا تخلق ذباباً ، ولا حـتى تسـتـرد ما أخـذه منهم الـذباب ، فكيف يُسـوَوُّن هؤلاء بالله ويقارنونهم به عزوجل؟

إنهم لو عرفوا لله تعـالى قَدْره لاستحيـوا من ذلك كله ، لذلك كان قوْل الحق سبحـانه فى نهاية الآية ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ(٧٤)﴾[الحـج] ؛ لأن الحـق سبـحانه تكلـم فى المثَل السابق عـمَّنْ انصرفـوا عن عبـادته سبـحانه إلى عـبادة الأصنام ، وقال: ﴿ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ (٧٣)﴾ [الحج]

فقال فى مقابل هذا الضعف: إن الله لقوىٌّ ، قوة عن العابد لأنه ليس فى حاجة إلى عـبادته ، وقوة عن المعبـود ، لأنه لو شاء حطَّمه ، وما دُمْـتم انصرفتم عن الله وعبدتم غيره ، فهذا فيه مـضارة ، وكأن هناك معركة ، فإن كان كذلك فالله عزيز لا يُغَالَب.

وكان النبى ﷺ إذا أثنـى على الله تعالى يقول: «سبـحـانك لا نحصى

ثناء عليك ، أنت كما أثنيتَ على نفسك»[1]

لماذا ؟ لأنه لا يملك أحد مهما أُوتى من بلاغة الأسلوب أن يُثنى على الله الثناء المناسب الذى يليق به سبحانه ، ومن رحمة الله تعالى بعباده أنْ تحمل عنهم هذه المسألة فأثنى الحق سبحانه على نفسه ، وعلَّمنا كيف نُثنى عليه سبحانه.

فإذا ما تحدَّث البليغ وأثنى على الله بفنون القول والثناء ، فإن العَىَّ الذى لا يجيد الكلام يطمئن ، حيث يُثنى على ربه بما علّمه من الثناء ، وما وضعه من صيغ يقولها الفيلسوف ، ويقولها راعى الشاة.

ولولا أن الله تعالى علَّمنا صيغة الحمد فى سورة الفاتحة ، فقال: ﴿ **الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ** ﴿٢﴾ ﴾[**الفاتحة**] ما تعلَّمنا هذه الصيغة ، فتعليم الله لعباده صيغة الحمد فى ذاتها نعمة تستحق الحمد ، والحمد يستحق الحمد ، وهكذا فى سلسلة لا تنتهى ، ليظل الحق - تبارك وتعالى - محموداً دائماً ، ويظل العبد حامداً دائماً.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٦ / ٥٨، ١٢٠) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٤٨٦) من حديث عائشة رضى الله عنها قالت: فقدت رسول الله ﷺ ليلة من الفراش فالتمسته فوقعت يدى على بطن قدميه وهو فى المسجد وهما منصوبتان وهو يقول: «اللهم أعوذ برضاك من سخطك ، وبمعافاتك من عقوبتك ، وأعوذ بك منك ، لا أحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك».

١٥ يوم الفزع الأكبر

ذلك اليـــوم الذي يقطع أواصـــر الرحم والنسب ، ويشغل الوالد عن الولد ، ويحول بين المولود والوالد ، وتقف كل نفس فيه وحيدة فريدة مجردة من كل عون ومن كل سند ، مـــوحـــشـــة من كل قُـــرْبى ومن كل رابطة .

يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ (٣٣) ﴾ [لقمان]

ساعة يسمع الإنسـان أى أمر فيه فتنة ، فلا يظن أنهـا أمر سيء ، بل عليه أنْ يتذكَّـر أن الفتنة اختبـار وابتلاء وامتحـان ، وعلى الإنسان أنْ ينجح مع هذه الفتنة ، فالفتنة إنما تضرّ مَنْ يخفق ، ويضعف عند مواجهتها.

والكافرون لا ينجحون فى فـتنة الأموال والأولاد ، بل سوف يأتى يوم لا يملكون فيه هذا المال ، ولا أولئك الأولاد ، وحتى إنْ ملكوا المال فلن يشتروا به فى الآخرة شيئاً ، وسيكون كل واحد من أولادهم مشغولاً بنفسه.

إن كل امرىء له يـوم القيامـة شأن يُلهـيه عن الآخرين ، والـكافرون فى الدنيا مشغولون بأموالهم وأولادهم.

كما قال تعالى: **﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ (٣٦) لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ (٣٧) ﴾ [عبس]**

لذلك حينما حدَّث رسول الله ﷺ أننا سنُحشَـرُ يوم القيامة حُفاة عُراة تعجبتْ السيدة عائشة ، واستحيَتْ من هذا الموقف ، فأخبرها رسول الله ﷺ أن الأمر ليس كذلك ، فـهذا موقف ينشغل كلٌّ بنفسـه ، والحال أصعب من أن ينظر أحد لأحد(١).

إذن : النفي لنفي الأنساب ، لا للأنساب نفسها.

وإن كان نَفْع الأسـباب يمتنع لهَـوْل الآخرة فقد يتـسامى الإنسان فـيمنع نَفْعه حتى فى الدنيا عن ذوى قرابته إنْ كانوا غير مؤمنين ، وقد ضربها الله مثلاً فى قصة نوح عليه السلام وولده ، وخاطبه ربه: ﴿**إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ**(٤٦)﴾ [هود]

فامتنع النسب حتى فى الدنيا ، فالبنوة ليست بُنوة الدم واللحم ، البنوة ـ خاصة عند الأنبياء ـ بُنوة عمل واتباع.

وإذا تأملتَ تاريـخ المسلمـين الأوائل لـوجـدتهم يعـتــزّون بالإسـلام لا بالأنسـاب ، فالدين والعـقـيدة همـا اللُّحْـمة ، وهمـا الرابطة القـوية التى تربط الإنسان بغيره ، وإنْ كان أدنى منه فى مقاييس الحياة.

قرأنا فى قصة بدر أن مصعب بن عمير(٢) ـ رضوان الله عليه ـ وكان فتى قريش المدلل ، وأغنى أغنيـائها ، يلبس أفخر الثـياب ويعيش ألْيَنَ عيـشة ، فلما

(١) أخـرج الإمام أحـمد فى مـسنده (٦/ ٩٠)، والنسـائى فى سننه (٤/ ١١٤) والحـاكم فى مسـتدركـه (٤/ ٥٦٤) من حديث عائشة ﵂ قالت: قال النبى ﷺ : «يبـعث الله الناس يوم القيامة حفاة عراة غُرْلاً. فقالت عائشة : يارسول الله، فكيف بالعـورات؟ قال: لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه» قال الحاكم: «صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه».

(٢) هو : أبو محمد مصـعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف، أمه خُناس بنت مـالك، وقد كان مصعب فتى مكة شباباً وجمالاً،وكانت أمه كثيرة المال تكسوه أحسن ما يكون من الثياب وأرقّه، وكان أعطر أهل مكة، كتم إسـلامه ولكن انكشف أمـره فحبسـته أمه وقـومه ولم يزل محـبوساً حتى هاجر إلى الحبشة. اسـتشهد فى يوم أحد، قال عـامر بن ربيعة: كان رفيقى من بين الـقوم، فلم أر رجلاً قط كان أحسن خلقاً، ولا أقلّ خلافاً منه. [الطبقات الكبير لابن سعد ٣/ ١٠٩].

أُشرِب قلبه الإيمان زهد فى كل هذا النعيم ، وحُرِم من خير أهله ، ثم هاجر إلى المدينة ، وهناك رآه رسول الله ﷺ يلبس جلد شاة ، فقال: «انظروا ماذا فعل الإيمان بأخيكم» (١).

وفى المعركة ، رأى مصعب أخاه أبا عزيز (٢) أسيراً فى يد واحد من الأنصار هو الصحابى أبو اليَسَر (٣) ، فقال له مصعب: اشْدُد على أسيرك - يعنى : إياك أنْ يُفلت منك - فإن أمه غنية ، وستفديه بمال كثير ، فنظر أبو عزيز إلى مصعب ، وقال: أهذه وصاتك بأخيك؟ فقال: هذا أخى دونك.

إذن : فلا أنسابَ بينهم ، حتى فى الدنيا قبل الآخرة

وفى غزوة أُحُد ، استُشْهد مصعب بن عمير ، ولم يجدوا ما يُكفِّنونه فيه إلا ثوباً قصيرًا ، إنْ غطّى رأسه انكشفتْ رِجْلاه ، وإنْ غطّى رِجْلَيْه انكشفتْ رأسه ، فقال النبى ﷺ : «غطُّوا رأسه ، واجعلوا على رِجْلَيْه من الإذخر (٤)» (٥).

---

(١) أخرج أبو نعيم فى حلية الأولياء (١/ ١٠٨) عن عمر بن الخطاب قال: نظر النبى ﷺ إلى مصعب ابن عمير مقبلاً وعليه إهاب كبش قد تنطَّق به. فقال ﷺ : انظروا إلى هذا الرجل الذى قد نوَّر الله قلبه، لقد رأيته بين أبوين يغذوانه بأطيب الطعام والشراب، فدعاه حب الله ورسوله إلى ما ترون. قال الحافظ العراقى فى تخريجه لأحاديث إحياء علوم الدين (٤/ ٢٩٥):«إسناده حسن» .

(٢) أبو عزيز هو : زرارة بن عمير أخو مصعب بن عمير، له صحبة وسماع من النبى ﷺ ، واتفق أهل المغازى على أنه أُسِرَ يوم بدر. انظر الإصابة فى تمييز الصحابة لابن حجر العسقلانى [ترجمة ٧٥٣ الكنى].

(٣) أبو اليَسَر [بفتح الياء والسين]: هو كعب بن عمرو الأنصارى شهد العقبة وبدراً، وله فيها آثار كثيرة، وهو الذى أسر العباس بن عبدالمطلب، كان قصيراً عظيم البطن، مات بالمدينة عام ٥٥ هجرية [الإصابة ترجمة ١٢٤٣].

(٤) الإذخر: حشيشة طيبة الرائحة يسقف بها البيوت فوق الخشب. [لسان العرب - مادة : ذخر].

(٥) حديث متفق عليه. أخرجه البخارى فى صحيحه (١٢٧٦)، ومسلم فى صحيحه (٩٤٠) من حديث خباب بن الأرت رضي الله عنه.

والسيدة أم حبيبة بنت أبى سفيان لما أسلمتْ وهاجرت مع زوجها إلى الحبشة ، لكن اتهمها البعض بأنها هاجرتْ ، لا من أجل دينها ، ولكن من أجل زوجها ، فيشاء الله تعالى أن يُظهر براءتها ، فيتنصَّر زوجها عبيد الله بن جحش هناك ، وتظل هى على الإيمان ، ولما علم رسول الله ﷺ بأمرها أراد أنْ يُعوِّضها فخطبها لنفسه ، ولم ينتظر إلى أنْ تجيء ليعقد عليها ، فوكّل النجاشى ملكَ الحبشة ليعقد له عليها(١).

وبعد زواجها من رسول الله ﷺ أراد أبوها أبو سفيان زيارتها ، وكانت تمهِّد فراش رسول الله ، فلما أراد أبو سفيان أنْ يجلس عليه نحَّتْه جانباً، ومنعته أنْ يجلس - وهو كافر - على فراش رسول الله ، فقال: أضناً بالفراش عليَّ؟ فقالت: نعم(٢).

إذن: نَفْع الأنساب يمتنع فى الدنيا قبل امتناعه فى الآخرة ، لكن الحق - سبحانه وتعالى - تفضَّل بأنْ أبقى مطلوبات النسب فى الدنيا، ودعانا إلى الحفاظ عليها حتى مع الكافرين ؛ لأنه سبحانه وسع الكافر ، فعلى المؤمن أن يسَعه من باب أَوْلَى ، فإنْ رأيتَ الكافر فى شدة ، وقدرْتَ أنْ تُعينه فَأَعنْه.

واقرأ فى هذا قوله تعالى: ﴿**وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا**(١٥)﴾ [لقمان]

(١) قال ابن الجوزى فى صفة الصفوة (٢/ ٣١) :«بعث رسول الله ﷺ عمرو بن أمية الضمرى إلى النجاشى ملك الحبشة ليخطبها عليه فزوّجها إياه وأصدق عنه النجاشى أربعمائة دينار وبعث بها إلى شرحبيل بن حسنة . وقيل: وكّلت خالد بن سعيد بن العاص فزوّجها، وذلك سنة سبع من الهجرة».

(٢) أورده ابن الجوزى فى صفة الصفوة (٢/ ٢٣): «أن أبا سفيان قال لابنته أم حبيبة بعد أن طوت فراش رسول الله ﷺ : يابنية ، أرغبتِ بهذا الفراش عنى، أم بى عنه؟ فقالت: بل هو فراش رسول الله ﷺ وأنت امرؤ نجس مشرك. فقال: يا بنية، لقد أصابك بعدى شر» ومعلوم أن أبا سفيان أسلم فيما بعد فى فتح مكة.

فهما كافران ، بل ويريدانك كافراً ، ومع ذلك احفظ لهما حقَّ النسب ، ولا تقطع الصلة بهما.

ويُرْوى أن إبراهيم - عليه السلام - وقد أعطاه الله الخُلَّة ، وقال عنه: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ (٣٧)﴾ [النجم] وابتلاه بكلمات فأتمهُنَّ ، مرَّ عليه عابر سبيل بليل ، فقبل أنْ يُدخله ويُضيفه سأله عن ديانته ، فأخبره أنه غير مؤمن ، فأعرض عنه إبراهيم - عليه السلام - وتركه ينصرف . فأوحى الله إليه: يا إبراهيم وسعْتُ عبدى وهو كافر بى ، وتريده أنْ يُغيِّر دينه لضيافة ليلة؟

فأسرع إبراهيم خلف الرجل حتى لحق به ، وأخبره بما كان من عتاب ربه له فى شأنه ، فقال الرجل: نعْم الرب الذى يعاتب أحبابه فى أمر أعدائه ، وشهد أن لا إله إلا الله وأن إبراهيم رسول الله.

ويرتقى أهل المعرفة بالنسب فيرَوْنَ أنه يتعدَّى الارتباط بسبب وجودك ، وهو الأب أو الأم ، فالنسب وإنْ كان ميلاد شىء من شىء ، أو تفرُّع شىء من شىء فهناك نسب أعلى ، لا لَمنْ أوجدك بسبب ، وإنما لَمنْ أوجدك بلا سبب الوجود الأول ، فكان عليك أنْ تراعى هذا النسب أولاً الذى أوجدك من عدم ، وإنْ أثبتَّ حقاً للوالدين ؛ لأنهما سبب وجودك ، فكيف بالمُوجد الأعلى؟

فقوْل الحق سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا (٣٣)﴾ [لقمان]

أى: أن الإنسان لا يمكن أنْ يجزى عن إنسان مهما بلغتْ قرابته ، لايجزى الولد عن أمه أو أبيه ، أو يجزى الوالد عن أولاده.

فعدْل الله يقتضى أن يُحاسَب الإنسان بعمله ، وأنْ يُسأل عن نفسه ، فلا يرمى أحد ذنبه على أحد.

وحول هذه القضية تحدَّث كثير من المستشرقين الذين يبحثون فى القرآن عن مأخذ ، فوقفوا عند هذه الآية :

﴿وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ (١٥)﴾ [الإسراء]

وقالوا: كيف نُوفِّق بينها وبين قوله: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ (١٣)﴾ [العنكبوت]

وقوله تعالى: ﴿ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلا سَاءَ مَا يَزِرُونَ (٢٥)﴾ [النحل]

ونقول: التوفيق بين الآية الأولى والآيتين الأخيرتين هيِّن لو فهموا الفرق بين الوِزْر فى الآية الأولى ، والوِزْر فى الآيتين الأخيرتين.

ففى الأولى وِزْر ذاتىٌّ خاص بالإنسان نفسه ، حيث ضلَّ هو فى نفسه ، فيجب أنْ يتحمل وِزْر ضلاله ، أما فى الآية الثانية فقد أضلَّ غيره ، فتحمَّل وِزْره الخاص به ، وتحمَّل وزر مَنْ أضلَّهم.

لذلك قال الحق سبحانه:

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ (١٧٠)﴾ [البقرة]

وهذه الآية تعالج قضية خطيرة فى المجتمع الإسلامى ، قضية تقليد الناس لعادات آبائهم ، والتقليد هو نشأة طبيعية فى الإنسان ؛ لأن الإنسان حين يخرج للوجود مُمداً بطاقة الحياة ، فهذه الطاقة تريد أنْ تتحرك ، وحركتها تأتى دائماً وَفْق ما ترى من حركة السابق لها.

فالطفل الصغير لا يعرف أن يده تتناول أشياء ، إلا إذا رأى فى البيئة المحيطة به إنساناً يفعل ذلك ، وحين يريد الطفل أن يتحرك فهو يُقلِّد حركة

الذين حوله ؛ ولذلك تجد الأطفال دائماً يُقلِّدون آباءهم فى معظم حركاتهم ، وحين يوجد الأطفال مع أجيال متعاقبة تمثل أعماراً مختلفة ، فإن الطفل الصغير يُقلِّد فى حركته البدائية خليطاً من حركات هذه الأجيال ، فهو يُقلِّد جدَّه ، ويُقلِّد جدَّته ، ويُقلِّد أباه وأمه ، وإخوته ، فتنشأ حركات مختلطة تمثل الأجيال كلها.

ولذلك ، فاندماج الطفل فى أسرة مكونة من آباء وأجداد ، تمثل فى الإنسان طبيعة الحياة المتصلة بمنهج الحركة فى الأرض وبمنهج السماء ؛ لأن الطفل حين يعيش مع أبيه فقط ، قد يجده مشغولاً فى حركة الحياة التى ربما شدَّته عن قيم الحياة أو عن منهج السماء ، لكنه حين يرى أباً لأبيه هو جدّه قد فرغ من حركة الحياة ، واتجه إلى منهج القيم ؛ لأنه قريب عَهْد فيما يظن بلقاء الله ، فإنْ كان لا يصلى فى شبابه فهو يصلى الآن ، وإنْ كان لا يفعل الطاعات سابقاً ، أصبح يفعلها الآن.

وهكذا يرى الطفل حركة الحياة الجامحة فى الدنيا والتلهف عليها من أبيه ويجد الإقبال على القيم والعبادات من جده ، ولذلك تجده ربما عاون جده على الطاعة ، فساعة يسمع الطفل المؤذن يقول:«الله أكبر» فهو يعرف أن جدَّه يريد أنْ يصلى ، فيذهب هو ويأتى بالسجادة ويفرشها لجدِّه ، ويقف مُقلِّداً جدَّه ، وإنْ كانت بنتاً ، فنحن نجدها تُقلِّد أمها أو جدتها ، وتضع الغطاء على رأسها لتصلى.

إذن: فاندماج الأجيال يعطى الخير من الحركتين ، حركة مادية الحياة ، وحركة قيم منهج السماء ؛ ولذلك يمتنُّ الحق علينا قائلاً:

﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً ﴿٧٢﴾﴾ [النحل]

إذن: فتقليد الأجيال اللاحقة للأجيال السابقة أمر تقتضيه طبيعة الوجود.

وحين يدعو الله الناس أنْ يتبعوا ما يُنزله على الرسل فهو ينهاهم أنْ يتبعوا تقليد الآباء فى كل حركاتهم ؛ لأنه قد تكون حركة الآباء قد اختلّتْ بالغفلة عن المنهج أو بنسيان المنهج ؛ لذلك يدعونا ويأمرنا سبحانه أنْ ننخلع عن هذه الأشياء ونتبع ما أنزل الله ، ولا نهبط إلى مستوى الأرض؛ لأن عادات ومنهج الأرض قد تتغير ، ولكن منهج السماء دائماً لا يتغير ، فاتبعوا ما أنزل الله.

والناس حين يحتجُّون يقولون: بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا ، وتلك قضية تبريرية فى الوجود ، ولو كان ذلك حقاً وصدْقاً ، ومطابقاً للواقع ، لما كرر الله الرسالات ، بعد أنْ علَّم آدم كل المنهج الذى يريد ؛ لأننا لو كنا نتبع ما ألفينا عليه آباءنا ، لكان أبناء آدم سيتبعون ما كان يفعله آدم ، وأبناء أبناء آدم يتبعون آباءهم ، وهكذا يظل منهج السماء موجوداً متوارثاً فلا تغيير فيه.

إذن: فما الذى اقتضى أنْ يتغير منهج السماء؟

إن هذا دليل على أن الناس قد غيَّروا المنهج؛ ولذلك فقولهم: ﴿**نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا**(١٧٠)﴾ [**البقرة**] هى قضية مكذوبة؛ لأنهم لو اتبعوا ما وجدوا عليه آباءهم ، لظلَّ منهج الله فى الأرض مضيئاً غير متأثر بغفلة الناس ولا متأثراً بانحرافات أهل الأرض عن منهج السماء ، وهو تبرير يكشف أنَّ ما وجدوا عليه آباءهم يوافق أهواءهم.

وقوله الحق: ﴿**اتَّبِعُوا**(١٧٠)﴾[**البقرة**] أى: اجعلوا ما أنزل عليكم من السماء متبوعاً ، وكونوا تابعين لهذا المنهج ، لا تابعين لسواه ، لأن ما سوى منهج السماء هو منهج من صناعة أهل الأرض ، وهو منهج غير مأمون.

وقولهم: ﴿مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ﴿١٧٠﴾ ﴾ [البقرة] أي: ما وجدنا عليه آباءنا ، وما تفتحتْ عليه عيوننا فوجدناه حركة تُحتذى وتُقتدى .

والحق يُبيِّن لهم أن هذا كلام خاطىء ، وكلام تبريرى وأنتم غير صادقين فيه ، وعدم الصِّدْق يتضح فى أنكم لو كنتم مُتبعين لمنهج السماء ، لما تغيَّر المنهج ، هذا أولاً ، أما ثانياً فأنتم فى كثير من الأشياء تختلفون عن آبائكم ، فحين تكون للأبناء شخصية وذاتية فإننا نجد الأبناء حريصين على الاختلاف ، ونجد أجيالاً مُتفسِّخة ، فالأب يريد شيئاً ، والابن يريد شيئاً آخر.

لذلك لا يصح أنْ يقولوا: ﴿ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ﴿١٧٠﴾ ﴾[البقرة] ؛ لأنه لو صحَّ ذلك لما اختلف منهج الله على الأرض ، لكن المنهج اختلف لدخول أهواء البشر ، ومع ذلك نرى بعضاً من الخلاف فى سلوك الأبناء عن الآباء ، ونقبل ذلك ونقول: هذا بحكم تغيير واختلاف الأجيال ، أى: أن الأبناء أصبحت لهم ذاتية ؛ ولذلك فالقول باتباع الأبناء للآباء كذب لا يُمثِّل الواقع.

والحق - سبحانه وتعالى - يردُّ على هذه القضية ؛ لأنها قضية تبريرية لادليلَ لها من صِدْق ، ولا برهانَ لها من واقع.

ويقول سبحانه :﴿ أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ ﴾ [البقرة] أى: أيتبعون ما وجدوا عليه آباءهم حتى ولو كان آباؤهم لا يعقلون ولا يهتدون؟

إذن: الرد جاء من ناحيتين ، من ناحية التعقُّل ، ومن ناحية الاهتداء ، وكلٌّ من التعقُّل والاهتداء منفىٌّ عن الآباء فى هذه الآية ، فأنتم تتبعونهم اتباعاً بلا تفكير ، اتباعاً أعمى.

والإنسان لا يطيع طاعةً عمياء إلا لمن يتيقَّن صِدْق بصيرته النافذة المطلقة

وهذه لا يمكن أن تتأتى من بشر إلى بشر ، فالطاعة المطلقة لا تصح أن تكون لشىء إلا لمنهج السماء .

وحين تكون طاعة عمياء لمن تثق ببصره الشافى الكافى الحكيم ، فهى طاعة مُبْصرة وبصيرة فى آنٍ واحد ؛ لأنك تحمى نفسك من خطأ بصرك ، وخطأ بصيرتك ، وتلتزم فى التبعية بمَنْ تعتقد أن بصره وبصيرته لا يخطئان أبداً عندها لا تكون طاعة عمياء .

إذن: فالحق ـ سبحانه وتعالى ـ يُنَبِّههم إلى أنه لا يصحُّ أنْ تقولوا : إنكم تتبعون ما وجدتم عليه آباءكم ؛ لأنه يجوز أنْ يكون آباؤكم لا يعقلون ، ويجوز أن يكونوا غير مهتدين ، لو كان آباؤكم لهم عقل أو لهم اهتداء ، عند ذلك يكون اتباعكم لهم أمراً سليماً ، لا لأنكم اتبعتم آباءكم ، ولكن لأنكم اتبعتم المعقول والهدى .

وهكذا نجد أن قضية التقليد هى أمر مزعوم ؛ لأنك لا تقلد مساويك أبداً ولكنك تتبع مَنْ تعتقد أنه أحكم منك ، وما دام مساوياً لك فلا يصحُّ أن تُقلِّده فى كل حركة ، بل يجب أن تعرض الحركة على ذهْنك ؛ ولذلك فتكليف الله لعباده لم ينشأ إلا بعد اكتمال العقل بالبلوغ.

فهو سبحانه لا يأخذ العقل على غِرَّة قبل أن ينضج ، بل لا يُكلِّف الله عبداً إلا إذا نضج عقله ، ولا يُكلِّفه إنْ لم يوجد له عقلاً ، ولا يُكلِّفه إنْ لم تكُنْ قوته وراء عقله ، فإنْ كان الإنسان سليم القوة والعقل فإن تكليفه يكون تاماً ، فسبحانه لا يكلف إلا صاحب العقل الناضج ، والذى لديه قدرة تُمكِّنه من تنفيذ ما اهتدى إليه عقله ، أى : غير مُكره.

فالذى يُكلِّف الإنسان بمقتضى هذه الأشياء هو عالم أن العقل إنْ وُجد ناضجاً بلا إكراه ، فلا بُدَّ أن يهتدى إلى قضية الحق.

فالحق سبحانه لا يفاجىء الإنسان بتكليف إلا بعد أن يُعدَّه إعداداً كاملاً لأنه لو كلَّفه قبل أنْ ينضج غريزياً ، وقبل أنْ تصبح له قدرة على استبقاء النوع لَقالَ الإنسان : إن الله كلفنى قبل أنْ يُوجد فىَّ ذلك ، عندئذ لا يكون التعاقد الإيمانى صحيحاً .

ولذلك يُؤخِّر الحق تكليفه لعباده ، حتى يكتمل لهم نُضْج العقل ، ونُضْج الغريزة معاً ، وحتى يدخل الإنسان فى التكليف بكل مُقوِّماته وبكل غرائزه وانفعالاته ، حتى إذا تعاقد إيمانياً ، فإن عليه أنْ يلتزم بتعاقده .

إذن : فالحق ـ سبحانه وتعالى ـ يريد أنْ يُربِّى فى الإنسان ذاتيته من فَوْر أنْ يصبح صالحاً لاستبقاء النوع فى غيره ، وما دامتْ قد أصبحت له ذاتية مكتملة ، فالحق يريد أنْ يُنهى عنه التبعية لغيره ، عند ذلك لا يقولن أحد «أفعل مثل فعْل أبى » .

لكن هناك مَنْ قالوا ﴿ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا (١٧٠) ﴾ [البقرة]

لماذا يتبعون آباءهم فى المنهج الباطل ، ولايتبعونهم فى باقى أمور الدنيا؟

إذن : فلا شىءَ قد جعلهم يتبعون ما وجدوا عليه آباءهم إلا لأنهم وجدوا فيه ما يوافق هواهم ، بدليل أنهم انسلخوا عن تبعيتهم لآبائهم فى أشياء رأوها فى سلوك الآباء وخالفوهم فيها ، وما داموا قد خالفوهم فى أشياء كثيرة فلماذا يتبعونهم فى الدين الزائف !

إن الله يريد أنْ يُخلِّص الإنسان من إسار هذا الاتباع ، ويلفت العباد : تعقلوا يا مَنْ أصبحت لكم ذاتية ، وليعلم كل منكم أنه بنُضْج العقل يجب أنْ يصل إلى الهداية إلى الخالق الواحد الأحد ، فإنْ كنت قد التحمتَ بأبيك فى أول الأمر لأنه يعولك ويمدّك ، فهذا الأب هو مجرد سبب أراده الله لك ، ولكن

الله هو خالقك ، وهو الذى أنزل المنهج الذى يجب أن تلتحم به لتصير حياتك إلى نماء وخيْر .

وهو سبحانه يقول : ﴿**وَاخْشَوْا يَوْمًا لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا** ﴿٣٣﴾﴾ [**لقمان**]

إن الحق - سبحانه وتعالى - يُفصِّل لنا هذا الأمر بدقة ، فإذا كان الآباء لا يعقلون ، فماذا عن موقف الأبناء ؟ إن على الأبناء أن يُصلحوا أنفسهم بمنهج الحقِّ .

وإلاَّ فَلْيُوقِنْ الجميع أنه راجع إلى الله مُحاسَب عن نفسه ، ومسئول عن أفعاله وأعماله ، اقترفها من كسب يده . يقول تعالى: ﴿ **إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ** ﴿٣٣﴾﴾ [**لقمان**]

ويقول سبحانه : ﴿ **إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ** ﴿٤﴾﴾ [**يونس**]

فحين يقول سبحانه :﴿**إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا** ﴿٤﴾﴾[**يونس**] فهذا إعلام لكل الخَلْق أن كل الأمور معلومة له سبحانه ، فقد أنزل التكليف الذى قد يُطاع وقد يُعصى ، فَمْن أطاع يفرح ، ومَنْ يَعْصِ يحزن ؛ لأنه سَيَلْقى عقاب العصاة حين يرجع إلى الله.

فالطائع يفرح بجزاء الله له ، وعلى العاصى أنْ يراجع نفسه قبل أنْ يرجع إلى الله ، ولنعلم أن وعد الله حَقٌّ ؛ لأنه سبحانه يملك ما يَعد به ، وسبحانه مُنَزَّه عن الكذب والخديعة ؛ لأنه القائل: ﴿ **وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا** ﴿١٢٢﴾﴾ [**النساء**]

وهو سبحانه أقوى مما خلق وممَّن خلق ، ولا تخونه إمكاناته ، لأنه يملك الكون كله.

والرجوع إلى الله يُطمئن الملتزمين بمنهج الله إلى أن هناك بَعْثاً وحساباً ؛ لأن المؤمن المطيع لا بُدَّ أنْ ينال حُسْن الثواب ، وأنْ ينال العاصى الشرير الذى شقيتْ الدنيا كلُّها بعصيانه العقابَ ؛ ولذلك لا بُدَّ من الإعادة ؛ ليجزى الله كل واحد بعمله بالقسط.

يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ **إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ** (٣٣) ﴾ **[لقمان]**

فعَرَض الدنيا ومتاعها كالماء المالح ، كلما شربتَ منه ازددتَ ظمأً ، فالإنسان من هؤلاء يخدع نفسه ويغشُّها ، ويغتر بالمال والأولاد ، وينسى أن الحياة تسير بأمر مَنْ يملك المُلْك كله ، فهو يأخذ مسألة الحياة فى غير موقعها ، فالغرور بالمال والأولاد فى الحياة أمر خادع ، فالإنسان يستطيع أنْ يعيش الحياة بلا مال أو أولاد.

ومَنْ يغترّ بالمال أو الأولاد فى الحياة يأتى يوم القيامة ويجد أمواله وأولاده حسرةً عليه ، لماذا؟ لأنه كلما تذكَّر أن المال والأولاد أبعداه عَمَّا يؤهله لهذا الموقف فهو يعانى من الأسى ، ويقع فى الحسرة .

ولنا أن نسأل : ما الغرور ؟ إن الغرور هو الإطماع فيما لا يصح ولا يحصل ، فعندما تقول لواحد والعياذ بالله : «أنت مغرور» فأنت تقصد أنه يسلك سبيلاً لا يُوصِّله إلى الهدف المنشود . إذن : فالغرور هو الإطماع فيما لايصحُّ ولا يحصل ، ولذلك يُسمِّى اللهُ الشيطانَ «الغَرور».

﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ** (٥) **إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ** (٦) ﴾ **[فاطر]**

إنه الشيطان الذى يُزيِّن للناس بعض الأمور ، ويحثُّ الخلق ليطمعوا فى حدوثها ، وعندما تحدث فإن هذه الأمور لا صوابَ فيها ، فهى مما زيَّنه الشيطان لذلك فحصيلتها لا تتناسب مع الطمع فيها.

والحق سبحانه يقول عن الدنيا : ﴿**اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ**(١) **فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا** (٢٠)﴾ **[الحديد]**

ويُقال عن الرجل الذى ليس له تجربة :«إنه غرٌّ» فيأتى بأشياء بدون تجربة فلا ينتفع منها ولا تصح . إذن : فكلُّ مادة «الغرور» مأخوذة من إطماع فيما لا يصحّ ولا يحصل ؛ لذلك سمَّى الله الشيطان «الغرور» ؛ لأنه يُطمعنا نحن البشر بأشياء لا تصحّ ولا تحدث ؛ ولهذا سوف يأتى الشيطان يوم القيامة ليتبرأ من الذين اتبعوه ويتهمهم بالبلاهة :

﴿ **وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ**(٢) **وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** (٢٢) ﴾ **[إبراهيم]**

فما دام الشيطانُ تولاَّهم فى الدنيا وزيَّن لهم وأغراهم بعداء الرسل فَلْيتولّهم الآن ، وليدافع عنهم يوم القيامة ، ولكنه يتنصَّل من المسئولية : ما كان عندى من سلطان عليكم ، لا سلطانَ حجة تقنعكم أنْ تفعلوا عن رضاً ، ولا سلطانَ قَهْر أجبركم به أنْ تفعلوا وأنتم كارهون ، أنا فقط أشرْتُ ووسوستُ فأتيتمونى طائعين.

---

١) هاج النبت يهيج: أدرك النضج واصفرّ . وذلك عند تمام نضجه أى يكثر ويزداد أو ييبس ويصفر . [القاموس القويم ٢/ ٣١٢].

(٢) استصرخه : استغاث به . والمُصرخ: المغيث المنقذ من يستصرخه [القاموس القويم ١/ ٣٧٣].

﴿مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ ﴿٢٢﴾﴾ [إبراهيم]

أى: نحن فى الخيبة سواء ، فلا أستطيع نجدتكم ، ولا تستطيعون نجدتى، لأن الصراخ يكون من شخص وقع فى ضائقة أو شدة ، لا يستطيع الخلاص منها بنفسه ، فيصرخ بصوت عال لعله يجد مَنْ يُغيثه ويُخلِّصه ، فإذا ما استجاب له القوم فقد أصرخوه . أى : أزالوا سبب صُرَاخه .

إذن : فالمعنى : لا أنا أستطيع إزالةَ سبب صراخكم ، ولا أنتم تستطيعون إزالة سبب صراخى .

لذلك كان الشيطان هو المراد بالغَرور الذى يغُرُّ الناس بوساوسه وتزيينه الشر ، ثم إذا حلَّ عقاب الله وعذابه تولَّى عنهم وتخلَّى عن مناصرتهم : ﴿ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِى مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ [إبراهيم]

١٦ هل من خالق غير الله؟

يُذكّر الحق سبحانه الناس بنعمة الله عليهم ، وهو وحده الخالق ، وهو وحده الرازق ، الذى لا إله إلا هو ، حولهم السماء والأرض تفيضان عليهم بالنِّعَم، وتفيضان عليهم بالرزق ، وفى كل خُطْوة ، وفى كل لحظة فيض ينسكب من خيرات الله ونعمه ، يفيضها الخالق على خَلْقه ، فهل من خالق غيره يرزقهم بما فى أيديهم من هذا الفيض العميم ؟

يقول الحق سبحانه:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ③﴾ [فاطر]

الذِّكْر هو الحفظ من النسيان ؛ لأن روتين الحياة يجعلنا ننسى المسبِّب للنعم فالشمس تطلع كل يوم ، كم منَّا يتذكر أنها لا تطلع إلا بإذن الله فيشكره ، والمطر ينزل كل فترة ، مَنْ منّا يتذكر أن المطر يُنزِله الله فيشكره ، فالذكْر يكون باللسان والقلب .

والله - سبحانه وتعالى - غيْب مستورٌ عَنَّا ، وعظمته أنه مستور ، ولكن نِعَم الله سبحانه تدلُّنا عليه ، فبالذكر يكون فى بالنا دائماً ، وبنعمه يكون ذِكْره وشكره دائماً.

والحق - سبحانه وتعالى - يطلب من الناس أنْ يذكروا النعمة التى أنعمها

عليهم فقط ، وكـان يجب عليهم أنْ يطيعوا الله فيـذكروا المنعمَ ؛ لأن ذِكْر الله ـ سبحانه وتعالى ـ يجعلك فى ركن ركين ، لا يصل إليك مكروه ولا شر .

إن ذِكْـر الله المنعم يعطينا حـركة الحـياة فى كل شىء ، فـذِكْر الله يُوجـد فى القلوب الخشـوع ، ويُقلِّل من المعاصى ، وينتفع الـناس كل الناس به ، ويجعل حركة الحياة مستقيمة .

وحين يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ **اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ**(٣) ﴾[**فاطر**] معناها : اذكرونى حتى بالنعمة التى أنعمتُ عليكم.

والذِّكْر هو استحضـار الشىء إلى الذِّهْن ؛ لأن الغفلة تـطرأ على الإنسان وعليـه ألاَّ يستمـر فيـها ، وبعض أهل الإشـراق والشطح يتلاعـبون بالمواجـيد النفسية ، فيقول واحد منهم : يعلم الله أنِّى لستُ أذكره .. وحين يسمع الإنسان هذا القول قد يُوجِّـه لصاحبه التأنيب والنقد العـنيف ، لكن القائل يحلل الأمر التحليل العرفاني ، فيكمل بيت الشعر بالشطر الثانى:

إذْ كيْفَ يذكُرهُ إذْ لَسْتُ أنْسَاهُ

فالذكْر هو حِـفْظ الشىء أو استحضـاره ، فإذا كان حِفْظ الشىء فـهو حفْظٌ لذاته ، لكن الاستحضار يكون لمعنى الشىء .

إذن: هناك فَرْق بين حفظ الشىء واستحضار الشىء ، هذا هو معنى الذكر ، وقد يكون الذكر بمعنى القول ؛ لأنك لا تقول الشىء إلا بعد أنْ تستحضره .

ولذلك نجد فى تكوين الجهاز العصبى الأعلى : ذاكرة ، وحافظة ، ومُخيلة . ومن عجيب أمر التكوين الخلقـى أنْ تمرَّ أحداث على الإنسان فى زمن مضى ، ولا يذكرها الإنـسان لمدة طويلة تصل إلى سنوات ، ثم يأتى للإنـسان ظرف

من تداعى المعانى ، فيذكر الإنسان هذا الشيء الذى حدث منذ عشرين عاماً .

إذن: فالشىء الذى أدركه الإنسان منذ عشرين سنة على سبيل المثال لم يذهب ، ولو ذهب ما ذكره الإنسان ، لكنه غاب فقط عن الذهن عشرين عاماً أو أكثر ، فلما تداعتْ المعانى تذكَّره الإنسان ، ومعنى ذلك أن هذا الشيء كان محفوظاً عند الإنسان وإنْ توارى عنه مدة طويلة .

فالذاكرة ـ إذن ـ معناها أنْ يستدعى الإنسان المحفوظَ ليصير فى بؤرة شعوره . مثال ذلك : حادث وقع بين إنسان وآخر منذ أكثر من عشرين عاماً ، ونسى الإنسان هذا الحادث ، فلما التقى بصديقه ، وجلسا يتذاكران الماضى تذكّر الصديق الحادث الذى حدث له منذ أكثر من عشرين عاماً.

إذن: فالحادثة لم تذهب من الذاكرة ، ولكنها محفوظة موجودة فى حواشى الشعور البعيدة ، وكلما بَعُد الإنسان فى الزمن يبدو وكأنه نسى الحادثة ، لكن عندما يأتى تداعى المعانى فالحادثة تأتى فى بُؤْرة الشعور ، فإذا ما جاءت فى بؤرة الشعور من حواشى الشعور حيث مخزن الحافظة ، يتذكرها الإنسان ، وهذه هى قوة الخالق جلَّ وعلا.

وانطباعات الإنسان فى نعَم الله لا تُنسى أبداً ، وهى موجودة عند الإنسان ولكنها تريد من الإنسان أنْ يستدعيها من الحافظة ويطلبها.

ولْنَرَ دقة الأداء القرآنى : ﴿ **اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ**(٣)﴾[**فاطر**] ، فسبحانه وتعالى يقول هنا : نعمة . مع أن نعَم الله كثيرة ، ولكن الله قد آثر أنْ يأتى بالمفرد ولم يأت بالجمع ، وذلك ليبين للإنسان أن أية نعمة فى أية زاوية من حياة الإنسان تستحق أنْ يذكرها الإنسان .

فالحق سبحانه يريد أنْ يلفتنا إلى أن كل نعمة واحدة لو استقصيت عناصرها وتكوينها لوجدت فى طياتها نِعَماً لا تُعَدُّ ولا تُحْصَى .

فنِعَم الله كثيرة ، ولكن ليتذكر الإنسان ولو نعمة واحدة هى نعمة الإيجاد من عدم ، أو نعمة البصر ، أو السمع ، وكل نعمة من هذه النعم تستحق من الإنسان أنْ يتذكرها دائماً ، ولا تطرد نعمةٌ نعمةً أخرى ، فما بالنا إذا كانت النعم كثيرة ؟

ولو تمعَّن الإنسان فى كل نعمة لاحتاجتْ إلى أنْ يتذكرها دائماً ، أو أن النعمة اسم للجنس كله ، لأن المفرد يُطلق على كل الجنس ، مثل الإنسان فإنها تُطلق على كل فرد من أفراده مثل محمد وعلى وخالد.

وكلمة «النعمة» قد تُنسب إلى سببها كنعمة سببها مروءة واحد من البشر وهى محدودة بمقدار الأثر الذى أحدثته ، لكن نحن هنا أمام نعمة المسبِّب وهو الله ، ولابُدَّ أن تناسب نعمة الله جلال وجمال عظمته وعطائه .

فكل نعمة على انفراد تستحق أنْ نشكر الله عليها ، فكُلُّ نعمة مفردة فى عظم وضخامة تستحق الشكر عليها ، أو أن نعمة الله هى كل فَيْضه على خَلْقه ، فأفضل النعمة أنه ربنا.

يقول الحق سبحانه عن نعمة الله على عباده : ﴿**وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (٣٤)**﴾ [إبراهيم]

فنحن أمام ثلاثة عناصر : نعمة ، ومُنعِم ، ومُنعَم عليه . أما من جهة النعمة وأفرادها فلن يقدر البشر على إحصائها لأنها فوق الحصر ، ومن جهة المنعِم فهو غفور رحيم ، ومن جهة المنعَم عليه فهو ظلوم كفَّار ، لماذا يأتى الله لنا بمثل هذه الحقائق؟

إنه سبحانه لو عـاملنا بكُفْرنا وجُحودنا وظُلْمنا لمنع النعمـة ، ولكن استدامة نعمـة الله علينا فَضْلٌ منـه ورحمة ؛ لأنهـا تشملنا حـتى ولو كُنَّا ظالمين ، أو كُنَّا كفاراً.

ولذلك ، فعندما يرتكب الإنسان ذنباً فإن أهل الإيمان يقولون له : لاتيأس ، فربك هو ، هو ، إنه غفور رحيم . ولذلك لا تسـتحى أيها العبد أن تطلب من ربك شيئاً على الرغم من معصيتك ، فالله غفور رحيم.

فالحق سـبحـانه لا يتخلى عن العـاصين ، فيـمنع عنهم النعم ، فـهو الذى استدعاهم جميعاً إلى الوجود.

والحق سبـحانه أعطانا مما نسأل قـبل أن نسأل ، وأعدَّ الـكون لنا من قبل أنْ نوجد ، وقد سبقتْ النعمة وجود آدم عليه السلام ، واستقبل الكونُ آدمَ ، وهو مُعَدٌّ لاستقباله .

والحق سبحانه حينما يتحدث عن نعمه يقول:

﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا (١٨)﴾ [النحل]

فمـجرد الإقـبال على العَـدِّ معناه أن الشيء يمكـن إحصاؤه ، فـإن لم يكُنْ ممكناً لا يُقبِل أحد على عدِّه ، ولا نرى مَنْ حاول عدَّ حبَّات الرمال ، أو ذرات الماء فى البحار .

نعَم الله ـ سـبحـانه وتعـالى ـ ظاهرة وخـفيـة لا يمكن أن تُحـصى ، ولذلك لايُقبل أحـد على إحصائهـا ، فليستْ هناك إرادة أو قدرة تسـتطيع أنْ تُحصِى عطاءات الله التى فوق العدِّ والحدِّ.

وعلى الرغم من التـقدم وصناعـة الحاسب الآلى «الكمـبيوتر» لم يـستطع

أحد ، ولم يُقبل أحد على إحصـاء نعَم الله فى الكون ، ذلك أن العَدَّ والإحصاء يقتضى كلياً له أفراد ، أو كلاً له أجزاء .

وأنت إنْ نظرتَ إلى أىّ نعمة من نعَم الله ، قد تظنها نعمة واحدة ، ولكنك إنْ فصَّلْت فيها ستجدها نعماً متعددة وشتى .

فإنْ أخذتَ نعمة الماء مـثلاً ستجده نعماً متـعددة ، فهى مُكونَّة من عناصر ، كل عنصـر فيهـا نعمة ، وإنْ أخـذتَ نعمـة الأرض ستجـد فيـها نعمـاً كثيرة مطمورة ، وهكذا تكون كل نعمة من الله مطمور فيها نعم متعددة ولا تُحصى.

والحق سبحانه يعطينا نماذج من نعمه سبحانه :

﴿ اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ (٣٢) ﴾ [إبراهيم]

وأول تلك النعم خَـلْق السمـاوات والأرض ، ثم إذا نظرتَ لبـقـيـة النعم فستجـدها قد جاءت بعـد خَلْق السمـاوات والأرض ، وشىء من تلك النعم مُتَّصل بالسمـاء مثل السحاب ، وشىء متصل بالأرض مـثل الثمـرات التى تُخرجها .

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ (٣٣) ﴾ [إبراهيم]

وهكذا تكلم الحق سبحانه عـن حَصْر بعضٍ من نعـمه الكليـة علينا نحن العبـاد ، سمـاء ، وأرض ، وماء ينزل ، وثمرات تنبت من الأرض ، وكذلك سخـر لنا الشمس والقـمر ، والليل والـنهار ، وهذا ما يُـسمَّى تعديداً لـبعض النعم.

ويُحدِّثنا الحق سبحانه عن تفصيل نعمة الله فى خَلْق السماء والأرض ورزق الله سبحانه وتعالى الذى ينتج من تفاعل الماء النازل من السماء مع مُكوِّنات الأرض ، فيقول تعالى:

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٢)﴾ [البقرة]

والأرض هى المكان الذى يعيش فيه الناس ، ولا يستطيع أحد أن يدعى أنه خلق الأرض أو أوجدها . إذن: فهى آية ربوبية لا تحتاج لكى نتنبه إليها إلى جهد عقلى ، لأنها بدهيات محسوسة لله سبحانه وتعالى:

وقوله تعالى : ﴿فِرَاشًا(٢٢)﴾ [البقرة]

توحى بأنه أعدَّ الأرض إعداداً مريحاً للبشر ، كما تفرش على الأرض شيئاً تجلس عليه أو تنام عليه ، فيكون فراشاً يريحك ، ونحن نتوارث الأرض جيلاً بعد جيل ، وهى تصلح لحياتنا جميعاً ، ومنذ أنْ خُلِقت الأرض إلى يوم القيامة ستظل فراشاً للإنسان .

قد يقول بعض الناس: إنك إذا نمتَ على الأرض فقد تكون غير مريحة تحتك ، فيها حصى أو غير ذلك مما يضايقك ، نقول : إن الإنسان الأول كان ينام عليها مستريحاً . إذن : فضرورة النوم ممكنة على الأرض .

وعندما تقدمتْ الحضارة وزادتْ الرفاهية ظلت الأرض فراشاً رغم ما وُجد عليها من أشياء لينة ، فكأن الله تعالى قد أعدَّها لنا إعداداً يتناسب مع كل جيل ، فكلُّ جيل رُقِّه فى العيش بسبب تقدُّم الحضارة كشف الله سبحانه من العلم ما يُطوِّع له الأرض ويجعلها فراشاً .

ونلاحظ أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ فى آية أخرى يقول:

﴿جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْدًا (١٠)﴾ [الزخرف]

والمهد هو فراش الطفل ، ولابُدَّ أن يكون مريحاً لأن الطفل إذا وجد فى الفراش أىَّ شىء يتعبه ؛ فإنه لا يملك الإمكانات التى تجعله يريحه ، ولذلك تمهد الأم لطفلها مكان نومه ، حتى ينام نوماً مريحاً ، ولكن الذى يمهد الأرض لكل خَلْقه هو الله سبحانه وتعالى ، يجعلها فراشاً لعباده .

وإذا قرأت قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ (١٥)﴾ [الملك]

فإن معنى ذلك أن الحق سبحانه جعل الأرض مطيعة للإنسان ، تعطيه كل ما يحتاج إليه ، فالأرض مُسخَّرة للإنسان يسعى فيها ويضرب فيها ، ويأكل من رزق الله الناتج منها .

ويأتى الحق - سبحانه وتعالى - إلى السماء فيقول: ﴿وَالسَّمَاءَ بِنَاءً (٢٢)﴾[البقرة] ، والبناء يفيد المتانة والتماسك ، أى : أن السماء - وهى فوقك - لا ترى شيئاً يحملها حتى لا تسقط عليك ، إنها سقف متماسك متين.

ويؤكد الحق هذا المعنى بقوله تعالى: ﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلاَّ بِإِذْنِهِ (٦٥)﴾ [الحج]

وفى آية أخرى يقول: ﴿ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا(٣٢)﴾ [الأنبياء]

والهدف من هذه الآيات كلها أنْ نطمئن ونحن نعيش على الأرض أن السماء لن تتساقط علينا ؛ لأن الله يحفظها ، فمن آيات الحق سبحانه وتعالى فى الأرض أنه جعلها فراشاً أى : مُمهدة ومريحة لحياة الإنسان ، وحفظ السماء بقدرته جَلَّ جلاله فهى ثابتة فى مكانها ، لا تهدد سكان الأرض وتفزعهم ، بأنها قد تسقط عليهم .

ثم قال الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ (٢٢)﴾ [البقرة]

فكأن الحق ـ سبحانه وتعالى ـ وضع فى الأرض وسائل استبقاء الحياة ، فلم يترك الإنسان على الأرض دون أنْ يُوفِّر له وسائل استمرار حياته ، فالمطر ينزل من السماء ، والسماء هى كل ما علاك فأظلَّك ، فينبت به الزرع والثمر ، وهذا رزْق لنا ، والناس تختلف فى مسألة الرزق.

والرزق هو ما يُنتفع به ، وليس هو ما تحصل عليه ، فقد تربح مالاً وافراً ، ولكنك لا تنفقه ولا تستفيد منه ، فلا يكون هذا رزقك ، ولكنه رزق غيرك ، وأنت تظل حارساً عليه ، لا تنفق منه قرشاً واحداً ، حتى تُوصِّله إلى صاحبه .

والرزق فى نظر معظم الناس هو المال ، قال ﷺ :«يقول ابن آدم : مالى مالى ، وهل لك يا بن آدم من مالك إلا ما أكلت فأفنيت ، ولبست فأبليت ، أو تصدقت فأمضيت» (١).

هذا هو رزق المال ، وهو جزء من الرزق ، ولكن هناك رزق الصحة، ورزق الولد ، ورزق فى الطعام ، ورزق فى البركة ، وكل نعمة من الله سبحانه وتعالى هى رزق ، وليس المال وحده .

فالحق سبحانه وتعالى يريد أنْ يلفتنا إلى أن نفكر قليلاً فيمن خلق هذا الكون ، لنعرف أنه قبل أن يخلق الإنسان خلق له عناصر بقائه.

وقد ربط الحق سبحانه الرزق بالسماء ، فقال سبحانه : ﴿فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ (٢٢)﴾[البقرة] ، ليلفتنا إلى أن الرزق ، لا يأتى إلا من أعلى ،

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٤ / ٢٤ ، ٢٦) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢٩٥٨) ، والترمذى فى سننه (٢٣٤٢) وصححه.

وضرب الله المثل بالماء لأنه رزق مباشر محسوس منا ، والماء ينزل من السماء فى أنقى صوره مُعَطَّراً ، كل ما يأتينا من السماء فيه عُلُو ، ينزل ليزيد حياة القيم ارتقاءً.

عمليـة ، لو أراد البشر أنْ يقوموا بها ما استطاعوا لأنها كانت ستتكلف ملايين الجنيهات لتعطينا ماء لا يكفى أسرة واحدة ، ولكن الله ـ سبحانه وتعالى ـ أنزل من السماء ماء فى أنقى صوره لينبت به الثمرات التى تضمن استمرار الحياة فى هذا الكون .

وبعد أن نفهم هذه النعم كلها والإعجاز الذى فيها ونستوعبها ، يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿**فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٢)**﴾ [البقرة]

والنِّدُّ هو النظير أو الشبيه ، وأىّ عقل فيه ذرة من فكر يبتعد عن مثل هذا ، فلا يجعل لله تعالى شبيهاً ولا نظيراً ولا يُشبِّه بالله تعالى أحداً ، فالله واحد فى قدرته ، واحد فى قوته ، واحد فى خَلْقه ، واحد فى ذاته ، وواحد فى صفاته.

ولا توجد مقارنة بين صفات الحق ـ سبحانه وتعالى ـ وصفات الخَلْق ، والله خلق لكل منَّا عقلاً يفكر به ، لو عرضتَ هذه المسألة على العقل لرفضها تماماً ، لأنها لا تتفق مع عقل أو منطق.

فمَنْ ذا الذى يستطيع أنْ يدَّعى أنه خلقكم والذين من قبلكم؟ ومَنْ ذا الذى يستطيع أنْ يدَّعى ولو كذباً أنه هو الذى جعل الأرض فراشاً ، وجعل السماء سقفاً محفوظاً ، أو أنزل المطر وأنبت الزرع ؟ لا أحد .

إذن: فأنتم تعلمون أن العقل كله لله وحده ، وما دام لا يوجد معارض ، ولا يمكن أنْ يوجد ، فالقضية محسومة للحق تبارك وتعالى .

لذلك قال الحق سبحانه :

﴿لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ③﴾ [فاطر]

وفي آية أخـرى يقـول : ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَـالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَـأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ⑥②﴾ [غافر]

فالله الذى أعطاكم كلَّ هذه النعم هو خالق كل شىء ، وقد حكم بأنه لا إله إلا هو ؛ ولذلك يقولون : الله آمن بذاته ، وشهد لنفسه أنه لا إله إلا هو .

والحق سبحانه ذو فضل عـلى الناس ؛ لأنه أعطاهم بلا حَقٍّ لهم عليه ، فهو مُتفضِّل فى الإيجاد ، ومُتفضِّل فى الإمداد ، ومُتفضِّل فى التكليف ؛ لأنه كلفك بشىء لا يعود عليه بنفع ، ولكنه يعود عليك أنت بالخير ، ومع أنك أنت المنتفع يجازيك على هذا الفعل ، ويعطيك عليه ثواباً.

فهـذا فضل منه سـبحانـه ، ومع هذا تجد أن أكثـر الناس لا يشكرون الله مع أنهم لو شكروا لعرفوا مزيد النعم عند الله تعالى:

﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ ⑦﴾ [إبراهيم]

فالشكر على النعمة يعطينا مزيداً من النعـمة ، فنشكره عليها فيعطينا المزيد، وهكذا يظل الحمد دائمًا، والنعمة دائمة، إننا لو استعرضنا حـياتنا كلها ، فكُلُّ حركة فيهـا تقتضى الحمد ، عندما ننام ويأخذ الله ـ سـبحانه وتعالى ـ أرواحنا ، ثم يردُّها إلينا عندما نستيقظ ، فإن هذا يوجب الحمد.

﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ④②﴾ [الزمر]

وهكذا ، فإن مجرد استيقاظنا من النوم ، وأن الله سبحانه وتعالى ردَّ علينا أرواحنا ، هذا الرد يستوجب الحمد والشكر ، فإذا قمنا من السرير فالله ـ سبحانه وتعالى ـ هو الذى يعطينا القدرة على الحركة ، ولولا عطاؤه ما استطعنا أنْ نقوم ، وهذا يستوجب الحمد والشكر.

فإذا تناولنا إفطارنا فالله هيَّأ لنا طعاماً من فضله ، فهو الذى خلقه ، وهو الذى أنبته ، وهو الذى رزقنا به ، وهذا يستوجب الحمد.

فإذا نزلنا إلى الطريق يسَّر الله لنا ما ينقلنا إلى مقرِّ أعمالنا وسخره لنا ، سواء كنا نملك سيارة أو نستخدم وسائل المواصلات ، فله الحمد ، وإذا تحدثنا مع الناس فالله سبحانه هو الذى أعطى ألسنتنا القدرة على النطق ، ولو شاء لجعلها خرساء لا تنطق ، وهذا يستوجب الحمد ، فإذا ذهبنا إلى أعمالنا فالله يسَّر لنا عملاً نرتزق منه لنأكل حلالاً ، وهذا يستوجب الحمد.

وإذا عُدْنا إلى بيوتنا فالله سخَّر لنا زوجاتنا ، ورزقنا بأولادنا ، وهذا يستوجب الحمد .

إذن: فكلُّ حركة حياة فى الدنيا من الإنسان تستوجب الحمد ، ولهذا لا بُدَّ أن يكون الإنسان حامداً دائماً ، شاكراً أبداً ، بل إن الإنسان يجب أنْ يحمد الله على أيِّ مكروه أصابه ؛ لأنه قد يكون الشيء الذى يعتبره شراً هو عينه الخير .

والحمد والشكر وإنْ كان شكراً للمنعم سبحانه وثناءً عليه ، فهو أيضاً تجارة رابحة للشاكر ؛ لأن الحق سبحانه يقول: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ ⑦﴾[إبراهيم]

فمَنْ أراد الخير لنفسه وأحبَّ أن نواصل له النعم فليداوم على حمدنا وشكرنا ، فالشكر يكون لله استدراراً لمزيد نعَمه ، لذلك حينما تقول عند نعمة الغير (ما شاء الله لا قوة إلا بالله) يعطيك الله خيراً مما قُلْت عليه (ما شاء الله

لا قوة إلا بالله) ، وإن اعترفت بنعمة الله عليك ورددتَ الفضل إليه سبحانك زادك.

ويقول الحق سبحانه فى آية أخرى:

﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ (١٥٢) ﴾ [البقرة]

فقوله تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي (١٥٢)﴾[البقرة] أى: كل هذه النعم والفضل عليكم يجب ألاَّ تنسوها ، أنْ تعيشوا دائماً فى ذكر مَنْ أنعم عليكم ، فالله سبحانه وتعالى يريد من عباده الذِّكْر ، وهم كلما ذكروه سبحانه وشكروه شكرهم وزادهم .

والله سبحانه وتعالى يقول فى الحديث القدسى:

«أنا عند حُسْن ظنِّ عبدى بى ، وأنا معه إذا ذكرنى ، فإنْ ذكرنى فى نفسه ذكرتُه فى نفسى ، وإنْ ذكرنى فى ملأ ذكرتُه فى ملأ خير منه ، وإنْ تقرَّب إلىَّ بشبر تقرَّبتُ إليه ذراعاً ، وإنْ تقرَّب إلىَّ ذراعاً تقرَّبْتُ إليه باعاً ، وإنْ أتانى يمشى أتيته هرولة» (١) .

هذه هى رغبة الكريم فى أن يعطى بشرط أن نكون أهلاً للعطاء ؛ لأنه يريد أنْ يعطيك أكثر وأكثر .

فقوله تعالى : ﴿فَاذْكُرُونِي (١٥٢)﴾[البقرة] أى: اذكروا الله فى كُلِّ شىء : فى نعمه ، فى عطائه ، فى سِتْره ، فى رحمته ، فى توبته .

يقول بعض الصالحين : سمعت فيمن سمع عن حبيبى رسول الله ﷺ

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٢/ ٢٥١ ، ٣٥٤ ، ٤٠٥) ، وكذا البخارى فى صحيحه (٧٤٠٥ ، ٧٥٠٥ ، ٧٥٣٧) والترمذى فى سننه (٣٦٠٣) من حديث أبى هريرة رضي الله عنه . قال الترمذى : «حديث حسن صحيح».

أنك إذا ما أقبلتَ على شرب الماء فقسِّمه ثلاثاً : أول جرعة قُلْ باسم الله واشربها ، ثم قُلْ الحمد لله وابدأ شرب الجرعة الثانية ، وقُلْ باسم الله ، وبعد الانتهاء منها قل الحمد لله ، ثم قُلْ : باسم الله ، واشرب الجرعة الثالثة ، واختمها بقولك الحمد لله (1) .

فما دام هذا الماء في جوفك فلن تُحدِّثك ذرة من جسدك بمعصية الله ، جرِّبها يوماً في نفسك ، وقُلْ : باسم الله واشرب وقُل الحمد لله وكرِّرها ثلاثاً ، فإنك تكون قد استقبلتَ النعمة بذكر المنعِم ، وأبعدْتَ عن نفسك حَوْلكَ وقوتك ، وأنهيتَ النعمة بحمد الله.

ولكن ، لماذا الماء ؟ لأن الماء في الجوف أشبع من أيِّ شيء آخر.

قوله تعالى: ﴿ وَاشْكُرُوا لِي وَلا تَكْفُرُونِ (152) ﴾ [البقرة]

الشكر على النعمة يجعل الله ـ سبحانه وتعالى ـ يزيدك منها ، فشُكْر الله يُذهِب الغرور عن نفسك ، فلا تفتنك الأسباب ، وتقول : أوتيته على علم عندي ، ولا تكُنْ كقارون الذي أخذ نعمة الله ونسبها إلى نفسه ، فصار مفتوناً بما امتلك ، وغرق في الغرور .

قال تعالى عنه : ﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (76) وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (77) قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي .. (78) ﴾ [القصص]

---

(1) ذكر الإمام أبو حامد الغزالي في «إحياء علوم الدين » (2/6) في آداب الشرب أنه يشرب في ثلاثة أنفاس ، يحمد الله في أواخرها ، ويسمي الله في أوائلها . ويقول في آخر النفس الأول «الحمد لله» وفي الثاني يزيد «رب العالمين» وفي الثالث يزيد «الرحمن الرحيم».

فإياك أيُّها الإنسان أنْ تغترَّ بالأسباب ، أو أنك بأسبابك أخذتَ غير ما يريده الله لك ، فهو سبحانه الذى أعطاك وقدَّر لك ، وكلُّ الأسباب تتفاعل لك بعطاء وتقدير من الله عزوجل .

فـإياك أن تنظر إلى الأسباب وتنسى المسبِّب ، لأن الله ملك الأشياء التى تحوزها ، والأدوات التى تحوز بها ، بدليل أنه سبحانه حين يشاء يسلبها منك.

فتنبه أيها الغافل ، وإياك أنْ تظن أنَّ الأسباب هى الفاعلة ، بدليل أن الله سبحانه وتعالى يخلق الأسباب ، ثم يشاء ألا تأتى بنتائجها ، كمَنْ يضع بذور القطن ـ مثلاً ـ ويحرث الأرض ، ويرويها فى مواعيدها ، ثم تأتى دودة القطن لتأكل المحصول .

لذلك قُلْنا : إنك تُحصِّن كل نعمة عندك بقولك عند رؤيتها «بسم الله ، ما شاء الله» ، لتتذكر أن هذه النعمة لم تأتِ بجهدك فقط ، ولكنها جاءت لك أولاً بمشيئة الله سبحانه وتعالى ، وذلك لتبقى عَيْن الواهب حارسة للنعمة التى عندك ، أما حين تنسى الواهب فلن يحفظ تلك النعمة لك .

وأول الخيبة أنْ تشغلك النعمة عن المنْعِم ، وتظن أن ما أنت فيه من نعيم هو ثمرة جَهْدك وعملك ، ونتيجة سَعْيك ومهارتك ، فترك الله قارون لعلمه ومهارته بسبب مقالته ﴿**إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي**(٧٨)﴾[**القصص**] فليحرص على ماله بما لديه من علم وقوة ، فكانت النتيجة:

﴿ **فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ**(٨١)﴾[**القصص**] ولم ينفعه ماله أو علمه .

فإياك أنْ تغتر أو تنأى بجانبك فتنسى حَمْد الله على هذه النعمة ، لذلك أمرنا حين نركب السفن مثلاً أن نقول : «بسم الله مُجريها ومرساها » ؛ لأنك ما أجريتها بمهارتك وقوتك ، إنما بسم الله الذى ألهم ، وباسم الله الذى أعان ،

وباسم الله الذى تابعنى ، ورعانى بعينه ، وما دُمْتَ تذكر المنعم عند النعمة ، وتعترف لصاحب الفضل بفضله يحفظها لك .

أما أنْ تنكرها على صاحبها وتنسبها لنفسك ، فيقول لك : ما دام الأمر كذلك ، فحافظ أنت عليه .

ولذلك يقول تعالى: ﴿ وَلَا تَكْفُرُونِ (١٥٢) ﴾ [البقرة]

أى: لا تستروا نِعَم الله ، بل اجعلوها دائماً على ألسنتكم ، فإن كل نعمة من نعم الله لو اسْتُقبلت بقولك : «ما شاء الله لا قوة إلا بالله» لا ترى فى النعمة مكروهًا أبداً ؛ لأنك حصَّنْتَ النعمة بسياج المنعِم.

أعطيتَ لله حقَّه فى نعمته ، فإنْ لم تفعل وتركتها كأنها منك وأنت مُوجِدها، ونسيتَ المنعِم ـ وهو الله سبحانه وتعالى ـ فإن النعمة تتركك.

١٧ المعركة الخالدة مع الشيطان

حين يستحضر الإنسان صورة المعركة الخالدة بينه وبين عدوه الشيطان ، فإنه يتحفز بكل قواه ، وبكل يقظته ، وبغريزة الدفاع عن النفس وحماية الذات ، يتحفز لدفع الغواية والإغراء ، تلك هي حالة التعبئة الشعورية ضد الشر ودواعيه ، وضد هواتفه المستسرَّة في النفس ، وأسبابه الظاهرة للعيان ، إنها حالة الاستعداد الدائم للمعركة التي لا تهدأ لحظة ، ولا تضع أوزارها في هذه الأرض أبداً .

يقول الحق سبحانه : ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ۝ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ۝** ﴾ [فاطر]

الوعد إنْ كان فى خير فهو بشارة بخير يقع ، وإن كان بشرٍّ فهو إنذار بشرٍّ يقع ، ويغلب عليه كلمة «الوعيد» ، ففى غالب الأمر تأتى كلمة «وعد» للاثنين: الخير والشر ، أما كلمة «وعيد» فلا تأتى إلا فى الشر .

والوعد : هو إخبار بشىء سيحدث من الذى يملك أن يُحدث الشىء.

وإنفاذ الوعد له عناصر : أولها الفاعل ، وثانيها المفعول ، وثالثها الزمان ، ورابعها المكان ، ثم السبب.

والحدث يحتاج إلى قدرة ، فإنْ قلتَ : «آتيك غداً فى المكان الفلانى لأكلمك فى موضوع كذا» فماذا تملك أنت من عناصر هذا الحدث ، إنك

لا تضمن حياتك إلى الغد ، ولا يملك سامعك حياته ، وكذلك المكان الذى تحدَّد فيه اللقاء قد يصيبه ما يدمره ، والموضوع الذى تريد أنْ تتحدَّث فيه ، قد يأتى لك خاطر ألاَّ تتحدث فيه من قبل أن يتم اللقاء .

وهَبْ أن كل العناصر اجتمعتْ ، فماذا تملك أنت أو غيرك من عناصر الوعد ؟ لا شيء أبداً .

ولذلك يعلِّم الله سبحانه خَلْقه الأدب فى إعطاء الوعود ، التى لا يملكونها ، فيقول سبحانه :

﴿ وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا (٢٣) إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ (٢٤) ﴾ [الكهف]

وحين تُقدِّم المشيئة فإنْ حدث لك ما يمنع إنفاذ الوعد فلن تكون كذاباً ، وهكذا يعلمنا ربنا صيانة أخبارنا عن الكذب ، وجعلنا نتكلم فى نطاق قدراتنا، وقدراتنا لا يوجد فيها عنصر من عناصر الحدث.

أما إذا قال الله سبحانه ووعد فلا رادّ لما وعد به سبحانه ، لأنه منزّه عن أنْ يُخلف الميعاد ، لأن عناصر كل الأحداث تخضع لمشيئته سبحانه ، ولا تتأبَّى عليه ، ووعده حَقٌّ وثابت .

وانظروا إلى الشيطان يوم القيامة عندما يخطب فيمن اتبعوه :

﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ (٢٢)﴾ [إبراهيم]

فوَعْد الله حَقٌّ ؛ لأنه وَعْد مِمَّنْ يملك ، أما وعد الشيطان فقد اختلف ، لأنه وَعْد بما لا يملك ، لذلك هو وعد كاذب ، لأن الحق سبحانه هو الأمر الثابت الذى لا يتغير .

وحين تَعد أنت ـ الإنسان ـ إنسـاناً آخر بخير قادم ، فـهل تضمن أنْ تُواتيك ظروفك على أنْ تحقق له هذا الأمر ؟ ولذلك يوصينا الحق سبحانه أن نقول «إن شاء الله» ، وبذلك نردُّ الوعـد لله ، فهو وحـده الذى يمكنه أنْ يَعد وينفذ مـا يَعد به.

أما الشـيطان فوعده باطل ، والباطل لجـلج ، وحين تحكم به الآن تثبت لك الوقائع عكسه ، وتجعلك لا تصدق ما حكمت به .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُوراً (١٢٠) ﴾ [النساء]

وهذا يعنى أن الشـيطـان يقـدم الوعود الـكاذبة لمواليـه ، ويخـبـرهم بشىء يسرُّهم ، فالوعد هو أن يخبر أحد آخر بشىء يسرّه.

والمثال على ذلك نراه فـى الحياة العاديـة ، فالإنسان منا يحب مـاله الذى قد جاء بالتعب ، والصدقة فى ظاهر الأمر تُنقص المال ، فيقول الحق :

﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ (٢٦٨) ﴾ [البقرة]

لماذا ؟ لأن الشـيطان يُوسـوس فى صدر صـاحب المال قـائلاً : إنك عندمـا تتصدَّق ببعض المال فـمالك ينقص ، وويل لمن يرضخ لوساوس الشيطان ؛ لأنه يُورده موارد التهلكة .

والشيطان أيضاً يُقدِّم الأمانى الكاذبة فى الوساوس ﴿ وَيُمَنِّيهِمْ ﴾[النساء] .

ومثـال ذلك مـا جاء على لسـان المتفـاخر على أخـيه بلون من الاسـتهـزاء والعياذ بالله : ﴿ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْراً مِّنْهَا مُنقَلَباً (٣٦) ﴾ [الكهف]

المتفـاخر يقول : مـا دام الله قد أعطانى فى الدنيـا ، وما دامت مهـمة الله هى

العطاء الدائم ، فلا بُدَّ أنْ يعطينى ربى فى الآخرة أضعاف ما فى الدنيا ، ذلك أن سعيد الدنيا هو سعيد الآخرة ، فماذا كان جزاؤه ؟

لقد رأى انهيار زراعته ، وعرف سوء مصير الغرور ؛ لأنه استجاب لوعود الشيطان ، ووعود الشيطان ليست إلا غروراً.

﴿وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُوراً (١٢٠)﴾ [النساء]

فما هو الغرور ؟

هناك «غُرور» بضم الغين . و«غَرور» بفتح الغين . والغُرور ـ بضم الغين ـ هو الشىء يُصوَّر لك على أنه حقيقة ، وهو فى الواقع وَهْم . والغَرور ـ بفتح الغين ـ هو من يفعل هذا الأمر .

ولذلك فالغَرور هو الشيطان ؛ لأنه يُزَيِّن للإنسان الأمر الوهمى ، ويؤثر مثلما يؤثر السراب ، فالإنسان حين يرى انكسار الأشعة يُخيَّل إليه أنه يرى ماء.

ويقول الحق سبحانه عن ذلك : ﴿كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ(١) يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا(٣٩)﴾ [النور]

وكذلك الغَرور ، حيث يُزَيِّن الشيطان شيئاً للإنسان ويُوهمه أنه سيستمتع به ، فإذا ما ذهب الإنسان إليه فلن يجد له حقيقة ، بل العكس ، ولذلك يُفصِّل لنا الحق أعمال الكفار ، فيقول عنها : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٣٩)﴾ [النور]

(١) القاع والقيعة: ما استوى من الأرض وانخفض عما يحيط به من الجبال والأكمات . فـ «سراب بقيعة» أى بمكان منخفض مستو مما يظهر فيه السراب عادة . [القاموس القويم ٢/ ١٣٧].

والحق سبحانه يقصُّ علينا قصة عداوة الشيطان لآدم وبنيه منذ بَدْء الخليقة ، فيقول تعالى:

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا (٦١) ﴾ [الإسراء]

أمر الله ملائكته بالسجود لآدم ؛ لأنه سيكون أباً للبشر ، وسوف يُسخّر له الكون كله ، حتى هؤلاء الملائكة سيكونون فى خدمته ، لذلك أمرهم الله بالسجود له سجودَ طاعة وخضوع لما أريده منكم إذن ؛ السجود لآدم ليس خضوعاً لآدم ، بل خضوعاً لأمر الله لهم .

سجد الملائكة الذين شملهم أمر السجود لأمر الله سبحانه وتعالى ، ولكن إبليس رفض أنْ يسجد ، وعصى أمر الله ، وقد كان وجود إبليس مع الأعلى منه وهم الملائكة ، مبرراً أكبر للسجود فما دام قد صدر الأمر إلى الأعلى بالسجود فإنه ينطبق على الأدنى .

وقد كان إبليس كما جاء فى الأثر يسمى «طاووس الملائكة»(١) ، وكان يزهو بخيلاء بينهم ، وهذه الخيلاء أو الكِبْر هو الذى جعله يقع فى المعصية ؛ ولأن إبليس خُلِق مختاراً ، فقد كان مزهواً باختياره لطاعة الله ، قبل أن يقوده غروره إلى الكفر والمعصية.

ولذلك لم يكَدْ يصدر الأمر من الله بالسجود لآدم حتى امتنع إبليس تكبُّراً منه ، ولم يجاهد نفسه على طاعة الله ، فمعصية إبليس هى معصية فى القمة ؛

(١) قال سعيد بن المسيب : كان إبليس رئيس ملائكة سماء الدنيا . وقال ابن عباس : كان إبليس من أشرف الملائكة وأكرمهم قبيلة ، وكان خازناً على الجنان ، وكان له سلطان سماء الدنيا . أورده ابن كثير فى تفسيره (٣/ ٨٩).

لأنه ردَّ الأمر على الآمر ، وظن أنه خير من آدم ، ولم يلتزم بطاعة الله ، ومضى غروره يقوده من معصية إلى أخرى ، فطرده الله من رحمته وجعله رجيماً .

ولما عرف إبليس أنه طُرِد من رحمة الله طلب من الله ـ سبحانه وتعالى ـ أنْ يُبقيه إلى يوم الدين ، وأقسم إبليس بعزة الله أنْ يُغْرى بنى آدم .. حدّد الأماكن التى يأتى منها الإغواء ، فقال : ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الأعراف]

فالذى بين اليد هو ما كان إلى الأمام (وَمِنْ خَلْفهم) أى : من الوراء. و(عَنْ أَيْمانهِمْ) أى : من جهة اليمين ، و (عَنْ شَمَائلهم) أى : من جهة اليسار . والشىء الذى أمام العالم كله ، ونسير إليه جميعاً هو «الدار الآخرة» .

وحين يأتى الشيطان من الأمام فهو يُشكّكهم فى حكاية الآخرة ويُشكّكهم فى البعث ، ويحاول أن يجعل الإنسان غير مُقبل على منهج الله ، فيصير من الذين لا يؤمنون بلقاء الله ، ويشكُّون فى وجود دار أخرى سيُجازى فيها المحسن بإحسانه ، والمسىء بإساءته.

والشيطان ـ أيضاً ـ يأتى من الخلف ، وخلف كل واحد منا ذريته ، يخاف ضيعتهم ، فيوسوس الشيطان للبعض بالسرقة أو النهب أو الرشوة من أجل بقاء مستقبل الأبناء ، وفساد أناس كثيرين يأتى من هذه الناحية .

ومثل هذا الفساد يأتى حين يبلغ بعض الناس منصباً كبيراً ، وقد كبرت سِنّه، ويُقبِل على الله بشرٍّ ، ويظن أنه يترك عياله بخير ، لكن إنْ كنت تخاف عليهم حقاً فأمِّنْ عليهم فى يد ربهم ، ولا تُؤمِّن حياتهم فى جهة ثانية.

﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾﴾ [النساء]

ويأتى الشيطان من اليمين ؛ ليُزهِّد الناس ويصرفهم عن عمل الحسن والطاعة ، واليمين رمز العمل الحسن ؛ لأن كاتب الحسنات على اليمين ، وكاتب السيئات على الشمال ، ويأتى عن شمائلهم ليغريهم بشهوات المعصية.

ونلحظ أن الحق استخدم لفظ ﴿**عَنْ أَيْمَانِهِمْ** (١٧)﴾[الأعراف] ، ﴿ **عَن شَمَائِلِهِمْ** (١٧)﴾[الأعراف] ولم يأتِ بـ «على» لأن «على» فيها استعلاء ، والشيطان ليس له استعلاء أبداً ؛ لأنه لا يملك قوة القهر فيمنع ، ولا قوة الحجة فيقنع.

لقد بلغ الغرور بالشيطان أنْ تخيّل أنه ذكى ، فشرح لنا خطته ومنهجه فدلَّل لنا على أن حكم الله فيه قد نفذ بأنْ جعل كيده ضعيفاً ، فسبحانه القائل: ﴿ **إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا** (٧٦)﴾ [النساء]

لقد نبهنا الحق لكيد الشيطان وغروره ، والناصح هو مَنْ يحتاط ، ويأخذ المناعة ضد النزغ الشيطانى .

لذلك يقول الحق سبحانه :

﴿**وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ** (١٦٨) **إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ** (١٦٩) ﴾ [البقرة]

أى : لا تسيروا وراء الشيطان ، فالخطوة هى المسافة بين القدمين عند المشى، أى : بين النقلة والنقلة ، ولا تجعلوا الشيطان قائدكم ؛ لأن الشيطان عداوته لكم مُسبقة ، ويجب أنْ تحتاطوا بسوء الظن فيه ، فهو الذى عصى ربه ، ولا يصح أنْ يُطاع فى أىِّ أمر ، وعداوة الشيطان للإنسان قديمة من أيام آدم.

وهذه العداوة معروفة لنا تماماً ؛ لأنه خرج من الجنة ملعوناً مطروداً ، عكس

آدم الذى قَبِل الله توبتـه ، وقد أقـسم الشيطان بعزة الله لَيُـغوينَّ الكل ، واسـتثنى عباد الله المخلَصين .

لذلك يجب على الأب كما يُعلِّم ابنه علوم الحياة ووسـائلها أنْ يُعلِّمه قصة العداوة الأولـى بين الشـيطـان وآدم عليه السلام ، ويُعلِّمه أن خـواطر الخير من الله ، وخواطر الشر من الشيطان ، فليكُنْ على حذر من خواطره ووساوسه.

وبذلك يُربِّى فى ابنه مناعة إيمانيـة ، فيحذر كيد الـشيطان ونزْغه ، ويعلم أن كل أمر يخـالف أوامر الشرع فهـو من الشيطان ، وهذه التربية من الآبـاء تحتاج إلى إلحاح بها على الأبناء حتى ترسخ فى أذهانهم.

وقوله تـعالى: ﴿**إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا (٥٣)**﴾ [الإسـراء] أى: كـان ولايزال ، وإلى يوم القـيامـة بدليل قـوله : ﴿**لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لأَحْتَنِكَنَّ**[1] **ذُرِّيَّتَهُ إِلاَّ قَلِيلاً (٦٢)**﴾ [الإسراء]

أى: لأتعهدنهم بالإضلال والغواية إلى يوم القيامة .

ويقصُّ علينا الحق سبحانه مقالة الشيطان لربه بعد رفضه السجود لآدم :

﴿**قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلاَّ قَلِيلاً (٦٢)**﴾ [الإسراء]

أى: أعلمنى ، لماذا فضَّلته علىَّ ، وكأن تفضـيل آدم على إبليس مسألة تحتاج إلى برهان وتبرير ، وكان على إبليس أن ينتظر إجابة هذا السؤال الذى توجَّه به لربه عزوجل ، ولكنه تعجَّل وحمله الغيظ والحسد على أنْ يقول:

---

(١) احتنك فلاناً: استولى عليه واستماله إليه فلا يخرج عن طوعه . والمعنى: أى لأملكن أمرهم وأستولى عليهم فلا يعصون أمرى . [القاموس القويم ١/ ١٧٥].

﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَٰذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾﴾ [الإسراء]

وهذا لأن حقده وعداوته لآدم مُسْبَقة فلم ينتظر الجواب.

ومعنى ﴿أَخَّرْتَنِ ﴿٦٢﴾﴾[الإسراء] أخَّرت أجلي عن موعده ، كأنه يعلم أن الله يجعل لكل نفس منفوسة من إنس أو جنٍّ أجلاً معلوماً ، فطلب أنْ يُؤَخِّره الله عن أجله ، وهذه مبالغة منه في اللدد، والمعاندة ، فلم يتوعدهم ويُهددهم مدة حياته هو ، بل إلى يوم القيامة ، فإنْ كانت البداية مع آدم فلن ينجو ولن تنجو ذريته أيضاً.

فالعداوة بين إبليس وآدم ، فما ذنب ذريته من بعده؟ لقد كان عليه أنْ يقصر هذا الحقد وهذه العداوة على آدم ، ثم يوصى ذريته بحمل هذا العداء من بعده، إنه الغيظ الدفين الذي يملأ قلبه.

﴿ قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ ﴾ [الإسراء]

فاستفزز من استطعت واستخفهم واخدعهم بصوتك ووسوستك أو بصوتك الشرير، سواء أكان هذا الصوت من جنودك من الأبالسة أمثالك، أو من جنودك من شياطين الإنس ، الذين يُعاونونك ويساندونك.

﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ ﴿٦٤﴾﴾ [الإسراء]

أي: صوِّت وصِحْ بهم راكباً الخيل لتفزعهم.

﴿وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ ﴿٦٤﴾﴾ [الإسراء]

فكيف يشاركهم أموالهم؟ بأن يُزيِّن لهم المال الحرام ، فيكتسبوا من الحرام، وينفقوا في الحرام ، والمفروض في الأولاد طهارة الأنساب فدَوْر الشيطان أنْ يُفسِد على الناس أنسابهم ، ويُزيِّن لهم الزنا ، فيأتون بأولاد من الحرام. أو: يزين لهم تهويد الأولاد أو تنصيرهم ، أو يُغريهم بقتل الأولاد مخافة الفقر أو غيره ، هذا من مشاركة الشيطان في الأولاد.

وقوله تعالى: ﴿وَعِدْهُمْ﴾ أي: منِّيهم بأمانيك الكاذبة، كما قال سبحانه في آية أخرى: ﴿ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٦٨)﴾ [البقرة]

وقوله: ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُوراً (٦٤) ﴾ [الإسراء]

أي: لا يستطيع أنْ يغرَّ بوعوده إلا صاحب العزَّة والغفلة، ومنها الغرور، أي: يُزيِّن لك الباطل في صورة الحق ، فيقولون: غَرَّهُ. وأنت لا تستطيع أبداً أن تُصوِّر لإنسان الباطل فى صورة الحق إلا إذا كان عقله قاصراً غافلاً ؛ لأنه لو عقل وانتبه لتبيَّن له الحق من الباطل ، إنما تأخذه على غِرَّة من فكره ، وعلى غفلة من عقله.

لذلك ، كثيراً ما يخاطبنا الحق سبحانه بقوله : ﴿ أَفَلا تَعْقِلُونَ (٦٠) ﴾ [القصص] ، ﴿ أَفَلا تَتَفَكَّرُونَ (٥٠) ﴾[الأنعام] ، ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ(٨٢)﴾[النساء] . ويناديننا بقوله تعالى: ﴿ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ (١٠)﴾ [الطلاق]

وهذا كله دليل على أهمية العقل ، وحثٌّ على استعماله فى كل أمورنا ، فإذا سمعتم شيئاً فمَرروه على عقولكم أولاً ، فما معنى أنْ يطلب الله منّا ذلك؟ ولماذا يُوقِظ فينا دائماً ملَكة التفكير والتدبر فى كل شىء؟

لا شكَّ أن الذى يُوقظ فيك آلة الفكر والنقد التمييز، ويدعوك إلى النظر والتدبُّر، واثق من حُسْن بضاعته، كالتاجر الصدوق الذى يبيع الجيد من القماش مثلاً، فيعرض عليك بضاعته فى ثقة، ويدعوك إلى فحصها، وقد يشعل النار ليريك جودتك وأصالتها.

ولو أراد الحق سبحانه أنْ يأخذنا هكذا على جهل وعمىً ودون تبصُّر ما دعانا إلى التفكُّر والتدبُّر.

وهكذا الشيطان لا يُمنِّيك ولايُزيِّن لك إلا إذا صادف منك غفلة، إنما لو كنت متيقظاً له، ومستصحباً للعقل، عارفاً بحيله ما استطاع إليك سبيلاً، ومن حيله أنْ يُزيِّن الدنيا لأهل الغفلة ويقول لهم: إنها فرصة للمتعة فانتهزها، وخُذْ حظك منها فلن تعيش مرتين، وإياك أنْ تُصدِّق بالبعث أو الحساب أو الجزاء.

وهذه وساوس لا يُصدِّقها إلا مَنْ لديه استعداد للعصيان، وينتظر الإشارة مجرد إشارة فيطيع ويقع فريسة لوعود كاذبة، فإنْ كان يوم القيامة تبرَّأ إبليس من هؤلاء الحمقى، وقال:

﴿ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ[1] وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ (٢٢) ﴾ [إبراهيم]

ولذلك يقول الحق سبحانه:

﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا (٦) ﴾ [فاطر]

---

(١) المصرخ: المغيث المنقذ من يستصرخه. والمصرخ الذى يزيل سبب الصريخ وسبب الصراخ. واستصرخه: استغاث به. [القاموس القويم ١/ ٣٧٣].

ثم يضيف الحق سبحانه :

﴿ إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿٦﴾ ﴾ [فاطر]

وكلمة «حزب» معناها: جماعة التفَّ بعضهم مع بعض على منهج يروْن فيه الخير لهم.

ولقد حدَّثنا الحق سبحانه عن حزب الله ، فقال :﴿وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [المائدة]

فحزب الله فى أيِّ وضع ، وفى أيّ تكوين ، ولأية غاية هو الحزب الغالب.

١٨ الله غني عن خَلْقه

الناس في حاجة إلى تذكيرهم بأنهم هم الفقراء المحاويج إلى الله ، وأن الله غني عنهم كل الغنى وأنهم حين يدعون إلى الإيمان بالله وعبادته وحمده على آلائه فإن الله غنى عن عبادتهم وحمدهم ، وهو المحمود بذاته ، وأنهم لا يُعجزون الله ولا يعزون عليه ، فهو إن شاء أن يذهب بهم ويأتى بخلق جديد من جنسهم أو من غيرهم فإن ذلك على الله يسير.

يقول الحق سبحانه: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾**﴾ [فاطر]

إن الله سبحانه غنىٌّ بقدرته المطلقة ، غنى وقادر أنْ يستبدل بالقوم البخلاء قوماً يسْخُون بما أفاء الله عليهم من رزق فى سبيل الله ، وهو سبحانه غنىٌّ عن العباد وله كل الملك .

﴿**لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾**﴾ [الحج]

فما فى السماوات وما فى الأرض ملْك لله تعالى ، ومع ذلك لا ينتفع منها الحق سبحانه بشىء ، إنما خلقها لمنفعة خَلْقه ، وهو سبحانه غنىّ عنها ، وغنى عنهم ، وهو غنى محمود ، لأن غناه لا يعود عليه ، إنما يعود على خَلْقه ، فيحمدونه لغناه ، لا يحقدون عليه.

وصفات الكمال فى الله تعالى موجودة قبل أنْ يخلق الخَلْق وبصفات الكمال خلق ، وملكيته تعالى للسماوات وللأرض ، ولما فيهما ملكية للظرف وللمظروف ، ونحن لا نملك السماوات ولا نملك الأرض ، إنما نملك ما فيهما من خيرات ومنافع مما ملّكنا الله له ، فهو الغنيُّ سبحانه ، المالك لكل شىء ، وما ملّكنا إلا من باطن مُلْكه .

ومن العجيب أن الحق سبحانه يُملِّك خَلْقه من مُلْكه ، فمن استخدم النعمة فيما جُعلت له ومَنْ أعطى غير القادر من نعمة الله عليه يشكر الله له ، وهى فى الأصل نعمته ، ذلك لأنك أنت عبده ، وقد استدعاك للوجود ، وعليه سبحانه أنْ يتولاَّك ويرعاك .

فإن احتاج غير القادر منك شيئاً ، قال تعالى: ﴿ **مَن ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا** (٢٤٥) ﴾ [البقرة]

فاعتبره قرضاً وهو ماله ، لكنه ملَّكك إياه ، لذلك لا يسلبه منك ،إنما يأخذه قرضاً حسناً ، ويضاعفه لك ، لأنه غنى حميد .

أى: محمود ، ولا يكون الغنَى محموداً إلا إذا كان غير الغنى مستفيداً من غنَاه .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ **أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى الأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِى فِى الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلاَّ بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ** (٦٥) ﴾ [**الحج**] فما فى السماء وما فى الأرض ملْك له سبحانه ، لكنه سخَّره لمنفعة خَلْقه ، فإنْ سأل سائل : فلماذا لا يجعلها الله لنا ، ويُملِّكنا إياها؟

نقول: لأن ربك يريد أنْ يُطمئنك أنه لا يعطيها لأحد أبداً ، وستظل ملْكاً لله

وأنت تنتفع بها ، وهل تأمن إنْ ملّكها اللهُ لغيره أنْ يتغيّر لك ويحرمك منها ؟ فأمْنُك فى أن يظل الملْك لله وحده ؛ لأنه ربُّك ومُتولّيك ، ولن يتغير لك ، ولن يتنكر فى منفعتك.

ويقول الحق سبحانه فى مجال الإنفاق فى سبيل الله: ﴿ **هَا أَنتُمْ هَؤُلاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ (٣٨)** ﴾ [**محمد**]

فأنتم تُدْعَون للإنفاق فى سبيل الله ، فى كل ما يحبه الله من خَلْقه لخلقه ، فالله ـ سبحانه وتعالى ـ قادر على أنْ يغنى جميع الناس ، ولا يجعل أحداً محتاجاً لأحد ، ولكنه يريد أن يصل القلوب ، بأنْ يعطى لواحد ولا يعطى للآخر ، حتى إذا أعطى هذا الغنى للفقير ، فرح الفقير ودعا له بالخير والبركة ، ولا يحقد عليه .

والغنى يعطيه عن حُبٍّ ورضا دون أنْ يحتقره ويستهين به وبضعفه ، لأنه يُقدِّر أنه قد يضعف يوماً أو يعجز عن الكسب مثله ، فأنت حين تعطى الضعيف ، تضمن أنك لو ضعفت سيعطيك المجتمع الإيمانى.

والذى يبخل هو صاحب النظرة الضيقة ، الذى لا ينظر إلى عطاء الله فى الآخرة ، ومضاعفة ثواب المقرضين والمتصدقين .

ولذلك حين يأتى إنسان ما ليقترض منك مالاً ، وتعطيه هذا القرض لا تظن أن هذا القرض نقص من عندك ، مثلما تأتى لتزرع الأرض بالقمح ، فتذهب إلى مخزنك الذى فيه عشرة أرادبّ ، وتأخذ منه أردباً من العشرة لترميه فى الأرض لتزرعها بالقمح ، فأنت لا تقول إنك نقصت القمح أردباً ، لأنك رميته فى الأرض لتعطيك أضعافه .

فالذى يحسبها بحقٍّ لا ينظر إلى ما سيخرج منه ، ولكن ينظر إلى ما سيعود عليه بعد ذلك ، وما دام الله سيضاعفه له فهو أفضل من أىِّ تجارة أو أىِّ معاملة مع أىِّ بنك ، لأن أى معاملة بشرية لا تضاعف لصاحبها ماله مثلما يضاعف الحق سبحانه لعباده ، لأن الله تعالى يضاعف الحسنة إلى سبعين ضعفاً لقوله تعالى :

﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ (٢٦١)﴾ [البقرة]

فالذى يحسبها بهذه الصورة لا بُدَّ أن يُقبِل على الإنفاق فى سبيل الله ، ولينظر إلى مَنْ يدعوه إلى الإنفاق .

إنه الذى خلقهم من عدم ، وأمدَّهم من عُدْم ، وخلق لهم قبل أن يخلقهم، وأعطاهم أسباب القوة ليتفاعلوا مع الأرض فينتجوا ، ومع الصناعات فيصنعوا ، ويكون عندهم دخل يكفيهم ، ويكفى المحتاجين ؛ لأن الله يريد من المؤمن أن يعمل على قدْر طاقته وعلى قدرْ حاجته ؛ لأن الإنسان لو عمل على قدر حاجته وحاجة مَنْ هو مسئول عنهم سيموت العاجز عن العمل جوعاً.

إذن: تأخذ من القادر زكاةً لغير القادر ، فهو حقُّ العاجز عند مَنْ يقدر على العمل والكسب ؛ لأن الأيام دُوَل ، فالقوىُّ الذى يعمل وينتج ، ويكون عنده مال لا يضمن أنْ يظل كذلك ، بل من الممكن أنْ يصيبه عجز أو ضعف لأنه ابن أغيار ، فإذا عجز أو ضعف ، فكيف يعيش ؟

فأنت إذا نظرت إلى العاجز الضعيف الذى ليس عنده ما يعيشه وساعدته أمنت نفسك إنْ حصل لك هذا بأن إخوانك المؤمنين يعاونونك ، فإذا كان الله هو الذى دعا إلى النفقة ، ودعوته إليها لم يَخْلُ منها واحد أبداً ، لقوله تعالى:

﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلاَّ يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [التوبة]

فحتى الذين لا يجدون ما ينفقون كلَّفهم الله بأنْ ينصحوا لله ورسوله ، فالذى لا يقدر وليس عنده مال ينفقه يعظ مَنْ عنده المال ، وإنْ لم يفعل ذلك يأثم.

والحق ـ سبحانه وتعالى ـ هو الذى استدعى الخَلْق جميعاً للوجود ، وهو الذى ابتلى قوماً بالضعف فلا يستطيعون أنْ يعملوا ، فلو لم يهيء لهم مَنْ يستطيع أنْ يعطيهم لتذمروا على الخالق وتمردوا على الخَلْق ، لكن إذا رأوا الواجد ينفقه عليهم سيقولون : إن يد الله ممدودة بالأمر له ، فكأنها يَدُ الله تعطيهم.

فالإنسان يجب أنْ يعمل على قدر طاقته وليس على قدر حاجته ، ويأخذ من عمله ما يكفيه وأهله ، وما زاد عليه أنْ يوزعه على المحتاجين ولا يكنزه ، لقول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [التوبة]

والبشرى بالعذاب هنا تهكُّم بهؤلاء البخلاء الذين يكنزون المال ، ويمنعونه من التداول ، ولا ينفقونه فى سبيل الله ، فالذى جعل يده تنقبض عن النفقة أن نفسه شحيحة ، فالذى يبخل لا يبخل على المحتاج ، وإنما يبخل على نفسه ، لماذا ؟ لأنك حرمت مضاعفة ما تنفق عند الله ، فتكون قد بخلْتَ على نفسك ؛ لأنك حرمت نفسك خيراً كثيراً كان سيعطيه الله لك.

ويقول الحق سبحانه : ﴿وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ ﴿٣٨﴾﴾ [محمد]

أى: أنه سبحانه غنيٌّ عن خَلْقه ، وخزائنه لاتنفد ، ولكنه يريد أنْ يكون بين خَلْقه رحمة ومودَّة ومعونة حتى لا يتكبر مَنْ عنده ، ولا يحقد مَنْ ليس عنده .

فالفقير حين يجد الغنى يأتى إليه ويعطيه مما أعطاه الله يفرح ويدعو له ، ويحمد الله على ذلك ، فالغنى كله جاء من الحق سبحانه وتعالى.

ومعنى أن الله غنيٌّ أنه ليس فقيراً ، ولا تنفد خزائنه ، لا كما زعم اليهود فى قولهم : ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ ﴿١٨١﴾﴾ [آل عمران]

فعن ابن عباس قال : دخل أبو بكر الصديق بيت المدراس فوجد من يهود ناساً كثيرين ، قد اجتمعوا على رجل منهم يقال له فنحاص ، وكان من علمائهم وأحبارهم ، ومعه حبر يقال له : «أشيع» ، فقال له أبو بكر : ويحك يا فنحاص ، اتق الله وأسلم ، فوالله إنك لتعلم أن محمداً رسول من عند الله قد جاء بالحق من عنده ، تجدونه مكتوباً عندكم فى التوراة والإنجيل.

فقال فنحاص: والله يا أبا بكر ما بنا إلى الله من حاجة من فقر ، إنه إلينا لفقير ، ما نتضرّع إليه كما يتضرّع إلينا ، وإنَّا عنه لأغنياء ولو كان عنا غنيّاً ما استقرض منا كما يزعم صاحبكم ، ينهاكم عن الربا ويعطينا ، ولو كان غنياً ما أعطانا الرب .

فغضب أبو بكر رضي الله عنه فضرب وجه فنحاص ضرباً شديداً ، وقال : والذى نفسى بيده ، لولا الذى بيننا وبينك من العهد لضربتُ عنقك يا عدو الله ، فأكذبونا ما استطعتم إنْ كنتم صادقين .

فذهب فنحاص إلى رسول الله ﷺ وقال: يا محمد ، أبصر ما صنع بى صاحبك ، فقال ﷺ : « ما حملك على ما صنعت يا أبا بكر؟ » [1] فقال :

(١) أورده ابن كثير فى تفسيره (١/ ٤٣٤) وعزاه لمحمد بن إسحاق وابن أبى حاتم عن ابن عباس.

يا رسول الله ، إن عـدو الله قال قـولاً عظيمـاً ، يزعم أن الله فقيـر ، وأنهم عنه أغنياء ، فلمـا قال ذلك غضبتُ لله ممـا قال: فضربت وجـهه ، فجحـد فنحاصُ ذلك ، وقال:ما قلت ذلك ، فأنزل الله فيما قال فنحاص:

﴿**لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ**(١٨١)﴾ [**آل عمران**]

هؤلاء لم يفطنوا إلى سرِّ التـعبير الجـميل فى قوله سبـحانه:﴿**مَـن ذَا الَّـذِى يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا**(١١)﴾ [الحديد]

فإن هذا القول هو احترام من الحق سبحانه لحركة الإنسان فى التملُّك ، فهو سبـحانه يريد أن يغرى المتـحرك بزيادة الحركة ، ويحـمل غير المتـحرك على أنْ يتحرك ، فإنْ طلب سـبحانه شيئاً من هذا المال فهـو لا يقول للإنسان: أعطنى ما أعطيتُ لك.

بل كـأنه سبـحـانه يقـول: إننى سأحـتـرم عرقـك ، وسأحـتـرم حركـتك ، وسأحتـرم فكرك ، وسأحترم جـوارحك وطاقاتك وكل ما فـيك ، فإنْ أخذتُ منك شيئاً فلن أقول لك أعطنى مـا أعطيتُ لك ، لكن أقول لك: أقرضها لى ، وإنْ أقرضتها فسوف تقرضها لا لأنتفع بها ، ولكنها لأخيك ، وقد اقترض من القادر فيما بعد ، وذلك لك أنت إذا أصابتك الحاجة ، لماذا؟

لأننى أنا الله الذى اسـتـدعـيتُ خَلْقى إلى الوجـود ، ومـا دُمْتُ أنا الله الذى استدعيتُ الخَلْق إلى الوجود فأرزاقهم مطلوبة منى.

فحين يقترض الحق ـ سبحانه وتعالى ـ من بعض خَلْقه لبعض خَلْقه ، فهو سبحـانه لا يتراجع فيمـا وهب ، بل يقول جل وعلا: ﴿**مَن ذَا الَّذِى يُقْـرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ** (١١)﴾ [الحديد]

لكن اليهودى لم يأخـذ المسألة بهذا الفهم ، لكنه أخذها بغـباء المادة فقال : إن الله فقير ونحن أغنياء.

ويقول تعالى: ﴿وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ (٢٦٣)﴾ [البقرة]

ففى ذلك تنبيه للقادر الذى حرم الفقير ، وكأنه يقول له: إنما حرمت نفسك أيها القادر من أجر الله ، إنك أيها القادر حين تحرم فقيراً فأنت المحروم ؛ لأن الله غنى عنك.

إن الله غنىٌّ بقدرته المطلقة ، غنىٌّ وقادر أنْ يستبدل بالقوم البخلاء قوماً يسخون بما أفاءالله عليهم من رزق فى سبيل الله ، فالذى يمسك عن العطاء إنما منع عن نفسه باب رحمة .

والحق سبحانه غنى عن جميع خَلْقه ، وغنى عن عبادتهم وطاعتهم له ؛ ولذلك قال تعالى بعد فرض حج البيت الحرام ، فقال: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (٩٧)﴾ [آل عمران]

قد يقول قائل : ولماذا لم يقل الله : ومن كفر فإن الله غنى عنه ؟ وقال : ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (٩٧)﴾ [آل عمران]

ونقول: إن الله غنى عن كل مخلوقاته ، و إياك أنْ تفهم أن الذى لم يكفر وآمن ، وأدَّى ما عليه من تكليف ، أنه عمل منفعة لله ، إن الله غنى عن الذى أدَّى ، وعن الذى لم يُؤدِّ ، إياك أن تظن أن مَنْ أدَّى قد صنع لله معروفاً ، أو قدَّم لله يداً.

﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (٩٧)﴾[آل عمران] عمَّنْ لا يفعل ، وعمن يفعل.

فإيمانكم لن يزيد الحق سبحانه شيئاً ، ولن يضيف هذا الإيمان منهم ومعهم أهل الأرض كلهم لمُلْكه شيئاً ؛ لأن مُلْك الله إنما أبرزه سبحانه بصفات الكمال فيه ، وهو ناشىء عن كمال موجود.

ولذلك قال سليمان عليه السلام عندما رأى عرش ملكة سبأ مستقراً عنده بعد أن آتاه به مَنْ عنده علم من الكتاب قبل أنْ يرتدَّ إلى سليمان طَرْفه:

﴿ قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ (٤٠) ﴾ [النمل]

فقوله تعالى: **﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ (٤٠)﴾** [النمل]

أي: أن الله تعالى لا يزيده شكرنا شيئاً ، فله سبحانه وتعالى صفات الكمال المطلق قبل أنْ يشكره أحد ، فمَنْ يشكر فإنما يعود عليه ، وهو ثمرة شكره.

ومَنْ جحد النعمة ولم يشكر المنعِم فإن ربى غنى عن شكره كريم ، أي: يعطى عبده رغم ما كان منه من جحود وكفر بالنعمة ، لأن نعمه تعالى كثيرة لا تُعَدُّ ، وهذا من حلمه تعالى ورأفته بخَلْقه.

ويقول الحق سبحانه عن غنَاه تعالى ، واستغنائه عما يفتقر إليه عباده: **﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ(٦٨)﴾** [يونس]

فالله سبحانه مُنزَّه عن كل ما تعرفه من الأغيار ، فله تنزيه فى ذاته ، فلا ذات تشبه ذاته ، ومُنزَّه فى صفاته ، فلا صفة تشبه صفته ، ومنزَّه فى أفعاله ، فلا فعْل يشبه فعله.

وحتى نضمن هذه المسألة لا بُدَّ أنْ يكون الإله واحداً ، ولكن بعضًا من القوم جعلوا لله شركاء ، ومَنْ لم يجعل له شريكاً توهم أن له ابناً وولداً.

ونقول لهم : إن كلمتكم **﴿اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا (٦٨)﴾[يونس]** ترد عليكم ؛ لأن معنى اتخاذ الولد أن الألوهية وُجدت أولاً مستقلة ، وبهذه الألوهية اتخذ الولد.

والكمال كله لله سبحانه ، فهو كمال ذاتىٌّ ، ولذلك يأتى فى وسط الآية ، ويقول تعالى :﴿سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ ﴿٦٨﴾﴾ [يونس]

فهو الغنى أى: المستغنى عن معين ، كما تستعينون أنتم بأبنائكم ، وهو دائم الوجود ، فلا يحتاج إلى ابن مثل البشر ، وهم أحداث تبدأ وتنتهى ؛ لذلك يحبون أن يكون لهم أبناء ، كما يقول الشاعر :ابنى يا أنا بعدما أقضى .

ويُقال «مَنْ لا ولد له لا ذِكْر له» كأن الإنسان لما علم أنه يموت لا محالة أراد أنْ يستمر فى الحياة فى ولده ؛ ولذلك حين يأتى الولد للإنسان يشعر الإنسان بالسرور والسعادة .

والجاهل هو مَنْ يحزن حين تلد له زوجته بنتاً ، لأن البنت لن تحمل الاسم لمن بعدها ، أما الولد والحفيد فيحملان اسم الجد ، فيشعر الجدُّ أنه ضمن الذِّكْر فى جيلين.

إذن: فاتخاذ الولد إما استعانة وإما اعتداد ، والحق سبحانه غنىٌّ عن الاستعانة ، وغنىٌّ عن الاعتداد ؛ لأنك تعتدُّ بمن هو أقوى منك ، وليس هناك أقوى من الله تعالى ، وهو سبحانه لا يحتاج لامتداد ؛ لأنه هو الأول وهو الآخر، وعلى ذلك ففكرة اتخاذ الولد بالنسبة لله تعالى لا تصح على أىِّ لون من ألوانها.

لذلك يقول الحق سبحانه مردفاً لتلك الفكرة (سبحانه) ؛ لأنها تقطع كلَّ احتمالات ما سبقها ، ويُتبع ذلك بقوله:﴿هُوَ الْغَنِيُّ ﴿٦٨﴾﴾[يونس] لأنه غنىٌّ عن اتخاذ الولد ، وغنىٌّ عن كلِّ شىء . وقوله (سُبْحَانَهُ) : تنزيه له والتنزيه : ارتفاع بالمنزَّه عن مشاركة شىء له فى الذات أو الأفعال.

وإذا ورد شيء هو لله وَصْف ، ولخَلْقه وصف ، فإياك أنْ تأخـذ هذه الصفة مثل تلك الصفة ، فإنْ قابلتَ غنياً من البشر فالغِنَى في البشر عَرَض ، أما غِنَى الله تعالى ففي ذاته سبحانه.

وأنت حَيٌّ ، والله سبحـانه حَيٌّ ، ولكن أحياتك كحياته سـبحانه؟لا ؛ لأن حياته سبحانه لم يسبقها عدم ، وحياتك سبقها عدم ، وحياته سبحانه لا يلحقها عدم ، وأنت يلحق حياتك العدم.

والله موجـود وأنت موجود ، لكن وجـوده سبحانه وجـود ذاتيٌّ ، ووجودك وجود عَرَضِيٌّ.

والله سبحانه كما هو الغنى ، فإنه ـ تبارك وتعالى ـ المغنى ، فهو مُغْنٍ عباده، وسَاق إليهم أرزاقـهم ، فأغناهم عما سواهم ، كـقوله تعالى: ﴿**وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾**﴾ [النجم]

أي: جعل للمـرء غَنَاءً بما يملك عـما في يد الغيـر ، وأقنى ، أي: جعل له رضاً بما أعـطاه ، فنجد أناسـاً رزقهم ضيـق ، ولكنهم راضون وسـعداء. إذن: الغنى بسعة المال يساويه في رضا النفس القناعة والرضا.

ويقـول تعـالى: ﴿**وَأَنكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾**﴾ [النور]

فالفقر قد يكون سبباً في عدم الإقبال على البنت ، أو عدم إقبال أهل البنت على الزوج ، لكن كـيف يتـخلى الله عنَّا ، ونحـن نتقـيـه ونقـصد الإعـفـاف والطُّهر؟

لا يمكن أنْ يضنَّ الله على زوجيْن التقيا على هذه القـيم واجتمعا على هذه

الآداب ، ومَنْ يُدريك لعل الرزق يأتى للاثنين معاً ، ويكون اجتماعهما فى هذه الرابطة الشرعية هو باب الرزق الذى يفتح للوجهين معاً؟

﴿ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٣٢) ﴾[النور] ، فعطاء الله دائم لا ينقطع ؛ لأن خزائنه لا تنفد ولا تنقص ، والإنسان يمسك عن الإنفاق ؛ لأنه يخاف الفقر ، أما الحق ـ تبارك وتعالى ـ فيعطى العطاء الواسع لأن ما عنده لا ينفد.

فالمغنى: معطى الغنَى لعباده ، وهو سبحانه مُغْنٍ عباده بعضهم عن بعض ، فالحوائج لا تكون على الحقيقة إلا لله سبحانه .

ومَنْ شهد محلَّ افتقاره إلى الله عزوجل فرجع إليه بحُسْن العرفان أغناه الله من حيث لا يحتسب ، وأعطاه من حيث لم يرتقب.

وإغناء الله تعالى عباده على قسمين:

ـ منهم مَنْ يُغنيه بتنمية أمواله.

ـ ومنهم مَنْ يغنيه بتصفية أحواله ، وهذا هو الغنَى الحقيقى فلا مُغنى ولا كافى على الإطلاق إلا الله ، وغنَاه سبحانه يكون فى الدنيا والآخرة.

ويقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (١٦) ﴾ [فاطر]

وذلك مثل قول الحق سبحانه: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ (١٣٣)﴾ [النساء]

فلا شىءَ يتأبَّى على مرادات الحق ولا على قدراته ، ويقول تعالى فى موقع آخر: ﴿فَلا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ (٤٠) عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (٤١) ﴾ [المعارج]

فلا أحدَ يسبق إرادة الله أو مشيئته.

ويقول تعالى مؤكداً أن قدرته على المجيء بخَلْق جديد ليست مسألة مستحيلة : ﴿ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ (٢٠) ﴾ [إبراهيم]

والشيء العزيز هو الشيء الممتنع ، والله سبحانه لا يُغْلَب ، وقد بيَّن لنا في جزئيات الحياة أنه يذهب بنبات ، ويأتي بنبات آخر ، ويذهب بحيوان ، ويأتي بحيوان آخر ، وكذلك يذهب بالجماعة من البشر ، ويأتي بغيرهم.

فالله تعالى قادر على أنْ يذهب بمَنْ يمنع الخير عن الناس ، ويأتي بمَنْ هو أفضل منه ؛ لأن الإنسان كالموظف عند الله تعالى ، إنْ عصى أمره استبدله بمَنْ هو خير منه.

١٩ أكْرمكُمْ أتقَاكُمْ

يأيها الناس ، يأيها المختلفون أجناساً وألواناً ، المتفرقون شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، والذى يناديكم هو الذى خلقكم من ذكر وأنثى ، وهو يطلعكم علي الغاية من جعلكم شعوباً وقبائل ، إنها ليست التناحر والخصومة ، إنما هو التعارف والوئام.

يقول الحق سبحانه: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (١٣)**﴾ **[الحجرات]**

أول شيء فى التوازن الاجتماعى أننا جميعاً عندالله سواء ، وكلنا عبيده ، وليس منّا مَنْ بينه وبين الله قرابة أو نسب ، فالجميع عند الله عبيد كأسنان المشْط، لا فرْقَ بينهم إلا بالتقوى والعمل الصالح.

وإنْ تفاوتتْ أقدارنا فى الحياة فهو تفاوت ظاهرى شكلى ، لأنك حينما تنظر إلى هذا التفاوت لا تنظر إليه من زاوية واحدة فتقول مثلاً: هذا غنى ، وهذا فقير.

ومعظم الناس يهتمون بهذه الناحية من التفاوت ، ويدعون غيرها من النواحى الأخرى ، وهذا لا يصح ، بل انظر إلى الجوانب الأخرى فى حياة الإنسان ، وإلى الزوايا المختلفة فى النفس الإنسانية ، ولو سلكت هذا المسلك فسوف تجد أن مجموع كل إنسان يساوى مجموع كل إنسان ، وأن المحصلة واحدة.

وما دام المجتمع الإيمانى على هذه الصورة فلا يصح لأحد أنْ يرفع رأسه فى المجتمع ليعطى نفسه قداسة أو منزلة فوق منزلة الآخرين.

لذلك يقول الحق سبحانه: ﴿وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً (٣٧)﴾ [الإسراء]

فالمرح هو الفخر والاختيال ، أو البطر والتعالى ؛ لأن الذى يفخر بشىء ويختال به ويظن أنه أفضل من غيره يجب أن يضمن لنفسه بقاء ما افتخر به ، بمعنى أنْ يكون ذاتياً فيه ، لا يذهب عنه ولا يفارقه ، لكن من حكمة الله سبحانه وتعالى أنْ جعل كل ما يمكن أنْ يفتخر به الإنسان هبةً له ، وليست أصيلة فيه.

كل أمور الإنسان بداية من إيجاده من عدم إلى الإمداد من عُدْم هى هبة يمكن أنْ تسترد فى يوم من الأيام ، وكيف الحال إذا تكبرتَ بمالك ، ثم رآك الناس فقيراً ، أو تعاليتَ بقوتك ثم رآك الناس عليلاً.

إذن:فالتواضع والأدب أَلْيَق بك ، والتكبُّر والتعالى لا يكون إلا للخالق سبحانه وتعالى ، فكيف تنازعه سبحانه صفة من صفاته؟ وقد نهانا الحق سبحانه عن ذلك ؛ لأنه لا يستحق هذه الصفة إلا هو سبحانه وتعالى ، وكوْن الكبرياء لله تعالى يعصمنا من الاتضاع للكبرياء الكاذب من غيرنا.

ومَنْ أحبَّ أنْ يرى مساواة الخَلْق أمام الخالق سبحانه ، فلينظر إلى العبادات ، ففيها استطراق العبودية فى الناس ، فحينما يُنادَى للصلاة مثلاً ترى الجميع سواسية : الغنى والفقير ، الرئيس والمرؤوس ، الوزير مثلاً والخفير.

الكل راكع أو ساجد ، الكل خاضع لله ، مُتذلّل لله ، فقير لله ، الكل عبيد الله

بعد أنْ خلعوا أقدارهم عندما خلعوا نعالهم ، ففى ساحة الرحمن يتساوى الجميع ، وتتجلى لنا هذه المساواة بصورة أوضح فى مناسك الحج.

والأهم من هذا أن الرئيس أو الكبير لا يأنف ، ولا يرى غضاضة فى أنْ يراه مرؤوسه وهو فى هذا الموقف وفى هذا الخضوع والتذلل ، لماذا ؟ لأن الخضوع هنا والتذلل لله ، وهذا عَيْن العزة والشرف والكرامة.

فمن الأساسيات التى نصلح بها ونرث الأرض أنْ ننظر إلى الناس جميعاً على أنهم سواسية ، لا فضلَ لأحد على أحد إلا بالتقوى والعمل الصالح ، فليس فينا مَنْ هو ابن لله عزَّ وجلَّ ، وليس منَّا مَنْ بينه وبين الله قرابة.

والإسلام لا يعرف الطبقية إلا فى إتقان العمل ، فقيمة كل امرىء ما يُحسنه.

والحق سبحانه حين يخاطب الناس جميعاً يدعو إلى الإيمان بإله واحد ، وحين يخاطب المؤمنين يدعوهم إلى حكم من أحكام الله ؛ لأن الله لا يُكلِّف إلا مَنْ آمن به .

فالله لا يُكلِّف الكفار ، إنما يقول لهم: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ** (١٣)﴾[الحجرات] حتى يلفتهم إلى عظمة الحق حتى يؤمنوا بالحق ، فإنْ آمنوا بالحق الذى هو إله واحد وقادر وقيوم وحكيم أتت التكاليف.

﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ** (١٣)﴾ [الحجرات]

فلا بُدَّ فى التناسل والتكاثر من وجود الاثنين : الذكر ، والأنثى . فالذكَر بمفرده لا يصلح ، وكذلك الأنثى.

ويقول تعالى: ﴿ **وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا** (٥٤)﴾ [الفرقان]

فـمن الماء خلق الله البـشر ، وهم قـسـمان: ذكـور وإناث ، فكلمـة (نسبـاً) تعنى: الذكورة (وصِـهْراً) تعنى : الأنوثة ؛ لأن النسب يعنى انتـقال الأدنى من الأعلى ذكورة ، فيظل الإنسان فلان بن فلان بن فلان ... إلخ .

فالنسب يأتى من ناحية الذكورة ، أما الأنوثة فلا يأتى نسب ، إنما مصاهرة فمن عظمة الخـالق ـ عز وجل ـ أن خلق من الماء هذين الشيئين ، كـما قال فى موضع آخر : ﴿ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَىٰ (٣٩) ﴾ [القيامة]

وقد توصَّل العلماء مؤخراً إلى أن بويضة الأنثى لا دَخْلَ لها فى نوع الجنين ما هى إلا حاضنة للميكروب الذكرى الآتى من منىّ الرجل .

وهذا معنى قـوله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ (٣٧) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ (٣٨) فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَىٰ (٣٩) ﴾ [القيامة]

فالذكر والأنثى كلاهما من المنىّ ، فالحيوان المنوىُّ يخرج من الرجل ، منه ما هو خـاص بالذكـورة ، ومنه مـا هو خاص بالأنـوثة ، ثم تتم عـملية انـتخـاب للأقوى الذى يستطيع تلقيح البويضة.

وهذه الظاهرة واضحة فى النحل ، حيث تضع الملكة البيض ، ولا يُخصِّبها إلا الأقـوى من الذكـور ؛ لذلك تطيـر الملكة على ارتفـاعات عـاليـة ، لماذا؟ لتنتخب الأقوى من الذكور .

كـذلك الميكروب ينزل من الـرجل ، والأقوى منه هو الذى يسـتطيع أنْ يسـبق إلى بويضة المـرأة ، فإنْ سـبق الخاص بالـذكورة كـان ذَكراً ، وإنْ سـبق الخاص بالأنوثة كان أنثى .

والحق سبحانه يقول:

﴿ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ (٢) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ (٣) ﴾ [الأعلى]

وبهذه الآية الكونية فى خَلْق الإنسان نردُّ على الذين يحلو لهم أنْ يقولوا : إن الإنسان خُلق صدفة ، فإذا كان الإنسان ذكراً وأنثى بينهما مواصفات مشتركة وأجهزة ومُقوِّمات واحدة ، إلا أن الذكَر يختلف فى الجهاز التناسلى وكذلك الأنثى ، فهل يُردّ هذا إلى الصُّدْفة؟

ومعلوم أن الصدفة من أعدائها الاتفاق ، فإذا جاء الذَّكَر صدفة ، وجاءت الأنثى كذلك صدفة ، فهل من الصدفة أنْ يلتقيا على طريقة خاصة ، فيثمر هذا اللقاء أيضاً ذكورة وأنوثة؟

إذن: المسألة ليست مصادفة ، إنما هى غاية مقصودة للخالق عز وجل.

ويقول الحق سبحانه فى آية أخرى: ﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِن طِينٍ (٧) ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ (٨) ﴾ [السجدة]

فالإنسان من نطفة ، ومن علقة ، ثم مضغة مُخلَّقة وغير مُخلَّقة .

والحيوان المنوىّ المسمّى «نطفة» هو الذى يحمل خصائص الأنوثة أو الذكورة كما أثبت العلم الحديث ، وليس للمرأة شأن بهذا التحديد ، وكأن فى ذلك إشارة إلى مهمة المرأة كسكن ، لأن البويضة تتلقّى الحيوان المنوىّ وتحتضنه ، ليكتمل النمو إلى أنْ يصير كائناً بشرياً.

﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤) ﴾ [المؤمنون]

لأنك حين تقف وتتأمل قدرة الله فى خَلْق الإنسان لا تملك إلا أنْ تقول : سبحان الله ، تبارك الله الخالق .

لذلك يروى أن رسول الله ﷺ حينما قرأ هذه الآية سبق عمر فقال: «فتبارك الله أحسن الخالقين» فقال ﷺ للكاتب: اكتبها فقد نزلت[1] ؛ لأنها

(١) أثر عمر : أخرجه ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر عن صالح أبى الخليل أن رسول الله =

انفعال طبيعى لقدرة الله ، وعجيب صُنْعه ، وبديع خَلْقه ، وهذا نوع من التجاوب بين السليقة العربية واللسان العربى وبين أسلوب القرآن الذى جاء بلسان القوم.

والحق سبحانه يقول: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً(١)﴾ [النساء]

فالحق سبحانه خلق الذكَر وخلق الأنثى وهى من جنسه ، ولكنها تختلف معه فى النوع ، بحيث إذا التقيا معاً أنشأ الله منهما رجالاً ونساء ، إذن : فهى عملية مقصودة وعناية وغاية وحكمة .

وبثَّ ، أى نشر ؛ لأن الخَلْق يجب أنْ ينتشروا فى الأرض ، كى يأخذوا جميعاً من خيرات الله فى الأرض جميعاً . والنشر معناه تفريق المنشور فى الحيِّز فهناك شىء مطوى ، وشىء آخر منشور ، والشىء المطوى فيه تجمُّع ، والشىء المنشور فيه تفريق وتوزيع .

إذن : فحيِّز الشىء المتجمع ضيِّق ، وحيِّز الشىء المبثوث الواسع ، معناه أن الله - سبحانه وتعالى - حينما يقول: ﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا(١)﴾ [النساء] أى : من آدم وحواء ﴿ رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً(١)﴾[النساء] واكتفى بأن يقول «نساء» ولم يقل: كثيرات ، لماذا ؟

لأن المفروض فى كل ذكورة أن تكون أقلّ فى العدد من الأنوثة ، وأنت إذا نظرتَ مثلاً فى حقل فيه نخل ، تجدكم ذكراً من النخل وكم أنثى ؟ ستجد ذكراً أو اثنين ..

= ﷺ قال: «والذى نفسى بيده ، إنها ختمت بالذى تكلمت يا عمر» . [أورده السيوطى فى الدر المنثور ٦/ ٩٢].

إذن: القلة فى الذكورة مقصودة ؛ لأن الذَّكَر مُخصِّب ، ويستطيع الذَّكَر أن يُخصِّب آلافاً . فإذا قال الله : ﴿**وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً**(١)﴾[**النساء**] فالذكورة هى العنصر الذى يُفترض أنْ يكون أقلَّ كثيراً ، فماذا عن العنصر الثانى وهو الأنوثة ؟ لا بُدَّ أن يكون أكثر .

والقرآن يأتى لينبهك إلى المعطيات فى الألفاظ؛ لأن المتكلم الله ، ولكن إذا نظرت لقوله ﴿**وَبَثَّ مِنْهُمَا**(١)﴾[النساء] **أى**: من آدم وحواء ، وهما اثنان ﴿**رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً** (١)﴾[النساء] فتكون جَمْعاً ، وهذا ليدلك على أن المتكاثر يبدأ بقلة ، ثم ينتهى بكثرة.

فعندما يقول الحق: إنه خلق آدم وحواء ، وتحاول أنْ تُسلسل العالم كله سترجعه لهما ، وما دام التكاثر ينشأ من الاثنين ، فمن أين جاءا ؟

الحق سبحانه يوضح لنا ذلك بقوله : ﴿**إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى**(١٣)﴾ [**الحجرات**] ، وهو بذلك يريحنا من علم الإحصاء ، وكان من الضرورى أن تأتى هذه الآية كى تحلَّ لنا اللغز فى الإحصاء ، وكلما أتى الزمن المستقبل كَثُر العالم ، وكلما ذهبنا إلى الماضى قَلَّ التعداد إلى أنْ يصير وينتهى إلى اثنين.

وإياك أنْ تقول: إلى واحد ؛ لأن واحداً لا يأتى منه تكاثر ، فالتكاثر يأتى من اثنين ، ومن أين جاء الاثنان ؟لا بُدَّ أن أحداً خلقهما ، وهو قادر على هذا.

ويُعلمنا الله ذلك ، فيقول : ﴿ **خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً** (١)﴾ [النساء]

ونأخذ من «بثّ» الانتشار ، ولو لم يَقُلْ الله هذا لكانت العقول الحديثة تضل وتقع فى حيرة ، وتقول : نسلسل الخلْق حتى يصيروا اثنين ، والاثنان هذان ، كيف جاءا ؟

إذن: لا بُدَّ أن نؤمن بأن أحداً قد أوجدها من غير شيء ﴿**وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً** ①﴾[**النساء**] لأن النشر فى الأرض يجب أن يكون خاصاً بالرجل ، فالحق سبحانه يقول : ﴿**فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ** ⑩﴾ [الجمعة]

والحق يقول : ﴿ **فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا** (١) **وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ** ⑮﴾ [الملك]

والأنثى تجلس فى بيتها تديره ؛ لتكون سَكَناً يسكن إليها ، والرجل هو المتحرك فى هذا الكون ، وهى بذلك تؤدى مهمتها .

الرجال الكثير والنساء هؤلاء تفرقوا وصاروا شعوباً وقبائل ، مثلاً شعب العرب ، وشعب الفرس ، وشعب الرومان ، هذه الشعوب انقسمت قبائل .

والقبائل انقسمت إلى بطون ، والبطون انقسمتْ إلى أفخاذ ، والأسرة الواحدة رجل وامرأة يُخْلفون عدداً من الأولاد لا تترك الأولاد بدون اسم ، بل لا بُدَّ من وضع اسم لكل واحد حتى نميز بينهم .

إذن: فالحق ـ سبحانه وتعالى ـ خلقنا شعوباً ، لماذا؟ حتى نتعارف لأن كل واحد له مصالح تجعلكم مضطرين أنْ تَتعارفوا فيه أشياء ليست موجودة عندكم ولكنها موجودة عند غيركم.

فالحق سبحانه قد وزَّع أسباب الفضل فى الخَلْق ، فأوربا مثلاً التى عندها

(١) مناكب الأرض : جبالها . وقيل: طرقها. وقيل : جوانبها . قال الأزهري : وأشبه التفسير والله أعلم تفسير من قال: فى جبالها ؛ لأن قوله تعالى : ﴿**هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً** ⑮﴾[الملك] معناه: سهَّل لكم السلوك فيها ، فأمكنكم السلوك فى جبالها ، فهو أبلغ فى التذليل. [لسان العرب ـ مادة : نكب].

كثير من أسباب حضارة الدنيا تجدها تحتاج لأسباب حضارة الصحراء وجعلها مُسخرة لجبال الصحراء لتستفيد من الأحجار والبترول وغير ذلك.

إذن: الله وزَّع أسباب الفضل فى الدنيا ، كما وزع فى الناس أسباب الفضائل المتكاملة وليست المتعاندة .

ومعنى ﴿لِتَعَارَفُوا﴾ أى: أن يكون لكل منَّا اسم يُعرف به عند الآخرين ، وفى حياتنا العادية - ولله المثل الأعلى - نجد رجلاً عنده أولاد كثيرون ، لذلك يُطلق على كل ابن اسماً ليعرفه المجتمع به .

والعجيب فى هذه الآية الكريمة ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا (١٣)﴾ [الحجرات] أننا نجد كلمة ﴿شُعُوبًا﴾ مُذكَّرة ، وكلمة ﴿قَبَائِلَ﴾ مؤنثة . إذن : فلا تمايزَ بالأحسن ، ولكن الكلمات هنا مسميات للتعارف .

والشعوب والقبائل التى قررها الحق فى خَلْقه هى مصدر من مصادر التكامل والتعارف ، وبعد أنْ تقرر ذلك يأتى الحق سبحانه ليحذر من تمييز الشعوب ، بعضها على بعض ، الله خلقنا مختلفين لنتعارف ، وليس الاختلاف سبباً من أسباب التميز ، لماذا ؟ لأن هناك شيئاً تتميز به أشخاص الشعوب ، وهو ميزان الله فى تمييزه بين الناس.

﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ (١٣)﴾ [الحجرات]

ويقول الحق سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٠٢)﴾ [آل عمران]

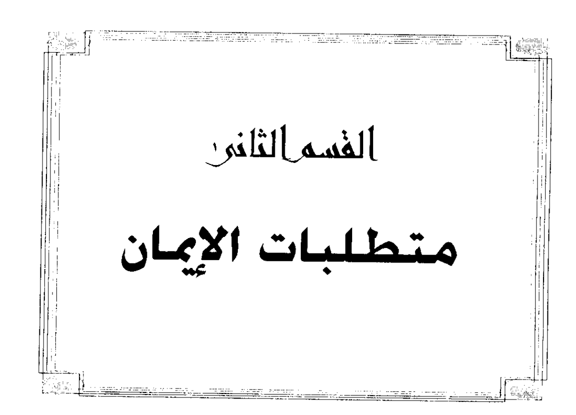
فالمؤمن الحق هو مَنْ يجعل لنفسه وقاية من صفات الجلال ، وهى القهر والجبروت وغيرها ، وكذلك اتقوا النار ، فإنها من جنود صفات جلال الله.

فحين يقول الحق:(اتقوا النار) أو (اتقوا اللـه) فالمعنى واحد ، وعندما يسمع إنسان قَوْل الحق سبحانه :﴿**اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ** (١٠٢)﴾[آل عمران] مـاذا تعنى «حق تقاته»؟

إن كلمــة حق ـ كـمـا نعــرف ـ تعنى : الشيء الثــابت الذى لا يزول ولا يتزحزح أى : لا ينتهى ولا يتذبذب ، هذا هو الحق.

إذن : مـا حقّ التـقـى ؟ هو أن يكون إيمانك أيهـا المؤمـن إيماناً راسـخـاً لا يغادرك ولا تتـذبذب معه ، واتقاء الله حق تقـاته هو اتباع منهجـه ، فيُطاع الله باتباع المنهج فلا يُعصى ، ويُذْكَر فلا ينسى ، ويُشْكَر ولا يُكْفر .

وطريق الطاعة يوجد فى اتباع المنهج بـ «افعل» و«لا تفعل».



القسم الثاني

متطلبات الإيمان

١ الأدب مع رسول الله ﷺ

يكشف الحق سبحانه دسائس اليهود وكيدهم للإسلام والمسلمين ، وتحذير المسلمين من ألاعيبهم وحِيلَهم ، وما تُكِنُّه نفوسهم للمسلمين من الحقد والشر ، ونهى المسلمين عن التشبه بهؤلاء الذين كفروا من أهل الكتاب فى قول أو فعل.

يقول الحق سبحانه: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٠٤)** ﴾ [البقرة]

هذا نداء للمؤمنين ؛ لأن الآية الكريمة تبدأ بـ ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا (١٠٤)** ﴾ [البقرة] وعندما ينادى الحق المؤمنين بقوله ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا** ﴾ نعرف أن الإيمان هنا هو سبب التكليف ، فالله لا يُكلِّف كافراً أو غير مؤمن ، ولا يأمر بتكليف إلا لمن آمنوا ، فما دام العبد قد آمن فقد أصبحتْ مسئولية حركته فى الحياة عند ربه ؛ ولذلك يُوحى إليه بمنهج الحياة ، أما الكافر فلا يُكلِّفه الله بشىء.

إذن: قوله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا (١٠٤)** ﴾ [البقرة]

أمر لمن آمن بالله ورضى به إلهاً ومُشرِّعاً ، فهذا خطاب لمن آمن بالمنهج .

أى: أن خطابه سبحانه للمؤمنين يكون دائماً فى الأحكام التى يخاطب بها المؤمنين ، أما فى أصول العقائد والإيمان الأعلى بالواحد الموجِد ، فهذا يكون خطاباً للناس كافة.

يقول الحق سبحانه في سورة النساء:

﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا(١) يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلا يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً (٤٦)﴾

[النساء]

يُنبِّهنا الحق سبحانه ألاَّ نكون مثل اليهود في تحريف الكلام عن مواضعه، والتحريف أنك تأتي باللفظ الذي يحتمل معنيين: معنى خير، ومعنى شر، ولكنك تريد منه الشر، مثل الذي يقول: «السام عليكم ـ والعياذ بالله» هي في ظاهرها أنه يقول: السلام عليكم. لكنه يقول: السام. يعني: الموت.

إذن: ففي اللفظ ما يُلحظ مَلْحظ الخير، ولكن العدو يُميله إلى الشر، ومثل هذا ما قالوه للنبي ﷺ: قالوا: راعنا. وهي من المراعاة، لكنهم كانوا يأخذونها من الرعونة، فيأتي الأمر: اترك الكلمة التي تحتمل المعنيين، واقطع الطريق على الكلمة التي تحتمل التوجهين؛ لأن المتكلم قد يريد بها خيراً، وقد يريد بها شراً.

فمعنى تحريف الكلام، أي: أن الكلام يحتمل كذا ويحتمل كذا، والمثال على ذلك؛ الرجل الذي ذهب لخياط ليخيط له قباء، وكان الخياط كريم العين أي: له عين واحدة، فلم يعجب الرجل بخياطة القباء فقال: والله ما دُمْتُ أفتضح بهذا الثوب الذي خاطه لي أمام الناس، فلا بُدَّ أنْ أقول فيه شعراً يفضحه في الناس، فقال:

---

(١) هادوا: دخلوا في اليهودية. سميت اليهود اشتقاقاً من هادوا أي: تابوا. والهَوْد: التوبة. وتهود: تاب ورجع إلى الحق فهو هائد. [لسان العرب ـ مادة: هود].

خَـــاطَ لـــي عَمْـرٌو قبــاء ... لَـيْـتَ عَيْـنَيــه سَـــوَاءُ

فقوله : ليت عينيه سواء. يُظهر ماذا ؟ هل يا ترى يتمنى له أنْ تكون عينه المريضة مثل السليمة ؟ أو يتمنى أن تكون العين السليمة مثل المريضة ؟ إذن : فالكلام يحتمل الخير والشر .

وقد حكَوْا لنا أن واحداً من الولاة طلب من الخطيب أنْ يسبَّ سيدنا علياً ـ كرَّم الله وجهه وآله ـ وأنْ يلعنه على المنبر . فقال الخطيب: اعفنى . فقال الوالى: لا ، عزمتُ عليك إلاّ فعلتَ

فقال له الخطيب : إنْ كنتَ عزمتَ علىَّ إلاَّ فعلتُ فسأصعد المنبر وأقول: طلب منى فلان أنْ أسبَّ علياً فقولوا معى : يلعنه الله .

فقال له : لا تَقُلْ شيئاً.

فقد فهم الوالى مقصد الخطيب وقدرته على استعمال الكلام على معنيين.

والحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿**مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ**﴾ (٤٦) [النساء]

فالكلام المنزَّل من الله وُضِع ـ أولاً ـ وضعه الحقيقى ، ثم أزالوه وبدَّلوه ووضعوا مكانه كلاماً غيره مثل تحريفهم الرجم بوضعهم الحدّ مكانه. فهم رفعوا الكلام المقدس من موضعه الحق ، ووضعوه موضع الباطل ، بالتأويل والتحريف حَسْب أهوائهم بما اقتضتْه شهواتهم ، فكأنه كانت له مواضع ، وهو جدير بها .

فحين حرَّفوه تركوه كالغريب المنقطع الذى لا موضعَ له ، فمرة يُبدِّلون كلام الله بكلام من عنده ، ومرة أخرى يحرفون كلام الله بتأويله حسب أهوائهم.

﴿وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ(٤٦)﴾ [النساء]

فلم يقولوا «راعنا» من الرعاية ، بل من الرعونة ، فقال : لا . اتركوا هذا اللفظ ؛ لأنهم سيأخذون منه كلمة يريدون منها الإساءة إلى رسول الله ﷺ .

و«اللَّيْ» هو فَتْل الشيء . والفَتْل : توجيه شِقَّيْ الحبل الذى تفتله عن الاستقامة ، وهذا الفَتْل يعطيه القوة ، وهم يعملون هذه العمليات لماذا؟ لأنهم يفهمون أنها تعطى قوة لهم.

فهم يلوون ألسنتهم بالكلام الصادر من الله ليحرفوه عن معانيه ، أو يلوون ألسنتهم عندما يريدون التعبير عن المعانى .

واللى ـ كما قلنا ـ هو الفَتْل ، فنحن عندما نفتل حبلاً نحاول أنْ نجدل بين فرعين اثنين من الخيوط ، ثم نفتلهم معاً لنصنع حبلاً ، والهدف من الفَتْل هو أن نصنع قوة من شعيرات الخيوط ، فهذه الشعيرات لها قوة محدودة ، وعندما نفتل هذه الخيوط فإننا نزيد من قوة الخيوط بجَدْلها معاً.

إذن : فالفَتْل المراد به الوصول إلى قوة.

﴿ لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ(٤٦)﴾[النساء] ، وما داموا يلوون الكلام عن الاستقامة فهم يريدون شراً ؛ لأن الدين جاء استقامة فساعة يلويه أحد ، فماذا يريد ؟

إنه يريد طَعْناً فى الدين.

إذن: فمعنى ذلك أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ يريد أن يخبر أحباب رسول الله ﷺ أن خصومه يأتون بالألفاظ محتملة لذم رسول الله ﷺ ؛ لذلك

يُوضِّح : احذروا أنْ تقولوا الألفاظ التى يقولونها ؛ لأنهم يريدون فيها جانب الشر ، وعليكم أنْ تبتعدوا عن الألفاظ التى يمكن أنْ تحوَّل إلى شر.

فلو قالوا : ﴿ **سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِن** .. (٤٦)﴾ [النساء]

وساعة تسمع «لكن» فلتعلم أن الأمر جاء على خلاف ما يريده المشرِّع؛ لأنه يقول: ﴿ **وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا** (٤٦)﴾[النساء] لكنهم لم يقولوا. إذن : فالأمر جاء على خلاف مراد المشرِّع.

﴿**وَلَكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ** (٤٦)﴾ [النساء]

واللعن هو : الطرد والإبعاد ، فهل تَجنَّى الله عليهم فى لَعْنهم وطردهم ؟ لا . هو لم يلعنهم إلا بسبب كفرهم ، إذن : فلا يقولن أحد: لماذا لعنهم الله وطردهم ؟ وما ذنبهم ؟ نقول : لا. هو سبحانه لعنهم بسبب كُفْرهم . إذن : فالذى سبق هو كفرهم ، وجاء اللعن والطرد نتيجة للكفر وتحريف كلام الله وليِّه.

وفى آية أخرى يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿**وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ** (٧٨)﴾ [آل عمران]

فهم يلوون ألسنتهم بكلام يدَّعُون أنه من المنهج المنزَّل من عند الله ، وهذا الكلام ليس من المنهج ولم ينزل من عند الله ، إنهم يفعلون ذلك لتقوية مركزهم ، والتنقيص من مكانة الإسلام ، والطعن فى الرسول ﷺ ، كما قالوا من قبل «راعنا».

ولكن الله - عزَّ وجلَّ - فضحهم بتحريف كلام الله عن موضعه ، وكأن الحق سبحانه يقول لنبيه ﷺ : ما تسمعه منهم لا يضرك ، لأننا سجلنا عليهم أنهم قالوا «سمعنا وعصينا» ، كما قاموا بتحريف الكلمة وقالوا: «اسمع غير مسمع» أي: لا سمعتَ أبداً.

تماماً ، كما أخذوا من قبل قول الله عزوجل :﴿ وَقُولُوا حِطَّةٌ (١٦١) ﴾[الأعراف] فحرَّفوا هذا القول «وقولوا حنطة»

وذلك فى قوله تعالى:

﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (٥٨) فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (٥٩)﴾

[البقرة]

والله - تبارك وتعالى - لم يكلف بنى إسرائيل بأنْ يدخلوا هذه القرية التى يقال إنها القدس . ويقال : إنها قرية فى فلسطين ، أو قرية فى الأردن ، إلا بناء على طلبهم هم ، فهم الذين طلبوا من موسى أن يدعو الله لهم أنْ يدخلوا وادياً فيه زرع ؛ ليأكلوا مما تنتج الأرض ، ويطمئنوا على طعامهم ؛ لأنهم يخافون أنْ يأتى يوم لا ينزل عليهم المنُّ والسلوى من السماء.

فلما استجاب الله لدعواهم وقال لهم : ادخلوا الباب خاشعين وقولوا: يارب حُطَّ عنا ذنوبنا . فبدَّل بنو إسرائيل القول ، فبدلاً من أنْ يقولوا «حطة» قالوا «حنطة».

والحطة تعنى الدعاء بأنْ يقولوا : يا رب حُطّ عنَّا ذنوبنا ، فنحن قد استجبنا لأمرك ، وجئنا إلى القرية التى أمرتنا أن نسكنها ، وكان عليهم أن يدخلوها

ساجدين ؛ لأن الله قد أنجاهم من التيه بعد أن أنعم عليهم ورفَّههم فيه .

بل إنهم أيضاً بدَّلوا طريقة الدخول إلى القرية ، فبدلاً من أن يدخلوا ساجدين دخلوا على أدبارهم زاحفين ، وكان هذا رغبة فى المخالفة ، فأصابهم الله بعذاب من السماء بما كانوا يفسقون .

أي: يبتعدون عن منهج الله ولا يطبقونه ، رغبة فى المخالفة وإصراراً على العناد.

والحق سبحانه يُعلِّمنا الأدب مع رسول الله ﷺ فيقول:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ①﴾ [الحجرات]

أي: يا مَنْ آمنتم بى إلهاً ، وآمنتم بى واحداً قيُّوماً حكيماً ، وآمنتم بى بأنْ أُجازى على السيئة ، وآمنتم بأنى أستطيع أنْ أقيم الساعة فى أىِّ وقت ، يا مَنْ آمنتم بى لا تُقدِّموا بين يدى الله ورسوله.

أي: لا تقطعوا أمراً قبل أنْ يقضى فيه رسول الله ﷺ ، ورسول الله لا يقضى إلا عن وحى من الله ، فكأنكم إنْ وقفتم أمام أمر رسول الله ، وقفتم أمام أمر من الله الذى آمنتم به ، وكنتم غير مُتَّقين له سبحانه .

فإذا قال الله أمراً أو قال رسول الله رأياً ، فلا تُقدِّموا رأياً من عندكم يخالف كلام الله ورسوله .

فأول شيء أمرهم به الله سبحانه ألاَّ يُقدِّموا أو يقطعوا أمراً بين يدى رسول الله ، بل قولوا: نحن بين يديك ، ما تقوله لنا ننفذه مثلما نفذتم صلح الحديبية وأنتم غير راضين عنه.

فلا تُقدِّموا فى أىِّ مسألة رأياً ما دام لله ورسوله فيها حكم أو كلام .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ ②﴾ [الحجرات]

لأن رَفْع الصوت أمام مَنْ تُحدِّثه فيه سوء أدب ، فما دام هناك صوت للنبى ﷺ لا يصح أنْ يعلو صوت على صوته ، ولا بُدَّ أن يكون أخفضَ من صوته ، وأنْ نُكلِّمه بأدب وخشوع.

ولذلك قال الحق سبحانه :

﴿ لا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ⑥③﴾ [النور]

لماذا؟ لأن التوقير يجب أن يكون ـ كما يكون بالإيمان به ـ باللسان ، ويكون بانخفاض الصوت أمامه ، لأن رفع الصوت يدل إما على التساوى ، وإما على العلو.

ولنداء رسول الله ﷺ آداب يجب مراعاتها ، فهو ليس كأحدكم تنادونه: يا محمد ، وقد عاب القرآن على جماعة لم يلتزموا أدب النداء مع رسول الله ﷺ ، فقال:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ ④ ﴾ [الحجرات]

فأساءوا حين قالوا : يا محمد ، ولو قالوا حتى : يأيها الرسول فقد أساءوا ، لأنه لا يصحُّ أنْ يتعجلوا رسول الله ، ويجب أن يتركوه على راحته ، إنْ وجد فراغاً للقائهم خرج إليهم . إذن: أساءوا من وجهين.

ولا يليق أنْ نناديه ﷺ باسمه : يا محمد . لأن الجامع بين الرسول وأمته ليس أنه محمد ، إنما الجامع أنه رسول الله ، فلا بُدَّ أن نناديه بهذا الوصف ، ولِمَ لا وربه عزَّوجلَّ وهو خالقه ومصطفيه قد ميّزه عن سائر إخوانه من الرسل ، ومن أولى العزم فناداهم بأسمائهم.

﴿ يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [البقرة]

﴿ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلامٍ مِّنَّا ﴿٤٨﴾ ﴾ [هود]

﴿ يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا ﴿١٠٥﴾ ﴾ [الصافات]

﴿ يَا مُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ ﴿٣٠﴾ ﴾ [القصص]

﴿يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ﴿١١٦﴾ ﴾ [المائدة]

﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ ﴿٢٦﴾ ﴾ [ص]

لكن لم يُنادِ رسول الله ﷺ باسمه أبداً ، إنما يناديه بـ يأيها الرسول ، يأيها النبى.

فإذا كـان الحق - تبارك وتعـالى - لم يجعل دعاءه للرسـول كدعـائه لباقى رسله ، أفندعوه نحن باسمه ؟ ينبغى أن نقول : يا أيها الرسول ، يا أيها النبى ، يا رسول الله ، يا نبى الله ، فهذا هو الوصف اللائق المشرِّف.

وكمـا نميز دعاء رسول الله حين نناديه ، كـذلك حين ينادينا نحن يجب أنْ نُقدِّر هذا النداء ، ونعلم أن هذا النداء لخير عام يعود نفعه على الجميع.

ثم يقول تـعالى:﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا (١) فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ ﴾ [النور]

لا شكَّ أن الذين يستأذنون رسول الله فيـهم إيمان ، فيُراعون مجلس رسول الله ، ولا يقـومون إلا بإذنه ، لكن هناك آخـرون يقومـون دون استـئذان ، فـهم يتسللون ، والتسلل هو الخروج بتدريج وخُفْـية ، كأنْ يتزحزح من مكان لآخر

---

(١) لاوذه لواذاً : راوغه . قـال الزجاج : مـعنى لواذاً ههنا خـلافاً أى: يخـالفون خـلافاً. وقيل : مـعنى يتسللون : يلوذ هذا بذا ، ويستتر ذا بذا أى : مستخفين ومستترين بعضكم ببعض . [لسان العرب - مادة : لوذ].

حتى يخرج ، أو يُوهمك أنه يريد الكلام مع شخص آخر ليقوم فينسلت من المجلس خُفية ، وهذا معنى ﴿يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ﴿٦٣﴾﴾[النور] يلوذُ بآخر ليخرج بسببه .

ويحذر الله هؤلاء : ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ ﴿٦٣﴾﴾ [النور] والتحذير إنذار بالعاقبة السيئة التى تترتب على الانسحاب من مجلس رسول الله ، كأنه يقول لهم : قارنوا بين انسحابكم من مجلس الرسول ، وبين ما ينتظركم من العقاب عليه .

لذلك كان الصحابة يفهمون هذه المسألة ، ويتأدَّبون فيها مع رسول الله ، ويسألونه فى الأمر : أهو من عند الله قد نزل فيه وحى ، أم هو الرأى والمشورة؟

فإنْ كان الأمر فيه وَحْى من الله فلا كلامَ لأحد مع كلام الله ، وإنْ كان لم يرد فيه من الله شىء أدلى كل منهم برأيه ومشورته .

وهذا حدث فعلاً فى غزوة بدر حين نزل رسول الله ﷺ منزلاً رأى بعض الصحابة أن غيره خَيْر منه ، فسألوا رسول الله : أهذا منزل أنزلكَهُ الله ، أم هو الرأى والمشورة ؟

فقال : «بل هو الرأى والمشورة»(١) فأخبروه أنه غير مناسب ، وأن المكان المناسب كذا وكذا .

ويُوجِّه الحق سبحانه المؤمنين إلى أدب آخر من الأدب مع الرسول ﷺ ، فيقول تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ

(١) قال الحباب بن المنذر بن الجموح : «يا رسول الله ، أرأيت هذا المنزل ، أمنزلاً أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه ، أم هو الرأى والحرب والمكيدة ؟ قال: بل هو الرأى والحرب والمكيدة . فقال : يا رسول الله ، فإن هذا ليس بمنزل ، فانهض بالناس حتى نأتى أدنى ماء من القوم فننزله » الحديث . أورده ابن هشام فى السيرة النبوية (٢/ ٦٢٠) نقلاً عن ابن إسحاق.

وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ (٢) إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ (٣)﴾ [الحجرات]

فلا تجهروا للرسول بالقول كما تجهروا مع بعضكم ، خشية أن تحبط أعمالكم ؛ لأن الذى يعامل رسول الله برفع الصوت عنده ، أو الجهر له بالقول ، أو تدعونه كما تدعون أنفسكم ، فهذا يُحبط العمل .. لماذا؟

لأن عملك الذى تعمله على أنه نية طاعة ، مَن الذى كلّفك به ؟ الرسول ﷺ كلَّفك به من عند الله ، وليس من عند نفسه ، فحين لا تُوقِّر الرسول ، فأنت لم تُوقِّر الله سبحانه .

فهذه الأعمال مع الرسول ﷺ تحبط عملك دون أن تدرى ، فلا بُدَّ أنْ تحتفظ للرسول بمهابته ومكانته مهما كان رءوفاً ورحيماً بالمؤمنين ومتواضعاً لله ، فإياكم أنْ تغترُّوا بأن الرسول بالمؤمنين رءوف ورحيم ، بل كما فعل معكم ذلك أعطوه مهابةً وكرامةً أكبر من ذلك .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ (٣)﴾ [الحجرات]

فالذين يخفضون أصواتهم عند رسول الله ﷺ أولئك عرفوا مكانة الرسول ، وأعطوا له قدره ، فمثلاً يأتى خادم رسول الله ﷺ أنس بن مالك رضي الله عنه ويقول: «لقد خدمت رسول الله عشرين سنة ، فوالله ما قال لى فى شىء فعلته : لِمَ فعلته ؟ ولا فى شىء لم أفعله : لِمَ لَمْ تفعله ؟»(١)

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٠٣٨) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٥١) كتاب الفضائل ، من حديث أنس بن مالك.

انظر إلى الرأفة والرحمة بالخدم ، ولكن هذا يجب ألاَّ يُغريكم عن منزلتكم منه ﷺ ، بل أعطوه التوقير اللازم له ، بحيث لا تسقط رأفته ورحمته بكم ، مهابته عندكم .

فمعنى «يغضون» أي: يخفضون أصواتهم ، ويُكلِّمونه برقَّة وأدب.

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ﴿٣﴾﴾ [الحجرات]

قالوا: إن صحابة رسول الله ﷺ وأتباع دينه ، وهو الإسلام ، مُكلَّفون بمهمة هي مهمة الأنبياء الذين سبقوا رسول الله ؛ لأنهم مُفوَّضون أنْ يحملوا أمانة رسول الله ﷺ إلى العالم كله ، فلا نجعلهم يحملون أمانة تبليغ رسالة الله إلى العالم كله ، إلا إذا اختبرناهم ، حتى لا نأخذ إلا الصنديد ، صاحب العزيمة القوية والهمة العالية .

وهذه مأخوذة من امتحان الذهب ، حيث يغلوه في البوتقة حتى يُخرِجوا منه الشوائب العالقة والمعادن الأخرى ، ولا يبقى إلا الذهب الخالص وهو عيار ٢٤ ، وهناك معادن تخلط به ، وتجعله عيار ٢١ ، ومعادن تجعله عيار ١٨ ، ومعادن تجعله عيار ١٦ .

كذلك الحديد العادى يُدخِلونه النار ، فيخرج الخبث والشوائب ، ويتبقى الحديد الصلب ؛ لأنك أخرجت الشوائب التى تمنع التحام الجزئيات مع بعضها .

ولذلك ، فالصلابة فى الشيء تأتى من أن كلَّ ذرة ملتحمة بالأخرى التحاماً قوياً ، وليس بينها فاصل ، ولذلك يُقَال : هذا حديد صلب : أى : قويٌّ ومتماسك الذرات ، فكذلك المؤمن.

فالذين يخفضون أصواتهم عند رسول الله ﷺ قد عرفوا مكانته وأعطوه قدره ، وهم الذين امتحن الله قلوبهم واختبرهم للتقوى حتى يكونوا أهلاً لحمل أمانة تبليغ رسالة الإسلام إلى الناس كافة .

وهذا الاختبار والابتلاء هدفه تقوية عزائمهم ورفع همتهم حتى يصمدوا أمام الأحداث ، ويتحملوا الشدائد والمحن بعزيمة لا تلين ، وصبر لا ينفد .

٢ الصبر والصلاة

الصبر نصف الإيمان ، والصلاة عماد الدين ، لذلك كان الصبر والصلاة هما أول ما يطلبه الله ممن آمن بهذا الدين ، إعدادًا للمؤمنين ليواجهوا مقتضيات إيمانهم ومتطلباته ، وهذا يحتاج إلى الصبر، الصبر على الإيمان ، والصبر على الصلاة والعبادة والطاعة، والصبر على الصبر نفسه ، وهو التصبُّر.

يقول الحق سبحانه: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ** (١٥٣) ﴾ [البقرة]

وهو سبحانه يناديهم بالإيمان ؛ لأنهم اعتقدوا اعتقاد الألوهية الواحدة ، ومن يسمع منهم هذا الخطاب عليه أن يداوم على الإيمان .

وما دام قد آمن بالإله الواحد قبل الخطاب ، فقد استحق أن ينال التكريم من الحق سبحانه بأن يخاطبه ويصفه بأنه من المؤمنين ، فإذا نودى عليهم بهذه الصفة فهى علامة السمو المقبول .

وإذا طُلبت الصفة ممن توجد الصفة فيه ، فاعلم أنه سبحانه يطلب دوام الصفة فيه واستمرارها ، وفى الاستمرارية ارتقاء .

فالله سبحانه وتعالى يطالبنا أن نستعين بالصبر والصلاة .. على ماذا ؟ على كل ما يطلبه منا الله .. على تكليفاته ومنهجه نستعين على ذلك بالصبر والصلاة .. ولكن لماذا الصبر ؟ لأن الصبر هو منع النفس من الجزع من أى شىء

يحدث، وهو يأخذ ألواناً شتى حسب تسامى الناس فى العبادة .

فمثلاً ، سُئل الإمام على ﷺ عن حق الجار ؟ قال : تعلمون أنك لا تؤذيه؟ قالوا : نعم . قال : وأن تصبر على أذاه . فكأنه ليس مطلوبًا منك فقط ألا تؤذى جارك ، بل تصبر على أذاه .. والصبر هو الذى يعينك على أن تفعل ما أمرك الله به ، ولا تفعل ما نهاك الله عنه .

إن الله منعك من أشياء هى من شهوات النفس ، وأمرك بأشياء فيها مشقة ، وهذه محتاجة إلى الصبر ، وأنت إن أخذت منهج الله تعبدًا ستأخذه فيما بعد عادة .

يقول أحد الصالحين فى دعائه : اللهم إنى أسألك ألا تكلنى إلى نفسى ، فإنى أخشى يا رب ألا تثيبنى على الطاعة ، لأننى أصبحت أشتهيها فسبحانك أمرتنا أن نحارب شهواتنا .

انظر إلى الطاعة من كثرة حب الله أصبحت مرغوبة مُحَبَبة إلى النفس ، فها هو رسول الله ﷺ كان يقول لبلال ساعة الأذان بالصلاة : « أرحنا بها يا بلال »(١) .

ولم يقل كما يقول بعض الناس ـ والعياذ بالله ـ أرحنا منها ، ذلك أن هناك من يقول لك : إن الصلاة تكون على كتفى مثل الجبل وأرتاح ، نقول له : أنت ترتاح بها ولا ترتاح منها ، لأنك وقفت بين يدى الله المكلِّف ، وما دام الإنسان واقفاً أمام ربه ، فكل أمر شاق يصبح سهلاً.

يقول أحد العابدين : أنا لا أواجه الله بعبوديتى ، ولكن أواجهه بربوبيته

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٥/ ٣٦٤) ، وأبو داود فى سننه (٤٩٨٥) عن رجل من الصحابة.

فأرتاح ؛ لأنه ربى ورب العالمين ، فالذى له أب يعينه لا يحمل هَمّاً ، فما بالك بالذى له رب يعينه وينصره؟

والحق سبحانه يقول : ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (١٥٣) ﴾ [البقرة]

أى : أنه يطلب منك أن تواجه الحياة فى معية الله ، فأنت لو واجهت المشكلات فى معية من تثق فى قوته تواجه الأمور بشجاعة ، فما بالك إذا كنت فى معية الله ، وكل شىء فى الوجود خاضع لله ، أيجرؤ شىء أن يقف أمامك وأنت مع الله ؟

إن الأحداث لا تملأ الخلق بالفزع والهلع إلا ساعة الانفلات من حضانة ربهم ، وأما من يعيش فى حضانة ربه فلا يجرؤ عليه الشيطان فالشيطان خناس، ما معنى خناس ؟

إذا سهوت عن الله اجترأ عليك ، وإذا ذكرت الله خنس وضعف ، فهو لا قوة له ، وهو لا يدخل مع الله سبحانه وتعالى فى معركة ، وإنما يدخل مع خلق الله الذين ينسون الله ويبتعدون عنه .

يقول القرآن الكريم :

﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٨٣) ﴾ [ص]

وما دام الله سبحانه وتعالى مع الصابرين فلابد أن نعشق الصبر ، وكيف لا نعشق ما يجعل الله معنا ؟

يقول الحق جل جلاله فى الحديث القدسى :

« يابن آدم ، مرضتُ فلم تَعُدْنى. قال : يا رب وكيف أعودك وأنت رب العالمين ؟ قال : أما علمتَ أن عبدى فلانًا مرض فلم تَعُدْه ؟ أما علمتَ أنك لو

عُدّته لوجدتنى عنده »(١).

يقول بعض الصالحين : اللهم إنى أستحى أن أسألك الشفاء والعافية حتى لا يكون ذلك زهداً فى معيتى لك .. إذن : لابد أن نعشق الصبر ؛ لأنه يجعلنا دائماً فى معية الله .

الله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ** (١٥٣) ﴾ [البقرة] نحن نريد أن يكون الله سبحانه معنا دائماً ، إن هذه الآية لا تجعل الإنسان ييأس مهما لقى فى حركة حياته من المشقة.

والحق سبحانه يقول فى آية أخرى :

﴿ **وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ** (٤٥) ﴾ [البقرة]

فالحق سبحانه بعد أن لفتنا إلى أن التوراة تطالب اليهود بأن يؤمنوا بمحمد ﷺ ، يطلب سبحانه منا الاستعانة بالصبر والصلاة ، ومعنى الاستعانة بالصبر أن هناك أحداثًا شاقة ستقع ، وأن المسألة لن تكون سهلة ، بل تحتاج إلى جهد .

فالصبر معناه حمل النفس على أمر صعب ، وهم ما داموا قد تعودوا على شراء آيات الله بثمن قليل ؛ لأنهم قلبوا الصفقة ، فجعلوا آيات الله ثمناً لمتع الدنيا ، واشتروا بها متعهم وملذاتهم ، وبعد أن تعوّدوا على الربا وغيره من وسائل الكسب الحرام ، لابد أن يستعينوا بالصبر إذا أرادوا العودة إلى طريق الإيمان .

وكما قلنا ، فإن المسألة ليست بخصوصية الموضوع ، ولكن بعموم السبب ،

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٤/ ١٩٩٠) ، والبخارى فى الأدب المفرد (٥١٧)من حديث أبى هريرة رضي الله عنه .

فإنها موجهة للجميع ، فكل مؤمن يدخل منهج الإيمان محتاج إلى الاستعانة بالصبر ليحمل نفسه على مشقة المنهج وتكاليفه ، وليمنع نفسه عن الشهوات التى حرَّمها الله سبحانه .

والصبر فى الآية الكريمة فسره بعض العلماء بأنه الصيام ، فكأن الله تعالى يأمرهم أن يجوعوا ويصبروا على ألم الجوع ، ومشقة الإيمان والصلاة كما قلنا خشوع وخضوع وذلة لله .

فالعلاج فى الصبر مع الصلاة ، والصبر كبير أن تتحمله النفس ، وكذلك الصلاة ؛ لأنهما يأخذان من حركة حياة الإنسان ، والصبر هنا مطلوب ليصبروا على ما يمتنعون عنه من نعيم الدنيا وزخرفها ، والصلاة تحارب الاستكبار فى النفس ، فكأن الوصفة الإيمانية لا تتجزأ فلا يتم الصبر بلا صلاة ، ولا تتقن الصلاة إلا بالصبر .

ويصف الحق سبحانه أولى الألباب ، فيقول :

﴿ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ (٢٢) ﴾ [الرعد]

فهم فى هذه الآية من صبروا ابتغاء وجه ربهم ، والصبر هو تحمل متاعب تطرأ على النفس الإنسانية لتخرجها عن وقار استقامتها ونعيمها وسعادتها ، وكل ما يُخرج النفس الإنسانية عن صياغة الانسجام فى النفس يحتاج صبراً .

والصبر يحتاج صابراً هو الإنسان المؤمن ، ويحتاج مصبوراً عليه ، والمصبور عليه فى الأحداث قد يكون فى ذات النفس ، كأن يصبر الإنسان على مشقة التكليف الذى يقول «افعل» و «لا تفعل» .

فالتكليف يأمرك بترك ما تحب ، وأن تنفذ بعض ما يصعب عليك ، وأن تمتثل بالابتعاد عما ينهاك عنه ، وكل هذا يقتضى مجاهدة من النفس ، والصبر الذاتى على مشاق التكليف.

ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى عن الصلاة مثلاً :

﴿ وَإِنَّهَا(١) لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [البقرة]

وهذا صبر الذات على الذات ، ولكن هناك صبر آخر ، صبر منك على شىء يقع من غيرك ، ويُخرجك هذا الشىء عن استقامة نفسك وسعادتها ، وهو ينقسم إلى قسمين : قسم تجد فيه غريماً لك ، وقسم لا تجد فيه غريماً لك .

● فالمرض الذى يخرج الإنسان عن حيز الاستقامة الصحية ويسبب لك الألم ، ليس لك فيه غريم ، لكنك تجد الغريم حين يعتدى عليك إنسان بالضرب مثلاً ، ويكون هذا الذى يعتدى عليك هو الغريم لك .

وكل صبر له طاقة إيمانية تحتمله ، فالذى يقدر على شىء ليس له فيه غريم ، يكون صبره معقولاً بعض الشىء ؛ لأنه لا يوجد له غريم يهيج مشاعره.

أما صبر الإنسان على ألم أوقعه به من يراه أمامه ، فهذا يحتاج إلى قوة ضبط كبيرة ، كى لا يهيج الإنسان ويفكر فى الانتقام.

ولذلك تجد الحق يفصل بين الأمرين ، يفصل بين شىء أصابك ، ولا تجد لك غريماً فيه ، وشىء أصابك ولك من مثلك غريم فيه .

ويقول سبحانه عن الصبر الذى ليس لك غريم فيه :

---

(١) قال ابن كثير فى تفسيره (١/ ٨٧) : «الضمير فى قوله : ﴿ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ .. ﴿٤٥﴾ ﴾ [البقرة] عائد إلى الصلاة نص عليه مجاهد ، واختاره ابن جرير . ويحتمل أن يكون عائداً على ما يدل عليه الكلام وهو الوصية بذلك».

﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٧﴾﴾ [لقمان]

فهذه دعـوة للصبر على مصيبـة ليس للإنسان غريـم فيهـا كالمرض أو موت أحد الأقارب ، وهذه الدعوة للصبر تأتى هنا كعزاء وتسلية.

فهذه دعوة للصبر على مصائب تلحق الإنسان بقضاء الله وقدره ، وليس له غريم فيها ، كمن أصيب فى صحتـه أو تعرض لضائقة فى ماله ، أو انهار بيته ، الخ.

وفى هذا النوع من المصائب يشعر الإنسان بألم الفَقْد ولذعة الخسارة ، لكن لا ضغن فيها على أحد ، فالصبر على هذه الأحداث قريب ؛ لأنه ابتلاء وقضاء وقدر ، فلا يحتاج الأمر بالصبر هنا إلى توكيد ، ويناسبه قوله تعالى : ﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٧﴾﴾ [لقمان]

وهو صبر على الأقدار المؤلمة التى لا تفطن أنت إلى الحكمة منها ، فالأقدار ما دامـت من حكيم ، ومجـريها عليك رب ، إذن : لابد أن لهـا حكمة فـيك ، فخذ القضية بحكمة مجـريها عليك ، فهو سبحانه ربك ، وليس عدوك ، وأنت عبده وصنعته.

ألم تقرأ قول الرسول ﷺ فى الحديث الشريف : «الخلق كلهم عيال الله ، فأحبُّهم إليه أرأفهم بعياله »(١).

إذن : حين تجرى عليك الأقدار المؤلمة ، فـيكفيك للصبر عليـها أن تعلم أنها حكمة الله ، ويكفيك أن مُجريهـا عليك ربك ، فإنْ جاءت الأقدار المؤلمة بسبب تقـصيـرك ، فلا تلومنَّ إلا نفـسك ، كالطـالـب الذى يهمل دروسـه ويتكاسل ، فيفشل فى الامتحان ، فالفشل نتيجة إهماله وتكاسله.

(١) أخـرج نحوه من حـديث عبـد الله بن مسـعود أبـو نعيم فى حليـة الأولياء (٤/ ٢٣٧) وابن الجـوزى بإسناده فى «العلل المتناهية» (٢/ ٥١٩) وضعفه ، وأورده العجلونى فى كشف الخفاء (١/ ٤٥٧).

أما الذى يذاكر ويجدّ ويُبكِّر إلى الامتحان مستبشرًا فتصدمه سيارة مثلاً فى الطريق ، تمنعه من أداء امتحانه ، فهذا هو القدر المؤلم الذى له حكمة ، وربما داخله شىء من الغرور وعوَّل على مذاكرته ، ونسى توفيق الله له ، فأراد الله أن يُلقِّنه هذا الدرس ليعلمه أن الأمر فى النهاية بيد الله ومعونته ، وأنه الخاسر إنْ لم تصادفه هذه المعونة ، على حد قول الشاعر :

إذَا لَمْ يكُنْ عَوْنٌ منَ الله للفَتى   فَأوَّلُ مَا يَجْنى عَلَيْه اجْتهادُهُ

فعليك إذن أن تنظر إن كانت المصيبة نتيجة لما قدمت ، فلا تلومن إلا نفسك، فإن كنت قد أخذت بالأسباب ، واستوفيت ما طُلب منك ، ثم أصابتك المصيبة ، فاعلم أن لله فيها حكمة ، وعليك أن تحترم حكمة الله وقدره فى خَلْقه.

ويقول الحق سبحانه :

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمْوَالِ وَالأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥)﴾ [البقرة]

فالحق - سبحانه وتعالى - يريد أن يعد المؤمن إعدادًا كافيًا كاملاً ، فالمؤمن يواجه الخوف فيستعد ، ويواجه الجوع فيأخذ من قوت الحياة بقدر الضرورة.

فالحق سبحانه يريد أن يعطى المؤمنين مناعة فيما دون الحياة ، مناعة من الخوف والجوع ونقص الأموال والأنفس والثمرات ، فكل ما دون حياة الفرد هو أمر ترفى بالنسبة لفقد الحياة نفسها ، فمن لم يفقد حياته ، فستأتى له ابتلاءات فيما دون حياته وهى ابتلاءات الخوف والجوع ونقص الأموال ، ونقص فى عدد الإخوة المؤمنين ، وكذلك نقص فى الثمرات.

كل هذه الأشياء يحبها الإنسان ، ويأتى التكليف ليطلب من المؤمن أن يترك بعضًا مما يحب ، وتلك الابتلاءات تدخل فى نطاق بقاء التكليف.

وأول تلك الابتلاءات هو الخوف، والخوف هو انزعاج النفس وعدم اطمئنانها من توقع شيء ضار ، فالنفس لها ملكات متعددة وعندما يصيبها الخوف فهى تعانى من عدم الانسجام ، و الخوف خَوَرٌ لا ضرورة له ؛ لأنك إذا كنت تريد أن تُؤَمِّنَ نفسك من أمر يخيفك ، فأنت تحتاج إلى أن تجتهد بأسبابك لتعوق هذا الذى يخيفك.

أما إن استسلمت للانزعاج فلن تستطيع مواجهة الأمر المخيف بكل ملكاتك ؛ لأنك ستواجهه ببعض من الملكات الخائرة المضطربة ، بينما أنت تحتاج إلى استقرار الملكات النفسية ساعة الخوف ، حتى تستطيع أن تمد نفسك بما يؤمنك من هذا الخوف ، أما إن زاد انزعاجك عن الحد ، فأنت بذلك تكون قد أعنت مصدر الخوف على نفسك ؛ لأنك لن تواجه الأمر بجميع قواك ، ولا بجميع تفكيرك.

إذن: فالذى يخاف من الخوف نقول له: أنت معين لمصدر الخوف على نفسك ، وخوفك وانزعاجك لن يمنع الخوف ؛ ولذلك لابد لك أن تنشغل بما يمنع الأمر المخوف ، ودع الأمر المخوف إلى أن يقع، فلا تَعِشْ فى فزعه قبل أن يأتيك.

فآفة الناس أنهم يعيشون فى المصائب قبل وقوعها، وهم بذلك يطيلون على أنفسهم أمد المصائب ، إن المصيبة قد تأتى مثلاً بعد شهر، فلماذا تطيل من عمر المصيبة بالتوجس منها والرهبة من مواجهتها؟ إنك لو تركتها إلى أن تقع، تكون قد قصرت مسافتها.

ولك أن تعرف أن الحق سبحانه وتعالى ساعة تأتى المصيبة فهو برحمته يُنزِل معها اللطف ، فكأنك إن عشت فى المصيبة قبل أن تقع، فأنت تعيش فى المصيبة وحدها معزولة عن اللطف المصاحب لها، لكن لو ظللت صابرًا محتسبًا قادرًا

على مواجهة أى أمر صعب ، فأنت لن تعيش فى المصيبة بدون اللطف.

ونأتى إلى الابتلاء الثانى فى هذه الآية الكريمة، وهو الجوع، فابتلاء الجوع هو أن تصبر على الضرورى من الطعام الذى يقيم لك الحياة ، ولذلك شرع الله الصوم لنصبر على أذى الجوع ، لأن المؤمنين قد تضطرهم معركة ما لأن يعيشوا فيها ساعات طويلة دون طعام، فإن لم يكونوا مدربين على تحمل قسط من الجوع فسيخورون ويتعبون.

إذن: فالحق سبحانه وتعالى يريد أن يعد المؤمن إعدادًا كافيًا كاملاً، فالمؤمن يواجه الخوف فيستعد ، ويواجه الجوع فيأخذ من قوت الحياة بقدر الضرورة.

وأما الابتلاء الثالث، وهو نقص الأموال، فمصدره أن المؤمنين سينشغلون عن حياتهم بأمر الدعوة، وإذا ما شغلوا عن حركة الحياة لمواجهة العدو فسيضطرون إلى التضحية بحركة الحياة التى تنتج المال، ولذلك تنقص الأموال؛ لأن حركتهم فى الحياة توجهت إلى مقاومة خصوم الله.

وكذلك سيواجهون العدو مقاتلين، وقد يستشهد منهم عدد ، وأخيرًا يواجهون نقص الثمرات ، والثمرات هى الغاية من كل عمل.

والحق سبحانه وتعالى حين يعدنا هذا الإعداد ، فإذا نجحنا فيه تكون لنا البشرى ؛ لأننا صبرنا على كل هذه المنغصات: صبر على الخوف ، وصبر على الجوع ، وصبر على نقص الأموال ، وصبر على نقص الأنفس ، وصبر على نقص الثمرات.

إذن: فالمهم أن ينجح المؤمن فى كل هذه الابتلاءات، حتى يواجه الحياة صلبًا ، ويواجه الحياة قويًا ، ويعلم أن الحياة معبر، ولا يشغله المعبر عن الغاية.

ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى: **﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦)﴾** [البقرة]

والمصيبة هى الأمر الذى ينال الإنسـان منه المشقة والألم ، وهى مأخوذة من إصابـة الهدف ، والمؤمن يستقبل المصيبة واثقًا أنها على قـدر إيلامهـا يكون الثواب عليها.

فالمؤمن يستقبل كل مصيبة متوقعًا أن يأتى له منها خير، ومعنى قول الحق سبحانه: ﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) ﴾ [البقرة]

أى: نحن مملوكون لله ، ونحن راجعون إليه ، وحتى إذا كان فى مصائب الدنيا ظلم لنا وقع علينا من إنسان ، فسوف نأخذ ثواب ما ظُلمنا فيه عند الرجوع إلى الله.

إذن: فنحن لله ابتداء بالملكية، ونحن لله نهاية فى المرجع ، وهو سبحانه ملك القوسين ، الابتداء والانتهاء ؛ ولذلك علَّمنا رسول الله ﷺ عند أى مصيبة تصيب الإنسان أن يسترجع، أى : أن يقول: «إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون».

وزادنا أيضًا أن نقول: «اللهم أجرنى فى مصيبتى، واخلف لى خيرًا منها» إنك إذا ما قلتها عند أى مصيبة تصيبك فلابد أن تجد فيما يأتى بعدها خيرًا منها ، وحتى إن نسى الإنسان أن يقول ذلك عند وقوع المصيبة ، ثم تذكرها وقالها فله جزاؤها ، كأنه قالها ساعة المصيبة.

وهناك قصة عن أم سلمة رضي الله عنها ، حين مات أبو سلمة زوجها ـ وكان ملء السمع والبصر ـ وجزعت عليه أم سلمة، فقيل لها قولى: ما علمنا رسول الله ﷺ قالت: وما علمكم؟ قالوا: إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم اجرنى فى مصيبتى، واخلف لى خيرًا منها. فقالت ما قيل لها، فإذا بها بعد انقضاء عدتها يذهب إليها النبى خاطبًا، فقيل لها: أَوُجِد خير من أبى سلمة أم لم يوجد؟ قالت: ما كنت لأتسامى ـ أى أتوقع ـ مثل هذا الموقف».

أما النوع الآخر، فهو المصائب التى تقع بفعل فاعل، كالقتل مثلاً، فإلى

جانب الفقد يوجد غريم لك ، يثير حفيظتك ، ويهيج غضبك ويدعوك إلى الانتقام كلما رأيته ، فالصبر فى هذه أصعب ، وحَمْل النفس عليه يحتاج إلى توكيد ، كما فى قوله تعالى:

﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (٤٣) ﴾ [الشورى]

فاستعمل هنا لام التوكيد ، لأن الصبر هنا شاقّ ، والفرصة متاحة للشيطان ليؤلب القلوب ، ويثير الضغائن والأحقاد.

هنا يطلب الله من المؤمن أن يغفر لمن أصابه وأن يصبر، وما دام هناك غريم فالنفس تكون متعلقة بالانتقام ، وهذا موقف يحتاج إلى جرعة تأكيدية أكثر من الأولى، فليس فى الموقف الأول غريم واضح يُطلب منه الانتقام ، أما وجود غريم فهو يحرك فى النفس شهوة الانتقام.

ويُرغِّبنا الحق سبحانه وتعالى فى عدم الحقد والعفو عن مثل هذا الغريم، فيقول: ﴿ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٤) ﴾

[آل عمران]

وهنا ثلاث مراحل: الأولى كظم الغيظ، والثانية هى العفو، والثالثة هى أن تحسن، فترتقى إلى مقام من يحبهم الله وهم المحسنون.

فالمطلوب أولاً أن يكظم الإنسان غيظه ، أى أن الغيظ موجود فى القلب، ويتجدد كلما رأى الإنسان غريمه أمامه ، ويحتاج هذا من الإنسان أن يكظم غيظه كلما رآه ، ثم يرتقى المؤمن فى انفعاله الإيمانى ، فيأتى العفو، وهذه مرحلة ثانية وهى أن يُخرِج الغيظ من قلبه ، ويحل بدلاً منه العفو .

٣ طيبات الرزق.. وعبادة الشكر

يذكّر المؤمنين بما رزقهم فهو وحده الرازق، أباح لهم طيبات الرزق لا خبيثه، ويوجههم للشكر إن كانوا يريدون أن يعبدوه وحده بلا شريك، فالشكر عبادة وطاعة يرضاها الله من عباده.

يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ** (١٧٢)﴾ [البقرة]

فالحرام لا يأتى منه خير مطلقًا، وهو ينقلب على صاحبه شراً ووبالاً، فإذا دخل الحرام إلى الجسد يميل فعلك إلى الحرام، فالحرام يؤرق الجسد ويسوقه إلى المعاصى.

يقول رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى طيب لا يقبل إلا طيبًا، وإن الله تعالى أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين»، فقال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا..** (٥١)﴾ [المؤمنون].

وقال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ** (١٧٢)﴾ [البقرة]، ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء: يا رب، يا رب، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغُذِّى بالحرام، فأنَّى يستجاب لذلك»(١).

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٠١٥) كتاب الزكاة، وأحمد فى مسنده (٢/ ٣٢٨)، والترمذى فى سننه (٢٩٨٩) من حديث أبى هريرة ﷺ.

وفى آية أخرى يقول تعالى: ﴿ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾ ﴾ [طه]

والطعام والشراب والهواء مقومات الحياة التى ضمنها الله عز وجل لنا ، وما دام الخالق عز وجل خلق لنا أرزاقنا ومقومات حياتنا وجعلها مناسبة لهذا الإنسان الذى كرّمه وجعله خليفة له فى الأرض، وجعل لهذا الرزق ولهذه المقومات حدودًا حدَّها وبيَّنها هى «الحلال» ، فلا ينبغى لك بعد ذلك أن تتعدى هذه الحدود ، وتطغى فى تناول طعامك وشرابك.

فحدودك فى مقومات حياتك الحلال، ولو استقرأنا ما أحلَّ الله وما حرَّم لوجدنا الأصل فى الأشياء أنها حلال ، والكثير هو المحلل لك ، أما المحرم عليك فهو القليل المحصور الذى يمكن تحديده.

لذلك يقول عز وجل: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ﴿١٥١﴾﴾ [الأنعام] ولم يقُلْ مثلاً فى آية أخرى: تعالوا أتْلُ ما أحل الله لكم؛ لأنها مسألة تطول ولا تُحصى.

إذن: ساعة أعطاك ربك قال لك: هذا رزقك الحلال الخالص، ومنه وقودك ومقومات حياتك ، وبه بقاؤك ونشاط حركتك ، فلا تتعدَّ الحلال على كثرته إلى الحرام على قِلَّته وانحصاره فى عدة أنواع ، بيَّنها لك وحذرك منها.

وبالغذاء تتم فى الجسم عملية (الأيض) يعنى: الهدم والبناء، وهى عملية مستمرة فى كل لحظة من لحظاتك ، فإياك أن تبنى ذرة من ذراتك من الحرام ؛ لأن ذرة الحرام هذه تظل تشاغبك وتُلح عليك كى توقعك فى أصلها.

فلا تجعل ذرات بنائك غير منسجمة ، فتجعلها تنمو على وقود ما أحله الله لك.

لذلك تسمع من بعض المتمحكين: ما دام الله خلق الخنزير فلماذا حرَّمه؟ نقول: لقد فهمت أن كل مخلوق خُلِق ليُؤكل ، وهذا غير صحيح، فالله خلق البترول الذى تعمل به الآلات ، أتستطيع أن تشربه كالسيارة؟

إذن : فَرْق بين شىء مخلوق لشىء، وأنت توجهه لشىء آخر، هذه تسمى إحالة أى: تحويل الشىء إلى غير ما جُعِل له ، وهذا هو الطغيان فى القوت؛ لأنك نقلت الحرام إلى الحلال.

وقد يأتى الطغيان فى صورة أخرى، كأن تأكل ما أحل الله من الطيبات، لكنك تحصل عليها بطريق غير مشروع ، وتُعوِّد نفسك الكسل عن الكسب الحلال ، فتأخذ مجهود غيرك وتعيش عالة عليه ، فإلى جانب أنك تتغذى على الحرام فأنت أيضًا تُزهِّد غيرك فى الحركة والإنتاج والمِلْك ، وما فائدة أن يتعب الإنسان ويأخذ غيره ثمرة تعبه؟

وقد أخذ الطغيان بهذا المعنى صورًا متعددة فى مجتمعاتنا ، فيمكن أن ندرج تحته: الغصب ، والخطف ، والسرقة ، والاختلاس ، والرشوة ، وخيانة الأمانة ، وخداع من استأجرك إلى غير ذلك من أَخْذ أموال الناس بالباطل ودون وجه حق ، وكل عمل من هذه التعديات له صورته.

فالخطف أن تخطف مال غيرك دون أن يكون فى متناول يد المخطوف منه ثم تفر به ، فإن كان فى متناول يده وأنت غالبته عليه ، وأخذته عُنوةً فهو غصب مأخوذ من: غَصْب الجلد عن الشاة أى: سلخه عنها. فإن كان أخذ المال خُفْية وهو فى حرزه فهى سرقة ، وإن كنت مُؤتمنًا على مال بين يديك فأخذت منه خفية فهو اختلاس.. إلخ.

إذن: أحل الله لك أشياء ، وحرّم عليك أخرى ، فإن كان الشىء فى ذاته

حلالاً فلا تأخذه إلا بحقه حتى يحترم كل منا عمل الآخر وحركته فى الحياة وملكيته للأشياء ، وبذلك تستقيم بنا حركة الحياة ، ويسعد الجميع ، ونعين المنفق ، ونأخذ على يد المتسيِّب البلطجى.

بل إن الحق سبحانه خاطب الرسل، وأمرهم بالأكل من الطيبات، فقال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ** (٥١)﴾ [المؤمنون]

وبعد أن أمرهم الحق سبحانه بالأكل من الطيب أمرهم بالعمل الصالح، ﴿**وَاعْمَلُوا صَالِحًا..** (٥١)﴾ [المؤمنون] ، ثم يقول سبحانه: ﴿**إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ** (٥١)﴾ [المؤمنون].

كأن الحق سبحانه يقول: اسمعوا كلامى فيما آمركم به، فأنا عليم وخبير بكل ما يُصلحكم ؛ لأننى الخالق الذى أعلم كيف تستقيم بنيتكم للحركة الصالحة للخير ، ولا تستقيم بنيتكم للحركة الصالحة للخير إلا إذا أخذتم المطعم من الحلال الطيب.

فلكى تؤدى الصالح فى حركة حياتك عليك أن تبدأ بالمطعم الطيب الذى يبنى ذراتك من الحلال ، فيحدث انسجامًا بين هذه الذرات ، وتعمل معًا متعاونة غير متعاندة ، وإن انسجمت ذراتُك وتوافقت أعانتك على الصالح.

فإنْ دخل الحرام إلى طعامك وتلوثتْ به ذراتك تنافرت وتعاندت ، كما لو وضعت للآلة وقودًا غير ما جُعِل لها ، فافهموا هذه القضية ، لأننى أنا الخالق فآمنوا لى كما تؤمنون بقدرة الصانع حين يصنع لكم صناعة ، ويضع لكم قانون صيانتها.

إذن: أمر الحق سبحانه أولاً رسله بالأكل من الطيبات ، لأن العمل الصالح يحتاج إلى جهاز سليم متوافق من داخله ؛ لذلك فى سيرة النبى ﷺ أن أم عبد الله أخت شداد بن أوس، أرسلت إلى النبى فى يوم صامه وهو حار شيئًا من اللبن يفطر عليه، وهو ﷺ يعلم أنها فقيرة لا تملك شيئًا ، فأرسل إليها: من أين لك هذا اللبن؟

فأرسلت إليه : من شاة عندى، فبعث إليها: ومن أين لك بالشاة؟قالت: اشتريتها بمال دبّرته. فشرب رسول الله من اللبن[1].

بل إن من مقاصد الرسالة المحمدية هى تحليل الطيبات وتحريم الخبائث، وفى هذا يقول سبحانه: ﴿ **الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ** ..(١٥٧) ﴾ [الأعراف]

فقد جاء رسول الله ﷺ ليحل لهم ما حُرِّم عليهم من الطيبات التى مُنعوا منها ، وحظرها الله عليهم جزاء طغيانهم وضلالهم ، ويُحرِّم عليهم كل ضار وخبيث: كأكل الميتة والمال الحرام من الربا والرشوة والغش.

فالله رزقنا الطيبات وأحلها لنا ، وحرّم علينا الخبائث ، وهذا يستوجب منا الشكر والحمد لله ، خشية أن نقع فى جحود النعمة ونكرانها والكفر بها ، فهذا مستوجب لمقت الله وعقابه وزوال النعمة وذهابها.

(١) عن أم عبد الله أخت شداد بن أوس أنها بعثت إلى رسول الله ﷺ بقدح لبن عند فطره وهو صائم وذلك فى طول النهار وشدة الحر فرد إليها رسولها : أنى لك هذا اللبن؟ قالت: من شاة لى. قال: فرد إليها رسولها: أنى كانت لك هذه الشاة؟ قالت: اشتريتها من مالى فأخذه منها ، فلما كان من الغد أتته فقالت أم عبد الله : يا رسول الله ، بعثت لك باللبن مرثية لك من طول النهار وشدة الحر ، فرددت رسول الله فيه ، فقال لها : بذلك أمرت الرسل ألا تأكل إلا طيبًا ولا تعمل إلا صالحًا . أورده الهيثمى فى مجمع الزوائد (١٠/ ٢٩١) وقال : «رواه الطبرانى وفيه أبو بكر بن أبى مريم وهو ضعيف».

يقول تعالى: ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (١١٢) ﴾ [النحل]

والهدف من ضرب هذا المثل أن الحق ـ سبحانه وتعالى ـ يريد أن يوضح لنا أن الإنسان إذا أنعم الله عليه بشتى أنواع النعم فجحدها ، ولم يشكره عليها ، ولم يُؤَدِّ حق الله فيها ، واستعمل نعمة الله فى معصيته فقد عرَّضها للزوال ، وعرَّض نفسه لعاقبة وخيمة ونهاية سيئة ، فقيّد النعمة بشكرها وأداء حق الله فيها ؛ لذلك قال الشاعر:

إذَا كُنْتَ فى نِعْمَةٍ فَارْعَهَا ... فَإنَّ المعَاصِى تُزِيلُ النِّعَم
وَحَافِظْ عليها بشُكْر الإله ... فَإنَّ الإلَه شَدِيدُ النِّقَم

فهذه القرية كانت آمنة مطمئنة ، أى : فى مأمن من الإغارة عليها من خارجها ، والأمن من أعظم نعم الله تعالى على البلاد والعباد ، وهى أيضًا لديها مقومات الحياة ، فلا تحتاج إلى غيرها ، فالحياة فيها مستقرة مريحة .

لقد تمت لهم النعمة واكتملت لديهم وسائل الحياة الكريمة الآمنة الهانئة ، فماذا كان منهم؟ هل استقبلوها بشكر الله؟ هل استخدموا نعمة الله عليهم فى طاعته ومرضاته؟

لا ، بل كفروا بأنعم الله ، أى: جحدت هذه القرية بهذه النعم ، واستعملتها فى مصادمة منهج الله وشريعته ، فكانت النتيجة ﴿ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (١١٢) ﴾ [النحل]

وكأن فى الآية تحذيراً من الحق سبحانه لكل مجتمع كفر بنعمة الله ،

واستعمل النعمة في مصادمة منهجه سبحانه ، فسوف تكون عاقبته كعاقبة هؤلاء .

﴿ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (١١٢) ﴾ [النحل]

أي : أن الحق سبحانه ما ظلمهم وما تجنى عليهم ، بل ما أصابهم هو نتيجة عملهم وصدورهم عن سبيل الله ، وكفرهم بأنعمه ، فحبسها الله عنهم ، فهم الذين قابلوا رسول الله ﷺ بالصدود والجحود والنكران ، وتعرضوا له ولأصحابه بالإيذاء وبيّتوا لقتله ، حتى دعا عليهم قائلاً : « **اللهم اشدد وطأتك على مضر ، واجعلها عليهم سنين كسني يوسف** »(١).

بل إن الحق سبحانه قد يعاقب قومًا ويحرمهم من هذه الطيبات ، وذلك مثلما حدث مع قوم بني إسرائيل بسبب ظلمهم وتعديهم ، يقول الحق سبحانه:

﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا (١٦٠) ﴾ [النساء]

وفي آية أخرى يفصل الحق سبحانه ، فيقول تعالى : ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (١٤٦) ﴾ [الأنعام]

فليس كل ما يحرمه الله يكون ضارًا ، قد يُحرم الله أشياء لتأديب الخلق ، فيأمر بالتحريم ، ونحن على المستوى البشري - ولله المثل الأعلى - يمنع الإنسان منا « المصروف » عن ابنه تأديبًا ، أو يمنع عنه الحلوى ، ليس لأنه حرام ، بل تأديبًا

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في صحيحه (١٠٠٦)، وأحمد في مسنده (٢/ ٤٧٠ ، ٥٠٢ ، ٥٢١) من حديث أبي هريرة ﷺ .

وجزاء ، لأنه خرج عن طاعة والده أو والدته.

إن التشريع السماوى حينما يأتى لظالم يخرج عن منهج الله فكأنه يقول له ما هو القصد من خروجه عن منهج الله ؟ لماذا يظلم ؟ لماذا يأخذ الربا ؟ لماذا يصد عن سبيل الله؟ لماذا يأكل أموال الناس بالباطل ؟

إن الظالم يفعل ذلك حتى يُمتِّع نفسه بشىء أكثر من حقه ؛ لذلك يأتى التشريع السماوى ليفوِّت عليه حظ المتعة ، وكان هذا الحظ من المتعة حقّاً وحلاً له ، لكن التشريع يحرمه.

ومثال ذلك القاتل يُحرم من ميراث من يقتله ؟ لأن القاتل استعجل ما أخره الله ، وأراد أن يعجل لنفسه المتعة بالميراث ، فارتكب جريمة قتل ؛ لذلك يأتى التشريع ليحرمه من الميراث.

كأن التشريع يقول له : « ما دامت نيتك هكذا فأنت محروم من الميراث» والتشريع حين وضع ذلك إنما حمى كل مورث ، وإلا لكان كل مورث عرضة لتعدى ورثته عليه بالقتل لينتقل إليهم ما يملك ، فقال : لا . نحرمه من الميراث ، وكذلك هنا نجد الظلم بأنواعه المختلفة ، الظلم بإنكار الحق ، والصد عن سبيل الله ، وأخذ الربا ، وأكل أموال الناس بالباطل ، وما دام اليهود قد أدخلوا على أنفسهم أشياء ليست لهم ، فالتشريع يسلب منهم أشياء كانت حقّاً لهم .

وهذا السلب وهذا التحريم ليس تعدياً عليهم ، أو تعنتًا فى معاملتهم ، بل لأنهم بغَوْا ، والباغى يجب أن يأخذ حقه من الجزاء ، حتى يفكر ماذا يحقق له البغى من النفع ، وماذا يمنع عنه من النفع أيضًا ، وحين يقارن بين الاثنين قد يعدل عن بَغْيه ، وهم قد صدوا عن سبيل الله ، وأخذوا ربا ليُنموا أموالهم وأكلوا أموال الناس بالباطل.

لذلك حرّم عليهم الحق بعض الحلال ، وسبحانه صادق فى كل بلاغ عنه ، ونعرف بذلك أن علة التحريم لبعض الحلال كانت بسبب ظلمهم وما بدر منهم من المعاصى ، فكان التحريم عقوبة لهم .

لذلك يوجِّه سبحانه عباده الذين آمنوا لشكر الله عز وجل أن وهبهم نعمة الأكل من الطيبات ، لذلك استحق الحق سبحانه الشكر والحمد والثناء ، ويربطها الحق سبحانه بقوله : ﴿ **إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ** (١٧٢) ﴾ (البقرة)

فشكر العبد المؤمن للرب الخالق واجب ، ما دام العبد المؤمن يختص الله بالعبادة ، فالشكر عبادة ، لذلك قال تعالى: ﴿ **فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلا تَكْفُرُونِ** (١٥٢) ﴾ (البقرة)

فكل هذه النعم والفضل عليكم يجب ألا تنسوها ، أن تعيشوا دائمًا فى ذكر من أنعم عليكم ، فالله سبحانه يريد من عباده الذكر ، وهم كلما ذكروه سبحانه وشكروه شكرهم وزادهم.

فقوله تعالى :﴿ **اذْكُرُونِي** ﴾ أى: اذكروا الله فى كل شىء ، فى نعمه ، فى عطائه ، فى ستره ، فى رحمته ، فى توبته.

واعلم أن الشكر على النعمة يجعل الله سبحانه وتعالى يزيدك منها ، واقرأ قوله تبارك وتعالى : ﴿**لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ** .. (٧)﴾ (إبراهيم) فشكر الله يُذهب الغرور عن نفسك ، فلا تفتنك الأسباب وتقول : أوتيته على علم منى.

﴿**وَلا تَكْفُرُونِ** (١٥٢) ﴾ (البقرة) أى : لا تستروا نعم الله ، بل اجعلوها دائمًا على ألسنتكم ، فإن كل نعمة من نعم الله لو استقبلتها بقولك (ما شاء الله لا قوة إلا بالله) لا ترى فى النعمة مكروهاً أبدًا ، لأنك حصَّنت النعمة بسياج المنعم.

أعطيت لله حقه فى نعمته ، فإن لم تفعل وتركتها كأنها منك وأنت مُوجِدها ونسيت المنعم ، وهو الله سبحانه وتعالى ، فإن النعمة تتركك .

□□□

٤ القصاص شريعة العدل

العدل الجازم هو الذى يكسر شِرَّة النفوس ويردع الجانى عن التمادى فى سفك الدم ، ومن هنا ندرك سعة آفاق الإسلام ، وبصره ومعرفته بما فُطرت عليه النفوس من النوازع ، فالغضب للدم فطرة وطبيعة ، فالإسلام يلبيها بتقرير شريعة القصاص ، ولكنه فى الوقت ذاته يُحبّب فى العفو، ويفتح له الطريق ويرسم له الحدود.

يقول الحق سبحانه : ﴿ **يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِى الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالأُنثَىٰ بِالأُنثَىٰ** (١٧٨) ﴾ (البقرة)

فللقصاص فى الإسلام حِكَم عالية ، فليس الهدف منه أن يُضخِّم هذه الجريمة ، بل يهدف إلى حفظ حياة الناس ، كما قال تعالى ﴿**وَلَكُمْ فِى الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِى الأَلْبَابِ** (١٧٩)﴾ (البقرة) ، فمن أراد أن يحافظ على حياته فلا يُهدِّد حياة الآخرين.

وحينما يعطى ربنا - تبارك وتعالى - حق القصاص لولىّ المقتول ويُمكِّنه منه تبرد ناره ، وتهدأ ثورته ، فيفكر فى العفو وهو قادر على الانتقام ، وهكذا ينزع هذا الحكم الغلَّ من الصدور ، ويطفىء نار الثأر بين الناس.

ولذلك نرى فى بعض البلاد التى تنتشر فيها عادة الثأر ، أن القاتل يأتى

حاملاً كفنه على يده إلى ولىِّ المقتول ، ويضع نفسه بين يديه معترفاً بجريمته : ها أنا بين يديك ، اقتلنى وهذا كفنى .

ما حدث ذلك أبداً إلا وعفا صاحب الحق وولىُّ الدم ، وهذا هو العدل الذى جاء به الإسلام ، دين الوسطية والاعتدال.

هذا العفو من ولىّ الدم أداة بناء ، ووسيلة محبة ، فحين نعطيه حقَّ القصاص ، ثم هو يعفو ، فقد أصبحت حياة القاتل هبة من ولى الدم ، فكأنه استأثره واستبقاه بعفوه عنه ، وهذا جميل يحفظه أهل القاتل ، ويقولون : هذا حقن دم ابننا.

فمقصود الإسلام هو المحافظة على الأرواح، فلا يعتدى أحد على أحد ، فيقول تعالى :

﴿وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِى حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلا يُسْرِف فِّى الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا (٣٣)﴾ (الإسراء)

وحكم القصاص يجعل الإنسان حريصاً على نفسه ، ويمنعه أن يُقْدِم على القتل ، فإن غفل عن هذا الحكم وارتكب هذه الجريمة فلابُدَّ أن يقتصَّ منه ، فإن أخذتنا الشهامة وتشدَّقنا بالإنسانية والكرامة والرحمة الزائفة ، وعارضنا إقامة الحدود فليكُنْ معلوماً لدينا أن مَنْ يعارض فى إعدام قاتل ، فسوف يتسبب فى إعدام الملايين ، وسوف يفتح الباب لفوضى الخلافات والمنازعات . فكل من اختلف مع إنسان سارع إلى قتله ، لأنه لا يوجد رادع يردعه عن القتل.

إذن : لكى نمنع القتل لابُدَّ أن ننفذ حكم الله ونقيم شرعه ولو على أقرب

الناس ، لأن هذه الأحكام ما نزلت لتكون كلاماً يُتلَى فقط ، بل لتكون منهجاً عملياً ينظم حياتنا ، ويحمى سلامة مجتمعنا.

لذلك ، جعل الحق سبحانه تنفيذ هذه الأحكام علانية أمام الجميع ، وعلى مرأى ومسمع المجتمع كله ، ليعلموا أن أحكام الله ليست شفوية ، بل هى تُطبق أمامهم ، وصدق الله تعالى حين قال : ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ۝٢﴾ (النور)

ولا بُدَّ أن نستقبل أحكام الله بفهم واع ونظرة متأملة ، فليس الهدف من تشريع الله للقصاص كثرة القتل ، إنما الهدف ألا يقع القتل ، وألاَّ تحدث هذه الجريمة من البداية.

فحين يخبرك الحق سبحانه أنك إن قتلتَ فسوف تُقتل ، فهو يحمى حياتك وحياة الآخرين ، وليس لدى الإنسان أغلى من حياته ، حتى القاتل لم يقتل إلا لأنه يحب الحياة ، وقتل من أجلها من قتل ، لأنه ربما خدش عزته أو كرامته ، وربما لأنه عدو له أقوى منه .

ولا شك أن حياته أغلى من هذا كله ، فحين نقول : إن قتلتَ ستُقتل ، فنحن نمنعه أن يُقْدِم على هذه الجريمة ، ونُلوِّح له بأقسى ما يمكن من العقوبة ، ولذلك قالوا : القتل أَنْفَى للقتل .

وقال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ ۝١٧٩﴾ (البقرة)

وهذا نداء لأصحاب الأفهام والعقول الواعية ، ليس القصاص كما يظن البعض ، بل فيه الحياة ، وفيه سلامة المجتمع وحَقْن الدماء.

ويجب أن تكون عندنا يقظة استقبال لأحكام الله ، لأن القاتل ما قتل إلا

حينما غفل عن الحكم ، ويجب أيضاً أن ننظر إلى حكم القصاص نظرةً موضوعية ، لأنه كما حمى غيرى من قتلى له حمانى أيضاً من قتل غيرى لى ، وما دامت المسألة : لك مثل ما عليك ، وحظُّك منها كحظِّ الناس جميعاً ، فلماذا الاعتراض ؟

وهذا نلاحظه فى أمر السرقة أيضًا ، فحينما يقول لك : لا تسرق فأنت ترى أن هذا الأمر قد قيَّد حريتك أنت ، لكن الحقيقة أنه أيضًا قيَّد حرية الآخرين بالنسبة للسرقة منك ، والذى يتأمل هذه الحدود يجدها فى صالح الفرد ، لأنها تقيِّد حريته وهو فرد واحد ، وتُقيَّد من أجل حرية المجتمع كله .

إن فى تشريع القصاص استبقاء لحياتكم ، لأنكم حين تعرفون أنكم عندما تقتلون بريئًا ، ستُقتلون بفعلكم فسوف تمتنعون عن القتل ، فكأنكم حقنتم دماءكم ، وذلك هو التشريع العالى العادل .

وفى القصاص حياة ، لأن كل واحد عليه القصاص ، وكل واحد له القصاص ، إنه التشريع الذى يخاطب أصحاب العقول وأولى الألباب الذين يعرفون الجوهر المراد من الأشياء والأحكام ، أما غير أولى الألباب فهم الذين يجادلـون فى الأمور دون أن يعرفوا الجوهر منها ، فلولا القصاص لما ارتدع أحد ، ولولا القصاص لغرقتْ البشرية فى الوحشية .

إن الحكمة من تقنين العقوبة ألاَّ تقع الجريمة ، وبذلك يمكن أن تتوارى الجريمة مع العقوبة ، ويتوازن الحق مع الواجب ، إن عدل الرحمن هو الذى فرض علينا أن نتعامل مع الجريمة بالعقاب عليها ، وأن يشاهد هذا العقاب آخرون ليرتدعوا.

يقول الحق سبحانه وتعالى فى عقاب جريمة الزنا : ﴿ **وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا**

طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ۝٢﴾ (النور) ، فالأمر لا يقف عند حد التعذيب والجَلْد ، إنما لا بُدَّ أن يشهد هذا العذاب جماعة من المؤمنين ، والطائفة هم الجماعة وأقلُّها أربعة ، لماذا ؟

قالوا : لأن النفس قد تتحمّل الإهانة إن كانت سراً لا يطلع عليها أحد ، فلا يؤلمه أن تعذبه أشد العذاب بينك وبينه ، إنما لا يتحمل أن تشتمه أمام الناس . إذن : فمشاهدة الحد إهانة لصاحبه ، وهى أيضاً زجر للمشاهد ، ونموذج عمليٌ رادع.

إن الذى يجترئ على حقوق الناس يجترئ أيضاً على حقوق الله ، ولذلك فمقتضى إيثار الإيمان هو إرضاء الله لا إرضاء الناس ، وفى إنزال العقاب بالمعتدى خضوع لمنهج الله ، وفى رؤية هذا العقاب من قِبَل الآخرين هو نشر لفكرة أن المعتدى ينال عقابًا ، ولذلك شرع الحق العقاب والعلانية فيه ليستقر التوازن فى النفس البشرية.

وضرورة الإعلان عن تنفيذ عقوبة الفعل المؤثم من أجل الاعتبار والعظة ، فالتشريع ليس من بشر لبشر ، إنما تشريع خالق لمخلوق ، والخالق هو الذى صنع الصنعة ، فلا تتعالم على خالق الصنعة ، والشريعة لا تقرر مثل هذا العقاب رغبةً فى قتل النفس أو قطع الأيدى فى جريمة السرقة ، بل تريد الشريعة أن تمنع القتل ، وتمنع الزنا ، وتمنع قطع الأيادى.

فالتشريع إن ظل على الورق دون تطبيق فلن يرتدع أحد ، وكما أن القطع أنفى للقطع ، فإن القتل أنفى للقتل. فلا تأخذكم بالمجرمين رأفة ، لأن الرأفة قد تغرى بالذنب. ومثال ذلك حين يسرق الإنسان ثم تتركه بلا عقاب فقد يُغريه ذلك ويغرى غيره على السرقة.

أما تنفيذ العقوبة ولو مرة واحدة فهو يمثل رادعًا وحماية للمجتمع كله، فعقاب القاتل بالقتل ، أنفى للقتل ، فحين تأتى بالقاتل وتقتله أمام عدد من الناس ، فهذا العمل يمنع أىَّ إنسان أن يفكر فى القتل ، أو أن يقتل.

إذن : فنحن بالعقوبة نحمى المجتمع من أن تنتشر فيه الجرائم ، ولكن الحوار حول العقوبات فى الإسلام لا يتوقف ، ونقول لهؤلاء : هل هناك مجتمع ليس فيه تجريم أو عقوبات ؟ وانظر الى المجتمعات غير الدينية ، ألاَ توجد بها جرائم وعقـوبات ؟ إن كل مجتمع إنما يحمى نفسه بتوصيف الأفعال التى تعتبر جرائم ، ويضع لها عقوبات ، ولا عقوبة إلا بتجريم ، ولا تجريم إلا بنص.

إذن : فكل مجتمع وكل دولة لا بُدَّ أن تكون فيها عقوبات ، وإلا أصبحت الحياة فوضى يستحيل معها العيش فى أمان ، فإذا كان حاكم أى دولة بسيطة قد وضع تجريماً وعقوبات ، وهو يحكم فيما لا يملك ، أفليس لله أن يضع التوصيف لما يرى سبحانه أنه جرائم ، وأن يُشرع العقوبة الملائمة لكل جريمة ، وهو سبحانه يحكم فيما يملك ؟ وإذا كان سبحانه قد حكم بقطع يد هو خالقها ، فهو أراد ذلك ليمنع ملايين الأيدى من أن تمتد إلى مال الغير.

ولذلك يجب ألاَّ تطول الفترة بين تنفيذ العقوبة ووقت وقوع الجريمة ، لأن الذى يُتعب الناس فى الدنيا هو طول الإجراءات والأخذ والرد ، فينسى الناس الجريمة ، وتأخذهم الشفقة والرحمة بالمجرم ، مع أنه لو وُقِّعت العقوبة فور حدوث الجريمة ، لما طلب أحد الرأفة بالمجرم.

ونحن نعلم أن النفس البشرية بنت المشهد ، فحين يُقتل واحد وتمر سنوات على قضيته ، ثم يصدر الحكم بإعدامه ، فالناس تنسى لذعة القتل الأول ، وتعطف على القاتل حين يصدر الحكم بإعدامه.

ولذلك أقول دائمًا : إن من دواعى استمرار الجرائم إبطاء المحاكمة ، ذلك الإبطاء الذى يجعل عواطف الناس مع المجرم ، لأن مشهد المقتول أولاً قد انتهى من ذاكرتهم.

ولكن ، لو استحضر الناس ـ وقت العقوبة ـ ظرف الجريمة ، لَفرحوا بالحكم على القاتل بالقتل ، ولذلك نجد الحق سبحانه وتعالى حينما يريد أن يعذب أحدًا يقول : ﴿ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ۝٢ ﴾ (النور)

وذلك ليتم التعذيب أمام المجتمع الذى شقى بإفسادهم وشقى بمظالمهم ، فمن يُعتدى على عِرْضه أو ماله أو نفس قريب له ، ويرى عذاب المعتدى فهو يُشْفى.

فالحق سبحانه لا يريد للذنوب أن تنتشر ، ولذلك نجد الحق سبحانه وتعالى يحض على أن يرى المؤمنون من ارتكب الجرم لحظة العقاب ، فحين يرى المؤمنون وقوع العقوبة على جريمة ما ، ففى ذلك تحذير من ارتكاب الجرم ، وحدّ من وقوع الجرائم.

لذلك قال الحق سبحانه فى كتابه: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ۝٣٢﴾ (المائدة)

وهذا توضيح لإرادة الحق فى تأسيس الوحدة الإيمانية ليجعل من المجتمع الإيمانى رابطة يوضحها قول رسول الله فيما رواه أبو موسىٰ الأشعرى عنه : «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا» (١)

(١) عن أبى موسى الأشعرى قال ، قال رسول الله ﷺ : «المؤمن للمؤمن كالبنيان ، يشد بعضه بعضاً. وشبّك رسول الله بين أصابعه» أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٤٤٦) ، وكذا مسلم في صحيحه (٢٥٨٥).

وإياك أن تنظر إلى مجترئ على غيرك بالباطل ، وتقف مكتوفَ الأيدى ، لأن الوحدة الإيمانية تجعل المؤمنين جميعاً كالجسد الواحد ، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى ، فإنْ قتل إنسان إنسانًا آخر ، ووقف المجتمع الإيمانى موقف العاجز ، فهذا إفساد فى الأرض.

ولذلك يجب أن يقابل المجتمع مثل هذا الفعل ، لا على أساس أنه قتل نفسـاً واحدة ، بل كأنـه قَـتْل للناس جميعًا ما لم يكن قتـل النفـس لقصاص أو إفساد فى الأرض.

ويكمل الحق سبحانه الشق الثانى من تلك القضية الإيمانية ﴿**وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا** (٣٢)﴾ (المائدة)، وهذه هى الوحدة الإيمانية ، فمَنْ يعتدى على نفس واحدة بريئة كمن يعتدى على كل الناس ، والذى يسعف إنساناً فى مهلكة كأنه أنقذ الناس جميعاً.

وفى التوقيع التكليفى يكون التطبيق العملى لتلك القاعدة ، فالذى يقتل بريئاً عليه لعنة الله وغضبه ويعذبه الله ، وكأنه قتل الناس أجمعين ، وإنْ نظرنا إليها من ناحية الجزاء فالجزاء واحد وسبحانه وتعالى يريد ألا يستقبل المجتمع الإيمانى مجترئاً بباطل على حق ، إلا أن يقف كل المجتمع أمامه ، فلا يقف المعتدَى عليه بمفرده ، لأن الذى يُجرِّئ أصحاب الشر هو أن يقول بعض الناس كلمة "وأنا مالى".

و"الأنامالية" هى التى تُجرِّئ أصحاب الشرور ، ولذلك اقرأوا قصة الثيران الثلاثة : الثور الأسود ، والثور الأحمر ، والثور الأبيض ، فقد احتال أسد على الثورين الأحمر والأسود ، فسمحا له بأكل الثور الأبيض ، واحتال الأسد على الثور الأسود فسمح الثور الأسود للأسد بأكل الثور الأحمر، وجاء الدور على

الثور الأسود ، فقال للأسد: أُكلتُ يوم أُكل الثور الأبيض.

كأن الثور التفت إلى أن "أنا ماليته" جعلتْه ينال مصرعه ، لكن لو كان الثيران الثلاثة اجتمعوا على الأسد لقتلوه ، وها هو ذا الحديث النبوى الشريف الذى يمثل القائم على حدود الله والواقع فيها :

عن النعمان بن بشير - رضي الله عنه - عن النبى ﷺ قال : «مَثَلُ القائم فى حدود الله والواقع فيها كمثَلِ قوم استهموا على سفينة ، فصار بعضهم أعلاها ، وبعضهم أسفلها ، وكان الذين فى أسفلها إذا استقوا من الماء مرّوا على مَنْ فوقَهم ، فقالوا : لو أنَّا خرقنا فى نصيبنا خُرْقًا ولم نُؤْذِ من فوقنا ، فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعًا ، وإنْ أخذوا على أيديهم نَجوْا ونجوا جميعاً» (١)

كذلك مَثَل القائم على حدود الله ومَثَل الواقع فيها ، فكأن الحق سبحانه وتعالى يقول لنا : لا تنظروا إلى أن نفساً قتلت نفساً بغير حق ، ولكن انظروا إليها كأن القاتل قتل الناس جميعاً ، لأن الناس جميعاً متساوون فى حق الحياة.

وما دام القاتل قد اجترأ على واحد فمن الممكن أن يجترئ على الباقين ، أو أن يكون فعْله أسوة لغيره ، وما دام قد استنَّ مثل هذه السنة ، سنجد كل مَنْ يغضب منْ آخر يقتله ، وتظل السلسلة من القتَلة والقتْلى تتوالى.

وقوله تعالى : ﴿مَن قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى الأَرْضِ (٣٢)﴾ (المائدة) فيه من الاحتياط والدقة والقيد ، فلو كان التشريع تشريعاً بشرياً لمرَّت عليه هذه المسألة ، ولاستدركها بعد ذلك بشرح أو تعديل ، ولكن المشرِّع الأعلى سبحانه لا يستدرك.

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٤/ ٢٦٨) ، والبخارى فى صحيحه (٢٤٩٣)، والترمذى فى سننه (٢١٧٣) من حديث النعمان بن بشير ، قال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح.

فكأن من قتل نفساً بنفس أو بفساد فى الأرض لا يقال عليه : إنه قتل الناس جميعاً ، بل أحيا الناس جميعاً ، لأن التجريم لأىِّ فعل يعنى مجىء النص الموضِّح أن هذا الفعل جريمة ، وبعد ذلك نضع لهذه الجريمة عقوبة.

فمن مقتضيات إيماننا بالله أن نقيم عدل الله فى الأرض بالاقتصاص من القاتل ، لذلك خاطبنا الله تعالى بقوله : ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالأُنثَى بِالأُنثَى** (١٧٨)﴾ (البقرة)

وظاهر النص أن الحر لا يُقتل بالعبد ، لأنه سبحانه يقول : ﴿**الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالأُنثَى بِالأُنثَى** (١٧٨)﴾ (البقرة) ، لكن ماذا يحدث لو أن عبداً قتل حراً ، أو قتلت امرأة رجلاً ، هل نقتلهما أم لا ؟

إن الحق سبحانه يضع الضوابط لمسألة الثأر ، وهو سبحانه لم يشرع أن الحر لا يُقتل إلا بالحر ، وإنما مقصد الآية أن الحر يُقتل إن قتل حراً ، والعبد يُقتل إن قتل عبداً ، والأنثى مقابل الأنثى ، هذا هو إتمام المعادلة ، فجزاء القاتل من جنس ما قتل ، لا أن يتعداه القتل إلى مَنْ هو أفضل منه.

إن الحق سبحانه وتعالى يواجه بتشريع القصاص قضية كانت قائمة بين القبائل ، حيث كان هناك قتل للانتقام والثأر ، ففى الزمن الجاهلى كانت إذا نشأت معركة بين قبيلتين ، فمن الطبيعى أن يوجد قتلى وضحايا لهذا الاقتتال ، فإذا قُتل عبد من قبيلة أصرت القبيلة التى تملك هذا العبد أن تُصعِّد الثأر فتأخذ به حراً ، وكذلك إذا قُتلت فى تلك الحرب أنثى ، فإن قبيلتها تُصعِّد الثأر فتأخذ بها ذكراً.

والحق سبحانه وتعالى أراد أن يحسم قضية الثأر حسماً تدريجياً ، لذلك جاء بهذا الأمر ﴿**الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالأُنثَى بِالأُنثَى** (١٧٨)﴾ (البقرة) ،

إذن : فالحق هنا يواجه قضية تصعيدية فى الأخذ بالثأر ويضع منهجاً يحسم هذه المغالاة فى الثأر.

وفى صعيد مصر ، ما زلنا نعانى من الغفلة فى تطبيق شريعة الله ، فحين يُقتل رجل من قوم فهم لا يثأرون من القاتل ، وإنما يذهبون إلى أكبر رأس فى عائلة القاتل ليقتلوه ، فالذين يأخذون الثأر يريدون النكاية الأشد ، وقد يجعلون فداء المقتول عشرة من العائلة الأخرى ، وقد يُمثِّلون بجثثهم ليتشفوا ، وكل ذلك غير ملائم للقصاص.

فكانوا فى أيام الجاهلية يغالون فى الثأر ، والحق سبحانه وتعالى يبلغ البشرية جمعاء بأن هذه المغالاة فى الثأر تجعل نيران العداوة لا تخمد أبداً، فالحق سبحانه يرد أمر الثأر إلى حَدِّه الأدنى ، فإذا قتلت قبيلة عبداً فلا يصح أن تُصعِّد القبيلة الأخرى الأمر ، فتأخذ بالعبد حراً.

والحق يشرع بعد ذلك أن القاتل فى الأحوال العادية يتم القصاص منه بالقتل له أو بالدية ، فقد جاءت آية أخرى يقول فيها الحق سبحانه : ﴿**وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالأَنفَ بِالأَنفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٤٥)**﴾ (المائدة)

وهكذا يصبح القصاص فى قتل النفس يتم بنفس أخرى ، فلا تفرقة بين العبد أو الحر أو الأنثى ، بل مطلق نفس بمطلق نفس ، وها هو ذا الحق سبحانه وتعالى يواجه بتقنين تشريع القصاص قضية يريد أن يميت فيها لدد الثأر وحنق الحقد.

فساعة تسمع كلمة قصاص وقتل ، فمعنى ذلك أن النفس مشحونة

بالبغضاء والكراهية ، ويريد أن يُصفِّى الضغن والحقد الثأرى من نفوس المؤمنين .

إن الحق جل وعلا يعطى لولى الدم الحق فى أن يقتل أو أن يعفو ، وحين يعطى الله لولى الدم الحق فى أن يقتل ، فإن أمر حياة القاتل يصبح بيد ولى الدم ، فإن عفا ولىٌّ الدم لا يكون العفو بتقنين ، وإنما بسماحة نفس ، وهكذا يمتص الحق الغضب والغيظ.

وبعد ذلك يُرقِّق الحق سبحانه قلب ولى الدم ، فيقول : ﴿**فَمَنْ عُفِىَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ** (١٧٨)﴾ (البقرة)

وإذا تأملنا قوله تعالى ﴿**فَمَنْ عُفِىَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ** (١٧٨)﴾ (البقرة). فلنلاحظ النقلة من غليان الدم إلى العفو ، ثم المبالغة فى التحنن، كأنه يقول : لا تنس الأخوة الإيمانية ﴿**فَمَنْ عُفِىَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ**(١٧٨)﴾ (البقرة)

كأنه سبحانه يحثُّ ولى الدم على أن يعفو ولا ينسى أُخوة الإيمان ، صحيح أنه وَلِىٌّ للمقتول ، لأنه من لُحْمته ونسبه ، ولكن الله أراد أن يجعل أخوة الإيمان فوق أخوة الدم.

وقد أورد الحق الأخوة هنا لترقيق المشاعر ، لينبه أهل القاتل والقتيل معاً أن القتل لا يعنى أن الأخوة الإيمانية انتهت ، لا إن على المؤمنين أن يضعوا فى اعتبارهم أن أخوة الإيمان قد تفتر رابطتها ، وحين يتذكر أولياء الدم أخوة الإيمان ، فإن العفو يصبح قريباً من نفوسهم.

ولننظر إلى دقة الحق سبحانه فى تصفية غضب القلوب حين يضع الدية مكان القصاص بالقتل ، إن الدية التى سيأخذها أولياء الدم من القاتل قد تكون مؤجلة الأداء ، فقد يقدر القاتل ، أو أهله على الأداء العاجل ، لذلك فعلى الذى يتحمل الدية أن يؤديها ، وعلى أهل القتيل أن يتقبلوا ذلك بالمعروف ،

وأن تُؤدَّى الدية من أهل القاتل أو من القاتل نفسه بإحسان.

والثارات الموجودة فى المجتمعات المعاصرة سببها أننا لم نُمكِّن ولىَّ الدم من القاتل ، بدليل أنه إذا ما قدر قاتل على نفسه وذهب إلى أهل القتيل ودخل عليهم بيتهم ، وبالغ فى طلب العفو منهم ، وأخذ كفنه معه وقال لهم : جئتكم لتقتصوا منى ، وهذا كفنى معى فاصنعوا بى ما شئتم ، لم يحدث قط أن أهل قتيل غدروا بقاتل ، بل المألوف والمعتاد أن يعفوا عنه ، لماذا ؟

لأنهم تمكَّنوا منه وأصبحت حياته بين أيديهم ، وفى العادة تنقلب العداوة إلى مودة ، فيظل القاتل مديناً بحياته للذين عفوا عنه ، والذين يعرفون ذلك من أبناء القاتل ، يرون أن حياة أبيهم هبة وهبها لهم أولياء القتيل وأقرباؤه ، يرون أن عفو أهل القتيل هو الذى نجَّى حياة قريبهم ، وهكذا تتسع الدائرة وتنقلب المسألة من عداوة إلى وُدٍّ .

ولو لم يُشرِّع الله القصاص لأصبحت المسألة فوضى ، لكنه يُشرِّعه ، ثم يتلطف ليجعل أمر إنهاء القصاص فضلاً من ولى الدم ويُحبِّبه لنا ، فيقول سبحانه وتعالى : ﴿**فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ** (١٧٨)﴾ (البقرة)

وهل من المعقول أن تكون الدية إحساناً ؟ لتتذكر أن القائل هو الله ، وكلامه قرآن ، والدقة فى القرآن بلا حدود ، إن الحق ينبه إلى أن أولياء الدم إذا ما قبلوا الدية فمعنى ذلك أن أهل القتيل قد أسقطوا القصاص عن القاتل ، وأنهم وهبوه حق الحياة ، لذلك فإن هذا الأمر يجب أن يُردَّ بتحية أو مكرمة أحسن منه كأن الحق لا يريد من أولياء الدم أن يرهقوا القاتل أو أهله فى الاقتضاء ، كما يريد أن يؤدى القاتل أو أهله الدية بأسلوب يرتفع إلى مرتبة العفو الذى ناله القاتل.

﴿ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ (١٧٨) ﴾
(البقرة)

ففى ذلك الأمر تخفيف عما جاء بالتوراة ، ففى التوراة لم تكن هناك دية يفتدى القاتل بها نفسه ، بل كان القصاص فى التوراة بأسلوب واحد هو قتل إنسان مقابل إنسان آخر.

وفى الإنجيل لا دية ولا قتل ، لأن هناك مبدأ أراد أن يتسامى به أتباع عيسى عليه السلام على اليهود الذين انغمسوا فى المادية ، لقد جاء عيسى عليه السلام رسولاً إلى بنى إسرائيل لعله يستلُّ من قلوبهم المادية ، فجاء بمبدأ «مَنْ صفعك على خدِّك الأيمن فأَدِرْ له الأيسر» .

أما الإسلام فقد جاء ديناً عامًا جامعًا شاملاً ، فيثير فى النفس التسامى ، ويضع الحقوق فى نصابها ، فأبقى القصاص ، وترك للفضل مجالاً ، لذلك يقول الحق عن الدية : ﴿ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٧٨) ﴾
(البقرة)

إذن : فحكم الله فى جريمة القتل العمد هى القصاص أو دية مُسلَّمة لأهل القتيل ، ولكن هذا لا يمنع تطبيق الحد ، فيجب أن نفرق بين الحد وبين القصاص ، فالقصاص حق الولى ، والحد حق الله . وللولى أن يتنازل فى القصاص ، أما الحدود فلا يقدر أحد أن يتنازل عنها ، لأنها ليست حقاً لأحد ، ولكنها حق الله.

أما القتل الخطأ ، فقد قال الحق سبحانه عنه: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ إِلَّا أَن يَصَّدَّقُوا فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ

فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾ ﴾ (النساء)

فلأن القتل وقع خطأ فلن يتم القصاص من القاتل ، ولكن عليه أن يدفع دية ، وهذه الدية توزع على الناس الذين تأثروا بفقدان حياته ، فهذا يعالج الأثر الحادث عن القتل الخطأ.

والدية بحكم الشرع تأتى من العاقلة[1] ، وبشرط ألا تؤخذ من الأصول والفروع ، فلا تجتمع عليهم مصيبة فقد إنسان على يد أحد من أصولهم أو فروعهم ، وهم بذلك يفزَّعون فلا يجمع عليهم هذا الأمر مع المشاركة فى الدية ، كأن التشريع أراد أن يعالج الهزة التى صنعها انحراف بعلاج هو وقاية من ردِّ الفعل فيحقق التوازن فى المجتمع.

فالقتل الخطأ قال فيه : ﴿ **فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ .. ﴿٩٢﴾** ﴾ (النساء)

وهنا قد نسأل : وماذا يستفيد أهل المجنى عليه بالقتل من تحرير رقبة مؤمنة؟ نقول : قد لا تفيدهم فى شىء ، لكنها تفيد المجتمع ، لأن مملوك الرقبة وهو العبد أو الأمَة هو مملوك لسيده ، والسيد يملك حركة العبد ، ولكن عندما يكون العبد حراً فهو حر الحركة ، فحركة العبد مع السيد محدودة ، وفى حريته حركة مفيدة للمجتمع.

إذن : فالقبض الذى حدث من قتل نفس مؤمنة يقابلها بسط فى حرية واحد كان محكوماً فى حركته فنقول له : انطلق فى حركتك لتخدم كل مجتمعك. ويريد الحق بذلك أن يفتح مصرفاً لحرية الأرقاء ضمن المصارف الكثيرة التى جعلها الإسلام لذلك.

وبعد هذا يقول الحق سبحانه ﴿ **وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ .. ﴿٩٢﴾** ﴾ (النساء)

---

(١) العاقلة : هم العصبة ، وهم القرابة من قِبَل الأب الذين يعطون دية قتل الخطأ . (لسان العرب ـ مادة : عقل).

لكى يصنع بسطاً فى نفوس أهل القتيل ، لذلك نجد أسرة قد فُجعت فى أحد أفرادها بحادثة وعاشوا الحزن أيامًا ثم يأخذون الأوراق ويصرفون بها الدية أو التعويض ، مما يدل على أن فى ذلك شيئاً من السلوى ، وشيئاً من التعزية، وشيئاً من التعويض ، ولو كانت المسألة مزهوداً فيها لقالوا : «نحن لا نريد ذلك» ولكن ذلك لم يحدث.

فعلم الله سبحانه بالنفس البشرية جعل من قتل خطأ يفيد المجتمع الإيمانى بتحرير رقبة ، فيزيد المجتمع إنساناً حرًا يتحرك حركة إيمانية ، لذلك اشترط الحق أن تكون الرقبة مؤمنة ، حتى نضمن أن تكون الحركة فى الخير ، فنحن لا نحرر رقبة كافرة ، لأن الرقبة الكافرة عندما تكون مملوكة لسيد فشَرُّها محصور ، لكن لو أطلقناها لكان شرُّها عامًا.

وبعد تحرير الرقبة هناك الدية لننثرها على كل مُفَزَّع فى منفعته فيمن قُتل ، ولا نأخذها من أصول القاتل وفروعه ، فلا نجمع عليهم مصيبتين القتل الذى قام به أصلهم أو فرعهم ، لأن ذلك سيصيبهم بالفزع والخوف والإشفاق على مَنْ جنى منهم. وأن يشتركوا فى تحمُّل الدية ، وذلك العمل ناشىء عن حكمة ، فإذا كان الذى يضع الأشياء فى موضعها هو خالقها ، فلن يوجد أفضل من ذلك لتستقيم الأمور.

فالحكمة هى وضع الشىء فى موضعه ، فما بالنا حين يكون من يضع الشىء فى موضعه هو خالقنا ؟ لن نجد أفضل ولا أحسن من ذلك ، فإذا ما رأينا خللاً فى مجتمع فلنعلم أن هناك شيئاً قد ناقض حكمة الله.

□□□

٥ الصيام منهج لتربية الإنسان

الصوم هو مجال تقرير الإرادة العازمة الجازمة، ومجال اتصال الإنسان بربه اتصال طاعة وانقياد، كما أنه مجال الاستعلاء على ضرورات الجسد كلها، واحتمال ضغطها وثقلها ، إيثاراً لما عند الله من الرضا والمتاع ، وغاية الصيام الأولى هى إعداد قلوب المؤمنين للتقوى والشفافية والحساسية والخشية من الله.

يقول الحق سبحانه : ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ** (١٨٣)﴾ (البقرة)

حين يخاطب الحق سبحانه الذين آمنوا يوضح : خذوا منى هذا التكليف، ففيه سعادة الإنسان فى الدنيا والآخرة ، ولهذا نجد أن الحق سبحانه وتعالى لا يذكر أمراً من أوامره بأى تكليف أو نهياً من نواهيه ، إلا مسبوقاً بقوله سبحانه : ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ**﴾.

مثل قوله تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ** (١٨٣)﴾ (البقرة)

وقوله سبحانه : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ** ﴾ (البقرة)

وهذه التكليفات لم تأتِ مبنية للمعلوم ، فَمَن الذى يكتب؟ إنه الحق

سبحانه ، كما أنها صيغة مبنية دائماً لما لم يُسَمَّ فاعله ، أى : أن الكتابة أتت من كثير. ونقول : صحيح أن الله سبحانه هو الذى كتب ، فلماذا لم يقل : (يا أيها الذين آمنوا كتبتُ عليكم)... ولماذا يقول : ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ** (١٨٣)﴾ (البقرة) ؟

نقول : لأن الله وإنْ كان قد كتب ، إلا أنه لم يكتبها على كل خلقه ، بل كتبها على الذين آمنوا به ، وأنت بإيمانك أصبحتَ ملتزمًا بعناصر التكليف ، فكأن الحق سبحانه لم يكتب ، ثم يلزمك ، ولكن التزامك تَمَّ فى نفس اللحظة التى دخلتَ فيها باختيارك فى الإيمان.

وبذلك تكون كل هذه الأحكام قد كُتبت علينا باختيار كل منا ، فمن لم يختر الإيمان ليس مكتوباً عليه أن ينفذ أحكام الإيمان ، لأنها لا تُنفذ إلا بالعقد الإيمانى بيننا وبين الحق سبحانه ، وقد احترم سبحانه دخولنا فى هذا العقد ، فلم ينسبه لذاته العلية فقط ، بل شمل أيضاً كل مَنْ دخل فى الإيمان.

ولذلك ، فإنْ سأل أحد عن حكمة التكليف من الله ، نقول له : إن الحكمة تنبع من أنه سبحانه هو الذى كلَّف ، ولهذا أرى أن البحث عن أسباب التكليف هو أمر مرفوض إيمانياً ، فإذا قيل : إن الله فرض الصوم حتى يشعر الغنى بألم الجوع ، ليعطف على الفقير ، نقول : لا ، وإلا سقط الصوم عن الفقير ، لأنه يعرف ألم الجوع جيداً.

وإذا قيل لنا : إن الصوم يعالج أمراض كذا وكذا وكذا. نقول : إن هذا غير صحيح ، وإلا لَمَا أسقط الله فريضة الصوم عن المريض فى قوله تعالى : ﴿**وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ** (١٨٥)﴾ (البقرة)

فإذا كان الله قد أباح للمريض أن يفطر ، فكيف يأتى إنسان ويقول : إن علة

فرض الصوم هى شفاء الأمراض ؟ كما أن هناك بعض الأمراض لا يُسمح معها بالصوم.

إذن : فنحن نصوم لأن الله فرض علينا الصوم ، وما دام الله قد قال فسبب التنفيذ هو أن القول صادر من الله سبحانه ، ولا شىء غير ذلك ، فإذا ظهرت حكمة التكليف فإنها تزيدنا إيماناً ، مثلما ثبت ضرر لحم الخنزير بالنسبة للإنسان ، لأن لحم الخنزير ملىء بالميكروبات والجراثيم التى يأكلها مع القمامة ، ونحن لا نمتنع عن أكل لحم الخنزير لهذا السبب ، بل نمتنع عن أكله لأن الله قد أمرنا بذلك ، ولو أن هذه الحكمة لم يكشف عنها الطب ما قلَّلَ هذا من اقتناعنا بعدم أكل لحم الخنزير ، لأننا نأخذ التكليف من الله ، وليس من أى مصدر آخر.

وهو سبحانه لم يكتب الصيام على من لا يؤمن به ، لأنه لا يدخل فى دائرة التعاقد الإيمانى ، وسيلقى سعيراً.

والصيام لون من الإمساك ، لأن معنى صام هو : أمسك . والحق سبحانه يقول لمريم عليها السلام : ﴿ **فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾** ﴾ (مريم)

والصوم هنا أى : عن الكلام. وهذه المسألة اعترض عليها بعض الذين يحبون أن ينتقدوا على القرآن ، فقالوا: كيف يأمرها بالصوم عن الكلام ، وفى نفس الوقت يأمرها أن تقول : " نذرت للرحمن صومًا" ؟

يجوز أنها قالت هذه العبارة أولاً لأول بشر رأته ليتم بذلك إعلان صومها. ثم انقطعت عن الكلام، ويجوز أن يكون المراد بالكلام هنا الإشارة ، والدلالة بالإشارات أقوى الدلالات وأعمّها ، فإن اختلفت اللغات بين البشر لأن كل

جماعة تواضعوا على لغة خاصة بهم ، فإن لغة الإشارة تظل لغة عامة يتفق عليها الجميع ، فمثلاً حين تومئ برأسك هكذا تعنى نعم فى كل اللغات ، وحين تشير بأصبعك هكذا تعنى لا . إذن : فالدلالة لغة عالمية وعامة.

فالصوم لغوياً هو الإمساك عن شىء ، أما الصوم تشريعياً فهو الصوم عن شهوتى البطن والفرج من الفجر وحتى الغروب ، ومبدأ الصوم لا يختلف من زمن إلى آخر . فقد كان الصيام كركن تعبدى موجوداً فى الديانات السابقة على الإسلام ، لكنه كان إما إمساكاً مطلقاً عن الطعام ، وإما إمساكاً عن ألوان معينة من الطعام كصيام النصارى ، فالصيام إذن هو منهج لتربية الإنسان فى الأديان ، وإن اختلفت الأيام عدداً ، وإن اختلفت كيفية الصوم.

ويُذيِّل الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٨٣)﴾ (البقرة)

ونعرف أن معنى التقوى هو أن نجعل بيننا وبين صفات الجلال وقاية ، وأن نتقى بطش الله ، ونتقى النار وهى من آثار صفات الجلال . وقوله الحق ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٨٣)﴾ (البقرة) أى : أن نهذب ونُشذِّب سلوكنا فنبتعد عن المعاصى ، والمعاصى فى النفس إنما تنشأ من شَرَه ماديتها إلى أمر ما ، والصيام كما نعلم يُضعف شرَّة المادية وحدَّتها وتسلُّطها فى الجسد.

ولذلك يقول ﷺ للشباب المراهق وغيره : « يا معشر الشباب ، من استطاع منكم الباءة فليتزوج ، فإنه أغضُّ للبصر ، وأحصن للفرج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم ، فإنه له وجاء »[(١)].

وكأن الصوم يشذب شرة المادية فى الجسم الشاب ، وإن تقليل الطعام يعنى

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (١٩٠٥ ، ٥٠٦٥ ، ٥٠٦٦) ، وكذا مسلم فى صحيحه (١٤٠٠) كتاب النكاح ـ باب استحباب النكاح (١) من حديث عبد الله بن مسعود.

تقليل وقود المادة ، فيقل السُّعَار الذى يدفع الإنسان لارتكاب المعاصى.

والصيام فى رمضان يعطى الإنسان الاستقامة لمدة شهر ، ويلحظ الإنسان حلاوة الاستقامة فيستمر بها بعد رمضان ، والحق سبحانه لا يطلب منك الاستقامة فى رمضان فقط ، إنما هو سبحانه قد اصطفى رمضان كزمن تتدرب فيه على الاستقامة لتشيع من بعد ذلك فى كل حياتك ، لأن اصطفاء الله لزمان، أو اصطفاء الله لمكان ، أو لإنسان ليس لتدليل الزمان ، ولا لتدليل المكان ، ولا لتدليل الإنسان ، وإنما يريد الله من اصطفائه لرسول أن يشيع أثر اصطفاء الرسول فى كل الناس.

ولذلك نجد تاريخ الرسل مليئاً بالمشقة والتعب ، وهذا دليل على أن مشقة الرسالة يتحملها الرسول ، وتعبها يقع عليه هو ، فالله لم يصطفه ليدلله ، وإنما اصطفاه ليجعله أسوة.

وكذلك يصطفى الله من الزمان أيامًا لا ليدللها على بقية الأزمنة ، ولكن لأنه سبحانه وتعالى يريد أن يشيع اصطفاء هذا الزمان فى كل الأزمنة ، كاصطفائه لأيام رمضان.

والحق سبحانه يصطفى الأمكنة ليشيع اصطفاؤها فى كل الأمكنة ، وعندما نسمع من يقول : زرت مكة والمدينة وذُقْت حلاوة الشفافية والإشراق والتنوير ونسيت كل شىء.

إن من يقول ذلك يظن أنه يمدح المكان ، وينسى أن المكان يفرح عندما يشيع اصطفاؤه فى بقية الأمكنة ، فأنت إذا ذهبت إلى مكة لتزور البيت الحرام ، وإذا ذهبت إلى المدينة لتزور رسول الله ﷺ ، فلماذا لا تتذكر فى كل الأمكنة أن الله موجود فى كل الوجود ، وأن قيامك بأركان الإسلام وسلوك الإسلام هو تقرب من الله ومن رسول الله ﷺ .

صحيح أن تعبُّدك وأنت فى جوار بيت الله يتميز بالدقة وحُسْن النية ، كأنك وأنت فى جـوار بيت الله وفى حضرة رسول الله ﷺ تستحـى أن تفعل معصية ، وساعة تسمع "الله أكبر" تنهض للصلاة وتخشع ، ولا تؤذى أحداً، إذن : لماذا لا يشيع هذا السلوك منك فى كل وقت وفى كل مكان ؟ إنك تستطيع أن تستحضر النية التعبدية فى أى مكان ، وستجد الصفاء النفسى العالى.

إذن : فحين يصطفى الله زماناً أو مكاناً ، أو يصطفى إنساناً إنما يشاء الحق سبحانه وتعالى أن يشيع اصطفاء الإنسان فى كل الناس ، واصطفاء المكان فى كل الأمكنة ، واصطفاء الزمان فى كل الأزمنة.

ولذلـك أتعجب عندما أجد الناس تستقبل رمضان بالتسبيح وبآيات القرآن ، وبعد أن ينتهى رمضان ينسون ذلك ، وأقول : هل جاء رمضان ليحرس لنا الدين ؟ أم أن رمضان يجىء ليدربنا على أن نعيش بخُلق الصفاء فى كل الأزمنة.

وقوله الحق : ﴿**كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ** (١٨٣)﴾ (البقرة) يدلنا على أن المسلمين ليسوا بدعًا فى مسألة الصوم ، بل سبقهم أناس من قبل إلى الصيام ، وإن اختلفت شكلية الصوم.

وساعة يقول الحق ﴿**كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ** (١٨٣)﴾ (البقرة)، فهذا تقرير للمبدأ ، مبدأ الصوم ، ويُفصِّل الحق سبحانه المبدأ من بعد ذلك ، فيقول ﴿**أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ** (١٨٤)﴾ (البقرة)

وكلمة (أيامًا) تدل على الزمن وتأتى مجملة ، وقوله الحق عن تلك الأيام إنها "معدودات" يعنى : أنها أيام قليلة ومعروفة.

ومن بعد ذلك يوضح الحق لنا مدة الصيام ، فيقول :

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٨٥)﴾ (البقرة)

إذن : فمدة الصيام هى شهر رمضان ، ولأنه سبحانه العليم بالضرورات التى تطرأ على هذا التكليف فهو يشرع لهذه الضرورات ، وتشريع الله لرخص الضرورة إعلام لنا بأنه لا يصح مطلقاً لأىِّ إنسان أن يخرج عن إطار الضرورة التى شرعها الله ، وهو سبحانه لا يكلف إلا بما فى وُسْعك ، بدليل أن المشرع سبحانه يعطى الرخصة عندما يكون التكليف ليس فى الوسع.

ولْنَرَ رحمة الحق وهو يقول : ﴿ **وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ (١٨٥)**﴾ (البقرة). وكلمة (مريضاً) كلمة عامة ، وأنت فيها حجة على نفسك وبأمر طبيب مسلم حاذق يقول لك : إن صمت فأنت تتعب . والمرض مشقته مزمنة فى بعض الأحيان ، ولذلك تلزم الفدية بإطعام مسكين.

وكذلك يرخص الله لك عندما تكون ﴿**عَلَىٰ سَفَرٍ (١٨٥)**﴾ (البقرة) والمشقة فى الانتقال قديماً كانت عالية ، ولكن لنقارن سفر الأمس مع سفر اليوم من ناحية الإقامة ، وستجد أن سفر الآن بإقامة الآن فيه مشقة.

ومن العجيب أن الذين يناقشون هذه الرخصة يناقشونها ليمنعوا الرخصة ،

ونقول لهم : اعلموا أن تشريع الله للرخصة ينقلها إلى حكم شرعى مطلوب ، وفى ذلك يروى لنا جابر بن عبد الله ﷺ قال ، كان رسول الله ﷺ فى سفر فرأى زحاماً ورجلاً قد ظُلِّلَ عليه ، فقال : ما هذا ؟ فقالوا : صائم ، فقال : «ليس من البر الصوم فى السفر» .

وعندما تقرأ النص القرآنى تجده يقول ﴿ **وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ** (١٨٥)﴾ (البقرة) أى : أن مجرد وجود فى السفر يقتضى الفطر والقضاء فى أيام أخر ، ومعنى ذلك أن الله لا يقبل منك الصيام ، صحيح أنه سبحانه لم يقل لك "أفطر" ولكن مجرد أن تكون مريضاً مرضاً مؤقتًا أو مسافراً فعليك الصوم فى عدة أيام أُخَر ، وأنت لن تشرع لنفسك.

وقد يقـول قائـل : ولكن الصيام فى رمضان يختلف عن الصوم فى أيام أُخَر ، لأن رمضان هو الشهر الذى أُنزل فيه القرآن ، وأقول : إن الصوم هو الذى يتشرف بمجيئه فى شهر القرآن ، ثم إن الذى أنزل القرآن وفرض الصوم فى رمضان هو الحق سبحانه الذى وهب الترخيص بالفطر للمريض أو المسافر، ونقله إلى أيام أخر فى غير رمضان ، وسبحانه لا يعجز عن أن يهب الأيام الأخر نفسها التجليات الصفائية التى يهبها للعبد الصائم فى رمضان.

إن الحق سبحانه حين شرع الصوم فى رمضان إنما أراد أن يشيع الزمن الضيق - زمن رمضان - فى الأمر المتسع ، وهو مدار العام ، ونحن نصوم رمضان فى الصيف ، ونصومه فى الشتاء ، وفى الخريف والربيع. إذن : فرمضان يمرُّ على كل العام.

والصيام منهج لتربية الإنسان ، وكان موجودًا قبل أن يبعث الحق سبحانه سيدنا رسول الله ﷺ ، وعندما جاء الرسول ﷺ دخل الصوم على

المسلمين اختيارياً فى البداية ، ثم فريضة من بعد ذلك ، وقد شرع الله الصوم فى الإسلام بداية بأيام معدودة ، ثم شرح لنا الأيام المعدودة بشهر رمضان.

والذى يطمئن إليه خاطرى أن الله بدأ مشروعية الصوم بالأيام المعدودة ، ثلاثة أيام من كل شهر، وهو اليوم العاشر ، والعشرون ، والثلاثون من أيام الشهر، كانت تلك هى الأيام المعدودة التى شرع الله فيها أن نصوم ، وكان الإنسان مُخيَّراً فى تلك الأيام المعدودة : إن كان مطيقاً للصوم أن يصوم أو أن يفتدى ، أما حين شرع الله الصوم فى رمضان فقد أصبح الصوم فريضة تعبدية وركناً من أركان الإسلام ، وبعد ذلك جاءنا الاستثناء للمريض والمسافر.

وكلمة "رمضان" مأخوذة من مادة (الراء - والميم - والضاد) ، وكلها تدل على الحرارة ، وتدل على القيظ ، و"رمض الإنسان" أى : حرّ جوفه من شدة العطش. و"الرمضاء" أى : الرمل الحار. وعندما يقال "رمضت الماشية" أى: أن الحر أصاب خُفَّها فلم تَعُدْ تقوى أن تضع رِجْلها على الأرض.

إذن : فرمضان مأخوذ من الحر ومن القيظ ، وكأن الناس حينما أرادوا أن يضعوا أسماء للشهور جاءت التسمية لرمضان فى القيظ فى وقت كان حاراً ، فسموه رمضان ، كما أنهم ساعة سموا مثلاً "ربيعًا الأول" و"ربيعاً الآخر" كان الزمن متفقاً مع وجود الربيع ، وعندما سموا "جمادى الأولى" و"جمادى الآخرة" كان الماء يجمد فى هذه الأيام.

فكأنهم لاحظوا الأوصاف فى الشهور ساعة التسمية ، ثم دار الزمن العربى الخاص المحدد بالشهور القمرية فى الزمن العام للشمس ، فجاء رمضان فى صيف ، وجاء فى خريف ، لكن ساعة التسمية كان الوقت حاراً.

وكأن الحق سبحانه وتعالى حينما هيأ للعقول البشرية الواضعة للألفاظ أن

يضعوا لهذا الشهر ذلك الاسم ، دل على المشقة التى تعترى الصائم فى شهر رمضان.

وبعد ذلك يعطى له سبحانه منزلة تؤكد لماذا سُمِّى ؟ إنه الشهر الذى أُنزل فيه القرآن ، والقرآن إنما جاء منهج هداية للقيم ، والصوم امتناع عن الاقتيات ، فمنزلة الشهر الكريم أنه يربى البدن ويربى النفس ، فناسب أن يوجد التشريع فى تربية البدن وتربية القيم مع الزمن الذى جاء فيه القرآن بالقيم.

وانظروا إلى دقة الأداء القرآنى فى قوله تعالى : ﴿**وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٨٥)**﴾ (البقرة) فالعبادة التى نفهم أن فيها مشقة هى الصيام ، وبعد ذلك تُكبِّرون الله ، لأن الحق سبحانه عالم أن عبده حين ينصاع لحكم أراده الله وفيه مشقة عليه مثل الصوم يتحمله.

وعندما يشعر بأنه قد انتهى منه ، فالحق سبحانه عالم بأن العبد سيجد فى نفسه إشراقاً يستحق أن يشكر الله الذى كلَّفه بالصوم ووفَّقه إلى أدائه ، لأن معنى ﴿**وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ**﴾ يعنى أن تقول (الله أكبر) ، وأن تشكره على العباده التى كنت تعتقد أنها تُضنيك ، لكنك وجدت فيها تجليات وإشراقات ، فتقول : الله أكبر من كل ذلك ، الله أكبر لأنه حين يمنعنى يعطينى.

والحق سبحانه يعطى حتى فى المنع ، فأنت تأخذ مقومات حياة ويعطيك فى رمضان ما هو أكثر من مقومات الحياة ، وهو الإشراقات التى تتجلى لك ، وتذوق حلاوة التكليف ، وإن كان قد فوَّت عليك الاستمتاع بنعمة ، فإنه أعطاك نعمة أكثر منها.

لقد أسدى الله إليكم جميلاً ، وساعة يوجد الصفاء بين "العابد" وهو الإنسان ، والمعبود وهو الرب ، ويثق العابد بأن المعبود لم يكلفه إلا بما يعود

عليه بالخير ، هنا يحسن العبد ظنه بربه ، فيلجأ إليه فى كل شىء ، ويسأله عن كل شىء ، ولذلك جاء هنا قول الحق سبحانه بعد آية أمر المؤمنين بالصوم :

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ (١٨٦)﴾ (البقرة)

فما دُمْتَ قد ذُقْت حلاوة ما أعطاك الحق من إشراقات صفائية فى الصيام فأنت ستتجه إلى شكره سبحانه.

٦ الإسلام استسلام لله .. وسلام مع الكون

إنها دعوة تُوجَّه في كل حين للذين آمنوا ، ليُخلصوا ويتجرَّدوا ، وتتوافق خطرات نفوسهم واتجاهات مشاعرهم مع ما يريد الله بهم ، وما يقودهم إليه نبيهم ودينهم ، فى غير ما تلجلج ولا تردد ولا تلفت.

يقول الحق سبحانه : ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (٢٠٨)**﴾ (البقرة)

إن الله هو الإله الخالق للكون ، ولا بد أن يعيش الخلق فى سلام معه ، لأنكم لا تؤمنون إلا به إلهاً واحدًا ، فيجب علينا أن نعيش مع الأرض والسماء والكون فى سلام ؛ لأن الكون الخاضع المقهور المسخَّر الذى لا يملك أن يخرج عما رُسِم له يعمل لخدمتك ولا يعاندك.

والإنسان حين يكون طائعًا يُسَرُّ به كل شىء فى الوجود ، لأن الوجود طائع ومُسبِّح ، فساعة يجد الإنسان مُسبِّحاً مثله يُسَرُّ به لأنه فى سلام مع الكون ، وأنت فى سلام مع نفسك ، لأن لك إرادة ، وهذه الإرادة قهر الله لها كل جوارحك ، والذى تريده من أى عضو يفعله لك ، لكن هل يرضى أىُّ عضو عمّا تأمره به ؟

تلك مسألة أخرى ، فلسانك ـ مثلاً ـ ينفعل بإرادتك ، فتقول به "لا إله إلا

الله" وقال به غيرنا ـ من المشركين ـ غير ذلك ، وأشركوا مع الله بشرًا وغير بشر يعبدونهم ، وقال الملحدون بألسنتهم والعياذ بالله : "لا إله فى الكون" ولم يعص اللسان أحداً من هؤلاء ، لأنه مقهور لإرادتهم.

والحق حين ينادى المؤمنين بأن يدخلوا فى السِّلْم كافة ، فالمعنى يحتمل أيضاً أن الحق سبحانه وتعالى يخاطب المسلمين ألا يأخذوا بعضاً من الدين ، ويتركوا البعض الآخر ، فيقول لهم : خذوا الإسلام كله وطبِّقوه كاملاً ، لأن الإسلام يمثل بناء له أسس معلومة ، وقواعد واضحة ، فلا يحاول أحد أن يأخذ شيئاً من حكم بعيداً عن حكم آخر ، وإلا لحدث الخلل.

وعلى سبيل المثال ، قد تجد خلافاً بين الزوج والزوجة ، وقد يؤدى الخلاف إلى معارك وطلاق ، وبعد ذلك نجد من يتهم الإسلام بأنه أعطى الرجل سيفاً مسلطاً على المرأة ، ونقول لهم : ولماذا تتهمون الإسلام ؟ هل دخل على الزواج بمنطق الإسلام؟

إن كنت قد دخلت على الزواج بمنطق الإسلام فستجد القواعد المنظمة والتى تحفظ للمرأة كرامتها ، ولكن هناك من يدخل على الزواج بغير منطق الإسلام ، فلما وقع فى الأزمة راح ينادى الإسلام.

هل اختار الرجل من تشاركه حياته بمقياس الدين ؟ وهل وضع نصب عينه شروط اختيار الزوجة الصالحة التى جاءت فى الحديث الشريف : « تنكح المرأة لأربع : لمالها ، ولحسبها ، ولجمالها ، ولدينها فاظفر بذات الدين تَرِبَتْ يداك » (1).

(1) أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٨٠٢) كتاب النكاح ، وكذا مسلم فى صحيحه (١٤٦٦) كتاب الرضاع ، وأخرجه كذلك الدارقطنى فى سننه رقم (٢١٢) ، وابن حبان فى صحيحه (٤٠٣٦) كلهم من حديث أبى هريرة ﷺ.

هل فضَّل الرجل ذات الدين على سواها ؟ أم فضَّل مقياساً آخر ؟ وعندما جاء رجل ليخطب ابنة من أبيها ، هل وضع الأب مقاييس الإسلام فى الاعتبار عند موافقته على هذا الزواج ؟ هل فضَّلتم مَنْ ترضَوْنَ دينه وخُلقه ؟ أم تركتم تلك القواعد ؟ أنت تركت قواعد الإسلام ، فلماذا تلوم الإسلام عند سوء النتائج والعواقب .

إنك إن أردت أن تحاسب فلا بد أن تأخذ كل أمورك بمقاييس الإسلام ، ثم تصرَّف بما يناسب الإسلام ، فإذا كنت كذلك فالإسلام يحميك من كل شىء، فالإسلام يساند القوى فى الكون ويساند القوى فى النفس بحيث تعيش فى سلام ولا تتعاند ، لأن كل ذلك يقابله الحرب ، والحرب إنما تنشأ من تعاند القوى ، فتتعاند قوى نفسك فى حرب مع نفسك ، وتتعاند قوى البشر فى حرب البشر مع البشر ، وتتعاند قواك مع قوى الكون الأخرى ، فأنت تعاند الطبيعة ، وتعاند مع الحق سبحانه وتعالى.

لذلك لا بد للبشر جميعاً أن يكونوا تبعاً لقوة آمنوا بأنها فوقهم جميعاً ، فحين نؤمن ندخل فى السلم ، ولا يوجد تعاند بين أى قوة وقوة أخرى ، لأنى لست خاضعاً لك ، وأنت لست خاضعاً لى ، وأنا وأنت مسلمون لقوة أعلى منى ومنك ، ويُشترط فى القوة التى نتبعها طائعين ألا يكون لها مصلحة فيما تشرع.

إن المشرعين من البشر يراعون مصالحهم حين يشرعون ، فمشرع الشيوعية يضع تشريعه ضد الرأسمالية ، ومشرع الرأسمالية يضع تشريعه ضد الشيوعية ، لكن عندما يكون المشرع غير منتفع بما يشرع ، فهذا هو تشريع الحق سبحانه وتعالى.

وحين ندخل فى الإسلام ندخل جميعاً لا يشذ منا أحد ، ذلك معنى : ﴿ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً (٢٠٨)﴾ (البقرة) ، هذا معنى وارد وهناك معنى آخر وارد، وهو ادخلوا فى السلم أى الإسلام بجميع تكاليفه بحيث لا تتركوا تكليفاً يشذ منكم.

أما المعنى الأول فلأننا لو لم ندخل فى السلم جميعاً لشقى الذى يسلمون بالذين لا يسلمون ، لأن الذى يسلم سيهذب سلوكه بالنسبة للآخرين ، ويكون نفع المسلم لسواه ، ويشقى المسلم بعدم إسلام من لم يسلم ، فمن مصلحتنا جميعاً أن نكون جميعاً مسلمين.

والذين لا يدركون هذه الحقيقة يفسرون قول الله تعالى ﴿ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ (١٠٥) ﴾ (المائدة) على غير ظاهرها ، فمن ضمن هدايتكم أن تُبصِّروا من لم يؤمن بأن يؤمن ، لأن مصلحتكم أن تسلموا جميعاً ، فإذا أسلمت أنت فسيعود إسلامك على الغير ، لأن سلوكك سيصبح مستقيماً مهذباً ، والذى لم يسلم سيصبح سلوكه غير مستقيم وغير مهذب ، وستشقى أنت به.

إذن : فمن مصلحتك أن تقضى وقتاً طويلاً وتتحمل عناء كبيراً فى أن تدعو غيرك ليدخل فى الإسلام. وإياك أن تقول : إن ذلك يضيع عليك فرص الحياة ، لا إنه يضمن لك فرص الحياة ، ولن يضيع وقتك لأنك ستحمى نفسك من شرور غير المسلم.

والله سبحانه وتعالى شاء أن يجعل أسس الإسلام خمسة ، وبعد ذلك يُبنى الإسلام ، وحين يبنى الإسلام فإياك أن تأخذ لبنة من الإسلام دون لبنة ، بل يؤخذ الإسلام كله ، فالضرر الواقع فى العالم الإسلامى إنما هو ناتج من

التلفيقات التى تحدث فى العالم المسلم ، تلك التلفيقات التى تحاول أن تأخذ بعضاً من الإسلام وتترك بعضاً ، وهذا هو السبب فى التعب والضرر ، لأن الإسلام لابد أن يؤخذ كله مرة واحدة.

إذن ﴿ **ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً** (٢٠٨) ﴾ (البقرة) يعنى : إياكم أن تتركوا حكماً من الأحكام ، إن الذى يتعب المتسببين إلى الدين الآن أننا نريد أن نلفق حياة إسلامية فى بلاد تأخذ قوانينها من بلاد غير إسلامية.

إذن : حتى ننجح فى حياتنا ، فلا بد أن نأخذ الإسلام كله ، وللأسف فإن كثيراً من حكام البلاد المسلمة لا يأخذون من الإسلام إلا آخر قول الله تعالى ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ** (٥٩) ﴾ (النساء) إنهم يأخذون ﴿ **أُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ** (٥٩)﴾ (النساء) ويتركون ﴿ **أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ** (٥٩)﴾ (النساء)

وأقول: لماذا تأخذون الأخيرة وتتركون ما قبلها ؟ إن الله لم يجعل لولى الأمر طاعة مستقلة ، بل قال : ﴿ **أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ** (٥٩)﴾ (النساء) ليدل على أن طاعة ولى الأمر من باطن طاعة الله وطاعة الرسول ، فنحن لا نريد تلفيقاً فى الإسلام ، خذوه كاملاً تستريحون أنتم ، ونستريح نحن معكم.

والحق سبحانه بعد أن أمرنا جميعاً بالدخول فى السلم بافعل ولا تفعل، حذرنا من اتباع الشيطان لأنه هو الذى يعمل على إبعادنا عن منهج الله ، فقال جل شأنه : ﴿**وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ** (٢٠٨)﴾ (البقرة)

فعداوته للإنسان عداوة مسبقة ، وقف من آدم موقف العداوة ، وبعد ذلك أقسم بعزة الله أن يغويكم جميعاً ، وما دام له معكم عداوة مسبقة فلن يأخذكم على غرَّة ، لأن الله نبهكم لتلك المسألة مع الخلق الأول.

﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ (١٧)﴾ (الأعراف)

فالشيطان يأتيهم من الأمام ، فهو يشككهم فى حكاية الآخرة ، ويشككهم فى البعث ، ويحاول أن يجعل الإنسان غير مقبل على منهج الله ، فيصير من الذين لا يؤمنون بلقاء الله ، ويشكُّون فى وجود دار أخرى سيُجَازى فيها المحسن بإحسانه ، والمسيء بإساءته.

والشيطان يأتى أيضاً من الخلف ، وخلف كل واحد منا ذريته ، يخاف ضيعتهم ، فيوسوس الشيطان للبعض بالسرقة أو النهب أو الرشوة من أجل بقاء مستقبل الأبناء ، وفساد أناس كثيرين يأتى من هذه الناحية ، ومثل هذا الفساد يأتى حين يبلغ بعض الناس منصباً كبيراً ، وقد كبرت سنُّه ، ويقبل على الله بشَرٍّ ، ويظن أنه يترك عياله بخير.

لكن ، إذا كنت تخاف عليهم حقاً فأمِّن عليهم فى يد ربهم ، ولا تُؤمِّن حياتهم فى جهة ثانية ﴿ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً (٩) ﴾ (النساء)

ويأتى الشيطان من اليمين ليزهد الناس ويصرفهم عن عمل الحسن والطاعة ، واليمين رمز العمل الحسن ، لأن كاتب الحسنات على اليمين ، وكاتب السيئات على الشمال ، ويأتى عن شمائلهم ليغريهم بشهوات المعصية.

ولكن الشيطان لا يأتى للإنسان من فوق ومن تحت ، لأن الفوقية هى الجهة التى يلجأ إليها مستغيثاً ومستجيراً بربه ، والتحتية هى جهة العبودية الخاصة ،

فالعبد أقرب ما يكون من ربه وهو ساجد ، فهو فى هاتين الحالتين محفوظ من تسلط الشيطان عليه ، فإن الله تعالى يقول : ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلاً (٦٥)﴾ (الإسراء)

ويقول الحق سبحانه : ﴿فَإِن زَلَلْتُم مِّنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٠٩)﴾ (البقرة)

والزلة هى المعصية ، وهى مأخوذة من "زال" ، وزال الشيء أى : خرج عن استقامته ، فكأن كل شيء له استقامة ، والخروج عنه يعتبر زللاً ، والزلل : هو الذنوب والمعاصى التى تخالف بها المنهج المستقيم.

ولقد جاءتكم البينات وبيَّنْتُ ووضحت لكم كل شيء ، ولم أترككم لعقولكم ، فلتستعملوها استعمالاً صحيحاً لتديروا حركة الكون الذى استخلفتكم فيه ، ومع ذلك إن أصابتكم الغفلة فأنا أرسل الرسل.

لقد رحم الله الخلق بإرسال الرسل ليبينوا للإنسان الطريق الصحيح من الطريق المعوج.

واعلموا أن الله عزيز حكيم ، فعِزَّته سبحانه أنه يغلب ولا يُغلب ، وهو سبحانه يدبر أمورنا برحمة وحكمة.

٧ إنفاق من رزق الله لنا

إنها دعوة للإنفاق من رزق الله الذى أعطانا إياه فهو الذى أعطى ، وهو الذى يدعو للإنفاق مما أعطى ، ومدة الدنيا هى الفرصة التى إن أفلتت منا فلن تعود ، حيث لا بيع تُربح فيه الأموال وتنمو ، وليس بعده صداقة أو شفاعة تردُّ عنهم عاقبة التقصير أو الإحجام عن الإنفاق فى سبيل الله .

يقول الحق سبحانه : ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلا خُلَّةٌ وَلا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ** (٢٥٤)﴾ (البقرة)

وكأن الحق سبحانه يقول : لا أطلب منكم أن تنفقوا علىّ ، ولكن أنفقوا من رزقى عليكم ، لأن الرزق يأتى من حركة الإنسان ، وحركة الإنسان تحتاج طاقة تتحرك فى شىء أو مادة ، وهذه الحركة تأتى على ترتيب فكر ، وهذا الفكر رتبه من خلقه ، والجوارح التى تنفعل ، واليد التى تتحرك ، والرِّجْل التى تمشى خلقها الله ، والمادة التى تفعل بها مخلوقة لله .

فالإنسان يعمل بالعقل الذى خلقه الله ، ويخطط بالجوارح التى خلقها الله لتأتى له بالطاقة التى يعمل بها فى المادة التى خلقها الله لتعطى للإنسان خيرها.. فأىُّ شىء للإنسان إذن ؟

ومع ذلك ، إن حصل للإنسان خير من هذا كله فهو سبحانه لا يقول : «إنه

لى» بل أمنحه لك أيها الإنسان ، ولكن أعطنى حقى فيه ، وحقى لن آخذه لى ولكن هو لأخيك المسكين ، والحق سبحانه يقول : ﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ (٥٧)﴾ (الذاريات)

وإياك أن تقول: وما دخلى أنا بالمسكين ؟ عليك أن تعلم أن المسكنة عَرَض، والعرض من الممكن أن يلحق بك أنت ، فلا تُقدِّر أنك مُعْط دائماً ، ولكن قَدِّر أنك ربما حدث لك ما يجعلك تأخذ ، لا أن تعطى.

الحق سبحانه يقول لك : أعط المسكين وأنت غنى، لأنه سبحانه سيقول للناس: أن يعطوك وأنت فقير، فقدِّر حكم الله ساعة يُطلب منك ، ليحميك ساعة أن يُطلب لك ، وبذلك تتوازن المسألة.

ومع أنه سبحانه هو الذى يرزق ، فهو يريد منكم أيها العباد أن تتعاونوا وأن يحب بعضكم بعضاً ، حتى تُمحى الضغائن من قلوبكم ، لأن الإنسان الضعيف ضعفاً طبيعياً ـ وليس ضعف التسول أو الكسل أو الاحتراف ، بل ضعف عدم القدرة على العمل ـ هو مسئولية المؤمنين ، فسبحانه وتعالى يجعل القوى مسئولاً أن يساعدك وأنت ضعيف.

وأنت حين ترى ـ وأنت ضعيف لا تقدر ـ الأقوياء الذين قدروا لم ينسوك ، وذكروك بما عندهم ، عندئذ تعلم أنك فى بيئة متساندة تحب لك الخير ، فإن رأيت نعمة تنالك إن عجزت فأنت لا تحسدها أبداً ، ولا تحقد على معطيها ، بل تتمنى من حلاوة وقعها فى نفسك ـ لأنها جاءتك عن حاجة ـ تتمنى لو أن الله قدرك لتردها ، فيكون المجتمع مجتمعاً متكافلاً متضامناً.

فحين يقول الله تعالى : ﴿ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ (٢٥٤) ﴾ (البقرة) ، فأنتم

لا تتبرعون لذات الله ، بل تنفقون مما رزقكم ، ومن فضل الله عليكم أنه احترم أثر عملكم ونسبه لكم حتى وإن احتاج أخوك.

والحق سبحانه يقول : ﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٤٥)﴾ (البقرة)

إن الحق سبحانه قد اعتبر النفقة فى سبيل الله قرضاً من العبد للرب الخالق الوهاب لكل رزق ، وينبهنا تعالى أن ننفق من رزق الله لنا من قبل أن يأتى اليوم الآخر الذى لا بيع فيه ، أى : لا مجال فيه لاستبدال أثمان بسلع أو العكس.

وأيضاً لا يكون فى هذا اليوم " خُلَّة " ومعنى "خُلَّة" هى الود الخالص، وهى العلاقة التى تقوم بين اثنين ، فيصير كل منهما موصولاً بالآخر بالمحبة ، لأن كلاً منكما منفصل عن الآخر ، وإن ربطت بينكما العاطفة ، وفى الآخرة سيكون كل إنسان مشغولاً بأمر نفسه.

إن اليوم الآخر ليس فيه بيع ولا شراء ، ولا فيه خُلَّة ولا شفاعة ، وهذه هى المنافذ التى يمكن للإنسان أن يستند عليها ، فأنت لا تملك ثمناً تشترى به ، ولا يملك غيرك سلطة فى الآخرة ، إذن : فهذا الباب قد سُدَّ. وكذلك لا يوجد خلة أو شفاعة .

وهذه الشفاعة مأذون فيها ، إن كانت ممن أذن له الله أن يشفع فهى فى يد الله ، ومعنى "شفيع" مأخوذ من الشفع والوتر، الوتر واحد والشفع اثنان ، فكأن الشفيع يضم صوته لصوتى لنقضى هذه الحاجة عند فلان ، فيتشفع الإنسان بإنسان له جاه عند المشفوع عنده حتى ينفذ له ما يطلب.

ولكن هذه الوسائل فى الآخرة غير موجودة ، فلا بيع ولا خُلَّة ولا شفاعة ،

فأنتم إذا أنفقتم اتقيتم ذلك اليوم ، فانتهزوا الفرصة من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خُلَّة ولا شفاعة .

وهذه هى أبواب النجاة المظنونة عند البشر التى تُغلق فى هذا اليوم العظيم، وكأن الحق سبحانه وتعالى يقول : أنا لم أُفوِّت فرصة على خَلْقى ، خلقى هم الذين ظلموا أنفسهم وأوقفوا أنفسهم هذا الموقف ، فأنا لم أظلمهم ، لذلك يُذيِّل الحق سبحانه الآية بقوله : ﴿**وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ** (٢٥٤)﴾ (البقرة)

□□□

٨ لماذا تمُنُّ بما أنفقتَ .. والمالُ ليس مالك ؟

أراد الإسلام بالإنفاق تهذيباً وتزكية وتطهيراً لنفس المعطى ، واستجاشة لمشاعره الإنسانية ، وارتباطه بأخيه الفقير فى الله وفى الإنسانية ، وأن ينفق من نعمة الله فى سبيل الله بغير مَنّ أو أذى ، فالمنُّ والأذى يمحقان الإنفاق ، ويمزقان المجتمع ، ويثيران الأحقاد والضغائن.

يقول الحق سبحانه : **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَىٰ كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لاَّ يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٢٦٤)﴾** (البقرة)

فالذى يتصدق ويُتبع صدقته بالمنِّ والأذى ، إنما يبطل صدقته ، وخسارته تكون خسارتين :

- الخسارة الأولى : أنه أنقص ماله بالفعل ، لأن الله لن يعوض عليه ، لأنه أتبع الصدقة بما يبطلها من المنِّ والأذى.

- والخسارة الأخرى : هى الحرمان من الثواب ، فالذى ينفق ليقول الناس عنه إنه ينفق ، عليه أن يعرف أن الحق يوضح لنا أنه يعطى الأجر على قاعدة أن الذى يدفع الأجر هو مَنْ عملتَ له العمل.

إن الإنسان على محدودية قدرته يعطى الأجر لمن عمل له عملاً ، والذى يعمل من أجل أن يقول الناس إنه عمل ، فليأخذ أجره من القدرة المحدودة للبشر .

ولذلك قال لنا رسول الله ﷺ عن الذى يفعل الحسنة أو الصدقة ليقال عنه إنه فعل ، فإنه يأتى يوم القيامة ولا يجد أجراً له :

« ورجل وسع الله عليه ، وأعطاه من أصناف المال كله ، فأتى به فعرَّفه نعمه فعرفها ، قال : فما عملتَ فيها ؟ قال : ما تركت من سبيل تحب أن يُنفق فيها إلا أنفقتُ فيها لك. قال : كذبت ولكنك فعلتَ ليقال : هو جواد فقد قيل. ثم أُمِر به فسُحِب على وجهه ثم أُلقِى فى النار » (١) .

فأنت إذا صنعتَ معروفاً تقصد به وجه الله عز وجل جزاك الله عنه خيراً ، ولكن إن عملت معروفاً لتحقق به مصلحة دنيوية خاصة بك ، أو تأخذ به شهرة فلا جزاء لك عند الله .

ولابد أن يصنع الإنسان المؤمن كل عمل وفى باله الله خالقه والمتفضل عليه بالنعم ، فإذا أطعمتَ فقيراً فلتطعمه لوجه الله ، وعليك ألا تفعل المروءة من أجل أن يقال عنك : إنك صاحب مروءة.

ومن يفعلون الخير عليهم أن يحرصوا على أن يكون الله عز وجل فى بالهم ، لا أن ينالوا شهرة من هذا الخير ، وألا يأتى منهم هذا الخير لا بمقال ولا بحال ، وعلى سبيل المثال تلك اللافتات التى تُوضع على المساجد بأسماء من قاموا بتأسيسها ، والله عليم بكل شىء ، يعلم اسم من أقام البناء.

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٩٠٥) ، وأحمد فى مسنده (٢/ ٣٢٢) ، والنسائى فى سننه (٦/ ٢٣، ٢٤) من حديث أبى هريرة رضي الله عنه.

وعليك إذا بنيت مسجداً أن تسميه بأى اسم لا يمت لك بصلة ، حتى لا تدخل فى دائرة "عملت ليقال وقد قيل".

وحتى المقاتل الذى يحارب بين صفوف المؤمنين عليه أن يعقد النية لله ، لا أن يقاتل من أجل أن يقال إنه شجاع ، لأنه إن فعل حبط عمله ، وكان من الخاسرين ، لأن عمله قد شابه الرياء.

ولا يهز المجتمعات ولا يزلزلها ويهدُّها إلا هذه المراءاة ، لأن الحق سبحانه يحب أن يؤدى المسلم كل عمل جاعلاً الله فى باله ، وهو الذى لا تخفى عليه خافية.

ولذلك تجد الرسول ﷺ ينقل لنا حال المرائى للناس فيقول : «إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر ، قالوا : وما الشرك الأصغر يارسول الله ؟ قال : الرياء».

يقول الله عز وجل يوم القيامة إذا جازى العباد بأعمالهم : اذهبوا إلى الذين كنتم تراءون فى الدنيا ، فانظروا هل تجدون عندهم الجزاء ؟

وقال ﷺ : « إن المرائى يُنادَى عليه يوم القيامة : يا فاجر ، يا غادر ، يا مرائى ، ضَلَّ عملك وحبط أجرك ، فخذ أجرك ممن كنت تعمل له ».

فالمرائى إنما يخدع نفسه ، فهو يتظاهر بالصلاة ليراه الناس ، ويُزكِّى ليراه الناس ، ويحج ليراه الناس ، هو يعمل ما أمره الله به ، لكنه لا يعمل لله .

والحق سبحانه يقول عن هؤلاء الذى ينفقون مثلاً رئاء الناس : ﴿ **وَالَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا (٣٨)** ﴾ (النساء)

إنه يريد بالإنفاق مراءاة الناس.

ولذلك يقول العارفون بفضل الله : اختر مَنْ يُثمِّن عطاءك ، فأنت عندما تعطى شيئًا لإنسان فهو يُثمِّن هذا الشىء بإمكاناته وقدراته ، سواء بكلمة ثناء يقولها مثلاً أو بغير ذلك ؟ لكن العطاء لله كيف يُثمِّنه سبحانه ؟ لا بد أن يكون الثمن غالياً.

إذن : فالعاقل ينظر لمن سيعطى النعمة ، ولنا الأسوة فى سيدنا عثمان ﷺ عندما علم التجار أن هناك تجارة آتية له ، جاء كل التجار ليشتروا منه البضاعة ثم يبيعوها ليربحوا ، وقال لهم : جاءنى مَنْ يعطينى أكثر من ثمنكم ، وفى النهاية قال لهم : أنا بعتها لله .

إذن : فقد تاجر سيدنا عثمان ﷺ مع الله ، فرفع من ثمن بضاعته فالذى يعطى رئاء الناس نقول له : أنت خائب ، لأنك ما ثمَّنت نعمتك ، بل ألقيتها تافهة الثمن ، ماذا سيفعل لك الناس ؟ هم قد يحسدونك على نعمتك ويتمنون أن يأخذوها منك ، فلماذا ترائيهم ؟

إذن : فهذه صفقة فاشلة خاسرة ، ولذلك قال الحق : ﴿**إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ** (١١١)﴾ (التوبة)

وما دام سبحانه هو الذى اشترى فلابد أن الثمن كبير ، لأنه يعطى النعيم الذى ليس فيه أغيار ، ففى الجنة لا تفوت النعمة مؤمناً ، ولا هو يفوتها ، فالذى يرائى الناس خاسر ، ولا يعرف أصول التجارة ، لأنه لم يعرف طعم التجارة مع الله.

ولذلك شبَّه عمله فى آية أخرى بقوله : ﴿**كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا** (٢٦٤)﴾ (البقرة)

والصفوان هو المروة ، وجمعه مرو ، وهى حجارة بيض براقة ، والمروة ناعمة وليست خشنة ، لكن بها بعض الثنايا يدخل فيها التراب ، ولأن المروة ناعمة جداً ، فقليل من الماء - ولو كان رذاذاً - يذهب بالتراب.

والذى ينفق ماله رئاء الناس هو من تتضح له قضية الإيمان ، ولكن لم يثبت الإيمان فى قلبه بعد ، فلو كنت تعلم أنك تريد أن تبيع سلعة وهناك تاجر يعطيك فيها ثمناً أعلى ، فلماذا تعطيها للأقل ثمناً ؟

إنك إن فعلتَ فقد خِبْتَ وخسرت ، فأوضح لك الحق : ما دمت تريد رئاء الناس ، إذن : فأنت ليس عندك إيمان بالذى يشترى بأغلى ، فتكون فى عالم الاقتصاد تاجراً فاشلاً.

ولذلك قلنا : ليحذر كل واحد حين يعطى أن يخاف من العطاء ، فالعطاء يستقبله الله بحُسن الأجر ، ولكن عليه ألا يعطى بضجيج ودعاية تفضح عطاءه.

ولذلك قال النبى ﷺ ضمن السبعة الذين يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله : « رجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه» (١)

إن العبد الصالح حين يعطى فهو يعلم أن يده هى العليا ، ويده خير من اليد السفلى ، فليستر على الناس المحتاجين سفلية أيديهم ، ولا يجعلها واضحة.

ولكن الحق سبحانه وتعالى لا يريد أن يضيق مجال العطاء ، فقال : ﴿**إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٢٧١)**﴾ (البقرة)

---

(١) متفق عليه . أخرجه البخاري فى صحيحه (٦٦٠) ، ومسلم فى صحيحه (١٠٣٠) من حديث أبى هريرة رضي الله عنه .

فإبداء الصدقات لا مانع منه إن كان من يفعل ذلك يريد أن يكون أسوة ، المهم أن يخرج الرياء من القلب لحظة إعطاء الصدقة ، فالحق يوضح : إياك أن تنفق وفيك رئاء ، أما من يُخرج الصدقة وفى قلبه رياء ، فالله لا يحرم المحتاجين من عطاء مُعْطٍ ، لأنه سبحانه يؤكد : خذوا منه وهو الخاسر ، لأنه لن يأخذ ثواباً ، لكن المجتمع ينتفع.

وإياك أن تطلب جزاء الخير الذى تفعله مع المحتاجين من المساكين واليتامى وأبناء السبيل ، ولكن اطلبه من الله ، وإياك أن تحاول أن يعلم الناس عنك أنك منفق على هؤلاء ، لأن الذين تريدهم أن يعلموا لا يقدرون لك على جزاء ، وعلمهم لن يزيدك شيئاً ، وحسبك أن يعلم الله الذى أعطاك ، والذى أعطيت مما استخلفك فيه ابتغاء مرضاته.

فحين ينفق الناس لمرضاة الناس يلقون من بعد ذلك النكران والجحود فيكون من أعطى قد خسر ما أنفق ، واستبقى الشر ممن أنفقه عليهم .

ولو أن الإنسان المسلم قصد بالإنفاق وعمل الخير مرضاة الخالق الأعلى عز وجل لاستبقى ما أنفق من حسنات وثواب ليوم القيامة ، ولسخَّر الله له قلوب من تصدق عليهم بالمحبة والوفاء بالمعروف ، وهذه عدالة من الله تتجلى فى أنه يفعل مع المرائين ذلك ، لأنهم يعطون وفى بالهم أنهم أعطوا له ، ولو أعطوا لله لما أنكر الآخذ جميل العطاء ، أنت أعطيته لمرضاته هو ، فكأن الله يقول لك : سأتركك له ليجازيك .

ولهذا كان المتصدِّق فى السر من السبعة الذين يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله ، فمنهم « رجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه » وهذا هو الأفضل فى صدقة التطوع ، وأما الزكاة الواجبة فإعلانها

أفضل ، وكذلك الحال بالنسبة للصلاة ، فالفريضة يكون إعلانها أفضل ، أما النافلة فيكون إسرارها أفضل .

لكن لو عملت وفى بالك الله فستجد أثر العطاء فى وفاء مَنْ أخذ ، فإياكم أن تحاولوا ولو من طرف خفى أن يعلم الناس أنكم تفعلون الخير.

ويقول الحق سبحانه فى آية أخرى : ﴿**الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لا يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنًّا وَلا أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٦٢)**﴾ (البقرة)

إياك حين تنفق مالك فى سبيل الله وأنت طامع فى عطاء الله ، أن تمنَّ على من تعطيه أو تؤذيه ، والمنّ هو أن يعتد على من أحسن إليه بإحسانه ويريه أنه أوجب عليه حقاً له ، وأنه أصبح صاحب فضل عليه ، وكما يقولون فى الريف (تعاير بها).

والشاعر يقول :

وإن امرءاً أسدى إلىَّ صنيعة   وذكَّرنيها مرة للئيم

ولذلك ، فمن الأدب الإيمانى فى الإنسان أن ينسى أنه أهدى وينسى أنه أنفق ، ولا يُطلع أحدًا من ذويه على إحسانه على الفقير ، أو تصدُّقه عليه ، وخاصة الصغار الذين لا يفهمون حكمة الله فى الأشياء ، فعندما يعرف ابنى أننى أعطى لجارى كذا ، ربما دلَّ ابنى ومَنَّ على ابن جارى ، ربما أخذه غروره فعيَّره هو ، ولا يمكن أن يُقدِّر هذا الأمر إلا مُكلَّف يعرف الحكم بحيثيته من الله.

إن الحق سبحانه يوضح لنا : إياك أن تُتبع النفقة مناً أو أذى ، لأنك إن

أتبعتها بالمنِّ ، ماذا يكون الموقف ؟ يكرهها المعطى الذى تصدقت بها عليه ويتولد عنده حقد ، ويتولد عنده بغض ، ولذلك حينما قالوا : « اتق شر من أحسنت إليه» شرحوا ذلك بأن اتقاء شر ذلك الإنسان بألاَّ تذكره بالإحسان ، وإياك أن تذكره بالإحسان ، لأن ذلك يُولِّد عنده حقداً.

ولذلك تجد كثيراً من الناس يقولون : كم صنعتُ بفلان وفلان الجميل. هذا كذا وهذا كذا ، ثم خرجوا علىَّ فأنكروه ، وأقول لكل من يقول ذلك : ما دمت تتذكر ما أسديته إليهم فمن العدالة من الله أن ينكروه ، ولو أنك عاملت الله لما أنكروه ، فما دمت لم تعامل الله فإنك تقابل بنكران ما أنفقت.

وانظر إلى الدقة الأدائية فى قوله الكريم : ﴿ **ثُمَّ لا يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنًّا وَلا أَذًى** ﴾ (البقرة) قد يستقيم الكلام لو جاء كالآتى : الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله ، ولا يتبعون ما أنفقوا مناً ولا أذى .

لكن الحق سبحانه قد جاء بـ "ثم" هنا ، لأن لها موقعاً ، إن المنفق بالمال قد لا يمنُّ ساعة العطاء ، ولكن قد يتأخر المنفق بالمنِّ ، فكأن الحق سبحانه وتعالى ينبه كل مؤمن : يجب أن يظل الإنفاق غير مصحوب بالمنِّ ، وأن يبتعد المنفق عن المنِّ دائماً ، فلا يمتنع عن المنِّ فقط وقت العطاء ، ولكن لا بد أن يستمر عدم المنِّ حتى بعد العطاء وإن طال الزمن.

إن "ثم" تأتى فى هذا المعنى لوجود مسافة زمنية تراخى فيها الإنسان عن فعل المنّ ، فالحق يمنع المنَّ منعاً متصلاً متراخياً ، لا ساعة العطاء فحسب ، ولكن بعد العطاء أيضاً.

ويُطمئن الحق سبحانه مَنْ ينفقون أموالهم دون مَنٍّ ولا أذى فى سبيل الله بأن لهم أجراً عند ربهم. وكلمة "الأجر" هى طمأنة إلى أن الأمر قد أُحيل إلى موثوق بأدائه ، وإلى قادر على هذا الأداء. أما الذى يمنُّ أو يؤذى فقد أخذ

أجره بالمن أو الأذى ، وليس له أجر عند الله ، لأن الذى يَمنُّ أو يؤذى لم يتصور رب الضعيف ، وإنما تصور الضعيف.

والمنفق فى سبيل الله حين يتصور رب الضعيف ، وأن رب الضعيف هو الذى استدعاه إلى الوجود ، وهو الذى أجرى عليه الضعف ، فهو يؤمن أن الله هو الكفيل برزق الضعيف ، وحين ينفق القوى على الضعيف فإنما يؤدى عن الله.

ولذلك نجد فى أقوال المقربين : "إننا نضع الصدقة فى يد الله قبل أن نضعها فى يد الضعيف" ، ولننظر ما فعلته سيدتنا فاطمة بنت رسول الله ﷺ ، لقد راحت تجلو الدرهم وتُطيِّبه ، فلما قيل لها : ماذا تصنعين ؟ قالت : أجلو درهماً وأُطِّيبه لأنى نويت أن أتصدق به. فقيل لها: أتتصدقين به مجلواً ومُعطَّراً؟

قالت الزهراء بنت رسول الله ﷺ : لأنى أعلم أنه يقع فى يد الله قبل أن يقع فى يد الفقير. إن الأجر يكون عند من يُغليه ويُعليه ويرتفع بقيمته ، وهو الخالق الوهاب.

والحق سبحانه يقول ﴿**قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ** (٢٦٣)﴾ (البقرة)، فالمنّ يجعل الآخذ فى ذلة وانكسار ، ويريد المعطى أن يكون فى عزة العطاء وفى استعلاء المنفق ، فهو يقول : إنك إنْ فعلتَ ذلك ستتعدى الصدقة منك إلى الغير فيفيد ، ولكنك أنت الخاسر ، لأنك لن تفيد بذلك شيئاً ، وإنْ كان قد استفاد السائل.

إذن : فحرصاً على نفسك لا تُتبع الصدقة بالمنِّ والأذى.

٩ الإنفاق يكون من الحلال الطيب

الله غنىٌّ عن الخبيث الذى تقصدون إليه فتُخرجون منه صدقاتكم ، فالكفَّ عن الإنفاق أو التقدُّم بالردىء الخبيث إنما ينشأ عن دوافع السوء ، وعن تزعزع اليقين فيما عند الله ، وعن الخوف من الإملاق الذى لا يساور نفساً تتصل بالله ، وتعتمد عليه وتدرك أنَّ مردَّ ما عندها إليه.

يقول الحق سبحانه : ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَلا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلاَّ أَن تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (٢٦٧)**﴾ (البقرة)

الحق سبحانه يعالج هنا مظهرًا من مظاهر الشُّحِّ فى النفس البشرية، فالإنسان قد يحب أن يعطى ، ولكنه حين تمتد يده إلى العطاء يعزُّ عليه إنفاق الجيد من ماله الحسن ، فيستبقيه لنفسه ، ثم يعزل الأشياء التى تزهد فيها نفسه ليُقدِّمها صدقةً ، فينهانا سبحانه عن ذلك .

فيقول : ﴿**وَلا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلاَّ أَن تُغْمِضُوا فِيهِ (٢٦٧)**﴾ (البقرة)

أى: إن مثل هذا لو أُعطى لك لَمَا قبلته إلا أن تُغمِض وتتسامح فى أخذه ، وكأنك لا تبصر عيبه لتأخذه ، فما لم تقبله لنفسك فلا يصح أن تقبله لسواك.

إن هذه الآية تعطى صوراً تحدث فى المجتمع البشرى ، وكانت هذه الصور تحدث فى مجتمع المدينة بعد أن أسس فيها رسول الله ﷺ دولة الإسلام ، فبعض من الناس كانوا يحضرون العِذْق من النخل ويعلقه فى المسجد من أجل أن يأكل منه من يريد.

والعذق هو فرع قوى من النخل يضم الكثير من الفروع الصغيرة المعلقة عليها ثمار البلح ، وكان بعضهم يأتى بعذق غير ناضج أو بالحشف وهو أردأ التمر ، فأراد الله أن يجنبهم هذا الموقف ، حتى لا يجعلوا لله ما يكرهون ، فأنزل هذا القول الحكيم :

﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ** (٢٦٧)﴾ (البقرة)

إن الإنفاق يجب أن يكون من الكسب الحلال الطيب ، فلا تأتى بمال من مصدر غير حلال لتنفق منه على أوجه الخير ، فالله طيب لا يقبل إلا طيباً ، ولا يكون الإنفاق من رذال ورديء المال.

ويحدد الحق سبحانه وتعالى وسيلة الإنفاق من عطائه ، فيقول : ﴿ **وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الأَرْضِ** (٢٦٧)﴾ (البقرة) ، وهو سبحانه يذكرنا دائماً حين يقول : ﴿ **أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ** (٢٦٧)﴾ (البقرة)

ألاّ نظن أن الكسب هو الأصل فى الرزق ؟ لا ، إن الكسب هو حركة موهوبة لك من الله ، إنك أيها العبد إنما تتحرك بطاقة موهوبة لك من الله ، وبفكر ممنوح لك من الله ، وفى أرض سخرها لك الله ، إنها الأدوات المتعددة التى خصَّك بها الله ، وليس فيها ما تملكه أنت من ذاتيتك ، ولكن الحق يُقدِّر حركة الإنسان وسعيه إلى الرزق ، فيقول ﴿ **أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ** (٢٦٧)﴾ (البقرة)

ويحذرنا الحق من أن نختار الخبيث وغير الصالح من نتاج عملنا لننفق منه بقوله سبحانه : ﴿ وَلا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ (٢٦٧) ﴾ (البقرة)

أي : لا يصح ولا يليق أن نأخذ لأنفسنا طيبات الكسب ونعطي الله رديء الكسب وخبيثه ، لأن الواحد منا لا يرضى لنفسه أن يأخذ لطعامه أو لعياله هذا الخبيث غير الصالح لننفق منه أو لنأكله.

﴿وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلاَّ أَن تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (٢٦٧) ﴾ (البقرة). أي : أنك أيها العبد المؤمن لن ترضى لنفسك أن تأكل من الخبيث إلا إذا أغمضت عينيك ، أو تم تنزيل سعره لك ، كأن يعرض عليك البائع شيئاً متوسط الجودة أو شيئاً رديئاً بسعر يقل عن سعر الجيد.

لقد أراد الحق سبحانه وتعالى أن يوضح لنا بهذه الصور أوجه الإنفاق :

- إن النفقة لا تنقص المال ، وإنما تزيده سبعمائة مرة.
- إن النفقة لا يصح أن يبطلها الإنسان بالمنِّ والأذى.
- إن القول المعروف خير من الصدقة المتبوعة بالمنِّ والأذى.
- إن الإنفاق لا يكون رئاء الناس إنما يكون ابتغاء لمرضاة الله.

والإنفاق من الرديء والخبيث ومن أرذل ما عندنا هو نوع من البخل ، والحق سبحانه يقول : ﴿ وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١٨٠) ﴾ (آل عمران)

ما معنى البخل ؟ إنه مشقة الإعطاء ، فعندما يقطع حاجة من خاصة ماله ليعطيها لغيره يجد في ذلك مشقة ولا يقبل عليها ، لكن الكريم عنده بَسْط يد وأريحية ، ويرتاح للمعروف.

إذن : فالبخل معناه مشقة الإعطاء ، وقد يتعدى البخل ويتجاوز الحد بضنٍّ الشخص بالشيء الذى لا يضر بذله ولا ينفع منعه ، لأنه لا يريد أن يعطى. وهذا البخل والشح يكون فى نفس البخيل ، لأنه أولاً قد بخل على نفسه ، فإذا كان قد بخل على نفسه ، أتريد أن يجود على الناس ؟

والشاعر يصور بخيلاً اسمه "عيسى" ويريد أن يذمه ، لأنه بخيل جداً، ويظهر صورة البخل بأنه ليس على الناس فقط ، بل على نفسه أيضاً ، فيما لا يضره بذله ، ولا ينفعه منعه ، وما دام يقتر على نفسه فسيكون تقتيره على غيره أمراً متوقعاً :

يُقتِّر عيسَى عَلَى نَفْسِه ... ولَيْسَ بِبَاقٍ وَلاَ خَالِد
فَلَوْ يَسْتَطِيعُ لِتَقْتِيرِه ... تنفَّسَ مِنْ مَنْخَرٍ وَاحِد

إنه بخيل لدرجة أنه يفكر لو استطاع أن يتنفس من فتحة أنف واحدة لفعل ، حتى لا يتنفس بفتحتى أنفه.

إذن : فالبخيل هو مَنْ يضيق بالإعطاء ، حتى أنه يضيق بإعطاء شىء لا يضره أن يبذله ، ولا ينفعه أن يمنعه.

ويقول الحق سبحانه عن البخلاء : ﴿ **وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١٨٠)** ﴾ (آل عمران)

فالذين يبخلون بفضل الله يظنون أن البخل خير لمجرد أنه يكدس عندهم الأموال ، وليس ذلك صحيحاً ، فما بخلوا به يصنعه الله طوقاً فى رقبة البخيل ، وساعة يرى الناس الطوق فى رقبة البخيل يقولون : هذا منع حق الله فى ماله.

فالحق يجعل للبخيل ما بخل به طوقاً حول عنقه ، ولو أن البخيل قد بذل

قليلاً لكان الطوق خفيفاً حول رقبته يوم القيامة ، لكن البخيل كلما منع نفسه من العطاء ازداد الطوق ثِقَلاً.

والرسول ﷺ يصور هذه المسألة تصويراً دقيقاً حين يبين لنا أن من يُطلب منه حق الله ولم يؤده يتمثل المال الذى منعه وضَنَّ وبخل به لصاحبه يوم القيامة "شجاعاً أقرع" ، وهو ثعبان ضخم يطوق رقبته.

قال رسول الله ﷺ : « من آتاه الله مالاً فلم يؤد زكاته مُثّلَ له شجاعاً أقرع له زبيبتان يطوقه يوم القيامة يأخذ بلهزمتيه - يعنى شدقيه - يقول : "أنا مالك ، أنا كنزك» (١) ثم تلا قوله تعالى :

﴿ **وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ** (١٨٠) ﴾ (آل عمران)

ثم يقول سبحانه : ﴿**وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ** (١٨٠) ﴾ (آل عمران)

نعم ، فلله ميراث السموات والأرض ، ثم يضعها فيمن يشاء ، فكل ما فى الكون نسبته إلى الله ، ويوزعه الله كيفما شاء ، إن الإيمان يدعونا ألا ننتظر بالصدقة إلى حالة بلوغ الروح الحلقوم.

رُوِى عن أبى هريرة رضي الله عنه أنه قال : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، أى الصدقة أعظم ؟ قال : «أن تَصدَّق وأنت صحيح شحيح، تخشى الفقر ، وتأمل الغِنى ، ولا تمهل ، حتى إذا بلغت الحلقوم قلت : لفلان كذا وكذا ، وقد كان لفلان» (٢)

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٢/ ٢٣١ ، ٢٥٠) ، ومسلم فى صحيحه (١٠٣٢) كتاب الزكاة من حديث أبى هريرة.

(٢) حديث متفق عليه. أخرجه البخارى في صحيحه (٤٦٨١ ، ٧٤١٩)، ومسلم فى صحيحه (٩٩٣)، وأحمد في مسنده (٢/ ٢٤٢ ، ٣١٣ ، ٥٠٠) من حديث أبى هريرة رضي الله عنه.

لأنه عند وصول الروح إلى الحلقوم لا يكون له مال.

﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١٨٠) ﴾ (آل عمران)، وهى قضية تجعل القلب يرتجف خوفاً ورعباً ، فقد يدلس الإنسان على البشر ، فتجد من يتهرب من الضرائب ويصنع تزويراً دفترين للضرائب ، واحداً للكسب الصحيح ، وآخر للخسارة الخاطئة ، ويكون هذا المتهرب من الضرائب يملك المال ثم ينكر ذلك، هذا الإنسان عليه أن يعرف أن الله خبير بكل ما يعمل.

ويقول رب العزة سبحانه فى الحديث القدسى : "أنْفق أُنْفق عليك". وقال: «يَدُ الله ملأى ، لا تغيضها نفقة ، سحاء الليل والنهار ». وقال : «أرأيتُم مَا أنفقَ منذ خلق السماء والأرض ، فإنه لم يَغضْ ما فى يده ، وكان عرشه على الماء ، وبيده الميزان ، يَخْفض ويَرْفَع»(١)

والله فضله واسع ، وعطاؤه لا حدود له ، ولذلك يقول رب العزة سبحانه:

﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٦١)﴾ (البقرة)

فالإنفاق فى سبيل الله يردُّه الله مضاعفاً ، ومادام الله يضاعفه فهو يزيد ، لذلك لا تحزن ولا تخَفْ على مالك ، لأنك أعطيته لمقتدر قادر واسع عليم.

إنه الحق الذى يقدر على إعطاء كل واحد حسب ما يريد هو سبحانه ، إنه يعطى على قدر نية العبد وقدر إنفاقه ، إنه كثير العطاء ، وعطاؤه سبحانه غير مقطوع ولا ممنوع ، فالمنفقون أجرهم عند الله أضعاف مضاعفة ، وهو أجر ليس بقدرات البشر ، ولكنه بقدرة الله سبحانه.

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٦٨١ ، ٧٤١٩) ، ومسلم فى صحيحه (٩٩٣) وأحمد فى مسنده (٢/ ٢٤٢ ، ٣١٣ ، ٥٠٠) من حديث أبى هريرة ﷺ.

يقول الحق سبحانه : ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾ (المائدة)

فالحق سبحانه عنده من السعة ما يعطى الكل ، وسبحانه واسع عليم ، والحديث القدسى يقول : « يا عبادى ، لو أن أولكم وآخركم ، وإنسكم وجنكم ، قاموا فى صعيد واحد ، فسألونى ، فأعطيت كل إنسان مسألته ، ما نقص ذلك مما عندى إلا كما ينقص المخيط إذا أُدْخِل البحر .

يا عبادى .. إنما هى أعمالكم أحصيها لكم ، ثم أوفيكم إياها ، فمن وجد خيراً فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه »(١)

إذن : فخزائن الله ملأى ، لا تنفد ، وسعة الحق مطلقة ، وهو سبحانه يرزق بغير حساب ، لأنه لا توجد سلطة أعلى منه تقول له : لماذا أعطيتَ فلاناً أكثر مما يستحق ؟

يرزق بغير حساب ، لأنه لا يحكمه قانون ، وإنما يعطى بطلاقة القدرة ، فخزائنه لا تنفد ، إن قدرته جَلَّ وعَلا تتسع لعطائنا جميعاً دون أن ينقص شىء من عنده ، فهو عطاء من لا ينفد ما عنده ، فهو يعطيك ويعطى الآخرين ، ولا ينقص مما عنده شىء.

والمؤمن يعلم أن عطاء الله لواحد لا يمنع أن يعطى الآخر ، ولو أعطى سبحانه كل واحد مسألته ما نقص ذلك مما عنده ، إلا كما ينقص المخيط إذا غُمِس فى البحر.

□□□

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٥/ ٧٧ ، ١٥٤) ، والترمذى فى سننه (٢٤٩٥)، وابن ماجه فى سننه (٤٢٥٧) من حديث أبى هريرة ﷺ.

١٠ ربانية النظام الاقتصادى فى الإسلام

الربا عملية تصطدم ابتداء مع قواعد التصور الإيمانى إطلاقًا ، ونظام يقوم على تصور آخر ، تصور لا نظر فيه لله سبحانه وتعالى، ومن ثَمَّ لا رعاية فيه للمبادئ والغايات والأخلاق التى يريد الله للبشر أن تقوم حياتهم عليها .

الربا يقوم ابتداء على أساس أن لا علاقة بين إرادة الله وحياة البشر ، والفرد حر فى وسائل حصوله على المال وفى طرق تنميته ، فلا اعتبار لأن يتأذى الملايين إذا هو أضاف إلى خزانته ورصيده ما يستطيع إضافته ، أما ديننا فغير هذا.

يقول الحق سبحانه فى كتابه الكريم : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٢٧٨)** ﴾ (البقرة)

الحق سبحانه وتعالى يريد أن يطهر حياة الاقتصاد للناس طهارة تضمن حِلّ ما يطعمون ، وما يشربون ، وما يكتسبون ، حتى تصدر أعمالهم عن خليات إيمانية طاهرة مصفاة ، ذلك أن الشىء الذى يصدر عن خلية إيمانية طاهرة مصفاة لا يمكن أن ينشأ عنه إلا الخير.

ومن العجيب أن نجد القوم الذين صدَّروا لنا النظام الربوى يحاولون الآن

جاهدين أن يتخلصوا منه ، لا لأنهم ينظرون إلى هذا التخلص على أنه طهارة دينية ، ولكن لأنهم يرون أن كل شرور الحياة ناشئة عن هذا الربا .

وليست هذه الصيحة حديثة العهد بنا ، فقديمًا - أى : من عام ألف وتسعمائة وخمسين - قام رجل الاقتصاد العالمى «شاخت» فى ألمانيا ، وقد رأى اختلال النظام فيها وفى العالم ، فوضع تقريره بأن الفساد كله ناشئ من النظام الربوى ، وأن هذا النظام يضمن للغنى أن يزيد غنىً.

وما دام هذا النظام قد ضمن للغنى أن يزيد غنىً ، فمن أين يزداد غنىً ؟

لا شك أنه يزداد غنىً من الفقير ، إذن: فستئول المسألة إلى أن المال سيصبح فى يد أقلية فى الكون تتحكم فى مصائره كلها ، ولاسيما المصائر الخُلُقية ؟ لماذا؟

لأن الذين يحبون أن يستثمروا المال لا ينظرون إلا إلى النفعية المالية ، فهم يديرون المشروعات التى تحقق لهم تلك النفعية ، وهناك رجل اقتصاد آخر هو «كينز» الذى يتزعم فكرة «الاقتصاد الحر» فى العالم يقول قولته المشهورة : إن المال لا يؤدى وظيفته فى الحياة إلا إذا انخفضت الفائدة إلى درجة الصفر ، ومعنى ذلك أنه لا ربا.

وإذا ما نظرنا إلى عملية عقد الربا فى ذاتها وجدناها عقدًا باطلاً ؛ لأن كل عقد من العقود إنما يوجد لحماية الطرفين المتعاقدين ، وعقد الربا لا يحمى إلا الطرف الدائن فقط ، وهناك أمر خُلُقى آخر ، وهو أن الإنسان لا يعطى ربًا إلا إذا كان عنده فائض زائد على حاجته.

ولا يأخذ إنسان من المرابى إلا إذا كان محتاجًا ، فانظروا إلى النكسة الخلقية فى الكون ، إن المعدم الفقير الذى لا يجد ما يسد جوعه وحاجته يُضطر إلى الاستدانة ، وهذا الفقير المعدم هو الذى يتكفل بأن يعطى الأصل والزائد إلى الغنى غير المحتاج.

إنها نكسة خلقية تُوجد فى المجتمع ضِغْنًا ، وتُوجِد فى المجتمع حقدًا ، وتقضى على بقية المعروف وقيمته بين الناس ، وتنعدم المودة فى المجتمع ، فإذا ما رأى إنسان فقير إنساناً غنيًا عنده المال ، ويشترط الغنى على الفقير المعدم أن يعطيه ما يأخذه وأن يزيد عليه ، فعلى أية حال ستكون مشاعر وأحاسيس الفقير؟

كان يكفى الغنى أن يعطى الفقير ، وأن يسترد الغنى بعد ذلك ما أخذه الفقير ، ولكن الغنى المرابى يطلب من الفقير أن يسدد ما أخذه ويزيد عليه ، وكانوا يتعللون ويقولون : إن النص القرآنى إنما يتكلم عن الربا فى الأضعاف المضاعفة ، فإذا ما منعنا القيد فى الأضعاف المضاعفة لا يكون حرامًا.

أى: أنهم يريدون تبرير إعطاء الفقير مالاً ، وأن يرده أضعافًا فقط لا أضعافًا مضاعفة ، حتى لا يصير ذلك الاسترداد بالزيادة حراماً . ولهؤلاء نقول: إن الذين يقولون ذلك يحاولون أن يتلصصوا على النص القرآنى ، وكأن الله قد ترك النص ليتلصصوا عليه ويسرقوا منه ما يشاءون دون أن يضع فى النص ما يحول دون هذا التلصص.

والحق سبحانه يقول: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** (١٣٠) ﴾ (آل عمران) ، فهذا القول الحكيم لم يجئ إلا ليبين الواقع الذى كانوا يعيشونه ، ولم يستثن الله ضعفًا أو أضعافًا ؛ لأن الحق جعل التوبة تبدأ من أن يأخذ الإنسان رأس ماله فقط ، فلا يسمح الله لأحد أن يأخذ نصف الضعف ، أو الضعف ، أو الضعفين ، ولا يسمح بالأضعاف ولا بالمضاعفات.

وكانوا يتعللون أن اتفاق الطرفين على أى أمر يعتبر تراضيًا ويعتبر عقدًا ،

قد يكون ذلك صحيحًا إن لم يكن هناك مشرع أعلى من كل الخلق يسيطر على هذا التراضى ، فهل كلما تراضى الطرفان على شىء يصير حلالاً؟

لو كان الأمر كذلك لكان الزنا حلالاً ؛ لأنهما طرفان قد تراضيا ، وكل ذلك لا يتأتى - أى رضاء الطرفين - إلا فى الأمور التى ليس فيها تشريع صادر عن المشرع الأعلى ، وهو الله الحى القيوم .

إن الله قد فرض أمرًا يقضى على التراضى بينى وبينك ، لأنه هو المسيطر ، وهو الذى حكم فى الأمر ، فلا تراضى بيننا فيما يخالف ما شرع الله أو حكم فيه.

وإذا نظرنا نظرة أخرى فإننا نجد أن التراضى الذى يدّعونه مردود عليه ، إنه تراضٍ باطل بالفحص الدقيق والبحث المنطقى ، لماذا ؟ لأننا نقول: إن التراضى إنما ينشأ بين اثنين لا يتعدى أمرُ ما تراضيا عليه إلى غيرهما ، أما إذا كان الأمر قد تعدى ما تراضيا عليه إلى غيرهما ، فالتراضى باطل.

فهب أن واحدًا لا يملك شيئًا ، وواحد آخر يملك ألفًا ، والذى يملك ألفًا هى ملكه ، وأدار بها عملاً من الأعمال ، وحين يدير صاحب الألف عملاً ، فالمطلوب له أجر عمله ليعيش من هذا الأجر ، أما الذى لا يملك شيئًا إذا ما أراد أن يعمل مثلما عمل صاحب الألف ، فذهب إلى إنسان وأخذ منه ألفًا ليعمل عملاً كعمل صاحب الألف ، فيشترط من يعطيه هذه الألف من الأموال أن يزيده مائة حين السداد ، فيكون المطلوب من الذى اقترض هذه الألف أجر عمله كصاحب الألف الأول ، ومطلوب منه أيضًا أن يزيد على أجره تلك المائة المطلوبة لمن أقرضه بالربا .

فمَن أين يأتى من اقترض ألفًا بهذه المائة الزائدة ؟ إن سلعته لو كانت

تساوى سلعة الآخر فإنه يخسر ، وإن كانت سلعته أقل من سلعة الآخر فإنها تكسد وتبور.

إذن : فلابد له من الاحتيال النكد ، وهذا الاحتيال هو أن يخلع على سلعته وصفًا شكليًا يساوى به سلعة الآخر ، ويعمد إلى إنقاص الجواهر الفعالة فى صنعة سلعته ، فيسحب منها ما يوازى المائة المطلوب سدادها للمرابى ، فمن الذى سيدفع ذلك ؟ إنه المستهلك.

إذن : فالمستهلك قد أُضير بهذا التراضى ، فهو الذى سيغرم ، لأنه هو الذى يدفع أخيرًا قيمة قرض الرجل المتاجر بالسلعة وقيمة النسبة الربوية التى حددها المرابى . إذن : فالعقد بين المقترض والمرابى ـ حتى فى عرفهم ـ عقد باطل رغم أن الاثنين ـ المقترض والمرابى ـ قد اعتبرا هذا العقد تراضيًا.

إذن: فالحق سبحانه وتعالى أراد أن يشيع فى الناس الرحمة والمودة ، وأن يشيع فى الناس التعاطف ، إنه الحق سبحانه صاحب كل النعمة أراد أن يشيع فى الناس أن يعرف كل صاحب نعمة فى الدنيا أنه يجب عليه أن تكون نعمته متعدية إلى غيره ، فإن رآها المحروم علم أنه مستفيد منها ، فإذا كان مستفيدًا منها فإنه لن ينظر إليها بحقد ، ولا أن ينظر إليها بحسد ، ولا يتمنى أن تزول لأن أمرها عائد إليه.

ولكن إذا كان السائد هو أن يريد صاحب النعمة فى الدنيا أن يستحوذ على كل عائد نعمته ، ولا يراعى حق الله فى مهمة النعمة ، ولا تتعدى هذه النعمة إلى غيره ، فالمحروم عندما يرى ذلك يتمنى أن تزول النعمة عن صاحبها وينظر إليها بحسد ، ويشيع الحقد ومعه الضغينة ، ويجد الفساد فرصة كاملة للشيوع فى المجتمع كله.

إن الحق سبحانه وتعالى يريد أن يسيطر على الاقتصاد عناصر ثلاثة:

العنصر الأول: الرِّفْد والعطاء الخالص ، فيجد الفقير المعدم غنيًا يعطيه ، لا بقانون الحق المعلوم المفروض فى الزكاة ، ولكن بقانون الحق غير المعلوم فى الصدقة ، هذا هو الرغد.

العنصر الثانى : يكون بحق الفرض ، وهو الزكاة.

العنصر الثالث : هو بحق القرض ، وهو المداينة.

إذن : فأمور ثلاثة هى التى تسيطر على الاقتصاد الإسلامى ، إما تطوع بصدقة ، وإما أداء لفروض من زكاة ، وإما مداينة بالقرض الحسن ، وذلك هو ما يمكن أن ينشأ عليه النظام الاقتصادى فى الإسلام ، ولننظر إلى قول الحق سبحانه وتعالى حين عرض هذه المسألة وبشَّع هيئة الذين يأكلون الربا بأنهم لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه ويصرعه الشيطان من المسِّ ، فيقول سبحانه : ﴿ **الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لا يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ...** (٢٧٥) ﴾ (البقرة)

فكأن الشيطان قد مسَّ التكوين الإنسانى مسّاً أفسد استقامة ملكاته ، فالتكوين الإنسانى له استقامة ملكات مع بعضها البعض ، فكل حركة لها استقامة ، فإذا ما مسَّه الشيطان فسد تآزر الملكات ، فملكاته النفسية تكون غير مستقيمة وغير منسجمة مع بعضها البعض ، فتكون حركته غير رتيبة وغير منطقية.

وقد أوضح الحق سبحانه وتعالى تخبطهم هذا ، فقال تعالى : ﴿ **ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا ...** (٢٧٥) ﴾ (البقرة) ، فهل الكلام فى البيع ،

أو الكلام فى الربا ؟ إن الكلام فى الربا ، وكان المنطق يقتضى أن يقول : «الربا كالبيع» ، فما الذى جعلهم يعكسون الأمر؟

إن النص القرآنى هنا يوحى بالتخبط حتى فى القضية التى يريدون أن يحتجوا بها ، كأنهم قالوا: ما دمت تريد أن تحرم الربا ، فالبيع مثل الربا ، وعليك تحريم البيع أيضًا.

وكان القياس أن يقولوا : «إنما الربا مثل البيع» ، لكن الحق سبحانه أراد أن يوضح لنا تخبطهم فجاء على لسانهم : إنما البيع مثل الربا ، فإن كنتم قد حرَّمتم الربا فحرِّموا البيع ، وإن كنتم قد حللتم البيع فَأحلُّوا الربا ، إنهم يريدون قياسًا إما بالطرد ، وإما بالعكس.

فقال الله تعالى القول الفصل الحاسم:﴿ **وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَىٰ ... (٢٧٥)** ﴾ (البقرة)

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : «لعن رسول الله ﷺ آكل الربا وموكله» .

والحق سبحانه وتعالى يمحق الزائد ، فهو سبحانه يقول : ﴿ **يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ (٢٧٦)** ﴾ (البقرة)

فالربا الذى تظنه زيادة هو محْقٌ ، والذى تظنه نقصًا من مالك بتأديتك للزكاة هو فى الحقيقة بركة وزيادة ونماء.

فالمرابى يرابى ليزيد ماله ، ولكن الله يقابله بالنقصان ﴿ **يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا ... (٢٧٦)** ﴾ (البقرة) ، لماذا؟ قالوا: لأن المعطى غنىٌّ واجد ، لديه فائض من المال يعطى منه ، أما الآخذ فمحتاج ، فكيف نطلب من المحتاج أن يزيد فى مال الواجد غير المحتاج؟

وكيف تكـون نظرة المحتاج إليك حين يعلم أن عندك مالاً يزيد عن حاجتـك ، ومع ذلك ترفض أن تقرضه القـرض الحسن ، بل تشترط عليه الزيادة ، فتأخذ الزيادة منه وهو محتاج؟

ثم افرض أننى أخذت هذا القرض لأُنمره وأنميه فخسر ، أليس كافيًا أن أخسر أنا عملى ، وأن يضيع مجهودى؟ أمن العدل أن أخسر عملى ، ثم أكون ضامنًا للزيادة أيضًا؟ هذه ليست من العدالة ، لأن شرط العقد أن يحمى مصلحة الطرفين ، أما عقد الربا فلا يحمى إلا مصلحة الدائن.

ونحن نرى حتى التشريعات الوضعية فى الاقتصاد إذا أعطى البنك مالاً لشخص لعمل مشروع مثلاً ثم خسر وأرادوا تسوية حالته ، أول شىء فى إجراءاتهم أن يُسقطوا عنه الفوائد.

وهذا يوافق شرع الله فى قوله تعالى : ﴿**وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لا تَظْلِمُونَ وَلا تُظْلَمُونَ** (٢٧٩)﴾ (البقرة) ، فإنْ أردتم أن تتوبوا فلا تأخذوا إلا رءوس أموالكم ، أما ما يزيد على هذا فليس لكم حق فيه.

وهكذا وضع الله نهاية لأسلوب التعامل ، حتى يتطهر المال من ذلك الربا ، فإذا قال الحق : ﴿ **فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لا تَظْلِمُونَ وَلا تُظْلَمُونَ** (٢٧٩) ﴾ (البقرة)، فمعنى هذا أنه سبحانه يبين لنا بهذا القول أنه لا حَقَّ للمرابين فى ضِعْف ولا ضعفين ، ولا فى أضعاف مضاعفة.

وحينئذ لا تظلمون من رابيتم ، فلا تأخذوا منهم زائدًا عن رأس المال.

إن المشرع يريد أن يمنع الظالم السابق فيُنهى ظلمه ، وأن يسعف المظلوم اللاحق فيعطيه حقه.

وكثير من النظريات التى تأتى لتقلب نظامًا فى مجتمع ما تعمد إلى الطائفة التى ظلمت ، فلا تكتفى بأن تكفها عن الظلم ، ولكن تُمكِّن للمظلوم أن يظلم من ظلمه ، وذلك هو الإجحاف فى المجتمع ، وهذا ما يجب أن يتنبه إليه الناس جيدًا ، لأن الله الذى أنصفك أيها المظلوم من ظالمك ، فمنع ظلمه لك ، هنا يجب أن تحترم حكمه حينما قال : ﴿ فَلَهُ مَا سَلَفَ ... (٢٧٥) ﴾ (البقرة) ، وبهذا القول انتهت القضية.

ويستأنف سبحانه الأمر بعدالة جديدة تجمعك وتجمعه على قدم المساواة بدون ظلم منك أيها المظلوم سابقًا بحجة أنه ظلمك ، والمجتمعات حين تسير على هذا النظام ﴿ لاَ تَظْلِمُونَ وَلاَ تُظْلَمُونَ (٢٧٩) ﴾ (البقرة)، إنما تسير على نمط معتدل لا على ظلم موجه ، فحين نعيب على قوم أنهم ظلموا ، ثم نأتى بقوم لنجعلهم يظلمون ، لا ، إن الجميع على قدم المساواة من الآن .

وفساد أى نظام فى المجتمع يأتى من توجيه الظلم من فئة جديدة إلى فئة قديمة ، فبذلك يظل الظلم قائماً ، طائفة ظلمت ، وتأتى طائفة كانت مظلومة لتظلم الطائفة الظالمة سابقًا ، نقول لهم : ذلك ظلم مُوجَّه ، ونحن نريد أن تنتظم العدالة وتشمل كل أفراد المجتمع بأن يأخذ كل إنسان حقه ، فالذى ظلم سابقًا منعناه عن ظلمه ، والمغلوب سابقًا أنصفناه ، وبذلك يصير الكل على قدم المساواة ، ليسير المجتمع مسيرة عادلة تحكمه قضية إيمانية ، إننا لا نكافئ من عصى الله فينا بأكثر من أن نطيع الله فيه .

وقول الحق سبحانه : ﴿ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٢٧٨) ﴾ (البقرة) أى : اتركوا ودعوا وتناسوا واطلبوا الخير من الله فيما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين حقًا بالله ، كأن الله أراد أن يجعلها تصفية فاصلة ، يولد من بعدها المؤمن طاهرًا نقيًا .

إنه أمر من الحق : دعـوا الربا الذى لم تقبضوه ؛ لأن الذى قبضتموه أمره ﴿ **فَلَهُ مَا سَلَفَ ... (٢٧٥)** ﴾ (البقرة) والذى لم تقبضوه اتركوه ﴿**وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٢٧٨)**﴾ (البقرة)

وقد حرَّم رسول الله ﷺ الربا وقال فى حجة الوداع : «ربا الجاهلية موضوع ، وأول ربًا أضع ربَانَا ، ربا عباس بن عبد المطلب ، فإنه موضوع كله»(١) .

وتلك سمة التشريع السماوى ، فالتشريع البشرى يحمى به صاحبه أقاربه من التقنين ، لكن التشريع السماوى يفرض تطبيقاته أولاً على الأقارب ، فالحاكم المسلم عليه أن يعلن للمحكومين أن القوانين إنما تُطبق عليه أولاً وعلى من يعول.

ونحن نجد أن رسول الله ﷺ فى معركة بدر أخرج أهل بيته ليحاربوا ؛ لأنه لو لم يُخرِج أحدًا من أهل بيته لقال واحد من الكفار: إنه يحمى أهل بيته ، ولو أن أجر الاستشهاد هو الجنة ، فلماذا يقدم الأباعد ولا يقدم أحبابه للقتال؟

لكن ها هو ذا رسول الله ﷺ يقدم أقاربه وأحبابه ، فهو العارف من ربه بأمر الشهادة ، وكيف أنها تقصر على الإنسان متاعب الحياة وتدخله الجنة ، هكذا كانت المحاباة فى صدر الإسلام ، إنها محاباة فى الباقى ، ولم تكن كمحاباة الحمقى فى الفانى.

وحين يعلمنا رسول الله ﷺ ذلك ويضرب على أيدى المرابين ، فهذه هى الحرب التى يجب أن تقوم ، حرب من الله المالك القادر على المحاربة.

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٢١٨) كتاب الحج ـ باب حجة النبى ﷺ (١٩).

وقد قال تعالى : ﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ (٣٩)﴾ (الروم)

وقد شرع الحق سبحانه الصدقة والزكاة طُهْرةً للمال ، فالمال قد يزيد فيه شيء فيه شبهة ، فالزكاة تطهره ، وقد يخيل إليك أنك حين تأخذ من المال فهو ينقص ، عكس الربا الذى يزيد المال ، فالربا مثلاً يحقق زيادة للمائة جنيه فتصبح مائة وعشرة مثلاً ، أما المزكِّى فالمائة جنيه تصير سبعة وتسعين ونصفًا.

والسطحى يرى أن الزكاة أنقصت المال ، وأن الربا يزيده ، ولكن هذا بمقاييس البشر ، لا بمقاييس من يملك الأشياء ، فالزكاة التى تعتبرونها نقصًا تُنمى ، والربا الذى تعتبرونه يُنمى إنما ينقص ، والحق سبحانه يقول : ﴿ يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ (٢٧٦)﴾ (البقرة)

والصدقة أيضًا تطهير للآخذ ، وقد يقال : كيف يكون هذا وهو لم يذنب ذنبًا يحتاج إلى تطهير ، بل هى مُعطى له لأنه محتاج؟ نقول : إن الآخذ حين يأخذ من مال غيـره وهو عاجز عن العمل فهو يتطهر من الحقد على ذى النعمة ، لأنه وصله بعض من المال الذى عند ذى النعمة ، فلا يحقد عليه ولا يحسده ، فهو إن رأى عنده خيرًا دعا له بالزيادة لأن بعضًا من الخير يعود عليه.

والفلاحون فى ريف مصر يهدون بعضهم بعضًا من لبن ماشيتهم ، أو بعضًا من الخير الخارج من لبنها ، وساعة أن تمر إحداها على أهل القرية يدعون الله بحمايتها ، وهكذا تتطهر نفس الفقير من الحقد والحسد.

هذا عن التطهير ، فماذا عن التزكية والنماء ؟ إن الفقير ساعة أن يرى نفسه فقيرًا ، ويرى أن المجتمع الإيمانى يقوم برعايته ولا يتركه وحيدًا ، ويتسابق أهل الخير لنجدته ، فنفسه تنمو بالاطمئنان ، لأنه فى مجتمع إيمانى.

إذن: فقوله الحق : ﴿ تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا... ﴿١٠٣﴾ ﴾ (التوبة) راجع لكل العناصر فى الآية : فما دامت هناك فى هذه الآية عناصر ، فضرورى أن يعود التطهير والتزكية عليها ، وإنها تطهر وتزكى المأخوذ منه ، صاحب المال ، وكذلك تطهـر وتزكى المال المأخوذ ، وأيضًا تطـهر وتزكى المأخوذ له وهو الفقير ؛ لأن التطهير معناه إزالة قذر ، والتزكية نماء.

١١ الإسلام يحمى المجتمع من الوقوع فى أكل الحقوق

الإسلام يصنع القلوب التى يُشرِّع لها ، ويصنع المجتمع الذى يُقنِّن له ، صنعة إلهية متكاملة متناسقة ، تربية وتشريع ، وتقوى وسلطان ومنهج للإنسان من صنع خالق الإنسان.

لم يفرض ديننا السمح القويم علينا إلا كل ما يرفع عنا الأغلال ، ويحط عنّا الأثقال ، ويفيض علينا الرحمة والهدى واليُسْر والاستقامة

يقول الحق سبحانه : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ ...** ﴿٢٨٢﴾ ﴾ (البقرة)

فالحق سبحانه يأمركم أن تُوثِّقوا الدَّيْن ؛ لأنكم لا تحمون مال الدائن فحسب ، بل تحمون المدين نفسه ؛ لأنه حين يعلم أن الدين موثَّق عليه ومكتوب عليه فلن ينكره ، لكن لو لم يكن مكتوبًا فقد تُحدِّثه نفسه أن ينكره.

فالحق يحمى المقترض من نفسه ؛ لأنه إذا علم أن الدَّيْن مكتوب يحاول جاهدًا أن يتحرك فى الحياة ليسد هذا الدين ، ويستفيد المجتمع من حركته أيضًا.

وعندما يُكتب القرض فهذا أمر دافع للسداد وحاثٌّ عليه ، لكن إن لم يُكتب القرض فقد يأتى ظرف من الظروف ويتناسى القرض ، ولو حدث ذلك

من شخص فلن تمتد له يد من بعد ذلك بالمعاونة فى أى أزمة ، فيريد الحق أن يديم الأسباب التى تتداول فيها الحركة.

لذلك يقال فى الأمثلة العامية : من يأخذ ويعطى يصير المال ماله ، ويكون مال الدنيا كلها معه ، لذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ **وَلَا تَسْأَمُوا أَن تَكْتُبُوهُ** ﴾ (البقرة) ، وفى ذلك حماية للنفس من الأغيار ، فالحق سبحانه حين يأمر بتوثيق الدَّيْن وإن كان فى ظاهر الأمر حماية للدائن ، لكنه فى باطن الأمر يحمى سبحانه المدين ؛ لأن هناك فرقًا بين ساعة التحمُّل للحكم ، وساعة أداء الحكم.

مثال ذلك : حين يأتيك إنسان قائلاً : أنا عندى ألف جنيه وخائف أن يضيع منى ، فخذه أمانة عندك إلى أن أحتاج إليه ، وبذلك يكون هذا الإنسان قد استودعك أمانة ولا يوجد إيصال أو شهود ، والأمر مردود إلى أمانة المودَع عنده ، إن شاء أنكر ، وإن شاء أقرَّ ، ونجد من يقول لهذا الإنسان : هات ما عندك ، يقول ذلك وفى ذمته ونيته أن صاحب الألف جنيه حين يأتى ليطلبه يعطيه له ، إنه يعد ذلك ساعة التحمل ، لكنه لا يضمن نفسه ساعة الأداء ، فقد تأتى له ظروف صعبة ساعة الأداء فيتعلل بالحجج ليبعد صاحب المال عنه.

إذن: هناك فرق بين حالة واستعداد حامل الأمانة ساعة التحمل ، وساعة الأداء لهذه الأمانة ، والمؤمن الحق هو من يتذكر ساعة التحمل والأداء معًا ، إن بعض الناس يرفض تحمل الأمانة ليزيل عن نفسه عبء الأداء.

وقول الحق سبحانه : ﴿ **إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ ... (٢٨٢)** ﴾ (البقرة) هو رفع لحرج الأحباء من الأحباء ، وهو تشريع سماوى ، فلا تأخذ أحدًا الأريحية ، فيقول لصاحبه : «نحن أصحاب» ، فقد يموت واحد منكما فإن لم يكتب الدَّيْن حرجاً ، فماذا يفعل الأبناء أو الأرامل أو الورثة؟

إذن : فإلزام الحق بكتابة الديْن هو تنفيذ لأمر من الله يحقق رفع الحرج بين الأحياء ، ويظن كثير من الناس أن الله يريد بالكتابة حماية الدائن ، لا ، إن المقصود بذلك والمهم هو حماية المدين ، لأن المدين إن علم أن الدَّيْن موثق عليه حرص أن يعمل ليؤدى دينه ، أما إذا كان الدين غير موثق فمن الجائز أن يكسل عن العمل وعن سداد الديْن.

وبذلك يحصل هو وأسرته على حاجته مرة واحدة ، ثم يضن المجتمع الغنى على المجتمع الفقير فلا يقرضه ، ويأخذون عجز ذلك الإنسان عن السداد ذريعة لذلك ، ويقع هذا الإنسان الذى لم يُؤَدِّ دينه فى دائرة تحمل الوزر المضاعف ؛ لأنه ضيَّق باب القرض الحسن.

إن الله يريد أن يسير دولاب الحياة الاقتصادية عند من لا يملك ، لأن من يملك يستطيع أن يُسيِّر حياته ، أما من لا يملك فهو المحتاج ؛ ولذلك فهناك مَثَلٌ فى الريف المصرى يقول: من يأخذ ويعطى يصير المال ماله ، إنه يقترض ويسدد ؛ لذلك يثق فيه الناس ، ويرونه أمينًا ، ويرونه مُجدًّا ، ويرونه مخلصًا ، ويعرفون عنه أنه إذا أخذ وفَّى ، فكل المال يصبح ماله.

إذن : فالله سبحانه بكتابة الديْن يريد حماية حركة الحياة عند غير الواجد ؛ لأن الواجد فى غير حاجة إلى القرض ؛ لذلك جاء الأمر من الحق سبحانه :

﴿إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ ... (٢٨٢)﴾ (البقرة)

ومن الذى يكتب الدَّيْن؟

انظر الدقة : لا أنت أيها الدائن الذى يكتب ، ولا أنت أيها المدين ، ولكن لا بُد أن يأتى كاتب غير الاثنين ، فلا مصلحة لهذا الثالث من عملية الدَّيْن.

﴿ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ .. (٢٨٢)﴾ (البقرة)

وفى ذلك إيضاح بأن الإنسان الذى يعرف الكتابة إن طُلب منه أن يكتب دينًا ألا يمتنع عن ذلك ، لماذا ؟ لأن الآية ـ آية الديْن ـ قد نزلت ، وكانت الكتابة عند العرب قليلة ، كان هناك عدد قليل فقط هم الذين يعرفون الكتابة ، فكان هناك طلب شديد على من يعرف الكتابة.

ولكن إنْ لم يُطلب أحد من الذين يعرفون الكتابة أن يكتب الدَّيْن فماذا يفعل؟ إن الحق يأمره بأن يتطوع ، وفى ذلك يأتى الأمر الواضح ﴿ **فَلْيَكْتُبْ** ﴾ (البقرة) ؛ لأن الإنسان إذا ما كان هناك أمر يقتضى منه أن يعمل ، والظرف لا يحتمل تجربة ، فالمشرع يلزمه أن يندب نفسه للعمل.

وما دامت الكتابة للتوثيق فى الدَّيْن ، فمن الضعيف؟ إنه المدين ، والكتابة حجة عليه للدائن ؛ لذلك يحدد الله الذى يملل : الذى عليه الديْن ، أى : يملى الصيغة التى تكون حجة عليه ﴿ **وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ** .. (٢٨٢) ﴾ (البقرة).

ولماذا لا يملى الدائن ؟ لأن المدين عادة فى مركز الضعيف ، فلعل الدائن عندما تأتى لحظة كتابة ميعاد السداد فقد يقلل هذا الميعاد ، وقد يخجل المدين أن يتكلم ويصمت ، لأنه فى مركز الضعيف . ويختار الله الذى فى مركز الضعف ليملى صيغة الديْن ، يملى على راحته ، ويضمن ألا يُؤخذ بسيف الحاجة فى أى موضع من المواضع.

لكن ، ماذا نفعل عندما يكون الذى عليه الدَّيْن سفيهاً أو ضعيفًا ، أو لا يستطيع أن يُملَّ هو ؟

إن الحق سبحانه يضع القواعد : ﴿ **فَإِن كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ** .. (٢٨٢) ﴾ (البقرة) ، والسفيه هو البالغ مبلغ الرجال إلا أنه لا يمتلك أهلية التصرف ، والضعيف هو الذى

لا يملك القدرة التى تُبلغه أن يكون ناضجًا النضج العقلى للتعامل ، كأن يكون طفلاً صغيرًا ، أو شيخًا بلغ من الكِبَر حتى صار لا يعلم من بعد علمه شيئًا ، أو لا يستطيع أن يُمل. أى: أخرس . فيقوم بالإملاء الولى أو القيّم أو الوصىّ.

ويأتى التوثيق الزائد بقوله تعالى: ﴿ **وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَىٰ ..** (٢٨٢) ﴾ (البقرة)

ولننظر إلى الدقة فى التوثيق عندما يقول الحق : ﴿ **وَاسْتَشْهِدُوا** ﴾ فنستشهد ونكتب ؛ لأنه سبحانه يريد بهذا التوثيق أن يُؤمِّن الحياة الاقتصادية عند غير الواجد ؛ لأن الحاجة عندما تكون غير مؤمَّنة عند غير الواجد ، فالدولاب يمشى وتسير حركة الحياة الاقتصادية ؛ لأن الواجد هو القليل ، وغير الواجد هو الكثير ، فكل فكر جاد ومفيد يحتاج إلى مائة إنسان ينفذون التخطيط .

إن الجيب الواحد الذى يصرف يحتاج إلى مائة لينفذوا ، ولهذا تكون الجمهرة من الذين لا يجدون ، وذلك حتى يسير نظام الحياة ؛ لأن الله لا يريد أن يكون نظام الحياة تفضُّلاً من الخلق على الخلق ، إنما يريد الله نظام الحياة نظاماً ضرورياً ، فالعامل الذى لا يعول أسرة قد لا يخرج إلى العمل ، لذلك فالحق سبحانه يربط خروج العامل بحاجته.

إنه يحتاج إلى الطعام ورعاية نفسه وأسرته فيخرج اضطرارًا إلى العمل ، وبتكرار الأمر يعشق عمله ، وحين يعشق العمل فهو يحب العمل فى ذاته ، وبذلك ينتقل من الحاجة إلى العمل إلى حب العمل فى ذاته ، وإذا ما أحب العمل فى ذاته فعجلة الحياة تسير.

والحق سبحانه حين يحدد الشهود يقول : ﴿**وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ..** (٢٨٢)﴾ (البقرة) ، فلم يقل الحق سبحانه « شاهدين» بل قال ﴿ شهيدين﴾ لأن مطلق شاهد قد يكون زوراً ؛ لذلك جاء الحق بصيغة المبالغة « شهيد» ؛ كأنه شاهد عرفه الناس بعدالة الشهادة حتى صار شهيدًا.

إنه إنسان تكررت منه الشهادة العادلة ، واستأمنه الناس على ذلك ، وهذا دليل على أنه شهيد.

وإن لم يكن هناك شهيدان من الرجال ، فالحق يحدد لنا ﴿ **فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ ..** (٢٨٢)﴾ (البقرة)

إن الحق سبحانه وتعالى قد طلب منا على قدر طاقتنا ، أى: من نرضى نحن عنهم ، وعلَّل الحقُّ مجىء المرأتين فى مقابل رجل بما يلى ﴿ **أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَىٰ ..** (٢٨٢)﴾ (البقرة) ؛ لأن الشهادة هى احتكاك بمجتمع لتشهد فيه وتعرف ما يحدث ، والمرأة بعيدة عن كل ذلك غالبًا.

إن الأصل فى المرأة ألا علاقة لها بمثل هذه الأعمال ، وليس لها شأن بهذه العمليات ، فإذا ما اضطرت الأمور إلى شهادة المرأة فلتكن الشهادة لرجل وامرأتين ؛ لأن الأصل فى فكر المرأة أنه غير مشغول بالمجتمع الاقتصادى الذى يحيط بها ، فقد تضل أو تنسى إحداهما ، فتُذكِّر إحداهما الأخرى ، وتتدارس كلتاهما هذا الموقف ، لأنه ليس من واجب المرأة الاحتكاك بجمهرة الناس ، وبخاصة ما يتصل بالأعمال.

وبعد ذلك يقول الحق : ﴿ **وَلا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا ..** (٢٨٢)﴾ (البقرة) ، فكما قال الحق عن الكاتب ألا يمتنع عن توثيق الدَّيْن ، كذلك الشهادة على

هذا الدَّيْن ، وكيف تكون الشهادة ، هل هى فى الأداء أو التحمُّل ؟ إن هنا مرحلتين : مرحلة تحمُّل ، ومرحلة أداء.

وعندما نطلب من واحد قائلين : تعال اشهد على هذا الدَّيْن ، فليس له أن يمتنع ، وهذا هو التحمُّل . وبعدما وثَّقنا الدَّيْن ، وسنطلب هذا الشاهد أمام القاضى ، والوقوف أمام القاضى هو الأداء ، وهكذا لا يأبى الشهداء إذا ما دُعُوا تحملاً أو أداء.

لكن الحق سبحانه وتعالى يعلم أن كل نفس بشرية لها مجال حركتها فى الوجود ، ويجب ألا تطغى حركة حدث على حدث ، فالشاهد حين يُستدعى - بضم الياء - ليتحمل أولاً ، أو ليؤدى ثانياً ، أَلاَ تتعطل مصالحه ؟ إن مصالحه ستتعطل لأنه عادل ولأنه شهيد ؛ لذلك يضع الله لذلك الأمر حَدّاً ، فيقول :

﴿ وَلا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلا شَهِيدٌ .. (٢٨٢) ﴾ (البقرة)

إذن : فالشهادة هنا تتطلب أن نحترم الشاهد ، فإن كان عند الشاهد عمل أو امتحان أو صفقة أو غير ذلك ، فلنا أن نقول للشاهد : إما أن تتعين فى التحمل حيث لا يوجد من يُوثق به ويطمئن إليه ، أما فى الأداء فأنت مضطر.

إن الشاهد يمكنه أن يذهب إلى أمره الضرورى الذى يجب أن يفعله ، فلا يطغى حدث على حدث ؛ لذلك علينا أن نبحث عن شاهد له قدرة السيطرة على عمله بدرجة ما ، وإن لم نجد غيره ، فماذا يكون الموقف؟

لقد قال الحق : ﴿ وَلا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلا شَهِيدٌ .. (٢٨٢) ﴾ (البقرة)

إذن : فعلينا أن نبحث له عن جُعل يعوض عليه ما فاته ، فلا نلزمه أن يعطل عمله ، وإلا كانت عدالته وبالاً عليه ؛ لأن كل إنسان يُطلب للشهادة تتعطل أعماله ومصالحه ، والله لا يحمى الدائن والمدين ليضر الكاتب أو الشهيد.

والكاتب والشهيد شخصان لهما فى الحياة حركة ، ولكل منهما عمل يقوم به ليؤدى مطلوبات الحياة ، فإذا عُلِم أنه كاتب أو أنه يشهد بأنه عادل ، عند ذلك يتم استدعاؤه فى كل وقت من أصحاب المصلحة فى المداينة ، وربما تعطلت مصالح الكاتب أو الشهيد.

ويريد الله أن يضمن لذلك الكاتب أو الشهيد ما يُبقِى على مصلحته ؛ ولذلك أخذت القوانين الوضعية من القرآن الكريم هذا المبدأ ، فهى إن استدعت شاهدًا من مكان ليشهد فى قضية فإنها تقوم له بالنفقة ذهاباً وبالنفقة إياباً ، وإن اقتضى الأمر أن يبيت فله حق المبيت وذلك حتى لا يُضار ، وهو يؤدى الشهادة ، وحتى لا يتعطل الشاهد عن عمله ، أو أن يصرف من جيبه.

ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ **وَإِن تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ ..** (٢٨٢)﴾ (البقرة) أى: إنْ تفعلوا الضرر من هذا أو من ذاك ، فإنه فسوق بكم ، إنه سبحانه يحذر أن يقع الضرر من الكاتب أو الشهيد ، أو أن يقع الضرر على الكاتب أو الشهيد ، ففعل الضرر فسوق ، أى : خروج عن الطاعة.

﴿ **وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ** (٢٨٢)﴾ (البقرة) ، وهذا مبدأ إيمانى يجب أن نأخذه فى كل تكليف من الله ، فإن التكاليف إن جاءت من بشر لبشر ، فأنت لا تنفذ التكليف من البشر إلا إن أقنعك بحكمته وعلَّته ، لأن التكليف يأتى من مساوٍ ، ولا توجد عقلية أكبر من عقلية ، وقد تقول لمن يكلفك : ولماذا أكون تبعًا لك وأنت لا تكون تبعًا لى؟ إنك إذا أردت أن تكلفنى بأمر من الأمور وأنت مساوٍ لى فى الإنسانية والبشرية وعدم العصمة ، فلابُدَّ أن تقنعنى بحكمة التكليف.

أما إن كـان التكليف من أعلى وهو الحق سـبحانه وتعـالى ، وهو الذى آمنا بقدرته وعلمه وحكمته وتنزُّهه عن الغرض العائد عليه ، فالمؤمن فى هذه الحالة يأخذ الأمر قبل أن يبحث فى الحكـمة ؛ لأن الحكمة فى هذا الأمر أنه صادر من الله ، وحين ينفذ المؤمن التكليـف الصادر من الله فسيـعلم سر هذه الحكمة فيـما بعـد ، فأسـرار الحِكَم عند الله تأتى للمؤمن بعـد أن يُقـبل على تنفيـذ التكاليف الإيمانية .

إن الله سبـحانه يعـد المؤمنين أنهم عندما يتـقونه فإنه يجـعل لهم دلائل تبين لهم الحق من الباطل ، ويستر عنهم السيئات ، ويغفر لهم ، لماذا ؟ لأن الله الذى يُعلِّمنا هو الحق سـبحـانه العليم بكل شىء ، وعلم الله ذاتى ، أما علـم الإنسان فقد يكون أثراً من ضغط الأحداث عليه فيفكر الإنسان فى تقنين شىء يخرجه مما يكون فيـه من شـر ، ولكـن علم العليم الأعلى سـابق عـلى ذلك لأنه علم ذاتـى .

وقـد علمنا أن الله سـبحـانه وتعـالى قـد أعطى الديْن هذه العناية ليـضـمن للحياة حـركتها الطاهرة ، حركتـها السليمة ؛ لأن المعدم لا وسـيلة له فى حركة الحياة إلا أمور ثلاثة :

الأمر الأول: الرفد : أى عطاء تطوعى يستعين به على حركة الحياة.

الأمر الثانى: الفرض الذى فرضه الله فى الزكاة.

الأمر الثالث: القرض الذى شرعه.

فعندما لا يجد المؤمن المعدم الرفـد أو الفرض ، فماذا يكون بعد ذلك ؟ إنه القرض . إذن : فالقـرض هو المفزَع الثالث للحركة الاقتـصادية عند المعدمين ، وعرفنا أن القرض عند الله يفوق ويعلو الصـدقة فى الثواب ، لأن الصدقة حين

تتصدق بها تكـون قد خرجتْ من نفسك من أول الأمر ، فلا مشـغولية لذهنك بعـد ذلك ، ولكن القرض نفسُك تكون متـعلقة به ؛ لأنك لا تزال مـالكًا له ، وكلما صبرتَ عليه أخذت ثوابًا من الله على كل صبرة تصبرها على المدين.

يقول تعالى : ﴿ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٨٠) ﴾ (البقرة)

أى : إن وُجِـد إنسان ليس عنده قـدرة على السـداد ، فنظرة من الدائن إلى ميسرة ، أى : إلى أن يتيسـر ، ويكون رأس المال فى هذه الحالة «قرضًا حسنًا» ، وكلما صبر عليه لحظة أعطاه الله عليها ثوابًا.

ولنا أن نعـرف أن ثواب القـرض الحـسن أكـثـر من ثواب الصـدقـة ؛ لأن الصدقة حين تعطيها فقد قطعت أمل نفسك منها ، ولا تشغل بها ، وتأخذ ثوابًا على ذلك دفـعة واحـدة ، لكن القـرض حين تعطيه فـقلبك يكون مـتعلقًا به ، فكلمـا يكون التعلـق به شديدًا ، ويهب عليك حـب المال وتصبـر فأنت تأخـذ ثوابًا.

لذلك يجب أن تلاحـظ أن القـرض حين يكون قـرضًـا حـسنًا والمقـتـرض معذور بحق ، لأن هناك فرقًا بين معـذور بحق ، ومعذور بباطل ، المعذور بحق هو الذى يحاول جاهدًا أن يسدد دَيْنـه ، ولكن الظروف تقف أمامه وتحول دون ذلك ، أمـا المعذور ببـاطل فيـجد عنده مـا يسد دَيْنه ، ولكنه يماطل فى السـداد ويبقى المال ينتفع به وهو بهذا ظالم.

والرسول ﷺ يأتى للمعسـر ويعامله معاملة الأريحية الإيمانيـة ، فيقول : «**من أنظر معسرًا أو وضع عنه أظله الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله**»(١).

(١) أحمد فى مسنده (٢ / ٣٥٩) من حديث أبى هريرة رضي الله عنه.

ومعنى «أنظر» أى : أمهله وأخَّر أخْذ الدَّيْن منه فلا يلاحقه ، فلا يحبسه فى دينْه ، فــلا يطارده ، وإن تســامى فى اليــقين الإيمانى يقــول له : «اذهب ، الله يعوض علىّ وعليك» ، وتنتهى المسألة.

لذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٨٠) ﴾ (البقرة)

والثمرة هى حُسْن الجزاء من الله ، فإما أن تُنْظِر أو تُؤخِّر ، وإما أن تتصدق ببعض الدَّيْن أو بكل الدَّيْن ، وأنت حر فى أن تفعل ما تشاء ، فانظروا دقة الحق عند تصفية هذه القضية الاقتصادية التى كانت الشغل الشاغل للبيئة الجاهلية.

□□□

١٢ الحذر من طاعة أهل الكتاب

إن طاعة أهل الكتاب والتلقي عنهم ، واقتباس مناهجهم وأوضاعهم تحمل ابتداء معني الهزيمة الداخلية والتخلي عن دور القيادة الذي من أجله أنشئت الأمة المسلمة.

ولا يحرص أهل الكتاب علي شيء حرصهم علي إضلال هذه الأمة عن عقيدتها ، فهذه العقيدة هي صخرة النجاة ، وخط الدفاع ، ومصدر القوة الدافعة للأمة المسلمة.

يقول الحق سبحانه : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ﴿١٠٠﴾﴾ (آل عمران)

إن الحق سبحانه ينبه الفئة المؤمنة إلى أن الذين يكفرون بآيات الله لن يهدأ بالهم ما دمتم أنتم - أيها المؤمنون - على الجادة وما دمتم مستقيمين ، ولن يهدأ للكافرين بآيات الله بال إلا أن يشككوا المؤمنين فى دينهم ، وأن يبغوها عوجًا ، وأن يُكفِّروهم من بعد إسلامهم.

وهذه قضية يجب أن ينتبه لها الذين آمنوا ، لأن الذين يبغون الأمر عوجًا قد ضلوا وأضلوا ، وهم يشهدون على هذا ، ويعلمون أن الله غير غافل عما يعملون ، فماذا يكون موقف الطائفة المؤمنة ؟ إن الحق سبحانه يوضحه بقوله : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ

كَافِرِينَ (١٠٠)﴾ (آل عمران)

إن أهل الكتاب يحاولون أن يصدوا المؤمنين عن سبيل الله ، وليس المقصود بالصدِّ أن هناك من يمنع المؤمنين من الإيمان ، لا بل هى محاولة من أهل الكتاب لإقناع المؤمنين بالرجوع والارتداد عن الإيمان الذى اعتنقوه ، فالمؤمنون هم الطائفة التى تلتزم بالتكليف من الله.

لذلك يحذرهم الحق سبحانه بقوله : **﴿ إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ (١٠٠)﴾** (آل عمران)

الحق يحدد قسمًا من الذين أوتوا الكتاب ، وذلك تأريخ بنزاهة وصدق ، وحق ودون تحامل ، كأن الحق سبحانه يبلغنا أن هناك فريقًا من أهل الكتاب سيسلكون الطريق السوى ويجيئون إلى المسلمين أرسالاً وجماعات وأفرادًا مع الإسلام ، فالحق لا يتكلم عن كل الذين أوتوا الكتاب.

لذلك يقول الحق :**﴿ إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ... (١٠٠)﴾** (آل عمران) إن الحق يؤرخ وهو يحمى الحقيقة.

والحق سبحانه يقول فى آية أخرى : **﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ... (١٢٠)﴾** (البقرة)

فقد كان اليهود يدخلون على رسول الله ﷺ مدخل لؤم وكيد ، فيقولون هادنا ، أى: قل لنا ما فى كتابنا حتى ننظر إذا كنا نتبعك أم لا، يريد الله ـ تبارك وتعالى ـ أن يقطع على اليهود سبيل الكيد والمكر برسول الله ﷺ بأنه لا اليهود ولا النصارى سيتبعون ملتك ، وإنما هم يريدون أن تتبع أنت ملتهم ، أنت تريد أن يكونوا معك وهم يطمعون أن تكون معهم ، فقال الله سبحانه **﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ... (١٢٠)﴾** (البقرة)

نلاحظ هنا تكرار النفى ، وذلك حتى نفهم أن رضا اليهود غير رضا

النصارى ، ولو قال الحق تبارك وتعالى : ولن ترضى عنك اليهود والنصارى بدون لا .. لكان معنى ذلك أنهم مجتمعون على رضا واحد أو متفقون ، ولكنهم مختلفون بدليل أن الله تعالى قال : ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ ...(١١٣)﴾ (البقرة)

إذن : فلا يصح أن يقال فلن ترضى عنك اليهود والنصارى ، والله سبحانه وتعالى يريد أن يقول لن ترضى عنك اليهود ، ولن ترضى عنك النصارى ، وإنك لو صادفت رضا اليهود فلن ترضى عنك النصارى ، وإن صادفت رضا النصارى فلن ترضى عنك اليهود .

ولكن ، ما الذى يعصمنا من أن نتبع ملة اليهود أو ملة النصارى ، الحق جل جلاله يقول : ﴿قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَى اللَّهِ .. (٧٣)﴾ (آل عمران)

فاليهود حرَّفوا فى مِلَّتهم ، والنصارى حرفوا فيها ، ورسول الله ﷺ معه هدى الله ، والهدى هو ما يوصلك إلى الغاية من أقصر طريق ، أو هو الطريق المستقيم باعتباره أقصر الطرق إلى الغاية ، وهدى الله طريق واحد ، أما هدى البشر فكل واحد له هدى ينبع من هواه .

ومن هنا فإنها طرق متشعبة ومتعددة توصلك إلى الضلال ، ولكن الهدى الذى يوصل للحق هو هدى واحد ، هدى الله عز وجل.

وقوله تعالى : ﴿ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم ... (١٢٠) ﴾ (البقرة) إشارة من الله سبحانه وتعالى إلى أن ملة اليهود وملة النصارى أهواء بشرية ، والأهواء جمع هوى ، والهوى هو ما تريده النفس باطلاً بعيداً عن الحق ؛ لذلك يقول الله جل جلاله : ﴿... وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (١٢٠) ﴾ (البقرة)

فالله تبارك وتعالى يقول لرسوله : لو اتبعت الطريق المعوج المليء

بالشهوات بغير حق ، سواء كان طريق اليهود أو طريق النصارى بعد ما جاءك من الله من الهدى، فليس لك من الله من ولى يتولى أمرك ويحفظك ، ولا نصير ينصرك.

وهذا الخطاب لرسول الله ﷺ يجب أن نقف معه وقفة لنتأمل كيف يخاطب الله رسوله ﷺ الذى اصطفاه ، فالله حين يوجه هذا الخطاب لمحمد ﷺ ، فالمراد به أمة رسول الله ﷺ أتباع رسول الله الذين سيأتون من بعده ، وهم الذين يمكن أن تميل قلوبهم إلى اليهود والنصارىْ ، أما الرسول ﷺ فقد عصمه الله من أن يتبعهم.

والله سبحانه وتعالى يريدنا أن نعلم يقينًا أن ما لم يقبله من رسول الله عليه الصلاة والسلام لا يمكن أن يقبله من أحد من أمته مهما علا شأنه ، وذلك حتى لا يأتى بعد رسول الله من يدعى العلم ، ويقول : نتبع ملة اليهود أو النصارى لنجذبهم إلينا ، نقول له: لا ما لم يقبله الله من حبيبه ورسوله لا يقبله من أحد.

إن ضَرْبَ المثل هنا برسول الله ﷺ مقصود به أن اتباع ملة اليهود أو النصارى مرفوض تمامًا تحت أى ظرف من الظروف ، لقد ضرب الله سبحانه المثل برسوله حتى يقطع على المغرضين أىَّ طريق للعبث بهذا الدين بحجة التقارب مع اليهود والنصارى.

ويسأل الحق سبحانه الذين آمنوا سؤالاً ، فيقول :

﴿ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (١٠١) ﴾ (آل عمران)

إنه استعظام وتعجيب من أن يأتى الكفر مرة أخرى من المؤمنين ، وهم فى نعيم المعرفة بالله ، فآيات الله تتلى عليهم ، ورسول الله حق ومعهم وفيهم.

وفى القرآن آية أخرى يقول فيها الحق سبحانه : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ (١٤٩)** ﴾ (آل عمران)

فما دُمْتم مؤمنين وهم كفار ، فكيف يتأتى منكم أن تطيعوا الكافرين ؟ إنكم وهم من أول مرحلة مختلفون ، أنتم مؤمنون وهم كفار ، والكافر والمنافق سيستغل فرصة الضعف فى النفس الإيمانية المسلمة ويحاول أن يتسلل إليها ، مثلما قلنا : إن جماعة من المنافقين قالوا : قُتل محمد ، ولم يعد فينا رسول فلنلجأ إلى دين آبائنا ، والمؤمنون الذين أصابتهم لحظة ضعف قالوا : نذهب إلى ابن أُبىٍّ ـ المنافق الأول فى المدينة ـ ونطلب منه أن يتوسط لنا عند أبى سفيان ليأخذ لنا الأمان.

ولذلك يقول الحق : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ (١٤٩)** ﴾ (آل عمران) ، فإن كان الموقف يحتاج إلى ناصر ، فلا تطلبوا النصير من الكافرين ، ولكن اطلبوا ممن آمنتم به.

لذلك قال تعالى: ﴿ **بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ (١٥٠)** ﴾ (آل عمران) ، فالنصر الحقيقى هو النصر الذى يأتى من الله ، فاطمئن على أنك خالص ومخلص لله ، وإلا ما جاءك نصره ، فساعة يأتيك نصر الله فاطمئن على نفسك الإيمانية ، وأنك مع الله.

ويبرز لنا الحق سبحانه نتيجة إطاعة هؤلاء ، فيقول تعالى :

﴿ **وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (١١٦)** ﴾ (الأنعام)

فإذا اتبعتَ الناس فسوف يضلونك ؛ لأنهم لا يملكون دليلاً علميًا ، ولا حقًا يقينيًا ، بل يتبعون الظن إن كان الأمر راجحًا ، ويخرصون ويُخمِّنون حتى ولو كان الأمر مرجوحًا.

١٣ تقوى الله حق تقاته

كلما اقترب الإنسان بتقواه من الله ، تيقظ شوقه إلي مقام أرفع مما بلغ ، وإلي مرتبة وراء ما ارتقي ، وتطلع إلي المقام الذي يستيقظ فيه قلبه فلا ينام.

الله عز وجل يريد من الإنسان التقوي التي تبلغ أن توفِيَ بحق الله الجليل ، التقوي الدائمة اليقظة التي لا تغفل ولا تفتر لحظة من لحظات العمر حتي يبلغ الكتاب أجله.

يقول الحق سبحانه : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٠٢)** ﴾ (آل عمران)

عندما يسمع الإنسان قول الحق سبحانه : ﴿**اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ .. (١٠٢)**﴾ (آل عمران) ماذا تعنى حق تقاته؟ إن كلمة حق كما نعرف تعنى الشيء الثابت الذى لا يزول ولا يتزحزح ، أى : لا ينتهى ولا يتذبذب ، هذا هو الحق.

إذن : ما حق التقى ؟ هو أن يكون إيمانك أيها المؤمن إيمانًا راسخًا لا يغادرك ولا تتذبذب معه ، واتقاء الله حق تقاته هو اتباع منهجه ، فيطاع الله باتباع المنهج فلا يعصى ، ويُذكر فلا ينسى ، ويُشكر ولا يُكفر.

وطريق الطاعة يوجد فى اتباع المنهج بـ «افعل» و «لا تفعل» ، ويُذكر ولا يُنسى ، لأن العبد قد يطيع الله ، وينفذ منهج الله ، ولكن النعم التى خلقها الله قد تشغل العبد عن الله ، والمنهج يدعوك أن تتذكر فى كل نعمة مَنْ أنعم بها ،

وإياك أن تُنسيك النعمة المنعم.

ويشكر العبد الله ، ولا يكفر بالنعم التى وهبها له الله ، وما دمت أيها العبد تستقبل كل نعمة وتردها إلى الله وتقول : « ما شاء الله ، لا قوة إلا بالله» ولا تكفر بالنعم أى : أنك تؤدى حق النعمة ، وكل نعمة يؤدى العبد حقها تعنى أنها نعمة شكر العبد ربه عليها ، ولم يكفر بها.

وقيل فى معنى ﴿حَقَّ تُقَاتِهِ .. (١٠٢)﴾ (آل عمران) أى : أنه لا تأخذك فى الله لومة لائم ، أو : أن تقول الحق ولو على نفسك ، هذا ما يقال عنه «حق التقى» ، أى : التُّقى الحق الذى يُعتبر تُقَى بحق وصدق.

وقال العلماء : إن هذه الآية عندما نزلت وسمعها الصحابة استضعف الصحابة نفوسهم أمام مطلوبها ، فقال بعضهم : من يقدر على حق التُّقى؟ ويقال : إن الله أنزل بعد ذلك : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ .. (١٦)﴾ (التغابن)

فهل معنى هذا أن الله كلف الناس أولاً ما لا يستطيعون ؟ ثم قال من بعد ذلك : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ .. (١٦)﴾ (التغابن) ؟ لا ، إن الحق سبحانه لا يكلف إلا بما فى الوُسْع .

والناس قد تخطئ الفهم لقوله تعالى : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ .. (١٦)﴾ (التغابن) فيقول العبد : أنا غير مستطيع أن أقوم بذلك التكليف ، ويظن هذا العبد أن التكليف يسقط عنه ، لا إن هذا فَهْم خاطئ .

إن قوله تعالى : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ .. (١٦)﴾ (التغابن) أى : أنك تتقى الله بما كان فى استطاعتك من الوسع ، فما باستطاعتك أن تقوم به ، عليك أن تقوم به ، فلا يهرب أحد إلى المعنى المناقض ، ويقول : أنا غير مستطيع ؛ لأن الله يعلم حدود استطاعتك.

وساعة تكون غير مستطيع فهو سبحانه الذى يخفف ، إنك لا تخفف أنت

على نفسك أيها العبد ، فالخالق الحق هو الذى يعلم إذا كان الأمر خارجًا عن استطاعتك أو لا ، وساعة يكون الأمر خارجًا عن استطاعتك ، فالله هو الذى يخفف عنك .

لذلك ، فعلى الإنسان ألاَّ يستخدم القول الحق : ﴿لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا .. (٢٨٦)﴾ (البقرة) فى غير موضعه ؛ لأن الإنسان لا يستطيع أن يقدر الوُسْع ، ثم يبنى التكليف على الوسع ، بل عليك أن تفهم أيها الإنسان أن الله هو الذى خلق النفس ، وهو الذى أنزل التكليف لوسع النفس ، وما دام الخالق للنفس هو الله فهو العليم بوسع النفس حينما قرر لها المنهج.

إنه سبحانه الذى كلَّف ، وهو العليم بأن النفس قد وسعت ، ولذلك فهو لا يكلف نفسًا إلا وُسْعها ، فإن كان سبحانه قد كلف فاعلم أيها العبد أنه سبحانه قد كلف بما فى وسعك ، وعندما يحدث للإنسان ما يشق عليه أو يمنعه من أداء ما كلف به تمامًا ، فهو سبحانه يضع لنا التخفيف وينزل لنا الرخص ، مثال ذلك : المريض أو الذى على سفر ، له رخصة الإفطار فى رمضان ، والمسافر له أن يقصر الصلاة.

إذن : فالله سبحانه هو الذى علم حدود وُسْع النفس التى خلقها ، ولذلك لا تُقدِّر وسعك أولاً ثم تقدر التكليف عليه ، ولكن قدِّر التكليف أولاً . وقُلْ : ما دام الحق قد كلَّف فذلك فى الوُسْع.

والحق سبحانه يخاطب رسول الله ﷺ فيقول : ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ .. (١١٢)﴾ (هود) والاستقامة معناها عدم الميل أو الانحراف - ولو قيد شعرة - وهذا أمر يصعب تحقيقه ، لأن الفاصل بين الضدين أو بين المتقابلين هو أدق من الشعرة فى بعض الأحيان .

ومثال ذلك : حين ترى الظل والضوء ، فأحيانًا يصعد الظل على الضوء ، وأحيانًا يصعد الضوء على الظل ، وسنجد صعوبة فى تحديد الفاصل بين الظل والنور ، مهما دقَّتْ المقاييس ، وهكذا يصبح فصل الشىء عن نقيضه صعبًا ، ولذلك فالاستقامة أمر شاق للغاية.

وساعة أن نزلت هذه الآية قال رسول الله ﷺ :« شَيَّبتنى هود وأخواتها»(١) .

ولولا أن الحق سبحانه قال فى كتابه الكريم :﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ .. (١٦)﴾ (التغابن) ، فلولا نزول هذه الآية لتعب المسلمون تمامًا ، وقد أنزل الحق سبحانه هذا القول بعد أن قال : ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ ..(١٠٢)﴾ (آل عمران).

وعزَّ ذلك على صحابة رسول الله ﷺ ، فأنزل الحق سبحانه ما يخفف به عن أمة محمد ﷺ بأن قال سبحانه : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ .. (١٦)﴾ (التغابن).

إذن : فالأمر بالاستقامة هو أمر بدقة الأداء المطلوب لله أمرًا ونهيًا ، بحيث لا نميل إلى جهة دون جهة ، وهكذا تطلب الاستقامة كامل اليقظة وعدم الغفلة.

وهاتان الآيتان مما يدخل فى قوله تعالى : ﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٠٦) ﴾ (البقرة)

(١) عن أبى جحيفة قال : قالوا : يا رسول الله ، نراك وقد شبْتَ ؟ قال : « شيبتنى هود وأخواتها» أخرجه أبو نعيم فى الحلية (٤ / ٣٥٠) وأورده الهيثمى فى مجمع الزوائد (٧ / ٣٧) من حديث عقبة بن عامر ، وعزاه للطبرانى وقال : رجاله رجال الصحيح ، وأخوات سورة هود التى شيبت رسول الله ﷺ هى : سورة الواقعة والمرسلات والنبأ والتكوير . انظر الترمذى فى سننه (٣٢٩٧).

فقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ .. (١٠٢)﴾ (آل عمران) وهذه منزلة عالية فى التقوى، لا يقوم بها إلا الخواص من عباد الله، شقَّتْ هذه الآية على الصحابة، وقالوا: ومن يستطيع ذلك يا رسول الله؟ فنزلت: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ .. (١٦)﴾ (التغابن). وجعل الله تعالى التقوى على قدر الاستطاعة.

وهكذا نسخت الآية الأولى مطلوبًا، ولكنها بقيت ارتقاء، فمن أراد أن يرتقى بتقواه إلى (حَقَّ تُقاتِه) فَبِها ونعمت، وأكثر الله من أمثاله وجزاه خيراً، ومَنْ لم يستطع أخذ بالثانية.

ولو نظرنا إلى هاتين الآيتين نظرة أخرى لوجدنا الأولى: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ .. (١٠٢)﴾ (آل عمران)، وإن كانت تدعو إلى كثير من التقوى إلا أن العاملين بها قلة، فى حين أن الثانية: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ .. (١٦)﴾ (التغابن)، وإنْ جعلتْ التقوى على قدر الاستطاعة إلا أن العاملين بها كثير، ومن هنا كانت الثانية خيراً من الأولى، كما نقول: قليل دائم خير من كثير منقطع.

أما فى قوله تعالى: ﴿أَوْ مِثْلِهَا .. (١٠٦)﴾ (البقرة) أى: أن الأولى مثل الثانية، فما وَجْه التغيير هنا؟ وما سبب التبديل؟

نقول: سببه هنا اختبار المكلَّف فى مدى طاعته وانصياعه، إنْ نُقِل من أمر إلى مثله، حيث لا مشقة فى هذا، ولا تيسير فى ذلك، هل سيمتثل ويطيع، أم سيجادل ويناقش؟

مثل هذه القضية واضحة فى حادث تحويل القبلة، حيث لا مشقة على الناس فى الاتجاه نحو بيت المقدس، ولا تيسير عليهم فى الاتجاه نحو الكعبة،

الأمر اختبار للطاعة والانصياع لأمر الله ، فكان من الناس منْ قال : سمعًا وطاعة . ونفَّذوا أمر الله فورًا دون جدال ، وكان منهم من اعترض وأنكر واتهم رسول الله ﷺ بالكذب على الله .

ومن ذلك أيضًا ما نراه فى مناسك الحج مما سنَّه لنا رسول الله ﷺ حيث نُقبِّل الحجر الأسعد وهو حجر ، ونرمى الجمرات وهى أيضًا حجر ، إذن : هذه أمور لا مجال للعقل فيها ، بل هى لاختبار الطاعة والانقياد للمشرع سبحانه وتعالى .

وتقوى الله تعنى أن نفعل أوامر الله وأن نتجنب نواهيه ، لنحكم حركة اختياراتنا بمنهج ربنا ، فإن حكمنا حركة اختياراتنا بمنهج الله صرنا مع الكون كأننا مسخرون لقضايا المصلحة والخير ، فمعنى التقوى هو أن نتقى معضلات الحياة ومشكلاتها ، بأن نلتزم منهج الله ، وساعة ترى منهج الله وتطبقه تكون قد اتقيت المشكلات.

أما من يُعرِض عن تقوى الله سبحانه ، فإن الحق يقول عن مصيره :﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ (١٢٤) ﴾ (طه)

أى : أن حياته تمتلئ بالهموم والمشاكل ، لأنه يخالف منهج الله ، فالذى يجعل الحياة مليئة بالمشاكل هو أننا نأخذ بالقوانين التى نسنُّها لأنفسنا ونعمل بها ، ولكن إذا أخذنا تقنين الله لنا فمعنى ذلك أننا نتقى المشاكل.

وإذا لم تنشأ المشاكل مع المخالفات لقال الناس : خالفنا منهج الله وفلحنا ، لذلك كان لابد أن توجد المشاكل لتنبهنا أن منهج الله يجب أن يسيطر.

وحين يتمسك الناس بمنهج الله فلن تأتى لهم المشاكل بإذن الله ، فالذى يتعب العالم هو الحركة المتعاندة ، والحق سبحانه وتعالى أنزل لنا المنهج القويم

ليجعل حركة حياتنا متساندة ، فإن اتبعنا المنهج صرنا نأخذ الأوامر من إله واحد ، وصار كل منا مكلفًا بالتعاون مع غيره.

وهذا لن يحدث إلا إذا استجبنا لما يدعو الله إليه تشريعًا والرسول بلاغًا ، وبهذا تتساند الحياة ، وتصبح حياة لها طعم ، وينطبق عليها قول الحق تبارك وتعالى : ﴿**مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** (٩٧)﴾ (النحل)

أي : يعيشون حياة طيبة لا حقد فيها ، ولا استغلال ولا ضغن ولا حسد ، ولا سيطرة ، ولا جبروت ، فيصبح الناس جميعًا فى أمان ، فالحياة الطيبة فى الدنيا وعدم الضلال والشقاء متحققان لمن اتبع منهج الله تعالى .

فلا يَقُلْ أحد : إن الدين ثمرته فى الآخرة ، بل قولوا : ليست مهمة الدين هى الآخرة فحسب ، بل مهمة الدين هى الدنيا أيضًا ، والآخرة إنما هى ثواب على النجاح فى هذه المهمة ، لأن الله إنما يجازى فى الآخرة مَنْ أحسن العمل فى الدنيا .

وعلى هذا ، فالعقاب على عدم اتباع المنهج الإلهى لا يتأخر إلى يوم القيامة ، ولكن الحياة فى الدنيا تكون مرهقة ، والمعيشة ضنكًا .

إذن : إياكم أن تفهموا أن المنهج الدينى لله غايته الآخرة فقط ، لا بل اتباع المنهج الدينى لله جزاؤه فى الآخرة ، وأما ثمرته ففى الدنيا ، فمن يوفق فى هذه الدنيا وحركته متساندة مع غيره ، يعطى له الله الجزاء فى الحياة المستريحة فى الدنيا بالإضافة إلى جزاء الآخرة ، وهكذا نفهم أن موضوع الدين هو الدنيا ، أما الآخرة فهى جزاء على هذا الاختبار الدنيوى .

وفى تذييل الآية الكريمة بقوله : ﴿ **وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ** (١٠٢) ﴾ (آل

عمران) نجد أنفسنا أمام نهى عن فعل ، وهو : عدم الموت إلا والإنسان مسلم.

كيف ذلك ؟ أيقول لك أحد : لا تَمُتْ ؟ إن ذلك الأمر ليس لك فيه اختيار؛ لأنه أمر نازل عليك . فإذا قيل لك: لا تمت فإنك تتعجب ، لأن أحدًا لا يملك ذلك ، ولكن إذا قيل لك : لا تمت إلا وأنت مسلم ، فأنت تفكر ، وتصل بالتفكير إلى أن الفعل المنهى عنه : لا تمت . ليس فى قدرة الإنسان ولكن الحال الذى يقع عليه الفعل وهو : إلا وأنت مسلم ، فى قدرة الإنسان.

لذلك تقول لنفسك : إن الموت يأتى بغير عمل منى ، أما كلمة : إلا وأنت مسلم ، فهى باستطاعتى ، لأن الإسلام يكون باختيارى ، صحيح أنك لا تعرف متى يقع عليك الموت ؟ ولذلك تحتاط ، والاحتياط يكون بأن تظل مسلمًا حتى يصادفك الموت فى أى لحظة وأنت مسلم .

فلنحرص على أن نكون مسلمين ، ويظل كل منا متمسكًا بأهداب الإسلام فإن صادف الموت فى أى لحظة يكون مسلمًا ، وكأن الحق سبحانه يقول لنا : تمسكوا بإسلامكم ؛ لأنكم لا تدرون متى يقع عليكم الموت . فالإنسان يترقب الموت فى أى لحظة .

◻◻◻

١٤ بطانة الشر

يحذرنا الحق تعالي من أن نتخذ من أعدائنا الطبيعيين بطانة ، وأن نجعل منهم أمناء علي أسرارها ومصالحها ، وهم للذين آمنوا عدو ، يجيء هذا التحذير في صورة شاملة خالدة ، ما نزال نري مصداقها في كل وقت ، وفي كل أرض ، صورة رسمها هذا القرآن الحي ، فغفل عنها أهل هذا القرآن ، فأصابهم من غفلتهم وما يزال يصيبهم الشر والأذي والمهانة .

يقول الحق سبحانه : **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ (١١٨)﴾** (آل عمران)

يأمر الحق سبحانه عباده المؤمنين الذين آمنوا به تعالى ، وأصبحوا بموجب هذا الإيمان ملزمين بتكاليف هذا الإيمان ومقتضياته ، فما دمتم قد آمنتم فعليكم الحفاظ على هذا الإيمان بأن تبعدوا عنه نزغ الشيطان وكيد الأعداء ، فنزغ الشيطان وكيده إنما يأتى من البطانة التى تتداخل مع الإنسان .

وبطانة الرجل هم خاصته ، أى : الذين يجلسون معه ويصاحبهم ويعرفون أسراره ، وكلمة «بطانة» مأخوذة من بطانة الثوب ، فنحن عندما نمسك أى قطعة من ثياب نرى أن الثوب خشن ، ولذلك فالصانع يضع للثوب الخشن

بطانة ناعمة ويختارها كذلك ؛ لأنها متصلة بالجسم ، والبطانة من الأصدقاء تدخل على الناس بالنعومة وتستميلهم وتستعبدهم .

ولذلك نجد النبى ﷺ يقول: « الأنصار شعار ، والناس دثار»(١) والشعار هو الثوب الذى يلامس شعر الجسد ، والنبى ﷺ يعلى من قيمة الذين استقبلوا الدعوة الإسلامية بمودة وحُب ، وهكذا نعرف أن كلمة «بطانة» مأخوذة ـ كما قلنا ـ من بطانة الثوب ؛ لأنها التى تلتحم بالجسم حتى تحميه ، فنحن نرتدى الصوف ليعطينا الدفء ، ونضع بينه وبين الجسم بطانة لنبعد عن الجسم خشونة الصوف ، ويسمون البطانة بالوليجة ، أى : التى تدخل فى حياة الناس ، وكل شر فى الوجود من هذه البطانة .

ولننتبه إلى دقة الرسول فى التعامل مع البطانة من البشر ، فها هو ذا رسول الله ﷺ لا يوطن الأماكن وينهى عن إيطانها ، ويوطن المكان أى يخصص مكانًا لفلان ليجلس فيه ، لقد كان رسول الله ﷺ يجلس حيث انتهى به المجلس ، وكذلك كان صحابته ، فلا أحد يجلس دائمًا بجانبه حتى لا يأخذ أحد من مكانته عند الرسول فرصة يتخيل معها الآخرون أنه صاحب حظوة ، فكلهم سواسية .

ونحن نرى فى عصرنا أن هناك من يتخذ لنفسه مكانًا فى المسجد ، وهذا منهى عنه ، فعن ابن عمرو رضي الله عنه قال: «نهى رسول الله ﷺ عن نقرة الغراب ، وافتراش السبع ، وأن يوطِّن الرجل المكان فى المسجد كما يوطن البعير»(٢).

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٠٦١) ، وأحمد بن حنبل فى مسنده (٤/ ٤٢) من حديث عبد الله بن زيد بن عاصم المازنى.

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (٣/ ٤٢٨) ، وابن ماجه فى سننه (١٤٢٩)، وأبو داود فى سننه (٨٦٢) من حديث عبد الرحمن بن شبل قال : «نهى رسول الله ﷺ عن نقرة الغراب ، وافتراش السبع ، وأن يوطن الرجل المكان فى المسجد كما يوطن البعير».

ويضيف على ـ كرم الله وجهه ـ فى وصف مجلس رسول الله ﷺ : كان ﷺ إذا ذهب إلى قوم جلس حيث ينتهى به المجلس « وكان يجلس على الأرض ، ويأكل على الأرض ، ويعتقل الشاة ، ويجيب دعوة المملوك »(1).

أهناك أدب أكثر من هذا ؟ إنه الرسول الكريم ، يجلس حيث ينتهى به المجلس ، لقد أراد أن يضرب لنا المثل حتى تتنوع اللقاءات ، فاليوم قد يجلس مؤمن بجانب مؤمن من مكان بعيد ، وغداً يجلس كلاهما بجانب اثنين جاء كل منهما من مكان آخر ، وهكذا تتحقق اندماجية الإيمان بتنوع اللقاءات .

ويقول على ـ كرم الله وجهه ـ : كان رسول الله يعطى كل جلسائه نصيبهم من مجلسه ، حتى لا يحسب جليسه أن أحداً أكرم عليه منه.

إن الرسول ﷺ عندما يعطى نظرة لواحد ، فهو ينظر كذلك لكل واحد من مجلسه ، وإن تكلم كلمة إلى ناحية فهو يعطى كلمة أخرى إلى الناحية المقابلة ، وذلك حتى يعرف كل جليس للرسول أن المؤمنين سواسية ، وأنه ﷺ رسول إلى الناس كافة ، وليس رسولاً إلى قوم بعينهم ، وحتى يعرف كل واحد من جلسائه أنه يجلس إلى رسوله الذى بعثه الله إليه .

هكذا كان سلوك رسول الله ﷺ حتى يعطى القدوة للناس ، وحتى يعرف كل إنسان أن التحام الناس بعضهم ببعض ، قد يسبب لواحد استغلال الالتحام فى غير صالح الإيمان.

لذلك يقول الحق سبحانه : تنبهوا يا من آمنتم إلى أنكم فى معسكر من غير المؤمنين يقاتلكم ويعاند إيمانكم ، وهؤلاء لا يمكن أن يتركوكم على إيمانكم ،

---

(1) أخرجه الطبرانى من حديث ابن عباس ، قال الهيثمى فى مجمع الزوائد (9/ 20) : « إسناده حسن» ، وفيه :« ويجيب دعوة المملوك على خبز الشعير».

بل لابد أن يكيدوا لكم ، وهذا الكيد يتجلى فى أنهم يدسون لكم أشياء ، وينفذون إليكم.

ونعرف جميعًا أن الإسلام عندما جاء كان كثير ممن آمن له ارتباطات بمن لم يسلم ، فهناك القرابة ، والصداقة ، والإلف القديم والجوار ، والأخوة من الرضاعة ، لذلك يحذر الحق من هذه المسائل ، فلا يقولن مؤمن : هذا قريبى ، أو هذا صديقى ، أو هذا حليفى ، أو هذا أخى من الرضاعة.

فالإسلام يحقق لكم أخوة إيمانية تفوق كل ذلك ، ولهذا ، فإياكم أن تتخذوا أناسًا يتداخلون معكم بالود ؛ لأن الشر يأتى من هذا المجال ، وإياكم أن تعتقدوا أن فجوة الإيمان والكفر بينكم ستذهب أو تضيق ؛ لأن الكفار لن يتورعوا أن يدخلوا عليكم من باب الكيد لكم ولدينكم بكل لون من الألوان ، وهم ـ الكفار ـ ولا يقصرون فى هذا أبداً .

لذلك يأتى الأمر من الحق سبحانه : احموا هذا الإيمان ، فلا تتداخلوا مع غير المؤمنين تداخلاً يفسد عليكم أمور دينكم ، لأنهم لن يهدأوا ، لماذا ؟ لأن حال هذه البطانة معكم سيكون كما يلى : ﴿**لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً** (١١٨)﴾ (آل عمران) أى : لا يقصرون أبداً فى الكيد لكم.

والخبال هو الفساد للهيئة المدبرة للجسم وهو العقل ، ونحن نسمى اختلال العقل «خبلاً».

إن الحق سبحانه يقول : ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ** (١١٨)﴾ (آل عمران)

فالمنهى عنه ليس أن تتخذ بطانة من المؤمنين ، ولكن المنهى عنه هو أن تتخذ

بطانة من غير المؤمنين ، لأن المؤمن له إيمان يحرسه ، أما الكافر فليس له ما يحرسه ، والبطانة من غير المؤمنين لا تقصر فى لحظة واحدة فى أنها تريد للمؤمنين الخبال والفساد ، ولا يقف الأمر عند هذا الحد ، بل إنهم يحبون العنت والمشقة للمؤمنين ﴿وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ ﴿١١٨﴾﴾ (آل عمران).

والحق سبحانه وتعالى لا يريد لنا العنت ، وفى هذا يقول سبحانه : ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٠﴾﴾ (البقرة)

أى : أنه سبحانه لو أراد لكلَّفكم بأمور كثيرة تحمل المشقة ، لكن الحق سبحانه يسَّر لكم أيها المؤمنون ، لكن أهل الكفر لا يودون إلا الخبال للمؤمنين ويحبون المشقة لهم .

ومن أين تنشأ المشقة ؟ إنك حين تكون مؤمنًا فأنت تقوم بما فرضه عليك الدين ، وهم يحاولون أن ينفخوا فى المؤمن بغير ما يقتضيه هذا الدين ، فتتوزع نفس المؤمن ، وبهذا النفخ تنقسم ملكات المؤمن على نفسها ، وعندما تنقسم الملكات على نفسها فإن القلق والاضطراب يسيطران على الإنسان ، فالقلق والاضطراب ينشآن عندما لا تعيش الملكات النفسية فى سلام وانسجام.

ونحن نرى ذلك فى المجتمعات التى وصلت إلى أرقى حياة اقتصادية وأمورهم المادية مُيسَّرة كلها ، فالشيخوخة مؤمَّنة ، وكذلك التأمينات الصحية والاجتماعية ، ودَخْل الإنسان مرتفع ، لكنهم مع ذلك يعيشون فى تعب ، وترتفع بينهم نسبة الانتحار ، وينتشر بينهم الشذوذ.

والسبب وراء كل ذلك هو أن ملكاتهم النفسية غير منسجمة ، وسلام الملكات النفسية لا يتحقق إلا عندما يؤمن الإنسان ، ويطبق تعاليم ما يؤمن به ، فالرجل - على سبيل المثال - حين ينظر إلى حلاله ، أى : زوجته ، ينظر إليها

براحة ويشعر باطمئنان ، لأن ملكاته النفسية منسجمة ، أما عندما تتجه عيناه إلى امرأة ليست زوجته ، فإنه يراقب كل من حوله حتى يعرف : هل هناك من يراه أو لا ؟ وهل ضبطه أحد أو لا ؟ وعندما يضبطه أحد فهو يفزع وتتخبط ملكاته.

لذلك يحذر الحق سبحانه المؤمنين : إياكم من البطانة من غير المؤمنين ، لأنهم لا يقصرون أبداً ، ولا يتركون جهداً من الجهود إلا وهم يحاولون فيه أن يُدخِلوكم في مشقة ، والمشقة إنما تنشأ من أن الكافر يحاول أن يجذب المؤمن إلى الانحراف ، والاضطراب النفسي وتشتت الملكات مستغلاً القرابة والصداقة ، مطالبًا أن يرضيه المؤمن بما يخالف الدين ، ولا يستطيع المؤمن التوفيق بين ما يطلبه الدين وما يطلبه الكافر.

لذلك تنقسم ملكات المؤمن ويحس بالمشقة ، والكافرون لا يتركون أي فرصة تأتي بالفساد للمؤمنين إلا انتهزوها واغتنموها.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ (١١٨)﴾ (آل عمران)

وما دامت البغضاء قد بدت من أفواههم ، فكيف نتخذهم بطانة ؟ إنك حين تصنع لنفسك بطانة من غير المؤمنين ، فإنها تضم بعضًا من المنافقين غير المنسجمين مع أنفسهم ، والمنافق له لسان يُظْهِر خلاف ما يبطن ، وعندما يذهب المنافق إلى غير المؤمنين فإن لسان المنافق ينقل بالسخرية كلام المؤمن.

هكذا تظهر البغضاء من أفواه المنافقين المذبذبين بين ذلك ، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ، إنهم لا ينتمون إلى الإيمان ولا ينتمون إلى الكفر ، والذى

يصل المؤمنين من بغضاء هؤلاء قليل ، لأن ما تخفى صدورهم أكبر.

وحين تبدو البغضاء من أفواههم ، فإما أن يقولوها أمام منافقين ، وإما أن يقولها بعضهم لبعض ، فيتبادلوا الاستهزاء والسخرية بالمؤمن ، والله أعلم بمن قيل فيه هذا الكلام ، ولذلك فعندما يتحدث الكافرون بكلام فيما بينهم ، فالله يكشفهم ويفضحهم لنا نحن المؤمنين.

إن الله تعالى يكشف بطلاقة علمه كل الخبايا ، وكان على الكافرين والمنافقين أن يعلموا أن هناك إلهًا يرقب عملية الإيمان فى المؤمن حتى ينبهه إلى أدقّ الأشياء ، لكنهم كأهل كفر ونفاق فى غباء.

لقد كان مجرد نزول قول الحق : ﴿ **قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ** (١١٨) ﴾ (آل عمران) كان ذلك فرصة أمامهم ليدفعوا عن أنفسهم لو كانت صدورهم خالية من الحقد ، لكنهم عرفوا أن الله قد علم ما فى صدورهم ، إن الغيظ الذى فى قلوب هؤلاء الجاحدين الحاقدين قد نضح على ألسنتهم ، ولكن من الذى نقل إلى رسول الله ﷺ وصحابته ما فى صدور الكافرين مما هو أكثر من ذلك ؟

إنه الله ـ جَلَّتْ قدرته ـ قد فضحهم بما أنزل من قوله تعالى : ﴿ **وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ** (١١٨) ﴾ (آل عمران) إذن : لم يعد لمن آمن بالله حجة ، لأن الله أعطاه المناعات القوية لصيانة ذلك الإيمان ، وأوضح الحق للمؤمنين أن أعداءهم لن يدخروا وسعًا أبدًا فى إفساد انتمائهم لهذا الدين ، فيجب أن ينتبه المؤمنون.

وإذا ما دققنا التأمل فى تذليل الآية نجد أن الحق قال : ﴿ **قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ** (١١٨) ﴾ (آل عمران) إذن : فالآيات المنزلة من الله تعالى توضح

ذلك ، وقد قلنا من قبل : إن الآيات إما أن تكون آيات قرآنية ، وإما أن تكون آيات كونية ، فالقرآن له آيات ، والكون له آيات.

والآية هى الشىء العجيب اللافت الذى يجب أن ننتبه إليه لنأخذ منه دستوراً لحياتنا ، وعلى ذلك ، فالآيات القرآنية تعطى المنهج ، والآيات الكونية تؤيد صدق الآيات المنهجية ، ويجب أن تتفطنوا أيها المؤمنون إلى هذه الآيات.

والذى يدل على أن المؤمنين قد عقلوا وتفطنوا ، أن الآية الأولى بيّنت أنهم قد نُهُوا عن أن يتخذوا بطانة من دونهم - أى : من غير المؤمنين - وها هى ذى الآية التالية تقول :

﴿ هَا أَنتُمْ أُولاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١١٩) ﴾ (آل عمران)

فما زال الحديث والكلام عن البطانة ، وهو يدل على أن البطانة لم تستطع أن تلوى المؤمنين عن الإيمان ، بل إن المؤمنين الذين ذاقوا حلاوة الإيمان حاولوا أن يغيروا من الكافرين ، ولم يفلح الكافرون أن يغيروا من المؤمنين ، وكذلك لم يفلح الكافرون أيضًا أن يسيطروا على أنفسهم ، ولم يكن أمام هؤلاء الكافرين إلا النفاق ، لذلك قالوا : آمنا.

إن الآية تدلنا على أن المؤمنين قد عقلوا آيات الحق ، ولماذا إذن جاء الحق سبحانه وتعالى بقوله : ﴿تُحِبُّونَهُمْ وَلا يُحِبُّونَكُمْ (١١٩)﴾ (آل عمران)

لقد أحب المؤمنون الكافرين حين شرحوا لهم قضية الحق فى منهج الإسلام ، وأراد المؤمنون أن يُجنِّبوا الكافرين متاعب الكفر فى الدنيا والآخرة ،

وهذا هو الحب الحقيقي ، فهل بادلهم الكافرون الحب ؟ لا ، لأن هؤلاء الكافرين أرادوا أخْذ المؤمنين إلى الكفر ، وهذا دليل عدم المودة.

ولم يستطع الكافرون تحقيق هذا المأرب ، ولذلك قالوا : آمنا . ومعنى قولهم آمنا ، يدلنا على أن موقف المسلمين كان موقفًا صلبًا قويًا ، لذلك لم يجد الكافرون بُدّاً من نفاقهم.

﴿ **وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا** (١١٩) ﴾ (آل عمران) قالوا ذلك على الرغم من ظهور البغضاء فى أفواههم ، ولم يكن سلوكهم مطابقًا لما يقولون.

وهنا بدأ المسلمون فى تحجيم وتقليل مودتهم للكافرين ، ولذلك قال أهل الكفر : لو استمر الأمر هكذا فسوف يتركنا هؤلاء المسلمون وحتى يتجنبوا هذا الموقف ادعوا الإيمان فى الظاهر ، وينقلب موقفهم إذا خلوا لأنفسهم.

ويصور الحق هذا الموقف فى قوله : ﴿**وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ** (١١٩) ﴾ (آل عمران) ، فما هو العَضُّ ؟ إن العضّ لغويًا هو التقاء الفكّين على شيء ليقضماه ، وما الأنامل ؟ إنها أطراف الأصابع ، والأنامل فيها شيء من الدقة ، وشيء من خفة الحركة المأخوذة من خلية النحل ، ويسمون الأنامل أيضًا البنان.

وعملية عضّ الأنامل عندما نراها نجدها عملية انفعالية قسرية ، أى : أن الفكر لا يرتبها ، فليس هناك من يرضى أن يظل مرتكبًا لعملية عضّ أصابعه ، فعضّ الأصابع يسبب الألم ، لكن الامتلاء بالغيظ يدفع الإنسان إلى عض الأصابع كمسألة قسرية نتيجة اضطراب وخلل فى الانفعال.

ومن أين يجيء الغيظ ؟ لقد جاء الغيظ إلى الكافرين لأنهم لم يستطيعوا أن يزحزحوا المؤمنين قيد شعرة عن منهج الله ، بل حدث ما هو العكس ، لقد

حاول المؤمنون أن يجذبوا الكافرين إلى نور الإيمان ، وكان الكافرون يريدون أن يصنعوا من أنفسهم بطانة يدخلون منها إلى المؤمنين لينشروا مفاسدهم ، ولذلك وقعوا فى الغيظ عندما لم يُمكِّنهم المؤمنون من شىء من مرادهم.

إن الإنسان يقع أحيانًا فريسة للغيظ حين لا يتمكن من إعلان غضبه على خصمه ، ولهذا إذا أراد إنسان من أهل الإيمان أن يواجه حسد واحد من خصومه فعليه أن يزيد فى فضله على هذا الإنسان ، وهنا يزداد هذا الخصم غيظًا ومرارة ، أيضًا نجد أن من تعاليم الإسلام أن الإنسان المؤمن لا يقابل السيئة التى يصنعها فيه آخر بسيئة ، وذلك حتى لا يرتكب الذنب نفسه ، ولكن يتبع القول المأثور : « إننا لا نكافىء من عصى الله فينا بأكثر من أن نطيع الله فيه».

إنهم بإحسان المسلمين إليهم يزدادون خصومة وغيظًا وحقدًا على الإسلام ، وكان المسلمون الأوائل يتصرفون بذلك الأسلوب ، لقد كانوا جبالاً إيمانية راسخة.

١٥ لَوْ كَانُوا عِنْدنَا مَا مَاتُوا

الموت أو القتل في سبيل #ا - بهذا القيد وبهذا الاعتبار - خير من الحياة ، وخير مما يجمعه الناس في الحياة من أعراضها الصغار : من مال وجاه وسلطان ومتاع ، خير بما يعقبه من مغفرة #ا ورحمته، وهي في ميزان الحقيقة خير مما يجمعون وكلهم مُرْجَعون إلي #ا محشورون إليه علي كل حال ، ماتوا علي فراشهم أو ماتوا وهم يضربون في الأرض ، أو قُتِلوا وهم يجاهدون في الميدان.

يقول الحق سبحانه :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَّوْ كَانُوا عِندَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١٥٦) ﴾ (آل عمران)

الضرب فى الأرض هو السعى واستنباط فضل الله فى الأرض وفى سبيله لإعلاء كلمته ، فالذين كفروا يرتبون الموت والقتل والعمليات التى يفارق الإنسان فيها الحياة على ماذا ؟ على أنه ضرب فى الأرض أو خرج ليقاتل فى سبيل الله ، وقالوا : لو لم يخرجوا ما حصل لهم هذا.

سنرد عليهم ، ونقول لهم : كأنكم لم تروا أبدًا ميتًا فى فراشه ، كأنكم لم

تروا مقتولاً يسقط عليه جدار ، أو يصول عليه جمل ، أو تصيبه طلقة طائشة ، هل كل من يموت أو يُقتل يكون ضاربًا فى الأرض لشىء ؟ أو خارجًا للجهاد فى سبيل الله ؟

إذن : فهذا حمق فى استقراء الواقع ، وجاء الحق بذلك ليعطينا صورة من حكمهم على الأشياء ، إنه حكم غير مبنى على قواعد استقرائية حقيقية ، فإذا عرفنا أنهم كفروا نقول : هذه طبيعتهم ، لأننا نجد أن حكمهم ليس صحيحًا فى الأشياء الواضحة ، وما دام حكمهم ليس صحيحًا أو حقيقيًا فى الجزئيات التى تحدث ، فإذا عرفتم أنهم كفروا فهذا كلام منطقى بالنسبة لهم ، فشأنهم أنهم لا يثبتون فى أحكامهم ، فلا عجب ـ إذن ـ أن كانوا كافرين.

﴿ **أَوْ كَانُوا غُزًّى** (١٥٦) ﴾ (آل عمران) ، وغُزَّى : جمع غَازٍ ، مثل : صُوَّم وقُوَّم . يعنى جمع : صائم وقائم.

﴿ **لَوْ كَانُوا عِندَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ** (١٥٦) ﴾ (آل عمران) إذن : فالله سبحانه وتعالى يصور لهم ما يقولونه ليعذبهم به ، كيف ؟ لأنهم عندما يقولون : لو كانوا عندنا لَكُنَّا منعناهم أن يخرجوا أو يُقتلوا . إذن : فنحن السبب.

وهكذا نجد أنهم كلما ذكروا قتلاهم أو موتاهم يعرفون أنهم أخطأوا ، وهذه حسرة فى قلوبهم ، ولو أنهم ردوها إلى الحق الأعلى لكان فى ذلك راحة لهم ، ولما كانوا قد أدخلوا أنفسهم فى متاهة ، ويحدث منهم هذا حتى نعرف غباءهم أيضًا ، فهم أغبياء فى كل حركاتهم وفى استقراء الأحداث الجزئية ، وأغبياء فى استخراج القضية الإيمانية الكلية ، أغبياء فى أنهم حشروا أنفسهم وأدخلوها فى مسألة ليست من شأنهم ، فأراد ربنا سبحانه وتعالى أن يجعل ذلك حسرة عليهم .

﴿ لَوْ كَانُوا عِندَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ ﴿١٥٦﴾ ﴾ (آل عمران) إن القضية الإيمانية هي ﴿ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴿١٥٦﴾ ﴾ (آل عمران) أي : هو الذي يهب الحياة ، وهو الذي يهب الموت ، فلا الضرب في الأرض ، ولا الخروج في سبيل الله هو السبب في الموت.

ولذلك يقول خالد بن الوليد ﵁ : لقد شهدت مائة زحف أو زهاءها وما في جسدي موضع شبر إلا وفيه ضربة سيف أو طعنة رمح ، وهأنذا أموت على فراشي كما يموت العير - أي : حتف أنفه ، فلا نامت أعين الجبناء .

ويختم الحق سبحانه الآية بقوله : ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾ ﴾ (آل عمران) ، فكأنهم قد بلغوا من الغباء أنهم لم يستتروا حتى في المعصية ، ولكنهم جعلوها حركة تُرى ، وهذا القول هنا أقوى من «عليم» ، لأن عليم تؤدي إلى أن نفهم أنهم يملكون بعضًا من حياء ويسترون الأشياء ، ولكن علم الله هو الذي يفضحهم ، لا ، هي صارت حركة واضحة بحيث تُبْصر ، فجاء قوله ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾ ﴾ (آل عمران).

ويقول الحق من بعد ذلك : ﴿وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ (آل عمران)

والذي يحرص على ألا يخوض المعركة مخافة أن يُقتل ، فما الذي يرجع عنده هذا العمل ؟ إنه يبتغي الخير بالحياة ، وما دام يبتغي الخير بالحياة . إذن : فحركته في الحياة في وهمه ستأتيه بخير ، فهو يخشى أن يموت ويترك ذلك الخير ، إنه لم يمتلك بصيرة إيمانية.

ونقول له : الخير في حياتك على قدر حركتك ، قوة وعلمًا وحكمة ، أما

تمتعك حين تلتقى بالله شهيدًا فعلى قدر ما عند الله من فضل ورحمة ، وهى عطاءات بلا حدود.

إذن : فأنت ضيعتَ على نفسك الفرق بين قدرتك وحكمتك وعلمك وحركتك فى الكسب ، وبين ما يُنسب إلى الله فى كل ذلك.

ولذلك يقول الحق سبحانه : ﴿وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ (آل عمران)

وبعد ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ (آل عمران)

ولنا أن نلحظ أن قول الحق فى الآية الأولى جاء بتقديم القتل على الموت ، قال تعالى : ﴿وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ ﴿١٥٧﴾﴾ (آل عمران) وجاء فى هذه الآية بتقديم الموت على القتل.

قال جل شأنه : ﴿وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ ﴿١٥٨﴾﴾ (آل عمران) فقدَّم القتل على الموت فى الآية الأولى لأنها جاءت فى المقاتلين ، والغالب فى شأنهم أن من يلقى الله منهم ويفضى إلى ربه يكون بسبب القتل أكثر مما يكون بسبب الموت حتف أنفه.

أما هذه الآية فقد جاءت لبيان أن مصير جميع العباد ومرجعهم يوم القيامة يكون إلى الله تعالى ، وأن أكثرهم تزهق نفسه وتخرج روحه من بدنه بسبب الموت ، فلذا قدَّم الموت هنا على القتل ، إذن : فكل كلمة وجملة جاءت مناسبة لموقعها ، إنه قول الحكيم الخبير.

وهذا مثل قوله تعالى : ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَا هُنَا قُل لَّوْ

كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ﴿١٥٤﴾ (آل عمران)

وهذه هي الفضيحة لهم ، فماذا كانوا يريدون أن يكون لهم ؟ كانوا يريدون ألاَّ يخرجوا للمعركة فقالوا : لو كان لنا من الأمر شيء واتبعنا منطقنا ، لما جئنا الموقعة هنا وحصل لنا ما حصل ، هذه واحدة ، أو لو كان لنا شيء من الظفر الذي وعد الله به محمدًا وأصحابه ما قُتلنا ههنا .

فعلى الرأيين يصح المعنى ، فكأنهم أرادوا أن يعللوا القتل أو الموت بأسباب ، ومن الذي قال : إن القتل أو الموت يتعلق بأسباب : إن الموت قضية تطرأ لإعدام الحياة ، وهي مجهولة السبب ، ومجهولة الزمان ، ومجهولة المكان ، ومجهولة العمر.

إذن: فما دامت المسألة مجهولة ، فلماذا ربطتم بين القتل والموقعة ؟ وهل لم تروا إنسانًا قد قُتل وليس في موقعة ؟ لو أن القتل لا ينشأ إلا في مواقع قتال وحرب لكان لكم أن تقولوا هذا ، وإنما القتل والموت قضية عامة لها واقع في حياتكم.

هذا الواقع لم يرتبط بأرض ، ولم يرتبط بزمان ، ولم يرتبط بسنٍ ، ولم يرتبط بسبب ، وإنما الموت يأتي لأنك تموت ، انتهت المسألة.

إذن : فهم عندما ربطوا القتل والموت بالموقعة ، فهم قد خرجوا عن القضية الإيمانية ، ولذلك يأتي الرد من الحق سبحانه بأمر واضح للرسول ﷺ : ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ﴿١٥٤﴾ (آل عمران)

فكأنك أيها الميت قد تكون أحرص على لقاء الموت من حرص الموت عليك ، بدليل أننا قلنا : إن الإنسان يكون مريضًا ، ويُلح على أن تجرى له عملية جراحية فيعتذر الطبيب قائلاً : عندي عدد كبير من الجراحات فانتظر

شهـراً ، فيأتى لـه المريض بواسطة لكى يقبل الطبـيب إجراء العمـلية الجراحـية ويُلِحّ عليـه ، ويعلى أجـر الطبـيب وقـد يموت المريض . إذن : فـهـو يلح على الموت أم لا ؟ إنه يلح على الموت.

يقول الحق سبحانه : ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ .. (١٥٤)﴾ (آل عمران)

وهكذا خَرُّوا جـميعًـا فى قاع الهلاك ، ولـم تحـمهم حصـونهم من العذاب الذى قدَّره سبحانه.

والحق سبحانه يقرر حقيـقة لا فرار منها ، فيقول : ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ (٧٨)﴾ (النساء)

فالحق سبحـانه هنا يتعرض لقضية الموت مع المكان ، فـالعقل البشرى الذى يتوهم أن بإمكانه الاحتياط من الموت ـ مكانًا ـ عليه أن يعى جيدًا أنه لا يستطيع ذلك ، فـوجود الشـخص عند ظرف مـا لا يدفع ولا يمنع عنه الموت ، فـالعندية سواء فى معسكر الكفر أو فى معسكر الإيمان لن تمنع حدوث الموت.

فأينـما تُوجَدوا يـدرككم الموت ، وكلمة «يدرككم» دليل علـى أن الإنسان عندما تدب فيه الـروح ينطلق الموت مع الروح ، إلى أن يدركها فى الزمن الذى قدَّره الله ، وكلمة «يدرك» توضح لنا أن الموت يلاحق الروح ، حـتى إذا أدركها سلبها.

وكمـا قال الأثر الصـالح عن مـلاحقة المـوت للحيـاة : « حتى إذا أدركـها جرت ، فـلا أحد منكم إلا هو مُدْرك». ولـذلك يقول أهل المعرفـة والإشراق : «الموت سهم أُرسِل إليك ، وإنما عمرك هو بقدر سفره إليك».

وساعة يتكلم سبحانه عن الموت وعن الحياة فى الجهاد ، فهو يريد أن يُخرِجَ الناس من الظلمات إلى النور ، لأن الديـن هو نور طارىء على ظُلْمة ، والذين يعيشـون فى الظلام يكونون قد ألفوا الظلمة والفـوضى ، وكل منهم يعربد فى الآخرين ، وعندما جاء الدين فرّ بعـضهم من مجىء النور ، لأن النور يحرمهم من لذّات الضلال ، ولأن النور يوضح الرؤية.

لذلك يوضح سبحانه وتعالى أنه أتى بالموت ليؤدى شيئين:

الأمر الأول : أن من يؤمن عليه أن يستـحضر الموت ، لأن جزاءه لا يكون له منفـذ إلا أن يموت ويلقى ربه ، ويعلم أن الحـاجب بينه وبين جـزاء الخـالق هو الموت ، فسـاعة يسـمع كلمة الموت فـهو يسـتشرف للقـاء الله ، لأنه ذاهب إلى الجزاء.

والأمر الثانى: أن غير المؤمن يخاف الموت ويخشاه ولا يستعد له ويخاف أن يلاقى ربه ، إذن: فكلمة الموت تعطى الرَّغَب والرهَب ، فـصاحب الإيمان ساعةَ يسمع كلمة الموت يقول لنفسه : إن متاعب الدنيا لن تدوم ، أريد أن ألقى ربى.

ولذلك يجب أن يستحضر المؤمنون بالله تلك القضـية ، وحين يستحضرون هذه القضـية يهون عليـهم كل مصـاب فى عزيز ، فالإنسـان ما دام مؤمنًا فـهو يعرف أن العزيز الذى راح إما مؤمن وإما غير مؤمن ، فإن كان مؤمناً فليفرح له المؤمن الذى افـتقـده ، لأن الله عجَّل به ليـرى خيـره ، فإن حزنـت لفقد قـريب مـؤمن فأنت تحـزن على نفـسك ، وإن كـان الذى ذهب إلى ربه غـير مـؤمن ، فالمؤمن يرتاح من شره.

إذن : الموت راحة ، والذى عـمل صالحًا يسـتشرف إليـه ، وهذا رغب ، أما الكافر فهو خائف ، وهذا رهب.

ولذلك ، فمن الحمق أن يحزن الإنسان على ميت ، وعليه أن يلتفت إلى قول الحق : ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ (٧٨)﴾

(النساء)

□□□

١٦ صبر ومصابرة ومُرابطة

الصبر هو زاد الطريق في هذه الدعوة ، إنه طريق طويل شاق ، حافل بالعقبات والأشواك ، مفروش بالدماء والأشلاء ، وبالإيذاء والابتلاء .

ولا يجب أن ينفد صبر المؤمنين علي طول المجاهدة، بل يظلُّون أصبر من أعدائهم وأقوي ، بمقابلة الصبر بالصبر ، والإصرار بالإصرار ، وهذه هي المصابرة ، مع مرابطة لمواجهة أعداء الإسلام في كل ثغر ممكن ، ونحن علي تقوي لله حتي لا نتساوي مع أعدائنا ، فننهزم لأننا لسنا في معية الله.

يقول الحق سبحانه : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٢٠٠)** ﴾ (آل عمران)

هذه الآية هي من الآيات التى خُتمت بها سورة آل عمران ، قالت عائشة ﵂ أن رسول الله ﷺ قام إلى قِرْبَة فتوضأ ، ثم قام فبكى ، ثم قرأ فبكى ، ثم أثنى على الله وحمده فبكى ، حتى ابتلتْ الأرض ، ثم جاء بلال ، فقال : يا رسول الله صلاة الغداة . فرآه يبكى. فقال : يا رسول الله ، أتبكى وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟

فقال رسول الله : أفلا أكون عبداً شكوراً .. يا بلال لقد نزل عليَّ الليلة : ﴿ **إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ (١٩٠)** ﴾

(آل عمران) إلى قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٢٠٠) ﴾ (آل عمران)

ثم قال رسول الله ﷺ : « فويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها ، وويل لمن لاكها بين فكيّه ولم يتأملها »(١).

فهذه الآية هى ختام سورة آل عمران ، وسورة آل عمران جاءت بعد سورة البقرة ، والسورتان تشتركان معًا فى قضية عقدية أولى ، هى الإيمان بالله والتصديق بمحمد ﷺ ، وبما جاء به من عند الله خاتمًا للرسالات ومهيمنًا عليها.

ولذلك تكلم الحق عن قضية الإيمان وقضية الهدى ، وقضية الكتاب ، ثم تعرَّض الحق لرواسب ديانات سابقة تحولت عن منهج الله إلى أهواء البشر ، فجادل فى سورة البقرة اليهود ، وجادل فى سورة آل عمران النصارى.

وبعد ذلك عرض قضية إيمانية تتعلق بموقف المسلمين المؤمنين بالله وبتصديق رسوله فى معترك الحياة ، وعرض معركة من المعارك ابْتُلِى فيها المؤمنون ابتلاءً شديدًا ، ثم عرض للقضية الإيمانية حين يشوب المؤمن المتخاذل إلى منهج ربه.

وبعد أن ينتهى من هذه يقول الحق سبحانه : ﴿يأيها الذين آمنوا﴾ أى : يا مَنْ آمنتم بما تقدم إيمانًا بالله ، وتصديقًا بكتابه ، وتصديقًا برسالته ﷺ ، وتمحيصًا للحق مع اليهود ، وتمحيصًا للحق مع أهل الكتاب جميعًا ، تمحيصًا لا جدليًا نظريًا ، ولكن واقعيًا فى معركة من أهم معارك الإسلام ، وهى معركة

---

(١) قال الحافظ العراقى فى تخريجه لـ «إحياء علوم الدين» (٤/ ١١٧) : «أخرجه الثعلبى من حديث ابن عباس ، وفيه أبو جناب يحيى بن أبى حبة ، ضعيف».

أُحُد.

فيا مَنْ آمنتم بالله إيمانًا صادقًا صافيًا ، استمعوا إلىَّ يا مَنْ آمنتم بى : (اصبروا) ، وهذا أمر . و (صابروا) أمر ثانٍ . و (رابطوا) أمر ثالث. و (اتقوا الله) أمر رابع.

إنها أربعة أوامر ، والغاية من هذه الأوامر هى ﴿ **لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** ﴾ (آل عمران: ٢٠٠). إذن : فمَنْ عشق الفلاح فعليه أنْ ينفذ هذه الأربعة : اصبر ، صابر ، رابط ، اتق الله . لعلك تفلح.

والحق سبحانه وتعالى حين يعبر عن الفَلاَح إنما يعبر بأمر مشهود مُحسٍّ للناس جميعًا ، لم يَقُلْ لك : افعل ذلك لتنجح أو لتفوز ، إنما جاء بكلمة «الفلاح» . و «الفلاح» كما قلنا : مأخوذ من فلح الأرض . وفَلْح الأرض هو شَقُّها لتتعرض للهواء ، ولتكون سهلة هيِّنة تحت الجذْير البسيط الخارج من البذرة ، فإذا فلحت الأرض بهذه المشقة حرثًا وبذرًا وتعهدًا بالرى ماذا يحدث لك من الأرض ؟ إنها تُؤتيك خيرًا ماديًا مشهودًا ملحوظًا.

إذن : فقد ضرب الله المثل فى المعنويات بالأمر المُحسّ الذى يباشره الناس جميعًا ، وأىّ فلاح هذا الذى يقصده الحق سبحانه وتعالى ؟ إنه فلاح الدنيا وفلاح الآخرة ، فلاح الدنيا بأن تنتصروا على خصومكم ، وأنْ تعيشوا معيشة آمنة مستقرة رغدة ، وفلاح الآخرة أنْ تأخذوا حظكم من الخلود فى النعيم المقيم.

وما دام سبحانه يقول : اصبروا ، فلابُدَّ أن يكون هذا إيذانًا بأن فيه مشقة ، فالإيمان يؤدى إلى الجنة ، والجنة محفوفة بالمكاره ، لذلك لابُدَّ أنْ تكون فيه

مشقات.

وإذا نظرتَ إلى تلك المشقات تجدها فى ذات النفس منفصلة عن المجتمع تارة ، وتجدها فى ذات النفس مع المجتمع تارة أخرى ، أما فى ذات النفس فهى مفصولة عن المجتمع ، فإن الصبر يقتضى أن تصبر على تنفيذ أمر الله فى فِعْل الطاعات وعلى تحمُّل الألم منه فى ترك المعاصى ، وإنْ كان ذلك يمنعك عن لذة شهوة تحبها ، فإنك تصبر عن تلك الشهوة التى تُلح عليك.

فمجاهدة المؤمن أنْ يصبر عن الشهوات التى نهى الله عنها ، والأشياء التى تصيب الإنسان يصبر عليها ، فالمصيبة فى النفس يصبر عليها ، والأشياء التى يصبر عنها من النواهى هى الشهوات والمتع التى يحرمها الله.

وكأن الحق سبحانه وتعالى يقول : إننى خلقتُك وأعلم منازعة نفسك إلى الشهوة ، لأنك تحبها فاصبر عنها ، والأمور التى فى الطاعة إنْ فعلتها ستورثك مشقة فى ذاتك ، اصبر عليها . إذن : ففى الأوامر صبر على تنفيذها ، وفى المناهى صبر عن إيقاعها ، هذه كلها فى الذات.

وبعد ذلك ، إذا تعدَّتْ المسألة من الذاتية إلى المحيط الخارجى ، فالحق سبحانه يقول : ﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (١٧٧)﴾ (البقرة)

يقول : ﴿الصابرين فى﴾ . فعندنا «صابر على» ، و «صابر عن» ، و «صابر فى». ﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ (١٧٧)﴾ (البقرة) التى تقع عليهم من المجتمع الخارج عنهم ، وكيف تصيبهم البأساء من المجتمع الخارج عنهم؟

نعم ، لأن منهج الحق إنما يجىء ليصوِّب الخطأ فى حركة المجتمع ، والخطأ

فى حركة المجتمع إنما يستفيد منه أناس وهم يحرصون جاهدين أنْ يصدُّوا منْ يريدون تثبيت منهج الله.

إذن : فَهُمْ لا يُقصِّرون فى إيذائهم ، وفى السخرية منهم ، وفى إتعابهم ، وفى حربهم ، وهذا صبر فى البأساء والضراء وحين البأس ، وإذا كان عدوك الذى جئت لتدحضَ منهجه الباطل بمنهجك الحق صابرك وصابر أيضًا على إيذائك ، فعليك أن تُصابره.

ماذا يعنى ذلك ؟ يعنى أن «اصبر» غير «صابر» ، فاصبر هو أمر فى نفسك ستصبر عليه ، ولكن هَبْ أن خصمك صبر أيضًا على إيذائك ، وصار عنده جَلَد ليقف أمامك هنا.

الحق يأمرك هنا بأن تصابره ، أى : إذا كان عدوك يصبر قليلاً فعليك أنت أنْ تَقْوى على الصبر عليه ، أى : أنْ تجيء بصبر فوق الصبر الذى يعارضك ، وكل مادة «فاعَل» هكذا.

فالمصابرة تعنى إنْ كان خصمك يصابرك فأنت تصبر وهو يصبر ، فتصبر أنت أكثر ، ولهذا تحتاج المسألة إلى أنْ يتكاتف المجتمع كله على المصابرة ، ولذلك جاء قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿**وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣)**﴾ (العصر)

أى : أنك إذا رأيتَ أخًا من إخوانك المؤمنين يخور ويضعف فى مصابرته فتحثّه على المصابرة ، وقُلْ له : إياك أنْ تخور ، لماذا ؟ لأن النفس البشرية من الأغيار ، وقد يأتى لها حدث يَقْوى عليها ، فالمؤمن الذى ليس عنده هذه الأغيار ينفخ بالعزيمة فيمَنْ يخور ، فقال الحق «تواصوا» . ولم يَقُلْ : جماعة يُوصُون جماعة ، لا.

فالتواصي أنْ تكون أنت مرة موصيًا ، ومرة مُوصّىً ، فساعة لا يكون عندك ضعف الأغيار فَوصٍّ ، وساعة يكون عندك ضعف الأغيار تُوصَّى ، فكل واحد مُوصٍ في وقت ، ومُوصىً في وقت آخر ، ولا نتواصى هذه التوصية على الصبر إلاَّ إذا كنا تواصينا أولاً على الحق الذى من أجله نشأت المعركة بين صابر وصابر.

ويقول تعالى في آية أخرى : ﴿ **بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ (١٢٥)** ﴾ (آل عمران)

فالصبر وحده لا يكفى ، بل لابدَّ أيضًا من تقوى الله ، ولابُدَّ كذلك من المصابرة بمغالبة العدو فى الصبر ، لذلك يقول المولى سبحانه ﴿ **اصْبِرُوا وَصَابِرُوا** ﴾ (آل عمران : ٢٠٠)، وذلك لأن العدو قد يملك هو أيضًا ميزة الصبر ، لهذا يزيد الله الصابر ، فإن صبر العدو على شيء فاصبر أنت أيها المؤمن أكثر منه.

فإنْ واجهكم عدوكم بالصبر ، فليكُنْ صبركم أقوى منه ، فتغلبوه بالصبر والتحمُّل ، فقف صابراً فى مواجهتهم ومعك المؤمنون برسالتك.

وقَوْلُ الحق سبحانه وتعالى هنا : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٢٠٠)** ﴾ (آل عمران). فلقد عرفنا الصبر ، وعرفنا المصابرة ، فما هو الرباط ؟ هو أن تُشعِر عدوك بأنك مستعد دائمًا للقائه ، هذا هو معنى الرباط.

والحق يقول : ﴿ **وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ (٦٠)** ﴾ (الأنفال). إنها خيل مربوطة للجهاد فى سبيل الله

ومستعدة ، ورسول الله ﷺ يقول : «خيركم ممسكٌ بعنان فرسه كلما سمع هَيْعة طار إليها»(١).

أى : أن نكون مستعدين قبل وقوع الهجوم ، وساعة تأتى الأمور الداهمة ننطلق لمواجهتها ، ولكن يكون استعدادنا من قِبَل الأمر الداهم ، ولذلك حين يكون عدوك عالمًا بأنك مرابط له ومستعد للحركة فى أىِّ وقت يرهبك ويخافك ، أما إذا كنتَ فى استرخاء وغفلة ، فإنه يدهمك ، فإلى أنْ تستعد يكون قد أخذ منك الجولة الأولى.

إذن : فما فائدة الرباط؟ فائدته أنْ يُعلم أنك لم تغفل عن عدوك ، وأنك لن تترك العُدَّة والاستعداد له إلى أنْ يأتى بالمداهمة ، ولكن تكون أنت مستعدًا لها فى كل وقت ، والرباط لا يكون فقط أنْ ترابط بالخيل للعدو المهاجم هجومًا ماديًا ، بل المرابطة تعنى : الإعداد لكل ما يمكن أن يَرُدَّ عن الحق صيحة الباطل ، فمن المرابطة أنْ تُعِدَّ الناشئة الإسلامية لوافدات الإلحاد قبل أنْ تَفِد ، لماذا ؟

لأن المسألة ليست كلها غزوًا بخيل وسلاح وعُدَد ، فقد يكون الغزو بالفكر الذى يتسرب إلى النفوس من حيث لا تشعر ، فإذن لابُدَّ أن تكون أيضًا فى الرباط الذى يمد المؤمن بقدرة وطاقة المواجهة ، بحيث إذا جاءت قضية من قضايا الإلحاد التى قد تَفِد على المؤمنين يكون عند كل واحد منهم الحصانة ضدها والقدرة على مواجهتها.

---

(١) عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: « من خير معاش الناس لهم ، رجل ممسك عنان فرسه فى سبيل الله ، يطير على متنه ، كلما سمع هيعة أو فزعة طار عليه ، يبتغى القتل والموت مَظَانَّه» أخرجه مسلم فى صحيحه (١٨٨٩) كتاب الإمارة ، وأحمد فى مسنده (٢/ ٤٤٣).

لقد قلنا : إن آفة المناهج العلمية أنهم أخذوا مناهجهم عن الغرب ، فدرسوا التاريخ كما يدرسه الغرب ، ودرسوا الطبيعة كما يدرسها الغرب ، ونسوا أن لنا دينًا يحمينا من كل هذه الأشياء ، فعندما يأتينى رجل التاريخ بمنهجه من الغرب ، ويقول إن الثورة الفرنسية هى التى أعلنت حقوق الإنسان ، هنا يجب أن تكون عندنا مناعة وترابط ، ونقول له : فى أىِّ سنة نشأتْ الثورة الفرنسية ؟

لقد نشأت منذ سنوات قليلة ، وقد تزيد أو تنقص على المائتى سنة ، وأنتم تجهلون أن الدين الإسلامى جاء منذ أربعة عشر قرناً بحقوق الإنسان ، واقرأوا القرآن ، فلو أن كل تلميذ حين يسمع أن الثورة الفرنسية هى التى أعلنت حقوق الإنسان ، يقول لهم : لا ، أنت تعلم أن ذلك حدث فى القرن السابع عشر ، لكن لماذا لا تلتفت إلى أنه منذ أربعة عشر قرنًا جاء الإسلام بهذا المبدأ ، والتفت إلى الإساءة فى استعمال الحق ، فإذا كنتَ تجهل تشريع الله فلا يصح أنْ يؤدى بك هذا الجهل إلى طمس معالم الحق فى منهج الله.

وإذا قال دارس للطبيعة : إن الطبيعة أمدَّتْ الحيوان الفلانى باللون الذى يناسب البيئة التى يعيش فيها حتى لا يفتك به عدوه ، وهو بذلك يضلله ، نقول له : إن الطبيعة لا تمد ، الطبيعة مُمدَّة من الله.

إذن : فالرباط لا يكون بقوة عسكرية فحسب ، بل بالقوة العلمية أيضًا ، فخصوم الإسلام قد يئسوا من أنْ ينتصروا على الإسلام بقوة عسكرية بعد أن كتَّلوا كلَّ قواهم فى الحروب الصليبية ، ولم يبْقَ لهم إلا أنْ يدخلوا علينا من خلال مناهجهم ، ومن خلال المستشرقين هناك ، والمستغربين منا ، فينقلوا لنا ثقافات أجنبية بعيدة عن منهجنا ، وهم معذورون لأنهم لا يعلمون منهج الله فى دين الله.

إذن : فالرباط لا بُدَّ أن يكون أيضًا فى رباط الأفكار ، ورباط العلم المادى.

إن خصوم الإسلام يدخلون على الناس من مداخل متعددة ، فيجب أن ننبه النشء إليها ، يقولون : أوربا ارتقتْ حضاريًا وأنتم يا مسلمون تخلفتم . نقول لهم : هل كان التخلف مقارنًا للإسلام؟ لقد كانت الدولة الإسلامية هى الدولة الحضارية الأولى فى العالم لمدة ألف سنة ، وأوربا التى تتشدَّقون بحضارتها كانت تعيش فى العصور المظلمة . إن هؤلاء لم يعرفوا تاريخنا ، أو هم يتكلمون لأناس لا يعرفون تاريخهم.

إذن : فالمرابطة أنْ توضح أمور دينك توضيحًا يقف أمام أى وافدة قبل أن تَفدَ بالعدوان المسلح ، ويجب أنْ تقف لغزو الأفكار ولهدم المبادئ ، ولذلك قال الحق : «اصبروا» ، و «صابروا» ، و «رابطوا» ، وجماع كل ذلك «الصبر على» ، و « الصبر عن » ، و « الصبر فى » والمصابرة للعدو والتواصى بالصبر ، والرباط بمعنييه المادى والمعنوى ، أى : بالأمور المادية والأمور المعنوية القيمية.

□□□

١٧ حقوق المرأة

لم تعرف الجاهلية قبل الإسلام للمرأة حقوقها الإنسانية ، فنزلت بها نزولاً شنيعًا عن منزلة الرجل ، بل كانت شبه سلعة تُتَّخذ للتسلية والمتعة فجاء الإسلام ليرفع عنها هذا كله ، ويردّها إلي مكانها الطبيعي في كيان الأسرة ، وإلي دورها الجدِّي في النظام البشري.

يقول الحق سبحانه : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا وَلا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلاَّ أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾﴾ (النساء)

يريد الحق سبحانه وتعالى أن يعالج قضية تتعلق بالنساء وباستضعافهم ، لقد جاء الإسلام والنساء فى الجاهلية فى غَبْن وظلم وحَيْف عليهن .

والحق سبحانه يقول : ﴿لا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا ﴿١٩﴾﴾ (النساء)

فهل المقصود ألاَّ يرث الوارث من مورثه إماء تركهن ؟ لا . إن الوارث يرث من مورثه الإماء اللاتى تركهن ، ولكن عندما تنصرف كلمة «النساء» تكون لأشرف مواقعها أى : للحرائر ، لأن الأخريات تعتبر الواحدة منهن مِلْك يمين.

﴿لا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا ⦗١٩⦘﴾ (النساء) ، وهل هناك ميراث للنساء برضى ؟ وكيف تورث المرأة؟

ننتبه هنا إلى قوله سبحانه (كرهًا) ، وكان الواقع فى الجاهلية أن الرجل إذا مات وعنده امرأة جاء وليُّه ، وألقى ثوبه على امرأته فتصير ملْكًا له ، وإن لم تقبل فإنه يرثها كرهًا ، أو إن لم يكن له هوى فيها فهو يحبسها عنده حتى تموت ويرثها ، أو يأتى واحد ويُزوِّجها له ، ويأخذ مهرها لنفسه ، كأنه يتصرف فيها تصرُّف المالك.

لذلك جاء القول الفصل : ﴿لا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا وَلا تَعْضُلُوهُنَّ ⦗١٩⦘﴾ (النساء) ، والعضل فى الأصل هو المنع ، ويقال «عضلت المرأة بولدها» ، ذلك أصل الاشتقاق بالضبط ، فالمرأة ساعة تلد ، فمن فضل الله عليها أن لها عضلات تنقبض وتنبسط ، تنبسط فيتسع مكان خروج الولد ، وقد تعضل المرأة أثناء الولادة ، فبدلاً من أن تنبسط العضلات لتفسح للولد أن يخرج تنقبض ، فتأتى هنا العمليات التي يقومون بها مثل القيصرية .

إذن : فالعضل معناه مأخوذ من عضلت المرأة بولدها ، أى : انقبضت عضلاتها ولم تنبسط حتى لا يخرج الوليد ، وعضلت الدجاجة ببيضها ، أى : أن البيضة عندما تكون فى طريقها لتنزل فتنقبض العضلة فلا تنزل البيضة ، لأن اختلالاً وظيفيًا قد حدث نتيجة للحركة الناقصة.

ولماذا تأتى الحركة ناقصة للبسط ؟ لأن الحق سبحانه وتعالى لم يشأ أن يجعل الأسباب فى الكون تعمل آليًا وميكانيكيًا ، بحيث إذا وُجدت الأسباب يوجد المسبب ، لا ، ففوق الأسباب مسبب ، إن شاء قال للأسباب : قفى فتقف.

إذن : فكل المخالفات التى نراها تتم على خلاف ما تؤديه الأسباب ، إنما هى دليل طلاقة القدرة ، فلو كانت الأشياء تسير هكذا ميكانيكيًا ، فسوف يقول الناس : إن الميكانيكا دقيقة لا تتخلف.

لكن الحق سبحانه يلفتنا إلى أنه يزاول سلطانه فى ملكه ، فهو لم يزاول السلطان مرة واحدة ، ثم خلق الميكانيكا فى الكون والأسباب ثم تركها تتصرف ، لا ، هو يوضح لنا : أنا قيُّوم لا تأخذنى سِنَةٌ ولا نوم ، أقول للأسباب : اعملى أو لا تعملى . وبذلك نلتفت إلى أنه المسيطر .

فالعضل ، أخذنا منه كلمة «المنع» ، فعضلت المرأة أى : قبضت عضلاتها فلم ينزل الوليد ، وأنت ستعضلها كيف ؟ بأن تمنعها من حقها الطبيعى حين مات زوجها ، وأن من حقها بعد أن تقضى العدة أن تتزوج من تريد أو من يتقدم لها.

﴿ **وَلا تَعْضُلُوهُنَّ** ﴾ أى : لا تحبسوهن عندكم وتمنعوهن ، لماذا تفعلون ذلك؟

﴿ **لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ (١٩)** ﴾ (النساء) كأن هذا حكم آخر ، لا ترثوا النساء كرهًا هذا حكم ، وأيضًا لا تعضلوهن حكم ثانٍ .

والمثال عندما يكون الرجل كارهًا لامرأته فيقول لها : والله لن أطلقك ، أنا سأجعلك موقوفة ومعلقة لا أكون أنا لك زوجًا ، ولا أُمكنك أيضًا من أن تتزوجى ، وذلك حتى تفتدى نفسها ، فتبرئ الرجل من النفقة ومُؤخَّر الصداق ، فيحمى الإسلام المرأة ، ويُحرِّم مثل تلك الأفعال.

ويحرم الإسلام نوعًا آخر من العضل ، وهو منع المرأة من الرجوع والتزوج بمن طلقها قبلاً ، وهذا يقع فيه أهل المرأة ، يقول الحق سبحانه : ﴿**وَإِذَا طَلَّقْتُمُ**

النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ (٢٣٢)﴾ (البقرة)

فالله سبحانه وتعالى يريد أن يحصر مناقشة الأسباب في الانفصال أو الاستمرار بين الزوج والزوجة فقط ، فلا تتعدى إلى غير الزوج والزوجة ؛ لأن بين الاثنين من الأسباب ما قد تجعل الواحد منهما يُلين جانبه للآخر.

لكن ، إذا ما دخل طرف ثالث ليست عنده هذه ، فسوف تكبر في نفسه الخصومة ، ولا توجد عنده الحاجة فلا يُبقى على عِشْرة الزوجين ، فإذا ما تدخَّل الأب أو الأخ أو الأم في النزاع فسوف تشتعل الخصومة ، وكل منهم لا يشعر بإحساس كل من الزوجين للآخر ، ولا بليونة الزوج لزوجته ، ولا بمهادنة الزوجة لزوجها ، فهذه مسائل عاطفية ونفسية لا توجد إلا بين الزوج والزوجة ، أما الأطراف الخارجية فلا يربطها بالزوج ولا بالزوجة إلا صلة القرابة ، ومن هنا فإن حرص تلك الأطراف الخارجية على بقاء عِشْرة الزوجين لا يكون مثل حرص كل من الزوجين على التمسك بالآخر.

ولذلك يجب أن نفهم أن كل مشكلة تحدث بين زوج وزوجته ولا يتدخل فيها أحد تنتهي بسرعة بدون أم أو أب أو أخ ، ذلك لأنه تدخُّل طرف خارجي لا يكون مالكًا للدوافع العاطفية والنفسية التي بين الزوجين ، أما الزوجان فقد تكفي نظرة واحدة من أحدهما للآخر لأنْ تعيد الأمور إلى مجاريها.

فقد يُعجب الرجل بجمال المرأة ويشتاق إليها ، فينسى كل شيء ، وقد ترى المرأة في الرجل أمرًا لا تحب أن تفقده منه ، فتنسى ما حدث بينهما ، وهكذا ، لكن أين ذلك من أمها وأمه ، أو أبيها وأبيه؟ ليس بين هؤلاء وبين الزوجين أسرار وعواطف ومعاشرة وغير ذلك.

ولهذا ، فأنا أنصح دائمًا بأن يظل الخلاف محصوراً بين الزوج والزوجة ؛ لأن الله قد جعل بينهما سيالاً عاطفيًا ، فلابد أن تكون الخلافات بين الزوج والزوجة فى إطار الحياة الزوجية ، حتى يحفظهما سياج المحبة والمودة والرحمة ، أما تدخُّل الأطراف الأخرى فهو يحطم هذا السياج ، أيّاً كان الطرف أمًا أو أباً أو أخاً.

ولكن ، متى تعضلوهن ؟ هنا يقول الحق : ﴿ إِلَّا أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ﴾ (النساء ١٩) لأنهم سيحبسونهن ، وهذا قبل التشريع بالحد.

وقال بعض الفقهاء : للزوج أن يأخذ من زوجته ما تفتدى به نفسها منه ، وذلك يكون بمال أو غيره إذا أتت بفاحشة من زنا أو سوء عِشْرة ، وهذا ما يسمى بالخلع وهو الطلاق بمقابل يطلبه الزوج.

ويتابع الحق سبحانه الحديث عن حق آخر من حقوق المرأة ، فيقول : ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ١٩﴾ (النساء) وكلمة «المعروف» أوسع دائرة من كلمة المودة ، فالمودة هى أنك تحسن لمن عندك ودادة له ، وترتاح نفسك لمودته ، أنك فَرِح به وبوجوده ، لكن المعروف قد تبذله ولو لم تكره ، وهذه حَلَّتْ لنا إشكالات كثيرة.

فعندما أراد المستشرقون أن يبحثوا فى القرآن ليجدوا شيئًا يدَّعون به أن فى القرآن تعارضًا قالوا :

قرآنكم يقول : ﴿لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ٢٢﴾ (المجادلة)

كيف لا يُواد المؤمن ابنه أو أباه أو أحدًا من عشيرته لمجرد كفره ، والقرآن فى موضع آخر منه يقول : ﴿ **وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا (١٥)** ﴾ (لقمان)

ونقول : إن هؤلاء لم يفهموا الفرق بين المودة والحب . فـ «الود» شىء . و «المعروف» شىء آخر ، الود يكون عن حب ، لكن المعروف ليس ضروريًا أن يكون عن حب ، ساعة يكون جائعًا سأعطيه ليأكل وأُلبِّى احتياجاته المادية.

هذا هو المعروف ، أما الود فهو أن أعمل لإرضاء نفسى ، وساعة يعطف الرجل المؤمن على أبيه الكافر لا يعطف عليه نتيجة للوُدِّ ، إنما هو يعطف عليه نتيجة للمعروف ؛ لأنه حتى لو كان كافرًا سيعطيه بالمعروف.

ألم يعاتب الحق سبحانه إبراهيم فى ضيف جاء له ، فلم يكرمه لأنه سأله وعرف منه أنه غير مؤمن ، لذلك لم يُضيِّفه ؟ فقال له ربنا : أمن أجل ليلة تستقبله فيها تريد أن تغير دينه ، بينما أنا أرزقه أربعين سنة وهو كافر؟

فماذا فعل سيدنا إبراهيم ؟ جرى فلحق بالرجل وناداه . فقال له : يا رجل ما الذى جعلك تتغير هذا التغيير المفاجئ ؟ فقال له إبراهيم : والله إن ربى عاتبنى لأنى صنعت معك هذا . فقال له الرجل : أربُّك عاتبك وأنت رسول فىّ وأنا كافر به ؟ فنِعْم الرب رب يعاتب أحبابه فى أعدائه ، فأسلم.

هذا هو المعروف ، الحق يأمرنا أننا يجب أن ننتبه إلى هذه المسائل فى أثناء الحياة الزوجية ، وهذه قضية يجب أن يتنبه لها المسلمون جميعًا كى لا يخربوا البيوت ، إنهم يريدون أن يبنوا البيوت على المودة والحب ، فلو لم تكن المودة والحب فى البيت لخرُب البيت ، نقول لهم ، بل ﴿ **وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ (١٩)** ﴾ (النساء) حتى لو لم تحبوهن.

وقد يكون السبب الوحيد أنك تكره المرأة لأن شكلها لا يثير غرائزك ، يا هذا أنت لم تفهم عن الله ، ليس المفروض فى المرأة أن تثير غرائزك ، ولكن المفروض فى المرأة أن تكون مصرفًا ، إن هاجت غرائزك كيماويًا بطبيعتها وجدت لها مصرفًا.

فأنت لا تحتاج لواحدة تغريك لتحرك فيك الغريزة ؛ ولذلك قال ﷺ : «إذا رأى أحدكم امرأة فأعجبته فليأت أهله ، فإن البُضْع واحد ، ومعها مثل الذى معها»[1].

ولذلك عندما جاء رجل لسيدنا عمر رضي الله عنه وقال : يا أمير المؤمنين ، أنا كاره لامرأتى وأريد أن أطلّقها ، قال له : أو لم تُبْن البيوت إلا على الحب ، فأين القيم؟

لقد ظن الرجل أن امرأته ستظل طوال عمرها خاطفة لقلبه ، ويدخل كل يوم ليقبلها ، فيلفته سيدنا عمر إلى أن هذه مسألة وجدت أولاً ، وبعد ذلك تنبت فى الأسرة أشياء تربط الرجل بالمرأة ، وتربط المرأة بالرجل.

لذلك يقول الحق : ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا (١٩)﴾ (النساء)

أنت كرهتها فى زاوية ، وقد تكون الزاوية التى كرهتها فيها هى التى ستجعلها تحسن فى عدة زوايا ، لكى تعوض بإحسانها فى الزوايا الأخرى هذه

---

(١) نص الحديث كما أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٣/ ٣٣٠) من حديث جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ رأى امرأة فأعجبته فأتى زينب وهى تمعس منية فقضى منها حاجته وقال : «إن المرأة تقبل فى صورة شيطان وتدبر فى صورة شيطان ، فإذا رأى أحدكم امرأة فأعجبته فليأت أهله ، فإن ذلك يرد مما فى نفسه».

الزاوية الناقصة ، فلا تَبْنِ المسألة على أنك تريد امرأة عارضة أزياء لتثير غرائزك عندما تكون هادئًا.

لا ، فالمرأة مصرف طبيعى إنْ هاجت غرائزك بطبيعتها وجدتَ لها مصرفًا ، أما أن ترى فى المرأة أنها ملهبة للغرائز ، فمعنى ذلك أنك تريد من المرأة أن تكون غانية فقط ، وأن تعيش معك من أجل العلاقة الجنسية فقط ، لكن هناك مسائل أخرى كثيرة ، فلا تأخذ من المرأة زاوية واحدة هى زاوية الانفعال الجنسى ، وخذ زوايا متعددة.

واعلم أن الله وزع أسباب فضله على خلقه ، هذه أعطاها جمالاً ، وهذه أعطاها عقلاً ، وهذه أعطاها حكمة ، وهذه أعطاها أمانة ، وهذه أعطاها وفاء ، وهذه أعطاها فلاحًا ، هناك أسباب كثيرة جدًا ، فإن كنت تريد أن تكون منصفًا حكيمًا فخذ كل الزوايا ، أما أن تنظر للمرأة من زاوية واحدة فقط هى زاوية إهاجة الغريزة ، هنا نقول لك : ليست هذه هى الزاوية التى تصلح لتقدير المرأة فقط.

﴿فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾﴾ (النساء)

وانظر إلى الدقة فى العبارة ﴿فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا﴾ فأنت تكره ، وقد تكون محقًا فى الكراهية أو غير مُحقٍ ، إنما إنْ كرهت شيئًا يقول لك الله عنه : ﴿وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾﴾ (النساء)

فاطمئن أنك إنْ كرهتَ فى المرأة شيئًا لا يتعلق بدينها ، فاعلم أنك إن صبرتَ عليه يجعل الله لك فى بقية الزوايا خيرًا كثيرًا ، وما دام ربنا هو من يجعل هذا الخير الكثير فاطمئن إلى أنك لو تنبهت لزاوية أنت تكرهها ومع ذلك تصبر عليها ، فأنت تضمن أن ربنا سيجعل لك خيرًا فى نواحٍ متعددة ، إن

أى زاوية تغلبت على كرهك سيجعل الله فيها خيراً كثيراً.

إن الحق يطلق القضية هنا فى بناء الأسرة ثم يعمم ، وكان بإمكانه أن يقول : فعسى أن تكرهوهن ويجعل الله فيهن خيراً ، لا . فقد شاء أن يجعلها سبحانه قضية عامة فى كل شىء قد تكرهه ، وتأتى الأحداث لتبين صدق الله فى ذلك ، فكم من أشياء كرهها الإنسان ثم تبيَّن له وجه الخير فيها ، وكم من أشياء أحبها الإنسان ثم تبيَّن له وجه الشر فيها ، ليدلك على أن حكم الإنسان على الأشياء دائمًا غير دقيق ، فقد يحكم بكره شىء وهو لا يستحق الكره ، وقد يحكم بحب شىء وهو لا يستحق الحب.

◻◻◻

١٨ حرمة أكْل الأموال بالباطل

مقصود الإسلام على الدوام من التكاليف الشرعية والمنهيات هو تطهير المجتمع الإسلامى من كل ما يشوب طهارته ونقاءه ، والحفاظ عليه من المهاوي التي من الممكن أن يهوي فيها بسبب أكل أموال الناس بالباطل بكل أنواعه من : غش ، وتدليس، وربا ، واختلاس ، واحتيال ، ورشوة ، وسرقة ، واحتكار ، وبيع ما لا يباع كالعِرْض والذمة والضمير والخُلق والدين.

يقول الحق سبحانه :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ وَلا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا (٢٩) ﴾ (النساء)

ها هو ذا سبحانه يتكلم عن المال ، وهو الذى يقيم الحياة ، والمال كما نعرف ثمرة الجهد والمشقة ، وكل ما يتمول يعتبر مالاً ، إلا أن المال ينقسم إلى قسمين : مال يمكن أن تنتفع به مباشرة ، فهناك من يملك الطعام ، وآخر يملك الشراب ، وثالث يملك أثوابًا ، وهذا نوع من المال يُنتفع به مباشرة ، وهناك نوع آخر من المال وهو «النقد» ولا يُنتفع به مباشرة ، بل يُنتفع به بإيجاد ما ينتفع به مباشرة.

وهكذا ينقسم المال إلى رزق مباشر ، ورزق غير مباشر ، والحق سبحانه وتعالى يريد أن يحمى حركة الحياة ؛ لأنه بحماية حركة الحياة يغرى المتحرك بأن يتحرك ويزداد حركة ، ولو لم يَحْمِ الحق حركة الحياة وثمرة حركة الحياة ، فماذا يقع ؟ تتعطل حركة الحياة.

وإننا نلاحظ أن كل مجتمع لا يُؤْمَن فيه على الغاية والثمرة من عمل الإنسان تقلّ حركة العمل فيه ، ويعمل كل واحد على قدر قوته.

يقول لنفسه : لماذا أعمل ؟ لأنه غير آمن . لكن إذا كان آمناً على ثمرة حركته يغريه الأمن على ماله على أن يزيد فى حركة العمل ، وحين تزيد حركة العمل فالمجتمع ينتفع ، وإن لم يقصد المتحرك ، فليس ضروريًا أن يقصد الإنسان بكل حركته أن ينفع المجتمع ، لا ، اجعله يعمل لنفع نفسه.

ونضرب مثلاً هنا ، فلو أن إنسانًا عنده آلاف الجنيهات وبعد ذلك وضعها فى خزانة ثم تساءل : لماذا أضعها فى خزانة ؟ لماذا لا أبنى بها بيتًا آخر وأكري منه شقتين ، فسيأتينى منه عائد ؟ هل كان المجتمع فى بال مثل هذا الإنسان ؟ لا ، إن باله مشغول بمصلحته ؛ لذلك فلنجعل مصلحة كل إنسان فى باله ، وهنا سيستفيد المجتمع بحركته ، قصد أو لم يقصد.

فهو ساعة يأتى ليحفر الأساس سيعطى أناسًا أجورهم ، وساعة يأتي بالطوب يشتريه بثمن ، وساعة يبنى يعطى المهندس والعمال أجورهم ؛ لذلك أقول : اعمل لنفسك فى ضوء شرع الله ، وسينتفع المجتمع قهراً عنك.

ومن العجيب أنك تريد أن تنفع نفسك ، فيبين لك ربنا : أنت ستنفع غيرك قبل أن تنتفع بعائد المنزل الذى بنيتَه ، ولا تظن أن أحدًا سيأخذ رزق ربنا ولن يجريه على الخلق ، لا ، إن المجتمع سينتفع بالرغم منك.

إذن : فمن حظ المجتمع أن نصون حركة الحياة ، ونُؤمِّن كل متحرك فى الحياة على ماله ، لكن إن كنا حاكمين يجب أن تكون أعيننا مبصرة : أيكسب من حلٍّ أم لا ؟ فإذا كان الكسب حلالاً نشكره ، أما إذا كان يكسب من حرام ، فنحن نسائله ، وإن عمل على غير هذا توقفت حركة الحياة ، وإن توقفت حركة الحياة ، فهذا أمر ضار بالذين لا يقدرون على الحركة ، لماذا؟

لأن الله قسم المواهب على الناس ، فليس كل واحد من الناس يملك الطموح الحركى ، ولا يملك كل إنسان فكرًا يخطط به ، فقد لا يكون فى المجتمع إلا قلة تخطط ، والباقون هم جوارح تنفعل للفكر المخطط ، والفكر يعمل لجوارح كثيرة ، فكذلك يكون هناك مفكر واحد هو الذى يضع خطة ينتفع بها كثير من الناس.

إذن : فلابد أن نرعى حركة المتحرك وننميها ، لأن المجتمع ينتفع منها ، وإن لم يقصد المتحرك إلا مصلحة نفسه ، صحيح أن الذى ليس فى باله إلا نفسه إنما يحبط ثواب عمله ، وصحيح أن من يضع الناس فى باله إنما يعطى ثمرة عمله ويأخذ ثوابًا أيضًا من الله.

والحق سبحانه وتعالى يأتى فى مسائل المال ويوضحها توضيحًا تامًا ليحمى حركة الحياة ، ويُغرى الناس بالحركة ، وبذلك يتعدد المتحركون وتتعدد الحركات ويستفيد المجتمع ، فقال : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ** (٢٩) ﴾ (النساء)

وقول الحق : (لا تأكلوا) فهذا أمر لجمع . و (أموالكم) أيضًا جمع ، فيكون معناه : لا يأكل كل واحد ماله ، وكيف لا يأكل كل واحد منكم ماله ؟

يوضح الحق (بالباطل) ، فيكون مطلوبًا من كل واحد منكم ألاَّ يأكل ماله

بالباطل ، والإنسان يأكل الشيء لينتفع به ، والحق يوصيك ويأمرك : إياك أن تصرف قرشًا من مالك وتضيعه إلا في حق ، هذا إذا كنا سنقابل المفرد ، فلا يأكل واحد منكم ماله بالباطل ، بل يوجهه إلى الأمر النافع ، الذى ليس فيه حرمة ، والذى لا يأتى بعذاب فى الآخرة.

وتحتمل الآية معنى : لا يأكل كل واحد منكم مال أخيه ، فعادةً أوامر الحق سبحانه ليست موجهة إلى طائفة خُلقت على أن تكون آكلة ، وطائفة خُلقت على أن تكون مأكولة ، بل كل واحد عُرْضة فى مرة أن يكون آكلاً لمال غيره ، ومرة أخرى يكون ماله مأكولاً.

فأنا إذا أكلت مال غيرى فسوف يأكل غيرى مالى ، فأكون قد عملت له أسوة ، ويأكل مالى أيضًا ، فكأنه سبحانه عندما يقول لك : لا تأكل مالك إنما ليحمى لك مالك .

إن الحق سبحانه وتعالى يريد أن يصنع من المجتمع الإيمانى مجتمعًا واحدًا ، ويقول : إن المال الذى عند كل واحد هو للكل ، وأنك إن حافظت على مال غيرك حافظ غيرك على مالك ، وأنت إن اجترأتَ على مال غيرك فسيجترىء المجموع على مالك ، أنت ساعة تأكل مال واحد تُجرِّىء آلاف الناس على أن يأكلوا مالك ، وحين لا تأكل مال غيرك كأنك لم تأكل مالك.

وحينما نزلت الآية قال المسلمون : نحن لا نأكل أموالنا بالباطل ، وتحرَّجوا أن يأكلوا عند إخوانهم . وبعد ذلك رُفِع الأمر إلى رسول الله ﷺ ، فأوضح أن أكل التكارم ليس بالباطل ، وأنزل الله قوله تعالى :

﴿ لَيْسَ عَلَى الأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلا عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ

إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا (٦١)﴾ (النور)

هذه الآية رفعت الحرج عنهم ، والباطل هو أن تأخذ الشيء بغير حقه ، مثال ذلك الربا ؛ لأن معنى «ربا» أن واحدًا عنده فائض وآخر يحتاج ، والمحتاج ليس عنده الأصل ، أنطلب منه أن يرد الأصل وزيادة ، ويعطى الزيادة لمن عنده ؟

كيف يتأتَّى هذا ؟ هذا هو الأخذ بالربا ، أو الأخذ بالسرقة ، بالاختلاس ، أو الرشوة ، أو بالغش فى السلع ، كل ذلك هو أكل مال بالباطل ، وساعة تريد أن تأكل مالاً بالباطل ، كأنك تريد أن تتمتع بثمرة عمل غيرك ، وأنت بذلك تتعود على التمتع بثمرة عمل غيرك ، وتضمحل عندك قدرة العمل ويصير أَخْذك من غيرك أخذًا لماله كرهًا وبغير وجه حق .

وبذلك تتعطل حركة متحرك فى الحياة وهو ذلك العاطل ، ويخاف المتحرك فى الحياة وهو من تُفرض عليه الإتاوة فيقلّ ويضعف نشاطه فى الحياة ، كيف يكون شكل هذا المجتمع ؟ إن المجتمع فى هذه الحالة سيعانى من كرب وصعوبات فى الحياة.

فقوله سبحانه : ﴿ لا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ (٢٩)﴾ (النساء) هو أمر لكل مسلم : لا تُرابِ ، ولا تسرق ، ولا تغش ، ولا تدلس ، ولا تلعب مَيْسرًا ، ولا ترتش ، لأن كل هذه الأمور هى أكل أموال بالباطل ، وعندما ندقق فى مسألة لعب الميسر مثلاً نجد أمرًا عجيبًا ، فالذين يلعبون الميسر يدَّعون أنهم أصدقاء ، وينتظر بعضهم بعضًا ويأكلون معًا ، وكل واحد منهم يجلس أمام الآخر وهو حريص أن يأخذ ما فى جيبه ، فأىُّ صداقة هذه؟

الحق قال لك : لا تأخذ مال غيرك لكى لا يأخذ غيرُك مالك ، وبذلك تكسب أنت ويكسب كل المجتمع ، فحين يصدر أمر لإنسان أن يكف يده عن السرقة فهو أمر للناس جميعًا كى يكفُّوا عن سرقة هذا الإنسان ، لذلك فحين تستقبل أى حكم عن الله لا تنظر إلى ما أخذه الحكم من حريتك ، ولكن انظر إلى ما أعطاه الحكم لصالحك من حرية الآخرين.

ومثال ذلك : حين ينهى الحق سبحانه عن النظر إلى المرأة الأجنبية ، فإياك أن تمدَّ عينيك إلى محارم غيرك ، هو أمر لا يخصك وحدك ، ولكنه أمر لملايين الناس ألاَّ يمدوا عيونهم إلى محارمك ، وعندما توازن الأمر فأنت الذى تكون أكثر كسبًا.

إننى لذلك أقول دائمًا : لا تنظر إلى ما فى التكليف من مشقة أو إلى ما أُخذ منك ، ولكن انظر فيه إلى ما يعطى لك ، فإن نظرت هذه النظرة وجدت كل تكليف من الحق هو ربح لك أنت ، وإلا لو أننا أطلقنا يدك فى الناس جميعًا لابد أن تُقدِّر أننا نطلق أيدى الناس جميعًا فيك ، وأنت إذا أطلقتَ يدك فى الناس فلن تؤثر فيهم مثلما يؤثرون فيك لو أطلقوا أيديهم فيك وفيما يخصُّك ، فمن مصلحتك ألا تطلق يدك فى الناس.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ (٢٩)﴾ (النساء) أى : إلا فى النفعية المتبادلة تبادل الأعواض ، فشىء عوَض شىء ، وجاءت التجارة ، لأن التجارة هى الحلقة الجامعة لأعمال الحياة ، فالتاجر وسيط بين من ينتج سلعة ومن يستهلكها ، والسلع فى حركتها إنتاج واستهلاك ، والإنتاج قد يكون زراعيًا أو صناعيًا أو خدميًا. إذن : فالتجارة جامعة لذلك كله.

وكلمة «عن تراض» تدل على أن رضا النفس البشرية فى الأعواض مشروط ، حتى ما أُخذ بسيف الحياء يكون حرامًا ، لذلك أقول : على كل واحد أن يغربل إيمانه ، وينظر هل حياته فى أعواض الأموال وأعواض التجارة وأعواض المبادلات مستوية أو غير مستوية ؟ فإن لم تكن مستوية ، فعليه أن يفكر فيها قليلاً حتى يعطى كل ذى حق حقه.

وحتى لا يدخل فى دائرة حديث رسول الله ﷺ : «إنما أنا بشر ، وإنكم تختصمون إلىَّ ، فلعلَّ بعضكم أن يكون ألحنَ بحجته من بعض ، فأقضى له على نحو ما أسمع ، فمن قضيتُ له بحق مسلم فإنما هى قطعة من النار ، فليأخذها أو ليتركها»(١).

□□□

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٧١٣) كتاب الأقضية من حديث أم سلمة رضى الله عنها.

١٩ طاعة أولى الأمر

منهج الإيمان ونظامه الأساسي أن نطيع الله في هذا القرآن ، وأن نطيع رسوله في سنته وأولي الأمر من المؤمنين الداخلين في شرط الإيمان وحدّ الإسلام.

فإذا اختلف الناس وتنازعوا في شيء وخاصة المسائل الطارئة المتجددة والأقضية التي لم ترد فيها أحكام نصية ، فلنردها إلي الأحكام العامة لله ورسوله ، وبهذا يبقي المنهج الرباني مهيمنًا علي ما يطرأ علي الحياة من مشكلات وأقضية كذلك.

يقول الحق سبحانه : ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً** (٥٩)﴾ (النساء)

ساعة تستقرىء أمر الله بالطاعة فى القرآن الكريم ، فأنت تجدها فى صور متعددة ، فمرة يقول : ﴿**وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ..** (٩٢)﴾ (المائدة) ، فقد كرر الأمر بالطاعة لله وللرسول ، فالإطاعة لله فى الحكم العام ، وإطاعة الرسول فى تفصيله.

ومرة يقول سبحانه : ﴿**قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ ..** (٣٢)﴾ (آل عمران) إنه هنا لا يكرر أمر الطاعة ، فهناك أمر للطاعة ، وهناك مطاع ، وهناك مطيع ، والمطيع هم المخاطبون ، فهو هنا يُوحِّد أمر الطاعة ، والمطاع هو الله ، والرسول يأتى معطوفًا على لفظة الجلالة.

ومرة يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ۝٥٦﴾ (النور) نحن - إذن - أمام حالات للطاعة :

الأولى : وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول.

والثانية : أطيعوا الله والرسول.

والثالثة : أطيعوا الرسول.

ومرة واحدة فقط يعطف على ذلك «أولى الأمر» ، فيقول جل وعلا : ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ .. ۝٥٩﴾ (النساء)

والحق سبحانه يقول هنا : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا .. ۝٥٩﴾ (النساء) فما دمت قد آمنت بالله إلهًا حكيمًا خالقًا عالمًا مكلفًا فاسمع ما يريد أن يقوله لك ، فلم يكلف الله مطلق أناس بأن يطيعوه ، إنما دعا مطلق الناس أن يؤمنوا به ، ومن يؤمن يقول له : أطعنى ما دمتَ قد آمنت بى.

إذن : فحيثية الطاعة لله وللرسول ﷺ نشأت من الإيمان بالله وبالرسول ، وهذه عدالة كاملة ، لأنه سبحانه لا يكلف واحدًا أن يفعل فعلاً إلا إذا كان قد آمن به سبحانه مكلِّفًا ، آمن به آمرًا ، أما الذين لا يؤمن به فهو لا يقول له : افعل كذا ولا تفعل كذا ، إنه سبحانه يطالبه أن يؤمن به أولاً ، فإذا ما آمن به يقول له : استمع إلىَّ.

إن حيثية إطاعة الله وإطاعة الرسول ﷺ هى : الإيمان به ، هذه هى الحيثية الإيمانية الأولى ، أما إنْ جال ذهنك لتدرك سر طاعته ، فهذا موضوع آخر ، ولذلك أوضح : إياكم أن تُقبلوا على أحكام الله بالبحث فيها أولاً ، فإن اقتنعتم بها أخذتموها ، وإن لم تقتنعوا بها تركتموها ، لا ، إن مثل هذا التصرف معناه أنك شككت فى الحكم ، بل عليك أن تُقبل على تنفيذ أحكامه ، لأنه سبحانه قالها وأنت مؤمن بأنه إله حكيم.

وطاعتنا لله تختلف عن طاعتنا للمخلوق ، فنحن نطيع الله لأننا آمنا به ، وحينما يطلب سبحانه منا أن نطيعه ، ننظر : هل هذه الطاعة لصالحنا أو لصالحه ؟ فإذا وثقنا أنه بكل صفات الكمال الموجودة له خلقنا . إذن : فسبحانه لا يريد صفة جديدة تكون له ، لأنه لم يخلقنا إلا بصفات الكمال فيه وسبحانه قد خلقك دون أن يكون له حق الخلق عنده ، خلقك بقدرته ، وأمدَّك لاستبقاء حياتك بقيوميته ، فحين يطلب منك الإله الذى يتصف بتلك الكمالات شيئًا فهو يطلبه لصالحك ، كما ترى أى إنسان من البشر - ولله المثل الأعلى - يُعنى بصنعته ، ويحب أن تكون صنعته متميزة ، فكذلك الحق سبحانه يريد أن يباهى بهذا الخلق.

وهو سبحانه يباهى بهذا الخلق ، ليس بالإكراه على أن يفعلوا ما يأمر به بالتسخير ، لا ، بل بالمحبوبية لأمر الله وأن نعلن بسلوكنا : نحن نحبك يا ربنا ، وإلا فأنت - أيها الإنسان - قد تختار أن تكون عاصيًا.

وما دمت مختارًا أن تكون عاصيًا ثم أطعت ، فهذه تثبت لله صفة المحبوبية ؛ لأنه - كما نعرف - هناك فرق بين من يقهر بقدرته ، ومن يعطيك الاختيار حتى تأتيه وأنت محب ، على الرغم من أنه قادر على أن يقهرك.

فساعة قال الحق : ﴿**أَطِيعُوا اللَّهَ** .. ﴿٥٩﴾﴾ (النساء) معناها : أنه لم يطلب منا شططًا ، وكيف نطيع الله ؟ أن نطيعه فى كل أمر ، وهل أمر الله خَلْقه منفردين ؟ لا ، بل أمرهم كأفراد وكجماعة ، وأعطاهم الإيمان الفطرى الذى يثبت أن وراء الكون قوة أخرى خلقته ، وهذه القوة لا يعرف أحد اسمها ، ولا مطلوباتها ، أو ماذا ستعطى لمن يطيعها ، إذن : فلابد أن يوجد مُبلِّغ.

لابد من بلاغ عنه يقول : افعلوا كذا وكذا وكذا . إذن فقوله : ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ﴾ يلزم منه إطاعة الرسول.

وبعد ذلك قال ﴿وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ .. (٥٩)﴾ (النساء) وأولو الأمر هنا لم يتكرر لهم الفعل ، فلم يقل : وأطيعوا أولى الأمر لنفهم أن أولى الأمر لا طاعة لهم إلا من باطن الطاعتين : طاعة الله وطاعة الرسول ، فطاعة ولى الأمر ملزمة إن كانت من باطن طاعة الله وطاعة رسوله ، وفى ذلك عصمة للمجتمع الإيمانى من الحكام المتسلطين الذين يحاولون أن يستذلوا الناس بقول الله : ﴿وَأُوْلِي الأَمْرِ .. (٥٩)﴾ (النساء) ويدَّعون أن طاعتهم واجبة.

يقول الواحد منهم : ألست ولى الأمر ؟ فيرد العلماء : نعم أنت ولى الأمر ، ولكنك معطوف على المطاع ، ولم يتكرر لك أمر الطاعة ، فدلَّ ذلك على أن طاعتك واجبة إن كانت من باطن الطاعتين ، فإنْ لم تكن من باطن الطاعتين فلا طاعة لك ، لأن القاعدة هى : «لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق».

هكذا قال أبو حازم لمسلمة بن عبد الملك حينما قال له : ألسنا ولاة الأمر وقد قال الله ﴿ وَأُوْلِي الأَمْرِ .. (٥٩)﴾ (النساء) . قال : ويجب أن نفطن أيضًا إلى أنها نزعت فى قوله سبحانه : ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ (٥٩)﴾ (النساء).

إذن : فالحاكم المسلم مطالب أولاً بأداء الأمانة ، ومُطَالب بالعدل ، ومُطَالب أيضًا أن تكون طاعته من باطن طاعة الله وطاعة رسوله ، فإن لم تكن فيه هذه الشروط ، فهو حاكم متسلط.

﴿ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ (٥٩)﴾ (النساء) إذن :

فالتنازع لابد أن يكون فى قضيـة داخلة فى نطاق مأمورات الطاعة ، ويجب أن يكون لها مردّ يُنهى هذا التنازع.

والذين يعـرفون هذه الأحكام هم العلمـاء ، فإن تنازع المحكوم مع الحـاكم نذهب إلى العلـماء ليـبـينوا لنا حـكم الله فى هذه المسـألة ، إذن : فـإن أريد بـ «أولى الأمر» الحـاكم . نقول له : ﴿ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ (٥٩) ﴾ (النساء) أي : على الحاكم أن يتبع ما ثبت عن الله والرسول.

والحجة فى ذلك هم العلماء المشتـغلون بهذا الأمر ، وهم الملاحظون لتنفيذ حكم الله بما يعرفونه عن الدين ، والحق سـبحانه وتعالى حين يطلب منا ذلك ، يريد أن يُنهى مسألة التنازع ، لأن الـتنازع يجعل حركات الحياة مـتضاربة ، هذا يقول بكذا ، وذلك يقول بكذا ، فلابد أن نرده إلى مردٍّ أعلى.

والحق سبحانه يقول : ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ .. (٨٣) ﴾ (النساء) إذن : فقـد يكون المراد بأُولى الأمر «العلماء» نقـول : إن الآية الأولى عامة وهـى التى جاءت بها طاعـة ولى الأمر ضمن طاعة الله والرسول ، والثانية التى تخص الاستنباط يكون المقصود بأُولِى الأمر هم العلماء.

وأولو الأمر فى القضية الأولى التى عندما نتنازع معهم فى أمر نرده إلى الله والرسول هم الذين يشرفـون على تنفيذ أحكام الله ، وهذه سلطة تنفـيذية ، أما سلطة العلماء فهى تشريعية إيمانية.

﴿فَـرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُـولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَـوْمِ الآخِـرِ (٥٩) ﴾ (النسـاء) إذن : فالذى لا يفـعل ذلك يجـازف بأن يدخل فى دائرة من لا يؤمن بالله واليوم الآخر ، ونقول لكل منهـم : راجع إيمانك بالله واليوم الآخر ابتداءًا

فى تلقِّى الحكم ، وإيمانًا باليوم الآخر لتلقى الجزاء علـى مخالفة الحكم ، فالحق لم يجعل الدنيا دار الجزاء.

□□□

٢٠ أخْذ الحذر .. والاستعداد الدائم للنفرة للجهاد

هذا الكتاب لا يُعلِّم المسلمين العبادات والشعائر فحسب ، ولا يُعلِّمهم الآداب والأخلاق فحسب كما يتصور الناس الدين ذلك التصور المسكين ، إنما هو يأخذ حياتهم كلها جملة ، لتكون بجملتها من صنع هذا المنهج ، وتحت تصرُّفه وتوجيهه.

فها هو القرآن يرسم للمسلمين الخطة العامة للمعركة ، وليأخذوا حذرهم ، لا من العدو الخارجى وحده ، ولكن أيضًا من المعوِّقين المبطِّئين المخذِّلين.

يقول الحق سبحانه :﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُوا جَمِيعًا (٧١) ﴾ (النساء)

يؤكد التاريخ البشرى أن الفساد يطم عندما يتعطل منهج الله ، والله يتدخَّل برسالة ، وكل رسالة جاءت كان لها خصوم وهم المنتفعون بالشر ، وهؤلاء لن يتركوا منهج الله يسيطر ليسلبهم هذه الهيمنة والسيطرة والقهر والجبروت والانتفاع بالشر ، بل يحاربون رسالات السماء.

ويلفتنا الحق سبحانه إلى أن أهل الشر والناس المنفلتين من مناهج السماء وغير المتدينين سيسببون لكم متاعب ، فبعدما توطنون أنفسكم التوطين الإيمانى انتبهوا إلى خصومكم وأعدائكم فى الله.

لقد قال الحق سبحانه فى هذه القضية : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُوا جَمِيعًا (٧١) ﴾ (النساء)

فإياكم أن تنتظروا حتى يترجموا عداءهم لكم إلى عدوان ، لأنهم سيعجلونكم ، فلا توجد عندكم فرصة زمنية كى تواجهوهم ، فلابد لكم أيها المؤمنون من أَخْذ الحذر ، لأن لكم أعداء ، وهؤلاء الأعداء هم الذين لا يحبون لمنهج الله أن يسيطر على الأرض ، فحين يسيطر منهج الله على الأرض فلن يوجد أمام أهواء الناس فرصة للتلاعب بأقدار الناس ، ومن ينتفعون بسيطرتهم وبأهوائهم على البشر لن يجدوا لهم فرصة سيادة.

ولذلك يقول الحق سبحانه : ﴿**وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ** ... ⦗٦٠⦘﴾ (الأنفال)

فهذا تكليف من الله تعالى لعباده المؤمنين الذين يجاهدون لإعلاء كلمته بضرورة أن يعدوا دائمًا قدر إمكانهم ما استطاعوا من قوة ، والقصد من إعداد هذه القوة هو إرهاب العدو حتى لا يطمع فيكم ، لأن مجرد إعداد القوة هو أمر يُسبِّب رهبًا للعدو.

ولهذا تقام العروض العسكرية ليرى الخصم مدى قوة الدولة ، وحين تبين لخصمك القوة التى تملكها لا يجترئ عليك ، ويتحقق بهذا ما نسميه بلغة العصر «التوازن السلمى» ، والذى يحفظ العالم الآن بعد سقوط الاتحاد السوفيتى هو التوازن السلمى بين مجموعات من الدول ، بالإضافة إلى العامل الاقتصادى المكلِّف للحرب.

فالقوة الآن لا تقتصر على السلاح فقط ، ولكن تعتمد القوة على عناصر كثيرة منها الاقتصاد والإعلام وغيرهما ، وصار الخوف من رد الفعل أحد الأسباب القوية المانعة للحرب ، وكل دولة تخشى مما تخفيه أو تظهره الدولة الأخرى ، وهكذا صار الإعداد للحرب ينفى قيام الحرب.

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ **فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُوا جَمِيعًا** (٧١) ﴾ (النساء) أى : لتكُنْ النفرة منكم على مقدار ما لديكم من الحذر ، و «ثبات» جمع ثُبَة ، وهى الطائفة . أى : انفروا سرية بعد سرية.

و «جميعًا» أى : اخرجوا كلكم لمواجهة العدو ، وعلى ذلك يجب أن نكون على مستوى ما يهيج من الشر ، فإن هاجمتنا فصيلة أو سرية ، نفعل كما يفعل رسول الله ﷺ ، فقد كان يرسل سرية على قدر المسألة التى تهددنا ، وإن كان الأمر أكبر من ذلك ويحتاج لتعبئة عامة فنحن ننفر جميعًا.

ولاحظوا أن الحق يخاطب المؤمنين ويعلم أن لهم أغيارًا قد تأتى فى نفوسهم مع كونهم مؤمنين ، فقد تخور النفس عند مواجهة الواقع على الرغم من وجود الإيمان.

لذلك قال الحق سبحانه فى سورة البقرة : ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ . . .** (٢٤٦) ﴾ (البقرة)

لقد كانوا هم الذين يطلبون القتال ، وما داموا هم الذين قد طلبوا القتال ، فلابد أن يفرحوا حين يأتى لهم الأمر من الله بذلك القتال ، لكن الله أعلم بعباده.

لذلك قال لهم : ﴿**هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا . . .** (٢٤٦) ﴾ (البقرة) ، فأوضح لهم الحق أن فكّروا جيدًا فى أنكم طلبتم القتال ، وإياكم ألاّ تقاتلوا عندما نكتب عليكم هذا القتال ، لأننى لم أفرضه ابتداء ، ولكنكم أنتم الذين طلبتم.

ولأن الكلام ما زال نظريًا فقد قالوا متسائلين : ﴿**وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا ...** (٢٤٦)﴾ (البقرة)

لقد تعجبوا واستنكروا ألاَّ يقاتلوا فى سبيل الله ، خصوصًا أنهم يملكون السبب الذى يستوجب القتال وهو الإخراج من الديار وترك الأبناء ، لكن ماذا حدث عندما كتب الحق عليهم القتال؟

﴿ **تَوَلَّوْا إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ** (٢٤٦)﴾ (البقرة)

لقد هربت الكثرة من القتال ، وبقيت القلة المؤمنة ، وكانت مقدمات هؤلاء المتهربين من القتال هى قولهم ردًا على نبيهم عندما أخبرهم أن الله قد بعث لكم طالوت ملكًا ، فقالوا : ﴿**أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ ...** (٢٤٧)﴾ (البقرة)

كانت تلك أول ذبذبة فى استقبال الحكم ، فأوضح لهم الحق السر فى اصطفاء طالوت ، فهو قوى ، والحرب تحتاج إلى قوة ، وهو عالم والحرب تحتاج إلى تخطيط دقيق ، فقال سبحانه : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ ...** (٢٤٧)﴾ (البقرة)

وعندما جاءوا للقتال أراد الحق أن يُمحِّصهم ليختبر القوى من الضعيف ، فقال لهم طالوت : ﴿**إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ ...** (٢٤٩)﴾

(البقرة)

والتمحيص هنا ليعرف مَنْ منهم يقدر على نفسه ، وليختبر قوة التحمل

عند كل فـرد مقاتل ، فليس مـسمـوحًا بالشـرب من ذلك النهر إلا غـرفة يد ، فشربوا من النهـر إلا قليلاً منهم ، هكذا أراد الحق سبحـانه أن يُصفِّيهم تصـفية جديدة.

وعندما رأوا جيش جالوت قالوا : ﴿لا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ ... ﴿٢٤٩﴾﴾ (البقرة) ، لكن مـا الضرورة فى كل هذه التصفـيات ؟ لقد أراد الله ألاَّ يحمل الدفاع عن منهجـه إلا المؤمنون حقًا ، وهم من قالوا : ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ... ﴿٢٤٩﴾﴾ (البقرة)

ثم قال الحق سبحانه : ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ ... ﴿٢٥١﴾﴾ (البقرة)

فلماذا أعطانا ربنا هذه الصورة من التصفيات ؟ كي نفهم أن النفس البشرية حين تُواجَه بالحكم نظريًا يكـون لها موقف ، أما حين تُواجَـه به تطبيقيًـا فيكون لها موقف ولو بالكلام ، أما حين تواجه به فعليًا فيكون لها موقف ثالث.

وعلى كل حال ، فقليل من قليل من قليل هم الذين نصرهم الله.

إذن : فيريد سبحـانه أن يربى فى نفوسنا أنه جل وعلا هو الذى يهزم ، وهو الذي يغلب ، مصداقًا لقول الحق سبحانه : ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ ... ﴿١٤﴾﴾ (التوبة)

إذن : فالحـق سبـحانـه وتعالـى يوضح لنـا : لقـد قلـت لكـم انفروا ثُبَات أو انفـروا جمـيعًـا ، واعلموا أن النفس البـشرية هـى بعينهـا النفس البشـرية ، وستتعرض للذبذبة حين تواجه الحكم التطبيقى .

لذلك يقول الحق سبحانه هنا : ﴿وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾﴾ (النساء)

فساعة ندعو إنسانًا منكم للحرب قد يبطئ ويتخاذل ، مثلما قال فى آية أخرى : ﴿مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ ... (٣٨)﴾ (التوبة)

فالحق سبحانه يتعجب من تثاقل المؤمنين حين يُدْعَوْن إلى القتال ، لأن قوة الإيمان تدعو دائمًا إلى أن يكون هناك استعداد مستمر للقتال ، وهذا الاستعداد يخيف الكفار ويمنع عدوانهم واستهتارهم بالمؤمنين أولاً.

كما أنه ثانيًا يجعل المؤمنين قادرين على الرد والردع فى أى وقت ، ويعطى ثالثًا شيئًا من اليقين للمجتمع المؤمن عندما يرى أن هناك من يضرب على يد الكافرين إذا استهانوا بمجتمع الإيمان ، وحاولوا أن يستذلوا المؤمنين.

إذن : فَلِكَىْ يبقى المجتمع المؤمن قويًا آمنًا لابد أن يوجد استعداد دائم للقتال فى سبيل الله ورغبة فى الشهادة ، وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ... (٣٨)﴾ (التوبة)

فكأن الاستعداد المستمر للقتال فى سبيل الله أمر لابد أن يوجد بالفطرة وبالعقل ، فإذا ضعف هذا الاستعداد أو قلَّ صار هذا الأمر موطنًا للتعجب ، لأن المؤمنين يعرفون أن مجتمع الكفر يتربص بهم دائمًا ، وعليهم أن يكونوا على استعداد دائم مستمر للمواجهة ، ويستنكر الحق أن يتثاقل المؤمنون إذا دُعُوا للقتال فى سبيل الله ، أو أن يتكاسلوا .

والحق سبحانه يقول : ﴿وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ ... (٧٢)﴾ (النساء) ، فافهموا وخذوا هذه المناعة ضد من يعوق زحف المنهج قبل أن تبدأ المعركة ، حتى إذا وقعت المعركة نكون قد عرفنا قوتنا ، وأعددنا أنفسنا على أساس

المقاتلين الأشداء ، لا على من يتباطئون ويتثاقلون ، فهناك من يفرح ببقائه حيًا عندما يرى هزيمة المسلمين أو قتل بعضهم لأنه لم يكن معهم.

فيظهر الحق أمثال ذلك ويقول : ﴿فَإِنْ أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا (٧٢)﴾ (النساء) ، لقد تراخى وبقى ، وعندما تأتيهم المصيبة من قَتْل أو هزيمة يقول لنفسه : الحمد لله أننى لم أكن معهم.

إذن : تثاقله وتخلُّفه وتأخره عن الجهاد كان عن قصد وإصرار فى نفسه ، وهذه قمة التبجح فهو مخالف لربنا ، وعلى الرغم من ذلك يقول : أنعم الله علىّ . مثله كمثل الذي يسرق ، ويقول : ستر الله علىّ.

وهذه لهجة من لم يفهم المنهج الإيمانى ، فيقول : ﴿ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا (٧٢)﴾ (النساء) إنه لم يكن معهم ولم يكن شهيدًا ، ويعتبر هذا من النعمة ، ولذلك قال بعض العارفين : إن من قال ذلك دخل فى الشرك ، فالمصيبة فى نظره إما قتل وإما هزيمة ، ثم ماذا يكون موقف المتخاذل المتثاقل المتباطئ عند الغنيمة أو النصر؟

يقول الحق سبحانه : ﴿وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُن بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا (٧٣)﴾ (النساء)

إذن : فالعلة فى قوله : (ياليتنى كنت معهم) ليست رجوعًا عما كان فى نفسه أولاً ، بَل هو تحسُّر أن فاتته الغنيمة ، وجاء الحق سبحانه وتعالى هنا بجملة اعتراضية فى الآية تعطينا لقطة إيمانية ، فيقول : ﴿وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُن بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا (٧٣)﴾ (النساء)

والجملة الاعتـراضية هى قوله : كأن لم تكن بيـنكم وبينه مودة ، كأن المودة الإيمانية ليس لهـا ثمن عنده ، فلو كان لهـا أدنى تقدير لكان عليـه ألا يقول فى البدايـة : أنعم الله علىّ إذ لم أكن معـه شهـيدًا ، ولكان مع المقـاتلين المسلمين ، لكنه يرغب فى الفـوز والغنيـمة فـقط ، ويبتـعد عن المسلمين إذا مـا أصابتـهم الهزيمة أو استشهد عدد منهم.

وبذلك يكشف لنا الحـق موقف المتـخـاذلين ويوضح لنا : إياكم أن تتـأثروا بهؤلاء حين تنفرون ثبات أو حين تنفرون جمـيعًا ، واعلموا أن فيكم مُخذِّلين ، وفيكم مُـبطِّئين ، وفيكم متـثاقلين ، لا يهمهـم إلا أن يأخذوا حظًا من الغنائم ؛ ولذلك يحمدون الله أن هُزِمـتم ولم يكونوا معكم ، ويحبون الغنائـم ويتمنونها إن انتصرتم ولم يكونوا معكم.

إياكم أن تتـأثروا بهذا وقـد أعطيتم هذه المناعـة حـتى لا تفـاجأوا بموقفـهم منكم ، وتكونوا عـلى بصيـرة منهم ، والمـناعات مـا هى إلا تربيـة الجـسم ، إن كانت مناعة مادية ، أو تربية فى المعانى ، إنْ حدث مكروه فأنت تملك فكرة عنه لتبنى ردّ فِعْلك على أساس ذلك.

◻◻◻

فهرس الموضوعات

القسم الثانى
متطلبات الإيمان

تم المجلد الأول من كتاب « هذا ديننا »